مكتبة التاريخ الوسيط

العدوان الصليبي على مصر

هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور

الدكتور جوزيف نسيم يوسف
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٩٨٤

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
ت ٣٩٤٧٢ إسكندرية

العدوان الصليبي على مصر

مكتبة التاريخ الوسيط

العدوان الصليبى على مصر

هزيمة لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور

الدكتور جوزيف نسيم يوسف
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٩٨٤

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
ت ٣٩٤٧٢ إسكندرية

إنفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله
ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون

"قرآن كريم"

مقدمة الطبعة الأولى

فى السابع والعشرين من شهر نوفمبر من سنة ١٠٩٥ م إفتتح بابا روما أربان الثانى عصر التوسع الصليبى ضد العالم العربى الإسلامى . فى هذا اليوم دعا البابا أربان أهل الغرب الأوروبى إلى حمل الصليب والتوجه للاستيلاء على الأراضى المقدسة وتأسيس إمارات لهم هناك. وقد صاح الجميع بعد سماعهم خطاب البابا صيحتهم المشهورة « هذه هى إرادة الله » ، وحملوا شارة الصليب ، ومن هنا عرفت الحركة التى قاموا بها باسم « الحركة الصليبية » .

وكانت الظروف فى أخريات القرن الحادى عشر مواتية بالنسبة للغربيين . كان ميزان القوى فى صالحهم ، بينما كان المسلمون يعانون من التفكك والانقسام السياسى والمذهبى . وترتب على ذلك أن اتخذ الغازى الدخيل سياسة الهجوم ، بينما التزم المسلمون أصحاب الديار بسياسة الدفاع عن أنفسهم وعن كيانهم بوجه عام . ومن ثم حقق الصليبيون إنتصارات سريعة لم تكن تخطر لهم ببال. فأسسوا فى سنوات قلائل أربع إمارات فى الأرض المقدسة هى : إمارة الرها بأعالى الفرات ، وإمارة أنطاكية بأعالى الشام ، وإمارة طرابلس الشام على الساحل ، وإمارة بيت المقدس فى قلب فلسطين .

كان هذا هو ناقوس الخطر . فلم يلبث أن استشعر المسلمون الخطر الماثل المحدق بهم . وبدأت مع بدايات القرن الثانى عشر بوادر يقظة عربية إسلامية لمواجهة العدو المغتصب . وأثمرت تلك اليقظة عن ظهور شخصيات لامعة أدت دورها على مسرح الأحداث ، على رأسها عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود ، ثم البطل صلاح الدين الأيوبى الذى نجح فى تكتيل القوى فى

الشرق الأدنى الإسلامى فى وحدة واحدة متحـــدة ، أمكنها مواجـة الفرنج والتصدى لهم . واسترد صلاح الدين البيت المقدس ، وبدأت الضربات تنهال على باقى الإمارات الصليبية فى الشام . وهكذا اعتدل ميزان القوى بين العرب أصحاب الديار وبين الفرنج الدخلاء ، بحيث لم يعد بوسع الغزاة معاودة الهجوم أو حتى التمتع بثمار النصر السريع الذى أحرزوه فى بداية عدوانهم .

وأصبحت القاهرة ، منذ ذلك الحين ، هى القلب النابض بالحياة لهذه الدولة العربية الفتية . أصبحت معقلها المنيع ، وحصنها ومـــلاذها ، ومركز إمدادها بالمال والرجال والأقوات والسلاح . منها تنبعث صيحة الجهاد ، ومنها تخرج الجيوش للقاء الغزاة وتأديبهم . واستتبع ذلك رجحان كفة العـــرب ، وأخذ مركز الثقل يميل بقوة إلى جانبهم . وأدرك الغرب هذه الحقيقة وما تعنيه . فأخذ منذ بدايات القرن الثالث عشر يوجه الحملات الكبيرة متوالية هوجاء ضد مصر بقصد القضاء عليها ليسهل عليه تحقيق باقى الأطماع الصليبية . وكان من أهمها الحملة الصليبية الخامسة بقيادة جان دى برين صاحب عكا ، والحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، ثم حملة بطرس الأول لوسنيان ملك قبرص اللاتينى على الاسكندرية . وكان نصيب هذه الحملات الإخفاق والخذلان . إذ تبددت جيوش الغرب ، وامتهنت كرامته على ضفاف النيل وشواطىء الاسكندرية . ولم يعد الغرب هو الأقوى ، كما لم يعد بقدرته المبادأة بالهجوم أو القيام بعدوان جديد بعد أن أفلت زمام المبادرة من بين يديه . وكان عليه مواجهة مصير تعس يعلم سلفا عواقبه . إذ انطلقت القوى العربية الكامنة من عقالها فى العهدين الأيوبى والمملوكى لتلقن الفرنج الغزاة درسا قاسيا ، معبرة بذلك عن إرادة شعب لا تلين .

ولقد بذل العرب خلال هذا الجهاد المقدس أرواحهم فى سبيل معركة النصر .

فكل مقاتل فى ساحة الوغى ضد الصليبيين مجاهد ، وكل من يموت فيها شهيد . قال تعالى « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات ، بل أحياء ولكن لا تشعرون » . فالجهاد فى سبيل الوطن جهاد فى سبيل الله ، والموت فداء للوطن استشهاد فى سبيل الله . ولقد ضرب الشعب العربى فى مصر إبان حملة لويس التاسع على البلاد فى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى، أروع الأمثلة فى البطولة والفداء والتضحية والاستشهاد . وحقق بجهاده ودمائه النصر الكريم ، كما فرض الذل والخذلان على الأعداء المعتدين .

وبعد ، إذا كنا قد حققنا فى الماضى النصر على الصليبيين ، ووضعنا - بعزمنا وإصرارنا وجهادنا - نهاية لنصر التوسع الصليبى ضد العروبة والاسلام ، فإنا لقادرون اليوم بإذن الله تعالى على وضع حد للتوسع الصهيونى الاستعمارى ضد عالمنا العربى ، وما يوم النصر ببعيد « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم »

جوزيف نسيم يوسف

الاسكندرية فى أول يناير ١٩٦٩

مقدمة الطبعة الثانية

بين يدي القارىء الكريم الطبعة الثانية من المجلد الثاني في سلسلة « مكتبة الحروب الصليبية » التي تصدرها **دار النهضة العربية** ببيروت بلبنان. وعنوان هذا المجلد « العدوان الصليبي على مصر : هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور ». وهو يتناول حلقة أخرى من حلقات الصراع الصليبي الاسلامي، عندما قام الملك الفرنسي لويس التاسع بحملته على مصر في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي (أواسط القرن السابع الهجري)، والتي كانت تستهدف الاستيلاء عليها لتحقيق باقي الأغراض الصليبية في منطقة الشرق الأوسط، وقد انتهت بهزيمة مريرة على ضفاف النيل.

وسوف يتناول المجلد الثالث من المجموعة، حلقة جديدة في سلسلة هذا الصراع المرير الذي كان المشرق الاسلامي مسرحاً له.

المؤلف

العدوان الصليبي على مصر

هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور

١٢٤٨ - ١٢٥٠ م / ٦٤٦ - ٦٤٨ هـ



تصـــــدير

عرض وتحليل لمصادر الكتاب

المصادر الأوروبية المعاصرة ـ المصادر العربيـــة المعاصرة ـ المراجع الثانوية العربيـة ـ المراجع الثانوية الأوروبية ـ بحوث انفردت بدراسة الحملة.

موضوع هذا البحث حملة القديس لويس التاسع الصليبية على مصر فى منتصف القرن الثالث عشر للميلاد ، التى لاقت شر أنواع الهزائم على ضفاف النيل منذ سبعة قرون خلت . وتمثل هذه الحملة حلقة فى سلسلة الصراع العتيق بين الشرق والغرب ، الذى هو أقدم من تاريخ الحركة الصليبية نفسها ، والذى يفيض به تاريخ الإنسانية فى مختلف عصوره[1] .

ولا شك أن أى موضوع يتناول بالبحث العلاقات بين الشرق والغرب يتطلب من الباحث الرجوع إلى الأصول الشرقية والغربية على حد السواء . فيناقش مختلف الروايات والأسانيد والمنابع المتضاربة ، ويقارنها بعضها ببعض ، سعيا وراء الحقيقة التاريخية والكشف عن أصدق الوقائع وأسلم النتائج التى يتمخض عنها النقد التاريخى السديد .

وقد توخيت هذا النهج فى بحثى ، فرجعت إلى مصادر الطرفين المتنازعين ، ومن بينها مصادر المعاصرين من شهود العين وغيرهم ، والمتأخرين ممن نقلوا عن أصول مفقودة وأخرى لم نفتقدها وكان لزاما علينا أن نتعرض لها بالفحص والتحليل والتحقيق لشتى الأغراض التى شرحناها فى مواضعها . وقد هدانا البحث إلى جعل المحل الأول فى نقاشنا للمصادر الأوروبية المعاصرة ثم المصادر العربية بعدها . والسبب الرئيسى لهذا الوضع هو أن أكثر من كتبوا عن الحملة من مؤرخى أوروبا شاركوا مشاركة فعلية فى الحملة وشهدوا حوادثها من أولها إلى آخرها مما أكسب رواياتهم طابعا من الطراز الأول . ومع ذلك فإن المصادر

---

(١) حول الصراع الطويل بين الشرق والغرب ومكان الحركة الصليبية منه ، أنظر : جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى ـ ط . ثانية (الإسكندرية ١٩٦٧) ص ٣٧ ـ ٥١ .

العربية لها مكانتها الفائقة فى تقويم بعض تلك الروايات الغربية التى اندفع فيها أصحابها أحيانا بدافع العصبية والقومية .

وفى اعتقادى أن كتاب [١] جوانفيل Joinville ـ حاكم شامبانيا ـ عن «تاريخ القديس لويس» يعتبر من أهم المصادر الأوروبية المعاصرة عن الحملة الصليبية على مصر، إن لم يكن أهمها على الإطلاق . فقد كان جوانفيل أحد فرسان هـذه الحملة وشاهد عيان لها، كما كان موضع ثقة الملك الفرنسى حتى أنه كثيرا ما كان يستشيره فى شئون الحملة العامة وفى أموره الخاصة أيضا . [٢] ويعتبر جوانفيل ثقة فى تاريخ هذه الفترة [٣]، فقد عرف بالدقة والصدق فيما يكتب، لا سيما فى وصف المعارك التى اشترك فيها بنفسه [٤]، حتى قال فيه أحد كتاب القرن

---

(١) ولد جوانفيل حوالى ١٢٢٤م وتوفى حوالى ١٣١٨م عن ٩٥ سنة تقريبا. ولكتابه هذا قصة طريفة، فقد كان جوانفيل فى أول الأمر يروى ذكرياته عن الحملة ولا يكتبها الى أن توسلت اليه جين دى نافار Jeanne de Navarre ملكة شامبانيا وزجة فيليب الرابع الذى يعرف بفيليب الجميل أن يسجل هذه الأقاصيص فى كتاب عن أقوال القديس لويس التاسع وأفعاله تخليداً لذكراه — ولكن الملكة جين ماتت (٢ أبريل ١٣٠٥م) أثناء كتابته لمذكراته، فأهدى جـوانفيل كتابه بعد فراغه منه الى ابنها لويس العاشر فى ١٣٠٩م ، وهو ملك نافار وكونت شامبانيا والذى أصبح فيما بعد ملكا على فرنسا بوفاة أبيه فيليب الجميل فى ١٣١٤م. أنظر: جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع فى الشرق الأوسط (القاهرة ١٩٥٩) ص٣ ح١ ؛ راجع أيضا : Joinville (ed. Wailly), 2 — 4 , 4 & n. 2 — 1 ; Joinville (Johnes' trans.), 343—7; G. Paris, Med. Fr. Lit., 105.

(٢) Cf. Paris, op. cit., 104, 106; Calmette, Le Monde Féodal, 364 ; Joinville (Johnes' trans.), 344, 349.

(٣) Cf. Davis, Invasion of Egypt, 5.

(٤) Joinville (ed. Wailly), 86-8, 94, 108, 120-4, 130-6, 140-4, 164, 170-80 ; cf. Paris, op. cit., 105.

التاسع عشر الميلادى انه لم يكن له أى مقصد سوى أن يسجل للأجيال التالية الحقيقة البحتة التى لا يتطرق اليها أدنى شك [1] . ولعل أبلغ دليل على ذلك أنه عندما كان يتعرض لواقعة لم يشترك فيها بنفسه ، فإنه كان يحرص على تقييد اسم الشخص الذى رواها عنه [2] . ومما هو جدير بالملاحظة أن جوانفيل وإن يكن قد جمع مذكراته لتكون سفرا عن حياة القديس لويس التاسع وأعماله، إلا أن قوة شخصيته وصفاء أسلوبه وطريقة عرضه لأحداث هذا الزمان ، أظهر شخصه حتى على شخصية مليكه فى كثير من المواقف [3] . ومهما يكن من أمر فإن الكتاب فى جملته عبارة عن مرآة انعكست عليها صور رائعة صادقة من ضروب الفروسية الوسيطة ومآسى الهزيمة التى فرضها القدر على الفرنج فى مصر والشام [4] .

ويلى كتاب جوانفيل فى الأهمية تاريخ روتلان Rothelin ، وقد اشترك هو الآخر فى الحملة على مصر [5] . وتاريخ روتلان عبارة عن تتمة لتاريخ وليم الصورى Guillaume de Tyr فيما بين سنة ١٢٢٩ وسنة ١٢٦١ م . ويتناول

---

(١) أنظر تعليق "Le Baron de la Bastie" على كتاب جوانفيل فى :
Joinville (Johnes' trans.), 349.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 120, 130, 168–70, 184, 212–4, 220.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 64, 68—72, 86, 94, 108, 120–4, 130–2, 140, 164, 170—80, 206 - 10; cf. Paris, op. cit., 105.

(٤) ظهرت فى السوق العربية أخيرا ترجمة عربية دقيقة لمؤلف جوانفيل وهى للزميل الدكتور حسن حبشى ، وقد ذيلها بالهوامش المفيدة ومهد لها بمقدمة علمية قيمة . أنظر جوانفيل : القديس لويس : حياته وحملاته على مصر والشام — ترجمة وتعليق الدكتور حسن حبشى — القاهرة ١٩٦٨ .

(٥) Cf. Michaud, Bib. des Crois. (Paris, 1829), I, 384.

روتلان الكلام على الجملة بشىء من الإفاضة كزميله جوانفيل . بل نراه فى بعض الأحيان يتعرض لوقائع لم يذكرها جوانفيل أصلا . مثال ذلك ما انفرد بذكره من أن الملك لويس التاسع بعث عشرة فرسان من قبله لمنع شقيقه روبرت كونت أرتوا من الاندفاع داخل المنصورة بعد عبوره بحر أشموم . كما أن القارىء لكل من تاريخ روتلان ومذكرات جوانفيل يلاحظ فى غير عسر أن أولهما أمدنا بمعلومات أكثر تفصيلا فى هذا الموضوع . فرواية روتلان عن نزول الصليبيين إلى البر الغربى لدمياط واستيلائهم على المدينة أكثر إفاضة من رواية جوانفيل : كما أن وصفه للمصاعب والأخطار التى أحاقت بالفرنج فى سبيل إقامة جسر فوق بحر أشموم للعبور عليه صوب الجنوب أكثر وضوحاً عما جاء فى كتاب زميله . غير أن روتلان فى نفس الوقت ينحرف أحيانا عن التفصيل الى الايجاز الذى يبلغ حد الغموض ، كما يتضح من سرده للحوادث التى وقعت قبل تحرك الفرنج من دمياط جنوبا صوب العاصمة، ووصفه معارك يوم الثلاثاء (٨ فبراير سنة ١٢٥٠ م) ، وتراجع الفرنج من المنصورة الى قاعدتهم فى دمياط ، والكارثة التى منوا بها فى فارسكور ، وقصة أسر الملك وإخلاء سبيله ثم رحيله الى عكا — فى كل هذه الموضوعات وغيرها مما سنبحثه فى صلب الكتاب ترجح كفة جوانفيل على كفة روتلان . بيد أنه لا شك فى أن كلاً من المؤلفين يكمل الآخر وكلاهما مصدر لا غنى عنه . وقد فطن المؤرخ الفرنسى القديم جوزيف فرانسوا ميشو (١٧٦٧ - ١٨٣٩ م) ، Joseph François Michaud لهذا الوضع حيث يقول أنه لولا مذكرات جوانفيل لأصبح تاريخ روتلان المرجع الأول لدراسة صليبية لويس التاسع على مصر [١] .

---

(١) Michaud, Bib. des crois., (Paris, 1829), I, 386. — راجع أيضا المقارنة التى عقدها ميشو بين كتابى روتلان وجوانفيل (نفس المرجع ص ٣٨٤ — ٣٨٨) .

ونذكر من بين أصحاب الحوليات القدامى ممن اعتمدنا عليهم: الراهب الانجليزى متى الباريزى (١) Matt. Paris الذى يعتبر من كبار كتاب القرن الثالث عشر الميلادى فى أوروبا . وقد عاصر أحداث الحملة غير أنه لم يشترك فيها ؛ ووضع تاريخه عن انجلترا Historia Anglorum بناء على طلب هنرى الثالث ملك انجلترا نفسه . ويبدأ التاريخ من سنة ١٢٣٥ م ويستمر الى سنة ١٢٥٩ م وهى السنة التى مات فيها المؤلف ، وقد جاء بعده من أكمل هذا التاريخ الى سنة ١٢٧٣ م . (٢) وقد أحسن متى البارىزى معالجة أحـــوال دول أوروبا وظروفها إبان الحملة ، وخاصة حالة كل من انجلترا وفرنســا والكفاح بين الامبراطورية والبابوية ، مما يجعل لمؤلفه فى هذه الناحية قيمة تاريخية خاصة . أما تأريخه لحملة لويس التاسع على مصر فيجب قبوله بشىء من التحفظ ، إذ أنه لم يكن شاهد عيان لأحداثها ، حسبما يتضح مما ذكره فى كتابه تحت حوادث عامى ١٢٤٩ و ١٢٥٠ م . وكان يدون ما يصل اليه دون تحقق من صحته أو زيفه ، حتى لقد اتهمه الناقد الفرنسى الحديث هنرى بوردو Henri Bordeaux عضو الاكاديمية الفرنسية بأن كتابه ملىء بالمغالطات والاخطاء والاكاذيب (٣) . ومع ما قد يكون فى قول بوردو من مبالغة الا أنه لا يخلو من بعض الحق .

ومن المصادر الأخرى التى تناولت الكلام على الحملة كتاب « فضائل القديس لويس وأعماله » لغليوم دى نانجى (٤) Guillaume de Nangis الذى أهداه الى الملك الفرنسى فيليب الجميل (١٢٨٥ - ١٣١٤ م) . فقد أفدنا منه فيما يتعلق

(١) فيما يتعلق بترجمة متى الباريزى وسيرته راجع: Matt. Paris, II, 410 ; Michaud, Hist . des Crois. (Paris, 1822), VI, 533.

(٢) Cf. Michaud, op. cit. , 533—4.

(٣) Cf. Bordeaux, St. Louis, 244.

(٤) لا نعرف عنه إلا القليل، كما أن المؤرخين المعاصرين له لم يذكروا عنه شيئا ، وإن =

بمقدمات الحملة ومدة إقامتها بقبرص قبل الرحيل شطر مصر . لقد كان هدف دى نانجى الاساسى عرض الحملتين الصليبيتين اللتين قام بهما لويس ، لكننا نأخذ عليه ـ كغيره من مؤرخى الحملة الغربيين ـ اهتمامه بتصوير تقوى الملك ومآثره دون العناية بدقائق الحملة وتفاصيلها .

يضاف لتلك المصادر الغربية المعاصرة التى أجملناها عدد من الرسائل الصغيرة الحجم كتبها بعض الصليبيين الذين اشتركوا فى الحملة ، وأغلبها يدور حول استيلاء الفرنج على دمياط . نخص بالذكر من بينها خطاب روبرت كونت ارتوا الى والدته الملكة بلانش صاحبة قشتاله ، وخطاب جان دى بومون Jean de Beaumont الى صديقه جوفروا دى لا شابل Geoffroi de la Chapelle ، وخطاب جاى دى ميلان Guy de Melun الى أحد طلاب العلم بباريس ، وخطاب جان بيير سارزان Jean Pierre Sarrasin الى نيقولا أرود Nicolas Arrode أحد مخارفه بالعاصمة الفرنسية . وكلها غزيرة المادة فى هذه الناحية . كذلك بعث القديس لويس خطابا مسهبا باللاتينية الى الشعب الفرنسى بعد خلاصه من الأسر ورحيله وفلول قواته الى عكا يتناول فيه تاريخ الحملة ، وما لاقاه ورجاله من هزائم وضائقات .(١)

على أن الاصول الغربية لا تقتصر على التآليف والمكاتبات فحسب ، فهناك أيضا التراث الشعرى الذى لا يقل عنها قيمة من الناحية التاريخية فضلا عن أهميته الأدبية . من ذلك قصيدة طويلة لمؤلف مجهول باللغة الانجلونورماندية حول

= كان قد ذكر هو نفسه فى كتابه أنه كان راهبا فى دير القديس دنيس بفرنسا . وقد اعتمد فى مؤلفه على كتابى جوفروا دى بالييه Geoffroi de Beaulieu ، وجيلون دى ريمز Gilon de Rheims وعلى غيرهما من المؤرخين . أنظر : Michaud, Crois., VI, 198—9, 202.

(١) أنظر الترجمة العربية للخطاب فى الملحق الثالث بآخر الكتاب .

موقعة المنصورة الاولى (٨ فبراير سنة ١٢٥٠ م) . والغالب كما يتضح من سياقها أن ناظمها اشترك فى هذه الموقعة التى قتل فيها كل من كونت سالسبورى وكونت ارتوا وفرسانهما. وتعتبر تلك القصيدة ذات شأن فى هذا الموضوع(١).

وهناك إلى ذلك كله فئة من الكتاب الغربيين الذين عاصروا أحداث الحملة غير أنهم لم يمدونا بمعلومات كافية عنها. فجوفروا دى بياليه Geoffroi de Beaulieu الذى كان القديس لويس يعترف بين يديه والذى رافقه فى حملتيه على مصر وتونس ، وغليوم دى شارتر Guill. de Chartres كاهن الملك الفرنسى، وغليوم دى سانت باثوس Guill. de St.-Pathus الذى كانت الملكة مرجريت تعترف بين يديه - هؤلاء الثلاثة انصب اهتمامهم فيما كتبوه على التنويه بتقوى لويس التاسع والإشادة بفضائله ، أما ماأوردوه عن الحملة فلا يتعدى بضع صفحات(٢). بيد أن ما كتبه هؤلاء على الرغم من قلته فإنه لا يخلو من القيمة التاريخية .

هذا فيما يتعلق بالأصول الأوروبية المعاصرة ، أما المصادر العربية فأهمها بلا شك كتاب « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » لابن واصل (٣)

---

(١) ذكر فرنسيس ميشيل الذى نشر هذه القصيدة وترجمها الى الفرنسية أنها كتبت باللغة الفرنسية القديمة التى كانت سائدة فى انجلترا فى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى . أنظر :

F. Michel (ed. & tr.), Poéme Anglo — Normand sur la Bataille de Mansourah in "Hist. et chronique du trés chrétien roi St. Louis.", 327 - 58.

(٢) Cf. Michaud, Crois., VI, 208-9, 211-2.

(٣) هو جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل قاضى حماة . ولد عام ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م. قدم القاهرة أكثر من مرة ، فكان موجوداً بها خلال عامى ٦٤٧ — ٦٤٨ هـ / ١٢٤٩ — ١٢٥٠ م . ثم استدعى اليها ثانية عام ٦٥٩ هـ/١٢٦١م، وبعثه بيبرس فى مهمة إلى صقلية عند الملك منفرد Manfred . ثم جاء القاهرة مرة أخرى سنة ٦٩٠ هـ/١٢٦٨م فى صحبة الملك المظفر . ومات بحماة فى ٦٩٧هـ/١٢٩٨م عن ٩٣ =

(ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨ م) . وصاحبه كان مقيما بمصر إبان تلك الفترة من الزمن(١) . ويعتبر حجة لا يستهان به فى تاريخ العصر الأخير من دولة بنى أيوب ، حيث اتصل بالبلاط فى عهد الصالح أيوب وابنه توران شاه وأرملته شجر الدر . والمتصفح لهذا الكتاب يلاحظ أن مؤلفه كان من ألزم الناس إلى الأمير حسام الدين محمد بن أبى على نائب السلطنة بالقاهرة آنذاك ، حتى أن جانبا كبيراً من أخبار تلك الفترة وخاصة ما يتعلق منها بالحملة ، رواه نقلا عنه(٢) . ولو أنه كان أحياناً يتعرض للوقائع دون أن يشير إلى من رواها له (٣). والواقع أن «مفرج الكروب» يتمم ما جاء فى كتاب جوانفيل والأصول الغربية الأخرى . فقد أفادنا فى تبيان أحوال مصر والشام إبان تلك الحقبة ، كما كان لما أورده حول استيلاء الفرنج على دمياط الفضل فى إماطة اللثام عن الدوافع الخفية لفرار

= سنة ٠ وكان ابن واصل ملماً بالأخبار وأيام الناس،له معرفة بالتاريخ ، ومن مصنفاته كتاب « مفرج الكروب » ، و « التاريخ الصالحى » وهو كتاب فى التاريخ العام لم ينشر بعد . راجع فى ذلك الصفدى : نكت الهميان فى نكت العميان ص ٢٥٠–٢٥٢ ؛ السيوطى : بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ص ٤٤ . أنظر أيضا جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع فى الشرق الأوسط – ص ١٤–١٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب — نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال – ج ١ (القاهرة ١٩٥٣) ص٤–٨.

(١) ذكر ابن واصل فى أكثر من مناسبة فى مخطوطه أنه كان مقيما بالقاهرة خلال الحملة الصليبية على مصر . أنظر مفرج الكروب ج ٢ لوحات ٣٥٦ ب و ٣٦٢ ب — ٣٦٣ ا و٣٦٦ ب و ٣٦٧ ا و ٣٦٧ ب و ٣٦٨ ب و ٣٧٢ ا.

(٢) أنظر مفرج الكروب ج ٢ لوحات ٣٥٤ ب — ٣٥٥ ا و ٣٥٩ ب و ٣٦١ ا و٣٦٣ ا و ٣٦٨ ا و ٣٧٣ ا .

(٣) أنظر مفرج الكروب ج ٣ لوحات ٣٥٦ ا و ٣٥٦ ب و ٣٦١ ب و ٣٦٤ ا و٣٦٥ ب و ٣٧١ ا .

العساكر الإسلامية من هذه المدينة مما أدى إلى وقوعها بسهولة فى أيدى الغزاة ، كما أبرز الدور الذى قام به الشعب المصرى فى إحراز الغلبة على الفرنج فى وقعة المنصورة الأولى وشتى مراحل الحملة مما لم يتعرض له كتاب الفرنج . وغير ذلك فقد أمدنا ابن واصل بمعلومات نفيسة فيما يتعلق بالمعارك البحرية التى وقعت بين المسلمين والصليبيين . على أنه لم يتناول الكلام تفاصيل الحملة كجوانفيل وروتلان، فلم يتعرض مثلا لموقعة الجمعة الشهيرة (١١ فبراير سنة ١٢٥٠ م) ، والمعاهدة التى أبرمت بين المعظم ولويس بكلمة واحدة . ومعلوماتنا عنها مستقاة من الأصول الغربية. ولا يفوتنا بعد ذلك أن نذكر أنه أخطأ أكثر من مرة فى تحديد التواريخ والأيام الخاصة بأحداث هذه الفترة ، وقد ناقشنا ذلك كله فى حواشى الملحق الخاص بتواريخ الحملة(١) .

هذا ؛ ويجب ألا ننسى ما كتبه أربعة من المؤرخين الشرقيين المعاصرين للحملة وهم ابن الجوزى وأبو شامة وابن خلكان وأبو الفرج الملطى .

أما ابن الجوزى (ت ٦٥٤ هـ/١٢٥٦ م) فقد كان بدمشق فى ذاك الحين(٢). ومما يؤسف له أنه مر سريعـاً على الحملة فى كتابه « مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان » لكنه وجه عناية خاصة للأحداث التى وقعت بدمشق آنذاك مما يتصل بموضوع البحث . فقد أورد مثلا نص الكتاب الذى بعثه المعظم إلى ابن يغمور نائبه بدمشق يبشره فيه بالنصر على الفرنج ، والذى لم يشر اليه ابن واصل فى مؤلفه . ولكتاب ابن الجوزى أهمية خاصة ، إذ أنه ينقـل عن شاهد عيان

---

(١) أنظر جدول تواريخ الحملة فى الملحق الرابع من هذا الكتاب .

(٢) أنظر ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ ٨ لوحة ٥١٥ . وكذلك :
Ency. of Islam, Art. Ibn al-Djauzi.

للحملة هو سعد بن مسعود بن تاج الدين شيخ الشيوخ(١) ، وهو ابن عم الأمير فخر الدين الذى استشهد فى واقعة المنصورة الاولى ، وله تاريخ مفقود .

كذلك كان أبو شامة (ت ٦٦٥ هـ/١٢٦٧ م) بدمشق فى فترة الحملة حيث اعتكف على الدراسة والاشتغال بالعلم والتأليف(٢). وهو كسابقه لم يتناول وقائع الحملة بالتفصيل ، والشىء الجديد فى ذيله على كتاب الروضتين الذى نشره السيد عزت العطار تحت اسم « تراجم رجال القرنين السادس والسابع » ، أنه يشير إلى فحوى خطاب ـ اطلع عليه ـ ورد من مصر إلى بعض رفاقه بدمشق حول استيلاء الفرنج على دمياط . كما أنه ينقل رواية مقتل المعظم عن أناس شاهدوا ذلك ، يذكر من بينهم السيف بن الشهاب جلدك والى القاهرة وقتذاك .(٣) كذلك حضر أبو شامة الحفل الذى أقامه ابن يغمور نائب السلطنة بدمشق ابتهاجا بوصول كتاب توران شاه ومعه غفارة لويس التاسع ، مما جعل لروايته ـ عن هذه المناسبة ـ أهمية تاريخية خاصة .(٤)

أما ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) فتنحصر قيمة روايته عن الحملة فى فى مؤلفه « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان »(٥) فيما جاء عرضا فى ثنايا

---

(١) هو سعد الدين بن مسعود بن تاج الدين عبد الله بن عمر بن محمد بن حمويه شيخ الشيوخ ، كما فى مرآة الزمان جـ ٨ لوحة ٥٢٠ ، والاحكام الملوكية لابن منكلى لوحة ٦٢ ، وشذرات الذهب لابن العماد جـ ٥ ص ٢٣٩ .

(٢) أنظر ترجمة ابن أبى شامة فى ذيل كتاب الروضتين فى « مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية ـ المؤرخون الشرقيون » جـ ٥ ص ٢٠٧ . وكذلك تراجم رجال القرنين ص ١٨٣ و١٨٤ .

(٣) راجع تراجم رجال القرنين ص ١٨٥ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ١٨٤ .

(٥) بدأ ابن خلكان كتابة مؤلفه هذا بالقاهرة عام ٦٥٤هـ/١٢٥٦م، ثم اضطر =

تراجمه لبعض المعاصرين من رجال ذاك الزمان ، أمثال الشاعر ابن مطروح والكاتب بهاء الدين زهير . ولسوء الحظ أنه لم يترجم للصالح أيوب أو المعظم توران شاه أو شجر الدر الذين تربعوا على عرش مصر فى هذه الفترة الهامة من تاريخها ، فلم يتح لنا التعرف على آرائه واتجاهاته فى دراسة هذه الشخصيات(١).

ويعتبر أبو الفرج الملطى (٢) (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) من مؤرخى العرب المعاصرين للحملة وآخر القدماء من مؤلفى السريان . وقد ألف كتابا بالسريانية فى التاريخ العام يبحث فى الجزء الأول منه التاريخ الاسلامى منذ ظهور الاسلام إلى أيامه . وأعد قبل وفاته ترجمة عربية موجزه لهذا الجزء وسماه «تاريخ مختصر الدول» ، وهو الذى اعتمدنا عليه فى هذا البحث . ولم يأت فيه بجديد فيما يتعلق بالحملة ، سوى ما انفرد بذكره حول اتفاق المعظم مع الفرنج فى سبيل ردهم دمياط ومغادرتهم البلاد ، مما يلقى ضوءً على البواعث الخفية لمقتل توران شاه . على أنه وقع فى بعض الأغلاط ، منها ماذكره من أن الفرنج عندما غادروا فرنسا إلى الشرق رسوا بعكا (٣) . والصواب أنهم رسوا بقبرص ، ولعل الأمر

= إلى الانقطاع عن المضى فيه أثناء ولايته للقضاء فى دمشق، وأتمه فى عام ٦٧٢هـ/١٢٧٤م. وكتابه يعتبر من أهم المصادر فى التراجم والتاريخ الأدبى . أنظر مادة ابن خلكان فى دائرة المعارف الاسلامية .

(١) رجعت إلى كتاب وفيات الاعيان (طبعة بولاق ١٢٩٩هـ) وترجمة البارون دى سلان له Slane, Ibn Khallikan's Biographical Dictionary. 4 vols. Paris, 1842-71 . ، فلم أعثر فيها على تراجم خاصة بهذه الشخصيات الثلاث .

(٢) انظر ترجمة أبو الفرج فى كتاب لويس شيخو : نبذة فى ترجمة وتأليف العلامة غريغوريوس أبى الفرج ص ٤ — ٢٠ و ٢٨ . وكذلك مادة ابو الفرج فى دائرة المعارف الاسلامية .

(٣) أبو الفرج : تاريخ مختصر الدول (طبعة بيروت ١٨٩٠م) ص٥٢ ؛ و (طبعة =

قد التبس عليه بين هذه الحملة وحملة جان دى برين السابقة على مصر. وكذلك ما أورده من أن الأمير عز الدين ايبك التركمانى هو الذى قام بتدبير أمر المملكة بعد موت الصالح أيوب (١)، والحقيقة حسبما أجمعت عليه باقى المراجع العربية، أن الأمير فخر الدين هو الذى قام بتصريف شئونها بمساعدة شجر الدر أرملة الصالح نجم الدين، ولم يلمع اسم ايبك إلا بعد مقتل المعظم فأصبح أتابك العسكر أولا ثم ملكا بعد ذلك، وبه تبدأ دولة المماليك البحرية فى مصر.

بعد هؤلاء تأتى طائفة من الأدباء والشعراء فى مصر والشام قرضوا القريض وكتبوا فى الحملة، ومنهم بهاء الدين زهير (ت ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) كاتب الإنشاء بالديار المصرية فى عهد الصالح أيوب. وله رسالة فريدة فى الرد على كتاب لويس التاسع إلى نجم الدين قبل نزول الفرنج إلى جيزة دمياط. (٢) وكتاب آخر يرجح ابن واصل فى «مفرج الكروب» أنه من إنشائه، أرسله الأمير فخر الدين من المنصورة إلى الشعب بمصر والقاهرة حاثا إياهم على الجهاد ضد الغزاة. ومما يؤسف له أن ابن واصل وسائر المؤرخين العرب لم يوردوا نص هذا الكتاب مكتفين بذكر مضمونه. وهناك أيضا شاعر الحملة جمال الدين ابن مطروح (ت ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م) الذى سجل هزيمة الفرنج وعلى رأسهم قائدهم لويس التاسع فى قصيدته الخالدة التى مطلعها:

قل للفرنسيس اذا جئته مقال حق صادر عن نصيح

وقد ظل الناس يترنمون بتلك القصيدة ويتناقلونها جيلا إثر جيل بعد انتهاء

= اكسفورد ١٦٦٣م) ص٤٩٣.

(١) تاريخ مختصر الدول (طبعة بيروت) ص ٤٥٣ و (طبعة اكسفورد ص ٤٩٤).

(٢) راجع نص هذا الكتاب فى الملحق الاول بآخر الكتاب.

الحملة على مصر . كما ترك لنا الشاعر الدمشقى المعاصر للحملة نجم الدين محمد بن اسرائيل (٦٠٣ - ٦٧٧هـ) بضعة أبيات نظمها بمناسبة ورود كتاب المعظم إلى ابن يغمور نائبه بدمشق ، وهى تعبر أصدق تعبيرعن ابتهاج أهل دمشق بانتصار المصريين على الفرنج .

والظاهر أن تلك الحمله تركت أثرا عميقا فى نفوس النـــاس حتى أن كتاب المسلمين والمسيحيين على السواء أخذوا يرددون صدى حوادثها جيلا بعد جيل. وقد استعرضنا كتاباتهم وأفدنا منهما بعض الإفادة فى استجلاء عدد من شائك المسائل فى تاريخ تلك الحملة .

ومن بين كتب المسلمين التى أفدنا منها فى القرن الثامن الهجرى فيما كتبناه عن الحملة : ذيل مرآة الزمان لليونينى (ت ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦م) ، والتبر المسبوك لأبى الفداء (ت ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١ م) ، وكنز الدرر ودرر التيجان لابن أيبك (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) ، ونهاية الارب للنويرى[1] (ت ٧٣٢ هـ/١٣٣٢م) ، ومسالك الابصار للعمرى (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) ، وعيون التواريخ لابن شاكر الكتبى (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣م) ، ونثر الجمان للفيومى (ت ٧٧٠ هـ / ١٣٦٨م) . وجميع هذه الكتب لم تنشر بعد. ومن بين مانشرمن مراجع هذا العهد: دول الاسلام للذهبى (ت ٧٤٨ هـ/١٣٦٨م) ، والمختصر لأبى الفداء ، وتتمة المختصر لابن الوردى (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م) ، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ، ومرآة الجنان لليافعى (ت ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ - ١٣٦٧م) .

ومن أهم كتب القرن التاسع الهجرى التى تعرضت للكلام عن الحملة : العبر لابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦م) ، ومخطوطتا نزهة الانام والجوهر الثمين لابن دقماق (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٧ م) ، وكتابا السلوك والخطط للمقريزى

---

(١) الجزء الخاص بأحداث الحملة لم ينشر بعد .

(ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢م) ، ومخطوط عقد الجمان للعينى (ت ٨٥٥ هـ/ ١٤٥١م) ، وكتابا المنهل الصافى والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن (ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩ م) . ومن المؤلفات الآخرى التى كتبت فى العصور التالية ينبغى أن نذكر حسن المحاضرة وتاريخ الخلفاء للسيوطى (ت ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م) ، والنزهة الزهية لابن أبى السرور (ت ١٠٢٨ هـ/ ١٦١٩ م) ، وشذرات الذهب لابن العماد (ت ١٠٨٩ هـ/ ١٦٧٩ م) ، وعيون أخبار الأعيان للبغدادى (ت ١١٠٢ هـ/ ١٦٩٠ م) ، وتحفة الناظرين للشرقاوى (ت ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢م) . فقد أمدتنا هى الاخرى بمعلومات طيبة عن الحملة .

واذا كان هؤلاء المؤرخون ينقلون عادة عن السابقين ، فقد ترك لنا بعضهم معلومات قيمة عن حملة لويس على مصر لم ترد فى الاصول المعاصرة ، وأغلب الظن أنهم نقلوها عن أصول مفقودة من ذلك أن الذهبى فى «تاريخ الاسلام» ، والكتبى فى «فوات الوفيات» ، وأبا المحاسن فى «النجوم الزاهرة» ، والعينى فى «عقد الجمان» ، وابن العماد صاحب «شذرات الذهب» ، وابن منكلى صاحب «الاحكام المملوكية» ، ينقلون عن تاريخ سعد الدين بن حمويه الذى لم يصلنا منه غير هذه المقتبسات . كذلك انفرد بعض المؤرخين بذكر أخبار عن الحملة لم ترد فى المراجع الأخرى ، مثل وصية الصالح أيوب الى ابنه المعظم التى أوردها النويرى فى نهاية الارب والتى جاءت بين ثناياها شذرات عن الحملة لها أهميتها التى لا تنكر . كما أن بعضهم حفظ لنا صيغة الكتابين المتبادلين بين ملكى فرنسا ومصر قبل نزول الفرنج الى الشاطىء المصرى . وتعرض آخرون للعلاقات الطيبة التى كانت قائمة آنذاك بين الصالح أيوب والامبراطور فريدريك الثانى ، وأثرها بالنسبة للحملة .

ومن بين الكتب العربية الاخرى التى اعتمدنا عليها بعض الاعتماد فى مقدمات

الحملة، كتب تاريخية سابقة لحملة لويس على مصر مثل ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى (ت ٥٥٥ هـ/١١٦٠م) ، وقوانين الدواوين لابن مماتى (ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م)، والكامل فى التاريخ واتابكة الموصل لابن الاثير (ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٤ م) ؛ وكتب جغرافية مثل تآليف اليعقوبى (ت ٢٨٤ هـ/ ٨٩٧ م) وابن زولاق (ت ٣٨٧ هـ/ ٩٩٨ م) والإدريسى (ت ٥٦٠هـ/١١٦٦ م) وياقوت الحموى (ت ٦٢٦ هـ/١٢٢٨م) والقزوينى (ت ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣م) وأبو الفداء وابن دقماق (ت ٨٠٩ هـ/ ١٤٠٧ م) ، وأخرى فى فن الحرب والقتال فى البر والبحر وأهمها مخطوط مرضى بن على بن مرضى الطرسوسى الذى نشره وترجمه الى الفرنسية الاستاذ كلود كاهن (Claud Cahen) ومخطوط « الاحكام المملوكية والضوابط الناموسية » لمحمد بن منكلى (ت٧٧٨هـ/ ١٣٧٦-١٣٧٧ م)- فكل هذه المؤلفات لها قيمتها فى دراسة النواحى التاريخية والجغرافية والحربية التى سادت العصر .

أما المراجع الثانوية من كتب المحدثين من مؤلفى الغرب فيمكن تقسيمها بالنسبة لموضوع البحث إلى ما يأتى من الاقسام الرئيسية :

أولا — كتب عن حياة لويس التاسع وأعماله وردت بها فصول كاملة عن الحملة حاوية لآراء وتعليقات هامة، نذكر منها كتب جيزو M.Guizot وبراى A.Bray وبرى F.Perry وبابى A.Bailly وبولانجيه J.Boulenger ، وأحدثها كتاب هنرى بوردو الذى ظهر عام ١٩٤٩ م . وبالرغم من أنه أقرب إلى الأسلوب الروائى منه إلى البحث التاريخى السليم ، إلا أنه يمدنا بمعلومات طيبة عن الحملة من حيث مناقشة لآراء من سبقه من المؤرخين المحدثين أمثال ميشو وجروسيه ، ونقله عن المؤرخين المعاصرين للحملة كجوانفيل وروتلان ومتى الباريزى .

ثانيا – كتب عن الحروب الصليبية عامة من أهمها مؤلفات لدلو J.M. Ludlow ، وستفنسن W. Stevenson ، وارشر وكينجز فورد T.A. Archer & C.L. Kingsford ، ولويس بربيه Louis Bréhier ، وهارولد لامب Harold Lamb ، وكامبل G. Campbell ، ورينيه جروسيه الذى يعتبر كتابه أحسن ما كتب عن الحروب الصليبية الأولى. وهذا ما يمكن أيضاً أن يقال عن كتاب ستيفن رنسيمان S. Runciman عن تاريخ الحروب الصليبية . وكذلك الموسوعة التى تشرف على إصدارها جامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة عن الحركة الصليبية . وهى تقع فى خمسة مجلدات ، وقد ظهر منها حتى الآن الأجزاء الثلاثة الأولى . أما فيما يتعلق بالحروب الصليبية المتأخرة فأحدث ما كتب فيها مؤلفا الدكتور عزيز سوريال عطية وهما « صليبية نيكوبوليس » و « الحروب الصليبية فى أخريات العصور الوسطى » (١) .

ويضاف إلى هذين القسمين كتب عن تاريخ أوروبا ودولها فى العصور الوسطى ، وأخرى عن مصر الوسيطة ، وأهمها مؤلفات ستانلى لين بول St. Lane-Poole وجاستون فييت G. Wiet ، وثالثة خاصة بالجماعات الرهبانية العسكرية ، ثم مباحث ظهرت فى بعض المجلات العلمية . فكل هذه الكتب والمقالات تسهل على الباحثين دراسه العدوان الصليبى على مصر فى أواسط القرن الثالث عشر ممثلا فى حملة لويس التاسع .

أما الرسائل والبحوث التى انفردت بموضوع الحملة فقليلة العدد وأهمها كتاب ادوين جون ديفز الذى ظهر فى ١٨٩٧ م تحت عنوان

---

(١) ظهر للدكتور عزيز سوريال أخيرا كتاب تحت اسم « الحروب الصليبية – التجارة – الثقافة »
Atiya, A.S., Crusade, Commerce and Culture, Bloomington, 1962.

" The invasion of Egypt in A.D. 1249 by Louis IX" ، وهـو فى أساوبه يميل إلى القصص أكثر منـه إلى البحث العلمى المحقق بالمعنى المفهوم من هذه الـكلمة . ويتناول فيه الحملة بإيجاز ، كما أنه لم يحاول معالجة المشاكل المعقدة التى تحتاج إلى بحث، ودراسة، ومقارنة بين مختلف النصوص والأسانيد للوصول إلى الحلول الحاسمة . وقد كان جل اعتماده على كتاب جوانفيل حتى أنه نقل عنه صفحات برمتها ، (١) ومن الواضح أنه لم يـكن على علم تام بما كتبه باقى المعاصرين للحملة ومن خلفهم من الـكتاب المتأخرين والمحدثين . ومن ثم يمـكننا القول ان الـكتاب يمثل الحملة من وجهة نظر غربية — أو بـكلمة أدق — من وجهة نظر جوانفيل فحسب . فضلا عن قدمه ، إذ صدر فى أواخر القرن التاسع عشر مما يفقده الـكثير من قيمته العلمية .

وجدير بالتسجيل أن المـكتبة العربية أصبحت الآن عامرة بعشرات الـكتب المؤلفة التى تسد فجوة كبيرة فى تاريخ العدوان الصليبى على العالم الاسلامى، والتى تتناول هذا العدوان من زوايا لم يتعرض لها الـكتاب الغربيون عن قصد أو غير قصد. فجاءت تلك الـكتب فى الواقع معبرة عن وجهة نظر صادقة محايدة بعيدة عن الميول والأهواء . فمن المؤلفات التى عالجت حملة لويس التاسع الصليبية على مصر يجب أن نذكر كتاب «حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة» للدكتور محمد مصطفى زيادة، وكتاب «الشرق العربى بين شقى الرحى: حملة القديس لويس على مصر والشام » للدكتور حسن حبشى ، وكتاب « معركة المنصورة وأثـرها فى الحروب الصليبية » للدكتور عبد الرحمن زكى . ومن الـكتب التى تنـاولت تاريخ الحركة الصليبية تناولا شاملا كتاب « مملـكة بيت المقدس الصليبية »

(١) Cf. Davis, Invasion of Egypt, 8-11, 12, 21, 23, 24, 25, 29, 42-4, 50-1, 56, 64-9.

للدكتور عمر كمال توفيق ، وكتاب « الحركة الصليبية ـ صفحة مشـــرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى » للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، وكتاب « الشرق الأوسط والحروب الصليبية » للدكتور السيد الباز العرينى ، وكتاب « الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى » للدكتور نظير حسان سعداوى ، وكتاب « الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب » لمؤلفه محمد العروسى المطوى. ومن المؤلفات التى عالجت أحد فصول الحركة الصليبية أو جانبا من جوانبها العديدة كتاب « مقدمات العدوان الصليبى — الامبراطور يوحنا تزيمسكس وسياسته الشرقية » للدكتور عمر كمال توفيق ، وكتاب « قبرس والحروب الصليبية » للدكتور سعيد عبد الفتـــاح عاشور ، وكتابا « الحرب الصليبية الأولى » و « نور الدين والصليبيون » للدكتور حسن حبشى ، وثلاثة كتب لى هى « لويس التاسع فى الشرق الأوسط — قضية فلسطين فى عصـــر الحروب الصليبية » ، و « العرب والروم واللاتين فى الحـــرب الصليبية الأولى » ، و « الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبى ». ففى هذه المؤلفات وغيرها الكثير من المعلومات المفيدة النافعة .

ولعلى أكون قد استطعت بعض الاستطاعة أن أســـد شيئا من النقص فى دراسة هذا الفصل الهام من تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، بما بذلت من جهـــد متواضع فى تلك المنابع والأسانيد والوثائق التاريخية المترامية الأطراف ، الشرقى منها والغربى ، والمطبوع منها والخطى .

الفصل الأول

احوال فرنسا ومصر فى عصر الحملة

الأسباب التى وجهت اللاتين لمصر بدل بيت المقدس — الحملات الصليبية على مصر خلال القرنين السادس والسابع من الهجرة — هدف حملة لويس التاسع — حالة أوروبا فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، وأثرها فى الحركة الصليبية — فرنسا ولويس التاسع — مصر زعيمة العالم الاسلامى — عهد الصالح أيوب — البحرية والجيش والشعب المصرى — الجهاد الدينى عند الأيوبيين .

استهدفت مصر فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى لهجوم صليبى كبير بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا — منى فيه الصليبيون بهزيمة منكرة . ولم تكن هذه الحملة هى أولى الحملات الصليبية التى اتجهت صوب مصر بقصد امتلاكها ، إنما وقعت محاولات متوالية لغزوها منذ أواسط القرن الثانى عشر للميلاد . ولم يكن هذا التغير الذى طرأ على الحركة الصليبية بالتوجه إلى مصر بدلا من بيت المقدس — وهى الهدف الأصلى لهذه الحركة — وليد الساعة أو مجرد فكرة عابرة استولت على عقول الغربيين فعملوا على تحقيقها . لكن الباحث المدقق يرى أن اتجاه اللاتين ناحية مصر فى حملة لويس التاسع وما سبقها من حملات له أسبابه التى دعت إليه . ولا يتأتى لنا معرفة هذه الأسباب إلا باستعراض تاريخ الحركة الصليبية استعراضا عاما سريعاً ، وفحص العالم الإسلامى وما طرأ عليه من أحداث وتقلبات ، مما دفع القوات الصليبية — ولم يكن قد مضى على بدء الحركة أكثر من ثلاثة أرباع القرن — إلى تغيير وجهتها القديمة ، والاتجاه شطر مصر بقصد الاستيلاء عليها .

قامت الحملة الصليبية الأولى فى ختام القرن الحادى عشر للميلاد من أجل غزو بيت المقدس . وقد أفلحت فى تحقيق هدفها فى وقت كان فيه العالم الإسلامى منقسما على نفسه ، مما أضعفه عن مواجهة العدوان الصليبى (١) . بيد أنه قد ظهرت فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى بعض القوى الاسلامية الفتية بشمال العراق والشام ، التى أخذت على عاتقها مهمة توحيد المسلمين لمقاومة الفرنج ودرء خطرهم (٢) . وتمخضت هذه الحركة عن ظهور شخصية عماد الدين زنكى أتابك

(١) راجع ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣٤ — ٢٣٥ . أنظر أيضا :
Knox, Court of a Saint, 144 - 5; Stevenson, Crusaders in the East, 19 - 20.

(٢) أنظر ذيل تاريخ دمشق ص ١٨١ ؛ ابن الأثير : اتابكة الموصل (مجموعة مؤرخى =

الموصـــل ، وسلطان حلب (٥٢٠ - ٥٤١ هـ / ١١٢٦ - ١١٤٦ م)[1] الذى تمكن من الاستيلاء على إمارة الرها من اللاتين فى ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م [2] ، ومن بعده ابنه نور الدين محمود الذى واصل سياسة أبيه فى الجهاد ضد الفـــرنج حتى أنهم استشعروا منه وباتوا فى قلق متزايد واضطراب بالغ [3].

فى تلك الفترة التى كان فيها كل من نور الدين والصليبيين ـ بالشام ـ يتحفز للآخر ، طرأ على الحركة الصليبية تطور هام خطـــير مظهره التنافس بينهما فى الاستيلاء على مصر . وقد حفزهم على ذلك ما انتهت اليه حالة الدولة الفاطمية من الضعف والانحلال فى أواسط القرن السادس الهجرى ، إذ صار خلفـــاء الفواطم ألعوبة فى يد وزرائهم ليس لهم من الخلافة سوى الاسم والوزراء هم

= الحروب الصليبية ج ٢ قسم ٢) ص ٣٣ . راجع أيضا المصدرين التاليين :

Albert d' Aix, cf. R. H. C.-H. Occ., IV, 670;
Matt. d' Édesse, cf. R. H. C. - Doc. Arm., I, 91 - 4, 96 - 7.

(١) راجع ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية) ج ٣ ص ٦٥٨ ؛ اتابكة الموصل ص ٦١ــ٦٥ . وكذلك :

Stevenson, op. cit., 121 - 2, 124 - 6.

(٢) راجع ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩ ــ ٢٨٠ ؛ اتابكة الموصل ص ١١٨ ــ ١٢٥ ؛ الروضتين (طبعة القاهرة) ج ١ ص ٣٢ و ٣٤ و ٣٦ ــ ٣٧ . وكذلك :

Grégoire le Prétre, cf. R.H.C. - Doc. Arm., I, 157 .

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣٣ و ٣٣٩ ــ ٣٤٢ ؛ ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٢١٩ ؛ أتابكة الموصل ص ١٩٤ و ٢٠٧ و ٢١٩ ــ ٢٢٤ و ٢٣٣ ــ ٢٣٦ . أنظر كذلك:

Guill. de Tyr, cf. R.H.C.-H. Occ., t. I, 2e. partie, 895–7;
Dussaud, Topographie de la Syrie, 168, 232.

أصحاب السلطة الفعلية [١] . وكان كل من نور الدين واللاتين يعلم جيداً أن نجاحه على خصمه مرهون بنجاحه فى الظفر بمصر [٢] . فكان من نتيجة ذلك أن توالت عليها حملات كل من سلطان حلب وأمورى ملك بيت المقدس (١١٦٢ - ١١٧٤ م) فيما بين سنتى ٥٥٨ و ٥٦٤ ﻫ (١١٦٣ - ١١٦٨ م) ؛ تلك الحملات التى انتهت بهزيمة الفرنج وانتصار جيش نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه الذى دخل القاهرة فى ربيع الآخر ٥٦٤ ﻫ / يناير ١١٦٩ م [٣] . وقد حفز هذا الفتح الصليبيين على ضرورة القيام بعمل حاسم لغزو مصر وإحباط خطط نور الدين بها [٤] . وساعدتهم الظروف إلى حد بعيد ، إذ قامت مؤامرات

---

(١) راجع ابن الاثير : الكامل فى التاريخ (مجموعة الحروب الصليبية) ج ١ ص ٥٥٠ ؛ أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص ٤٠ - ٤٢ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٣٨ — ٣٣٩ و ٣٤٥ - ٣٤٦ و ٣٦٣ ؛ أبو اليمن العليمى : الانس الجليل ج ١ ص ٢٧٢ . وكذلك : Guill. de Tyr, 833; Lane-Poole, Cairo, 157-9.

(٢) انظر ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٩ - ٣٠ ؛ الكامل فى التاريخ (مجموعة الحروب الصليبية) ج ١ ص ٥٣٥ و ٥٤٧ ؛ الروضتين ج ١ ص ١٣١ . راجع أيضا : Grousset, L'épopée des Crois., 194-5; Stevenson, 187; Lane-Poole, op. cit., 164-7.

(٣) فيما يختص بحملات كل من أمورى و نور الدين على مصر راجع : سيرة صلاح الدين ص ٢٨ - ٣٥ ؛ أتابكة الموصل ص ٢١٣ - ٢١٩ و ٢٣٦ - ٢٤١ و ٢٤٦ — ٢٥٣ ؛ الكامل فى التاريخ (مجموعة الحروب الصليبية) ص ٥٣٢ - ٥٤١ و ٥٤٦ — ٥٥١ و ٥٥٣ — ٥٥٨ . أنظر أيضا : Michel le Syrien, cf. R.H.C.-Doc. Arm., I, 353-9; Guill. de Tyr, 890-1, 934, 945-6; Schlumberger, Campagnes du Roi Amaury, 46-8, 63-98, 172-229.

(٤) راجع سيرة صلاح الدين ص ٣٣ - ٣٤ ؛ اتابكة الموصل ص ٢٥٠ — ٢٥١ ؛ البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٦٠ .

داخلية فى مصر من أجل إحياء الدولة الفاطمية والقضاء على الوزير الجديد صلاح الدين الذى خلف شيركوه على الوزارة فى جمادى الآخرة ٥٦٤ هـ/مارس ١١٦٩م. وكان من تدبير المتآمرين أن يستنجدوا بالفرنج لغزو مصر، فاذا ماخرج صلاح الدين لصدهم، هاجمه المتآمرون من مؤخرته وبذلك يسهل القضاء عليه. ويتمثل هذا كله فى ثورتى مؤتمن الخلافة [١] (٥٦٤ هـ/ ١١٦٩ م) وعماره اليمنى [٢] (٥٦٩ هـ/ ١١٧٤م)؛ حيث قدم الفرنج لمساعدة الثائرين، فهاجموا دمياط [٣] فى صفر ٥٦٥ هـ/ اكتوبر- نوفمبر ١١٦٩م أثر المؤامرة الأولى، والاسكندرية [٤] فى ذى الحجة ٥٦٩هـ/ يوليو ١١٧٤ م عقب المؤامرة الثانية. ولكن صلاح الدين تمكن من القضاء على المؤامرتين وصد غزوات الفرنج. وهكذا فشل الصليبيون للمرة الثانية فى محاولاتهم ضم مصر إلى أملاكهم بالشام.

ومنذ ذلك الحين أصبح اللاتين محصورين من الشمال والجنوب بقوات المسلمين، وباتت ممتلكاتهم معرضة للضياع، حتى انتهى الأمر بانتصار صلاح الدين عليهم — بعد استقرار مركزه بمصر وقضائه على الخلافة الفاطمية — فى

(١) أنظر الكامل فى التاريخ (مجموعة الحروب الصليبية) ص ٥٦٦ — ٥٦٧؛ ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٤ ص ٢١٤؛ Casanova, Les Derniers Fâtimides, 430-1.

(٢) الكامل فى التاريخ (مجموعة الحروب الصليبية) ص ٥٩٩ — ٦٠١؛ خطط المقريزى جـ ١ ص ٥٣؛ المختصر جـ ٣ ص ٥٧. أنظر كذلك: Casanova, op. cit., 422, 432.

(٣) راجع سيرة صلاح الدين ص ٣٣ — ٣٤؛ حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٨ — ١٩؛ المختصر جـ ٣ ص ٥١؛ الكامل فى التاريخ ص ٢٦٠ — ٢٦١. وكذلك: Schlumberger, 262-91.

(٤) سيرة صلاح الدين ص ٣٨؛ الكامل فى التاريخ ص ٦١١ — ٦١٤. أنظر كذلك Stevenson, 203-4.

معركة حطين ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، وطردهم من بيت المقدس فى نفس العام .(١) ولقد هيأ هذا الجهاد لمصر الأيوبية مكان الصدارة فى العالم الاسلامى حينذاك ، إذ أصبحت مصر معقل الاسلام المنيع ومصدر الامداد الوفير من الرجال والمال والميرة والسلاح . وانحصر هدف الغرب المسيحى منذ ذلك الحين فى إزالة قوتها من الميدان، يقينا منه أنه لن يتم استرداد بيت المقدس إلى حظيرة اللاتين إلا بملك مصر أولا وقبل كل شيء . (٢) وعلى هذا الأساس يمكن أن نفسر السر فى اتجاه الحملات الصليبية الكبيرة نحو مصر منذ أوائل القرن السابع الهجرى (أوائل القرن الثالث عشر الميلادى) .

ففى ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م قامت الحملة الصليبية الخامسة بقيادة جان دى برين صاحب عكا والملك الأسمى لبيت المقدس (١٢١٠ - ١٢٢٥ م) بقصد الاستيلاء على مصر ، إذ « ظنوا أنهم يملكون بملكها البيت المقدس وسائر بلاد الشام(٣) . ولكن الفرنج اضطروا بعد عدة معارك قامت بينهم وبين المصريين إلى مغادرة الأراضى المصرية فى ٦١٨ هـ/١٢٢١ م بعد ثلاث سنوات من مقدمهم اليها (٤) .

(١) فيما يختص بجهاد صلاح الدين ضد الفرنج راجع سيرة صلاح الدين ص ٦٠ — ٧٣ و ١٤٣ — ١٦٥ و ٢٢٠ — ٢٢٧ و ٢٣٥ — ٢٣٧ ؛ العماد الاصفهانى: الفتح القسى ص ١٧ — ٢٥ و ٣٦ — ٤٥ و ١٤٠ — ٢٦٠ و ٣١٤ — ٣١٧ ؛ الكامل فى التاريخ ص ٦١٤—٧٤٤ Vartan le Grand, cf. R.H.C. - Doc. Arm., I, 439; Lane-Poole, Saladin, 197-352.

(٢) Cf. Lane-Poole, Hist. of Egypt, 218; idem, Cairo, 193; Bordeaux, St. Louis, 219; Wallon, St. Louis, I, 270; Calmette, Le Monde Féodal, 408; Tilley, Medieval France, 83; Pirenne, Les Grands Courants, II, 100,

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ لوحة ١٨٧ أ .

(٤) الكامل فى التاريخ (مجموعة الحروب الصليبية) ص ١١١—١٢٥ . راجع أيضا =

ولم تكد تمضى ثلاثون عاما على انتهائها، حتى قامت الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا تهدف أيضا إلى امتلاك مصر حتى يسهل عليها تحقيق حلمها القديم وهو استعادة بيت المقدس وأراضى الشام جميعا(١) ، ولكنها باءت بالفشل كسابقتها حملة جان دى برين .

وليس صحيحا ما ذكره بعض المؤرخين المحدثين من أن حملة لويس التاسع كانت مجرد حملة تهدف إلى الاستيلاء على مصر وتأسيس إمارة فرنسية بها(٢). فقد كانت تلك الحملة - إلى جانب اتجاهاتها الاستعمارية الواضحة - تتسم بالطابع الدينى وتهدف إلى استرداد القدس عن طريق غزو مصر . فقد نشأ لويس التاسع الذى تزعم الحملة نشأة دينية خالصة ، فشب وقد أشرب حب الدين إشرابا سيطر على جوانحه وانعكس أثره فى مبادئه وأفكاره وأعماله ، فكان تلقيبه بالقديس لويس صدى لتلك النزعة التى وضحت بجلاء فى هذه الحملة(٣) . أضف إلى ذلك أن ذاك الملك كان منذ صغره دائم التطلع لتحرير الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين وإعادة الطمأنينة إلى نفوس المسيحيين بالشرق اللاتينى ، حتى أنه لم يترك وسيلة

= مفرج الكروب ج ١ لوحة ٢٠١ أ — ٢١١ ب ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٨ — ٢٩ .

(١) Cf. Delaville Le Roulx, Hospitaliers, 195; Calmette 418; Petit-Dutaillis, La Monarchie Féodale, 318; Tout, Empire & Papacy, 457-8; Bordeaux, 219; Guizot, 58; Lacroix, Vie Militaire, 132; idem, Chevalerie et les Croisades, 182.

(٢) Cf. Ludlow, Crusades, 338; Grousset, Crois., III, 428; Michelet, Hist. of Fr., I, 565. أنظر أيضا محمد رفعت: التيارات السياسية ص ٣٣ و ٣٥ و ٣٦ .

(٣) Joinville (ed. Wailly), 22—30, 42; Geoffroi de Beaulieu, 209; Guill. de Chartres, 211.

لتحقيق أمنيته هذه الا واصطنعها [١] . ومما يجدر ذكره أنه عندما شفى لويس من مرض خطير كان قد أصيب به فى ١٢٤٤ م ، تعهد بحمل الصليب لتحرير أرض الموعد ، اعتقادا منه بأن الله قد من عليه بالشفاء ليتوم بهذه المهمة المقدسة. [٢] وغير هذا فقد أورد ابن واصل - وهو المؤرخ الاسلامى المعاصر لأحداث هذه الحملة - نصا صريحا ينم عن ذلك الطابع الدينى الذى انطبعت به ، جاء فيه : « وكان (اى لويس) متدينا بدين النصرانية مرتبطا به ، فحدثته نفسه بأن يستعيد البيت المقدس إلى الفرنج إذ هو بيت معبود ... وعلم أن ذلك لا يتم إلا بملك الديار المصرية » [٣] . واذا كانت النزعة الدينية المتطرفة هى الوازع الأول للملك، إلا أننا نلاحظ من ناحية أخرى أن معظم البارونات والنبلاء الذين اشتركوا فى هذه الحملة كانوا فى نفس الوقت طامعين فى أن تتهيأ لهم الفرصة لتكوين مستعمرة فى مصر والاستقرار بها ، كما فعل أسلافهم من قبل فى الشام وشمال العراق خلال الحملة الصليبية الأولى [٤] والحملات الصليبية اللاحقة لها .

كل ذلك يوضح أن فكرة اتجاه الصليبيين نحو مصر مرت بعدة مراحل إلى أن وصلت إلى طور النضج والكمال فى حملة لويس التاسع فى منتصف القرن

(١) Matt. Paris, II, 52 – 3. Cf. also Lavisse, Hist. de Fr., III, II, 98; Lacroix, Chevalerie et les Crois., 180; Pirenne, II, 113; Previté - Orton, 118.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 69–2; Guill. de Nangis, 200. Cf. also Hassall, France, 36.

(٣) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٥ ب . راجع أيضا العينى : عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠١ . Reinaud, Extr. des hist. arabes, 448.

(٤) Cf. Chalandon, Première Croisade, 132; Grousset, Crois., I, 20; Bray, St. Louis, 82; Davis, Medieval Europe, 201.

الثالث عشر الميلادى . ولتفهم هذه الحملة التى قامت بها فرنسا وحدها يجدر بنا أن نمهد لها باستعراض أحوال دول أوروبا وبخاصة فرنسا وقتذاك لنكشف عن العوامل التى حدت بفرنسا الى الاشتراك فى الحملة وحالت دونه فى الدول الأخرى . ثم نردف هذا العرض بإلمامة خاطفة عن حالة مصر التى كانت مسرحا لهذا الصراع ، وتقدير مدى استعدادها لمواجهة العدوان الصليبى .

كانت أوروبا فى النصف الأول من القرن الثالث عشر للميلاد مسرحا عجيبا للقلاقل والاضطرابات والمشاكل الداخلية والثورات الأهلية والحروب المستمرة التى حالت بينها وبين القيام بحملة صليبية جامعة Passagium generàle لاستخلاص بيت المقدس من قبضة المسلمين . فكان من أهم آثار ذلك ما طرأ على الحركة الصليبية فى هذا القرن ، إذ فتر الحماس الشعبى بالنسبة لها فتوراً ملحوظا، وبدلا من أن يندفع الناس الى حمل الصليب فى حماس كما كان الحال عند بدء الحركة، أصبحوا الآن يناقشون ببرود نتائج حرب دينية ضد المسلمين[1]. كذلك وقعت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية آنئذ فى محنة شديدة ، إذ فقدت هيبتها واحترامها بعد الكفاح بينها وبين الامبراطورية على المسائل الدنيوية ، وكادت تزول عنها تلك المكانة السامية التى كانت تتمتع بها فى أوائل الحركة الصليبية وخاصة فى بابوية كل من اربان الثانى (١٠٨٨ - ١٠٩٩م) وانوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦ م) . أضف الى ذلك أنه ظهرت فى أوروبا بعض حركات الهرطقة [2] ، تدعو الى مناوأة الكنيسة وتحرير الفكر الانسانى من

(١) Cf. Masson, 95–6; Guizot, 20; Woodhouse, 231; Archer & Kingsford, 320; Campbell, 421; Bray, 55; Calmette, 418.

(٢) فيما يتعلق بحركات الهرطقة هذه راجع : Hardwick, Hist. of the Christian Church, 307-11, 313-6; Turberville, Medieval Heresy, 18-22, 145—154; Coulton, The Inquistion, 5—99; Bell, A short history of the Papacy, 171.

تعاليمها ومبادئها وقيودها ، مما شغل أهل الغرب الى حد ما عن نجدة إخوانهم من الفرنج فى الشرق اللاتينى [١] .

وغير خفى أن من أبرز معالم القرن الثالث عشر ذلك الصدام الذى وقع بين الامبراطور فريدريك الثانى (١٢١٢ — ١٢٥٠ م) والبابوية الذى حال دون تنفيذ فكرة إعداد حملة صليبية جامعة تقوم بها الدول المسيحية الغربية ضد الشرق الاسلامى . ولقد بدأ فريدريك صراعه مع الكنيسة زمن البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧ — ١٢٤١ م) الذى أصدر ضده قرار الحرمان الكنسى أكثر من مرة ، كان آخرها عام ١٢٢٩م عندما استولى الامبراطور على سردينيا وتوج ابنه انزو Enzo ملكا عليها رغم تبعيتها للبابا [٢] . وقد عاد النزاع فى صورة أقوى بين فريدريك والبابا انوسنت الرابع (١٢٤٣ — ١٢٥٤ م) الذى فر فى يونيو ١٢٤٤م خفيه من روما إلى ليون بفرنسا حيث عقد مجلساً دينياً عرف بمجلس ليون فى يونيو ١٢٤٥م قرر فيه تكفير فريدريك وحرمانه ودعوة رعاياه فى المانيا إلى الثورة عليه، وانتخاب امبراطور آخر بدلا منه. [٣] وسرعان ما نشبت

---

(١) Cf. Miller, Med. Rome, 65-6; Mckilliam, Chronicle of the Popes, 309—10; Turberville, 1-13; Hardwick, 312; Balzani, Italy, 227—8; Ludlow, 360.

(٢) Cf. Mathews, Select med. doc., 122—9, 132—41; Stubbs, Germany in the early middle ages, 220; Tout, Empire & Papacy, 367—9; Miller, 64-5; Mckilliam, 308-9; Lewis, A hist. of Germany, 206; Moeller, hist. of the Christian Church, 282; Previté-Orton, 70-3.

(٣) Matt. Paris, II, 1—3, 35—6, 48—9, 67—73, 77—86; Rothelin, 525—6, 556—66. Cf. also Campbell, 420; Lamb, 283; Ludlow, 328—9.

الحرب بينهما وعانت منها المسيحية الأمرين (١) . ولقد صدق هارولد لامب — أحد مؤرخى القرن العشرين — عندما أطلق على هـذه الفترة المضطربة من تاريخ أوروبا لفظ « السنوات السوداء » ، لما تخللهـا من حوادث رهيبة اهتز لها كيان العالم الأوروبى فى ذاك الحين (٢) .

ولقد كان لهذا الكفاح عواقبه السيئة بالنسبة للحركة الصليبية فى القرن الثالث عشر الميلادى ، إذ أنه استنفد موارد كل من الكنيسة والامبراطورية فى الوقت الذى كان فيه مصير الشرق اللاتينى يتوقف على مقدار المساعدة التى يقدمهـا له الغرب الأوروبى(٣). كما أنه أضعف قوى الغرب المسيحى وشل حركته ، وخاصة فى كل من المانيا وإيطاليا اللتين عمتهما الفوضى ولحق بهما الدمار (٤) . فضلا عن أنهما كانتا مجالا للانقسامات الداخليـــة والثورات الإقطاعية ، مما صرفهما عن الاشتراك فى حروب خارجية (٥) .

كذلك كانت باقى دول أوروبا تعانى من شر الفوضى والاضطراب . فلم تكن إنجلترا آنذاك فى حالة تساعدها على المشاركة فى حملة صليبية لاضطراب شئونها

(١) Matt. Paris, II, 103–4, 122 –3, 163. Cf. Previté—Orton, 75—6; Bell, 176–7.

(٢) Cf. Lamb, 283–4.

(٣) Stevenson, 290.

(٤) Cf. Grousset, Crois., III, 426; Bray, 57; Lavisse et Rambaud, Hist. générale, II, 335; Miller, 68, 70–1.

(٥) Matt. Paris, II, 165-6. Cf. Stubbs, Germany in the Early Middle Ages, 221; Campbell, 421–2; Lamb, 283, 286; Ludlow, 334; Lewis, History of Germany, 206–7, 209; Mckilliam 313; Moeller, 175, 284; Tout, Empire and Papacy, 370–5; Archer & Kingsford, 392; Davis, England, 430.

الداخلية والخارجية (١). أما أسبانيا فقد كانت الممالك النصرانية بها في صراع عنيف ضد المسلمين في سبيل امتلاك شبه الجزيرة (٢). وإذا عرجنا إلى شرقي أوروبا حيث امبراطورية اللاتين بالقسطنطينية (١٢٠٤ - ١٢٦١ م) ، نجد أنه لم يكن باستطاعتها هي الأخرى المساهمة مع أخواتها أمم الغرب الكاثوليكي في حملة ضد المسلمين ، نظرا للهجمات المتكررة التي يشنها عليها البيزنطيون أصحابها الأصليين بقصد طرد اللاتين منها واستعادة سلطانهم بها (٣).

ففي هذا الوقت الذي كانت فيه أوروبا نهبا للقلاقل والاضطرابات نهضت فرنسا وحدها وعلى رأسها مليكها لويس التاسع بعبء الحملة الصليبية السابعة على مصر في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي . فكيف تسنى لها تنفيذ هذه الفكرة دون غيرها من بلدان الغرب ؟

تولى لويس التاسع ملك فرنسا يوم ٢٩ نوفمبر ١٢٢٦م بعد وفاة أبيه

---

(١) فيما يتعلق بحالة انجلترا في عصر الحملة راجع :
Matt. Paris, I, 381—2, 403 – 6, 408—11, 414 – 33, 445 — 6, 479—80, 500—11 & II, 14—6, 130 —1, 140—1, 148 – 57, 170 — 4, 251, 287. Cf. also Rapin, Acta regia, I, 27, 29—30; Davis, England, 430 – 5; Tout, England, 62—4, 67—8; Edwards, Wales, 156—60; O'Neill, 52—3; Sykes, 16.

(٢) راجع يوسف اشباخ : تاريخ الأندلس ج ٢ ص ١٨٠ — ٢٣١ . وكذلك:
Bertrand & Petrie, Hist. of Spain, 195—6; Calmette, 374 — 5; Archar & Kingsford, 391; Campbell, 422.

(٣) Matt. Paris, I, 490 & II, 65; Joinville (ed. Wailly), 76—8 & 76 n. 137—1. Cf. Ludlow, 328; Tout, Empire & Papacy, 353—4; Campbell, 421; Guizot, 60—1.

لويس الثامن ، وكان عمره آنذاك اثنى عشر عاما [١] . وكانت أمه الملكة بلانش Blanche ابنة الفونس التاسع ملك قشتالة Castile قد اشتهرت بتقواها وتفانيها فى خدمة الكنيسة المسيحية . فعنيت أيما عناية بتنشئة ابنها القاصر نشأة دينية شديدة ، حتى أنها كانت تصارحه بأنه ليهون عليها موته من أن تراه يسقط فى أى خطيئة تغضب الله . فلا عجب إذا نشأ لويس وقد انطبعت فى نفسه هذه التعاليم الدينية التى حفظها عن أمه منذ نعومة أظافره ، فانعكست آثارها فى حياته وأعماله العامة فيما بعد [٢] .

وقد كانت فرنسا فى فترة قصور لويس التاسع (١٢٢٦ - ١٢٣٦ م) نهبا للفتن والثورات ، إذ وجد الأشراف وكبار رجال الاقطاع الفرصة مواتية لتحقيق مطامعهم فى استرداد أقاليمهم التى سلبت منهم فى عهد فيليب أغسطس وابنه لويس الثامن ، وقد ساعدهم على ذلك صغر سن لويس وتركيز الوصاية فى يد بلانش ، وهى من أصل أسبانى الأمر الذى جعلها مكروهة من الفرنسيين [٣] . غير أن هذه الملكة تمكنت بالدهاء تارة والسياسة تارة أخرى من الايقاع بين البارونات المتمردين ، واستمالة بعضهم إلى جانبها . وهكذا أفلحت فى إخماد

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 40. Cf. Campbell, 422; Lavisse, Hist. de Fr., III, II, 1, 7; Wallon, I, 4.

(٢) Cf. Joinville (ed. Wailly), 4, 10—38 -94; Geoffroy de Beaulieu, 269; Guill. de Chartres ..., Guill. de Nangis, 202; Anonymous; Gesta alia S. Ludovici noni, 202; Guill. de Saint-Pathus, Les Miracles de S. Louis, 1—195.

(٣) Les Bas, Annales hist., I, 185. Cf. Lavisse, Hist. de Fr., III, II, 2-6; Masson, 90; Kitchin, I, 329; Conder, Latin Kingdom of Jerusalem, 344.

الثورات التى هموا بها ، وضمت الكثير من أقاليمهم إلى التاج (١) . وقد واجه القديس لويس بشخصه فى ١٢٤٢ م - بعد بلوغه سن الرشد بست سنوات - آخر ثورة اقطاعية كبيرة خلال حكمه ، انتهت بهزيمة الثائرين وعقدهم معاهدة مع الملك اعترفوا فيها بتبعيتهم له(٢). وقد اعتبر هذا نصرا كبيرا للملكية على النظام الاقطاعى ، حتى أنه لم تقم ثورات اقطاعية أخرى بقية حكم لويس التاسع الذى ظل يسوده الهدوء والاستقرار (٣). وكان من حسن حظ الملكية أن اشترك فى حملة لويس على مصر عدد عظيم من كبار رجال الاقطاع بفرنسا أمثال بطرس كونت بريتانى وهيج كونت لامارش ، ممن تخلصت فرنسا من مشاغباتهم ومناوئتهم للتاج ، فسهل ذلك على الملك الفرنسى مهمة الاستعداد لحملته (٤).

هكذا تخلص الملك لويس من ثورات نبلائه التى كادت أن تطيح بعرشه ليتفرغ للمشاكل الأخرى ، ولتصريف شئون المملكة . فلم تأخذه الرحمة حيال المسيحيين الهراطقة بمملكته فاكتسحهم بحد السيف (٥) . كذلك وقف من الكنيسة ورجال الدين موقفا حازما بالرغم من تدينه ، إذ كانت الكنيسة العالمية فى نظره شيئا ورجال الدين من ذوى الغايات والأطماع شيئا آخر ، فلم يسمح

(١) Joinville, (ed. Wailly), 42—50. Cf. Lavisse, op. cit., 7—15; Kitchin, I, 330—3; Michelet, I, 554-7.

(٢) Joinville, (ed. Wailly), 56—60; Matt. Paris, I, 432—3, 445—6. Cf. also Lavisse, op. cit., 58—9; Les Bas, op. cit., I, 186; Previté-Orton, 113.

(٣) Cf. Michelet, I, 562; Previté-Orton, 113.

(٤) Joinville, (ed. Wailly, 62. Cf. Bray, 56.

(٥) Cf. Kitchin, 332; Turberville, 161; Previté-Orton, 117.

لهم بالافتئات على حقوقه الزمنية خارج اختصاصاتهم الروحية (١).

نخلص من هذا كله إلى أن حالة فرنسا فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى كانت تسمح لها بإعداد حملة صليبية ضد المسلمين، فى الوقت الذى كان الاضطراب يسود باقى أمم أوروبا. فقد تمكن لويس التاسع من كبح جماح رجال الإقطاع، وإخماد صوت الهراطقة المسيحيين بالمملكة، كما وضع حداً لأطماع رجال الدين. أضف إلى ذلك أن البلاد كانت فى عهده آمنة مطمئنة بعكس غيرها من بلدان الغرب المسيحى[٢]. ومن هنا كانت الحملة الصليبية السابعة التى قادها لويس التاسع فرنسية الطابع، لأن غالبية الذين اشتركوا فيها كانوا من فرنسا. وهى لذلك تختلف عن الحملات الصليبية الاولى التى اشتركت فيها الأمم المسيحية الغربية بأكملها ضد أمم الشرق الاسلامى[٣].

وبينما يعتبر النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى فى أوروبا عصرا ذهبيا بالنسبة لفرنسا، حتى لقد وصف المؤرخون الغربيون المحدثون لويس التاسع بأنه « ملك ملوك الأرض »[٤]، نجد أن مصر كانت هى الأخرى تحمل لواء الزعامة فى العالم الاسلامى فى ذاك الحين. هذا، فى الوقت الذى كانت فيه الولايات الاسلامية فى الشام ميدانا للنزاع المستمر بين أمراء الاسرة الأيوبية، والخلافة العباسية فى العراق فى دور النزع الأخير حتى لقد انتهى الامر باستيلاء

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 368—70. Cf. Previté-Orton, 115; Tout, Empire & Papacy, 422—3; Williams, XII, 58.

(٢) Joinville, (ed. Wailly), 10 — 12, 32 — 8. Cf. Hassall, France, 35.

(٣) Cf. Lane-Poole, Hist. of Egypt 232; Grousset, Crois., III, 428; Stevenson, 325; Lavisse & Rambaud, Hist. générale, II, 335.

(٤) Hassall, op. cit., 33; Tout, Empire & Papacy, 421.

ومما ينبغى ذكره فى هذا المقام أنه توجد فى المراجع العربية حقائق تاريخية عن لويس =

التتار عليها وانقراض الخلافة منها فى ٦٥٦ هـ/١٢٥٨م (١) . أما مصر فهى التى تصدت لقتال الصليبيين ودونت بجهادها ضدهم صفحة مجيدة فى تاريخها . ويكفى للدلالة على ما كانت تتمتع به مصر من مكانة مرموقة فى العهـــد الأيوبى ، أن ملوكها بدأوا عصرهم بانتصارهم على الفرنج فى الشام أيام صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية ، واختتموه بإلحاقهم الهزيمة بلويس التاسع وجيشه زمن المعظم توران شاه آخر ملوكهم .

كان يجلس على عرش مصر إبان صليبية لويس التاسع ملك من أعظم خلفاء صلاح الدين هو الصالح نجـم الدين أيوب(٢) . وتتلخص شخصيتـه فى أنه كان سياسيا محنكا ، يقابل المصائب بجنان ثابت وحيـلة واسعه . ومن أهم ما اتصف به إشرافه الدقيق على جميع مهام الدولة والبت فى أمورها بنفسه ، حتى أنه لم يكن

=التاسع وفرنسا تشهد بسعة دراية المسلمين بأحوال الدول الاوروبية وقتذاك ، منها ماذكره ابن واصل (مفرج الـكروب جـ ٢ لوحة ٣٥٥ ب) « وكان هذا ريدافرنس من أعظم ملوك الفرنجة وأشدهم بأسا . وافرنس هى أمة من الفرنج » . أنظر كذلك ابن خلدون : العبـر جـ ٥ ص ٣٥٩ ؛ العمرى : رسالة فى أمر مشاهير ممالك الفرنج ص ٢ — ٣ ؛ أبو المحاسن : المنهل الصافى جـ ١ ورقة ٣٥٨ ا ؛ العينى : عقد الجمان جـ ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٠ — ٣٠١ .

(١) فيما يتعلق بحالة الخلافة العباسية وقتذاك راجع ابن الساعى : مختصر أخبـار الخلفـاء ص ١٢٦ ـ ١٢٧ ؛ أبو الفرج : تاريخ مختصر الدول (طبعة بيروت) ص ٤٤٥ ـ ٤٤٦ و٤٧١ ـ ٤٧٥ ؛ أبو شامة : تراجم رجال القـرنين ص ١٩٨ ـ ١٩٩ ؛ البغـدادى : عيون اخبار الاعيـان جـ ٢ لوحة ٤٢٧ ؛ الفيومى. نثر الجمان مجلـد ٢ ورقة ١٣٢ ب ؛ كتاب فى التاريخ مجهول مؤلفه (محفوظ بدار الـكتب المصـرية برقم ٤٠٣٠ تاريخ) ورقة ٣٣٤ ا ؛ محمد بن علي : المواقف الشريفة (مخطوط بمكتبة بلدية اسكندرية برقم ١٦٨٢ج) تحت اسم « بنو العباس » .

(٢) انظر العينى : عقد الجمـان جـ ١٨ قسم ٢ لوحـة ٣٠٤ ؛ أبو المحاسن : النجـوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ .

يسمح لأحد من كبراء دولته أن يستقل بأمر من الأمور (١). والى هـذه الصفات يرجع الفضل فى نجـاحه فى التغلب على المشاكل التى واجهته ، وفى أنه تهيأ لمصر خلال حكمه فترة من الهدوء والاستقرار الداخلى ، مما كان له أبعد الأثر فى التغلب على الفرنج الدخلاء .

ولعل أهم مشكلة شغلت بال الصالح أيوب فى سلطنته هى علاقته بأفراد أسرته من أمراء الولايات الشامية ، الذين كثيرا ما أثاروا الفتن فى وجهه مما كاد يعرض ملكه للزوال . فلقد كان تاريخ التسعة أعوام التى تلت توليته ملك مصر فى ذى القعدة ٦٣٧هـ/يونيو ١٢٤٠ م ، مليئة بحوادث التنازع على السلطان بينه وبين أعدائه من أمراء الشام . ولكنه تمكن بعد حروب طويلة من إلحاق الهزيمة بهم وإخضاعهم لنفوذه . فاستولى على دمشق من عمه الصالح اسماعيل فى ٦٤٢هـ / ١٢٤٤ م ، كما انتزع منه أيضا مدينة بعلبك . واستولى على بلاد ابن عمه الناصر داود حتى أنه لم يبق له غير الكرك . ودان له بالولاء كل من صاحب حماة وصاحب حمص(٢). ولكن أمراء أسرته سرعان ما عادوا الى مناوئته، فاستولى الناصر يوسف صاحب حلب(٦٤٣ - ٦٥٨ هـ / ١٢٣٦ - ١٢٦٠م)(٣) على مدينة حمص من صاحبها الأشرف موسى (٦٤٤ - ٦٦١ هـ / ١٢٤٥ - ١٢٦٢م) (٣)

---

(١) فيما يتعلق بشخصية الصالح أيوب وسيرته راجع ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٩ ا — ٣٦١ ا ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ لوحة ٥١٥ ؛ اليونينى : ذيل مرآة الزمان ج١ ورقة ٤٩ ب — ٥٠ ا؛ العينى : عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٢٠٤ — ٢٠٥ .

(٢) راجع تفاصيل هذا النزاع فى تراجم رجال القرنين ص ١٧٤ — ١٧٨ ؛ المختصر ج ٣ ص ١٨٠ — ١٨٤ ؛ العبر ج ٥ ص ٣٥٨ ؛ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٢ — ٣٢٦؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣١٥ — ٣٢٥ ؛ السلامى : مختصر التواريخ ورقة ٦٤ ب .

(٣) Cf. Lane-Poole, Mohammadan Dynasties, 78, 79.

فى ٦٤٦ ﻫ / ١٢٤٨ م . فأرسل الصالح أيوب العساكر لاستردادها ؛ لكنـــه اضطر بعد مناوشات بينه وبين أعدائه الى مغادرة حمص والعودة بعساكره الى الديار المصرية عندما تواترت إليه الاخبار باجتماع الصليبيين وعلى رأسهم لويس التاسع فى قبرص قاصدين الهجوم على مصر [١] .

وعلى الرغم من هذه المشاكل التى واجهت الصالح نجم الدين ، الا أن مصر كانت خلال حكمه آمنة مستقرة ، كما انتظمت ادارتها وانتشر الأمن والعدل بين ربوعها ، مما هيأ لها فترة من الرخاء ممتدة (٢) . فازدهرت التجارة التى ضمنت لخزينة السلطان موردا لا ينضب من المال الذى كان ينفق معظمه على البحرية والجيش وما يستلزمها من بناء استحكامات وقلاع ، مما كان له أبعد الأثر فى دفع عدوان الصليبيين عن أرض مصر (٣) .

أما البحرية المصرية فقد وجه الصالح أيوب عناية خاصة بأمرها لعلمه أنها من أهم وسائل الدفاع عن البلاد ضد المغيرين عليها (٤) . ويكفى للتدليـــل عـلى ذلك أنه عنـدما علم بعزم الفرنج على قصـــد مصر ، أمر فى الحـال بتجهيز السفن وإرسالها الى ميناء دميـاط لمنع الأعداء من النزول اليهـــا

---

(١) أبو شامة : تراجم رجال القرنين ص ١٨٠ ؛ ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥١ ب و ٣٥٢ ب ـ ٣٥٤ ب ؛ ابن خلـكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ٣٤١ . راجع ايضـا المختصر ج ٣ ص ١٨٥ ـ ١٨٦ ؛ العبر ج ٥ ص ٣٥٩ ؛ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٠ ـ ٣٣١ .

(٢) أنظر النويرى : نهاية الارب ج ٢٧ لوحة ٨٨ ؛ الفيـــومى : نثر الجمان مجلد ٢ ورقة ١٢٢ ؛ ابن دقماق : نزهة الانام لوحة ٧٧ ب ؛ والجوهر الثمين ورقة ١٠١ ـ ١٠٢ ؛ المقريزى : السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٢٩٨ و ٣٠٠ و ٣٠٦ ـ ٣٠٧ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣١٩ .

(٣) نهاية الارب ج ٢٧ لوحة ٩٢ . أنظر كذلك: Lane-Pool, Hist. of Egypt, 222; Heyd, Hist. du Com., I, 384-5.

(٤) النويرى ج ٢٧ لوحة ٩٢ .

واحتلالها[1] . كما أسدى النصح الى ابنه توران شاه فى وصيته التى تركها له قبل وفاته ، بتقوية الاسطول المصرى حتى يمكنه احراز الغلبة على العدو[2] . ويرجع الفضل الى السفن التى صنعها توران شاه وأنزلها فى بحر المحلة خلف المعسكر الصليبى، فيما نزل بالفرنج المقيمين جنوبى بحر أشموم من كوارث وويلات (٣). وكانت أهم القطع التى يتألف منها الاسطول المصرى فى عهد الأيوبيين ، والتى ورد ذكرها مرارا فى ثنايا الكتاب هى الشوانى والحراريق والمسطحات والبطس والطرائد والغربان والمرمات (٤) .

أما الجيش فقد اعتنى الأيوبيون بأمره هو الآخر ، حتى أنهم كانوا ينفقون جزءا كبيرا من ايرادات الدولة على إصلاح حاله وبناء ما يلزمه من الحصون والقلاع (٥) . وكانت غالبية الجيش الايوبى فى عهد الصالح نجم الدين تتألف من المماليك الأتراك (٦) الذين اقتنى عددا كبيرا منهم . كذلك أقبل على شراء

---

(١) راجع ابن واصل جـ ٢ لوحة ١٣٥٦ .

(٢) راجع نهاية الأرب جـ ٢٧ لوحة ٩١ .

(٣) راجع ابن واصل جـ ٢ لوحة ١٣٦٨ .

(٤) فيما يتعلق بقطع الاسطول فى العهد الايوبى راجع ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٣٩ — ٣٤٠ • وسنتناول هذه القطع بالشرح والتفصيل فى ثنايا الكتاب .

(٥) نهاية الأرب جـ ٢٧ لوحة ٩٢ . أنظر أيضا الدكتور على حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٣٥٤ .

(٦) يرجع سبب اقتناء الصالح ايوب للمماليك الترك الى تمرد فرق الجيش الايوبى عليه ، وما رآه من غدر الاكراد به عندما استولى عمه الصالح اسماعيل على دمشق فى ٦٣٧ هـ ، وثبات مماليكه معه عندما وقع فى حبس الناصر داود بالكرك فى نفس العام . راجع ابن واصل جـ ٢ لوحة ١٣٥٩ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ ٨ لوحة ٥١٥ ؛ خطط المقريزى جـ ٢ ص ٢٣٦ ؛ المختصر جـ ٣ ص ١٧٣ و ١٧٥ ؛ السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٢٩٩ و ٣٠٠ .

جماعة من هؤلاء المماليك وجعلهم حاشية له وأنشأ لاقامتهم قلعة جزيرة الروضة (١) التي جهزها بكثير من الأسلحة والأزواد لتكون حصن الدفاع عن مصر ضد المعتدين ، وقد عرف هؤلاء المماليك باسم المماليك البحرية نسبة الى هذه القلعة التي ابتناها لهم (٢) . وإليهم يرجع الفضل فيما أحرزته مصر من انتصارات باهرة على جيش لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م ، وفى التغلب على التتار فى موقعة عين جالوت سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨م(٣).

ويعتبر الجيش الأيوبى ، الذى تمكن من إلحاق الهزيمة بلويس التاسع وقواته على ضفاف النيل فى منتصف القرن السابع الهجرى ، من أفضل جيوش العصر الوسيط فى الشرق والغرب اعدادا وتنظيما . فقد كان مقسما الى طوائف وفرق وطبقات (٤) ، كما كان يتكون من فرسان ومشاة مجهزين بكل ما أنتجه العصر

(١) بخصوص جزيرة الروضة راجع خطط المقريزى ج ٢ ص ١٨٣ ؛ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٠ — ٣٢١ و ح ٣ .

(٢) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٩ ا ؛ الملوانى : تحفة الأحباب قسم ١ لوحة ٧٩ ؛ ابن دقاق : الجوهر الثمين ورقة ١٠٢ ؛ المختصر ج ٣ ص ١٧٥ ؛ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣١٩ و ٣٢٠ .

(٣) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٩ ا و ٣٣٦ ا و ٣٦٩ ب ؛ تراجم رجال القرنين ص ٢٠٧ ؛ خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٣٧ .

(٤) ذكر القلقشندى فى كتابه (صبح الاعشى ج ٤ ص ١٤ — ١٦) ان الجيش الايوبى كان يتكون من طائفتين هما الاجناد والأمراء . أما الأجناد فهم على ثلاث طبقات : المماليك السلطانية وهم أعظم الجند شأنا ، وأجناد الحلقة وهم غالبية الجيش وعامته ، والمماليك البحرية وهم الذين جمعهم الصالح ايوب . أما الأمراء فهم على أربع طبقات : أمراء المئين وكانوا أعلى طبقة فى الجيش وعدة كل منهم فى الغالب مائة فارس ، وأمراء الطبلخاناه ، ويترأس كل منهم أربعين فارسا ، وامراء العشرات وعدة كل منهم عشرة فوارس على الأقل ، وأمراء الخمسات وهم أولاد المتوفين من الأمراء رعاية لسلفهم .

الوسيط من أسلحة ومعدات ، أهمها السيوف والسهام والرماح والنشـــاب والدبابيس والقسى والدروع والمتاريس والمجانيق ومكاحل البارود وقوارير النفط والستائر والنيران الاغريقية (١) .

وهنا يصح أن نلمح الى الشعب المصرى وموقفه من الحوادث التى مرت بها البلاد فى تلك الفترة العصيبة من تاريخها . الواقع أن هذا الشعب لم يكن بمعزل عما كان يجرى حوله من أحداث وتقلبات . وان مراجع الحملة مليئة بالأمثلة التى تؤيد اشتراكه الى جانب القوات المصرية النظاميه فى الدفاع عن مصر ضد الفرنج . وإذا نسينا فلا ينبغى أن ننسى تلك المواقف المشرقة التى وقفها هـذا الشعب جنبا الى جنب مع جيشه فى الدفاع عن بلاده ضد لويس التاسع وقواته ، وخاصة موقف أهالى المنصورة عندما عبرت مقدمة الجيش الصليبى بقيادة روبرت كونت ارتوا بحر أشموم وتقدمت داخل المدينة ، فقد أخـذوا يرمونهـم بالأحجار وحفن التراب من النوافذ وأسطح المنازل حتى قضوا على غالبيتهـم مما سهل على الجيش المصرى مهمة الاجهاز على البقية الباقية منهم .

وأخيرا يجب ألا نغفل أهمية فكرة الجهاد الدينى عند الأيوبيين التى كان لهـا أثرها الفعال فيما أحرزوه على أعدائهم من نصر . ذلك أن دولتهـم قامت على

---

(١) راجع : Davis, Invasion of Egypt, 15-6 . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٢ ص ١٣٢ — ١٣٨ و جـ ٤ ص ١١—١٢ وسنعرض لتلك الاسلحة والمعدات بالتفصيل فيما بعد فى مواضع مختلفة بالكتاب .

أساس الجهاد الدينى ضد الصليبيين(١) . وكانت كلمة الجهاد تستعمل لإلهاب الحماسة بين الناس . كما كان يطلق على المحاربين اسم المجاهدين ، واذا مات أحدهم فى أثناء المعركة سمى شهيدا . ولعل أقرب مثل إلينا الامير فخر الدين قائد العساكر المصرية الذى استشهد فى وقعة المنصورة الاولى ٤ من ذى القعدة ٦٤٧ هـ/٨ فبراير ١٢٥٠ م ، وهو يحث رجاله لقتال الصليبيين الذين عبروا بحر أشموم وتقدموا داخل المنصورة على غفلة من الجيش المصرى (٢) . كما كانت الخطب والمواعظ الدينية التى تلقى من فوق منابر المساجد والجوامع فى أيام الجمع وسيلة هامة من وسائل الحث على الجهاد ضد أعداء الاسلام ؛ ومن أمثلة ذلك الكتاب الذى قرىء فى الجامع الأزهر يوم الجمعة ٢٥ شعبان ٦٤٧ هـ/ ٣ ديسمبر ١٢٤٩م بعد مغادرة الفرنج دمياط ونزولهم بفارسكور فى طريقهم نحو العاصمة (٣) .

فكل تلك العوامل أتاحت لمصر الزعامة فى العالم الاسلامى ، كما قوت جانبها فى كفاحها ضد الصليبيين . وإذا كان الغرب قد طمع فى الاستيلاء على مصر حتى يتمنى له غزو بيت المقدس عندما قام لويس التاسع يبشر بدعوته الى جهاد صليبى تلتئم فيه قوى أوروبا مرة أخرى ؛ فإن ذلك قد باء بالفشل . فقد تكون فرنسا مهيأة باستقرارها الداخلى وبحماس ملكها الدينى الى توجيه ضربة حاسمة تحقق أمل الصليبيين وأطماعهم من وراء الاستيلاء على مصر . بيد أن مصر لم تكن

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٦ — ١٨ . هذا ومراجع العصر كلها تقريبا مليئة بالامثلة التى تؤيد صحه هذا القول . راجع أيضا جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين . ط. ثانية — ص ٩٤ — ٩٦ والحواشى .

(٢) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٦ أ ؛ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٣ ؛ تتمة المختصر ج ٢ ص ١٨٢ .

(٣) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٤ ب ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٠ .

تقل عنها حماسا فى الاستشهاد أو رغبة فى الدفاع عن كيانها ضد أولئك المغيرين . فهل يكون الحماس الذى غمر الصليبيين والمسلمين كفيلا بإنجاح أحد المعسكرين ؟ أم هل تنشأ ظروف جديدة تقرر مصير الحملة ومصير استقلال مصر ؟ إن هذه الظروف موضوع المناقشة فى الفصول التالية .

الفصل الثانى

ما قبل الحملة

أسباب الحملة - مجلس ليون سنة ١٢٤٥م - موقف البابا انوسنت الرابع - الدعاية للحملة والتبشير بها - الاستعداد للحملة - قيام الحملة - الصليبيون فى قبرص - إفشاء أسرار الحملة إلى الصالح أيوب - موقف الامبراطور فريدريك الثانى - الاستعداد فى مصر لمواجهة الصليبيين .

لقد كان الهدف الأساسى الذى ترمى إليه حملة لويس التـــاسع الصليبية على مصر هو غزو مدينة بيت المقدس والمحافظة على كيان اللاتين المتداعى بالشرق، عن طريق القضاء على مصر مركز القـوى الإسلاميـة فى الشرق الأدنى الإسلامى فى ذاك الحين .

وان أسباب هذه الحملة كثيرة متشعبة . فهنالك أسباب رئيسية جوهرية تنطوى على الدوافع الحقيقية لقيامها ، كما أن هنالك عوامل محلية ثانوية وهى التى ساعدت فى إخراج هذه الفكرة إلى حيز التنفيذ .

أما الأسباب الرئيسية فتتلخص فيما آلت إليه حال الأراضى المقـدسة ، وما كان يعانيه اللاتين بالشرق من مضايقات خلال النصف الأول من القـرن السابع الهجرى (النصف الأول من القـرن الثالث عشر الميـلادى) . فنى ربيع الآخر ٦٢٦ ﻫ / مارس ١٢٢٩ م أبرم فريدريك الثانى معاهدته المشهورة مـع الـكامل محمد بن العادل ملك مصر ، والتى بمقتضاها استولى الامبراطور الألمانى على بيت المقدس ، وإن كان قد تعهد بعدم تحصينها أو إقامة أســـوارها التى كان الملك الكامل قد أمر بدكها قبل ذلك بعامين (١) . والواقع أنه كان لهذه المعاهدة أهمية فائقة بالنسبة للصليبيين ، إذ فتحت لهم طريق الحج إلى بيت المقـدس الذى ظل مغلقاً أمامهم منذ أن فتح صلاح الدين الأيوبى القدس سنة ٥٨٣ ﻫ / ١١٨٧ م ، أى زهاء أربعين سنة ، كما أنها ثبتت أقدامهم فى ممتلكاتهم فى الشام . ولكن هذه

---

(١) راجع ابن الأثير : الكامل (مجموعة الحروب الصليبية) ج ٢ قسم ١ ص ١٧٥ — ١٧٦ ؛ العينى : عقد الجمان (مجموعة الحروب الصليبية) ج ٢ قسم ١ ص ١٨٧ — ١٩٤ ؛ أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص ١٤٨ ؛ أبو الفـــرج : تاريخ مختصر الدول (طبعة بيروت) ص ٤٢٧ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٣٣ . أنظر كذلك :

Grousset, Crois., III, 300—313.

المدينة المقدسة لم تبق طويلا بأيدى الصليبيين . ففى ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م توجه اليها الملك الناصر داود صاحب الكرك بجيش كبير ، وكان الفرنج قد عمروا قلعتها بعد موت الملك الكامل ، فحاصرها واستولى عليها وخرب القلعة كما خرب برج داود ، ولم يكن المسلمون قد هدموه فى المرة السابقة[1] . ولكن الفرنج عادوا فاستردوا بيت المقدس ثانية من المسلمين مستغلين قيام المنازعات والدسائس بين أمراء الأسرة الأيوبية فى مصر والشام . إذ اتفق الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق والملك الناصر داود صاحب الكرك مع الفرنج بالشام لمحاربة السلطان الصالح أيوب ملك مصر ، وسلما إليهم القدس وطبرية وعسقلان فى ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م نظير ذلك[2] .

حينئذ استعان الصالح أيوب بالخوارزمية ـ الذين كان قد طردهم جنكيز خان ملك التتر من شرقى آسيا فى أثناء فتوحاته هناك ، والذين سبق لهم التدخل فى منازعات ملوك بنى أيوب ـ ضد أعدائه من أمراء أسرته فى الشام . فسار الخوارزمية اليها فى ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م وأغاروا على بلاد الشام ، ثم نازلوا القدس وأتوا فيها كثيراً من الفظائع وأعمال السلب ، وبذلوا السيف فيمن كان بها من النصارى حتى « أفنوا الرجال وسبوا النساء والأطفال ، وهدموا المبانى ونبشوا قبور النصارى وأحرقوا جثثهم »[3] . بعد ذلك توجهوا إلى مدينة غزة

---

(١) السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٢٩١ ؛ المختصر جـ ٣ ص ١٧٣ ؛ الأنس الجليل جـ ٢ ص ٣٦٠ .

(٢) السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣١٤ — ٣١٥ ؛ المختصر جـ ٣ ص ١٨٠ ؛ النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٢٢ ؛ الأنس الجليل جـ ٢ ص ٣٦١ — ٣٦٢ ؛ السلامى : مختصر التواريخ ورقة ٦٤ ا .

(٣) السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣١٦ .

للإنضمام إلى الجيش المصرى الذى أوفده الصالح أيوب بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى الصالحى، أحد مماليكه الأخصاء الذين كانوا معه وهو محبوس فى الكرك (١). ونشبت أمام غزة معركة شديدة بين جيوش دمشق والكرك وحمص والصليبيين من جهة وجيوش مصر والخوارزمية من جهة أخرى، أسفرت عن انتصار العساكر المصرية والخوارزمية على قوات الشام والفرنج (٢)؛ إذ أطبق الخوارزمية على الفرنج وأعملوا فيهم سيوفهم وأجهزوا على الكثيرين منهم، ثم أسروا ما يقرب من ثمانمائة رجل من بينهم غليوم دى شاتنوف Guillaume de Châteauneuf (٣) الرئيس الأكبر للاسبتارية الذى اقتيد اسيراً إلى القاهرة. ولم يسلم من الصليبيين الذين اشتركوا فى هذه المعركة الحاسمة

---

(١) وهو غير ركن الدين بيبرس البندقدارى الظاهرى الذى صار فيما بعد سلطانا على مصر، وكان أكبر من الظاهر بيبرس وأقدم منه، وانتهى أمره بأن قبض عليه مولاه الصالح أيوب وسجنه، ثم أعدمه لاتفاقه مع الخوارزمية ضده. راجع النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٢؛ المختصر ج ٣ ص ١٨٤.

(٢) راجع تراجم رجال القرنين ص ١٧٤؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣١٦ — ٣١٧؛ الأنس الجليل ج ٢ ص ٣٦٢؛ الذهبى: دول الاسلام ج ٢ ص ١١٢؛ السلامى: مختصر التواريخ ورقة ٦٤ ا — ٦٤ ب. أنظر كذلك: Rothelin, 564; Eracles, 429-30; Delaville Le Roulx, Hospitaliers, 191—2; Röhricht, Gesch. Des Königreichs Jerusalem, 894-6, Notes.

(٣) هو الرئيس الأكبر للاسبتارية (١٣ مايو ١٢٤٣ — ٢٠ فبراير ١٢٥٨ م)، وكان ينوب عنه فى فترة أسره جان دى رونيه Jean de Ronay (٣ أبريل ١٢٤٥ — ١١ فبراير ١٢٥٠ م) الذى اشترك فى حملة لويس التاسع على مصر وقتل فى وقعة المنصورة الثانية (١١ فبراير ١٢٥٠ م). وقد ظل رئيس الاسبتارية فى أسر المصريين إلى أن أخلى سبيل جميع الأسرى المسيحيين بمصر فى ١٧ أكتوبر ١٢٥٠ م. أنظر: Delaville Le Roulx, op. cit., 194, 408—9.

سوى عدد ضئيل جدا [١] . ثم اندفعت القوات الظافرة بعد استيلائها على غزة صوب مدينة بيت المقدس واستولت عليها فى نفس العام بعد أن أعملت فيها النهب والتدمير . وبذلك فقد الصليبيون إلى غير رجعة تلك المدينة المقدسة [٢] . وقد اقتيد أسرى الفرنج إلى القاهرة وكان دخولهم « يوما مشهودا » حيث زج بهم فى غياهب السجون ، وعلقت رؤوس قتلاهم على أبواب العاصمة [٣] . أما أولئك الأنفار القلائل الذين نجوا من هذه المعركة من الفرنج ، فقد عاشوا ليقصوا على إخوانهم الكارثة التى نزلت بهم ، وليثيروا الشعور الدينى بين اللاتين ضد المسلمين [٤] .

لم يقف الأمر على مجرد ضياع بيت المقدس من أيدى الفرنج ، وانهزامهم عند غزة ، وتنكيل الخوارزمية بهم ، بل أخذ المسلمون فى توجيه الضربات الشديدة إلى باقى ممتلكات اللاتين بسورية . ففى ٦٤٥ هـ / ١٢٤٧ م أرسل الصالح أيوب الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بالعسكر إلى طبرية وعسقلان ، فنازلها وأخذهما من الفرنج ، الأولى فى ٧ يونيو ١٢٤٧ م والثانية فى اكتوبر

---

(١) لم ينج منهم سوى ٢٦ من الاسبتارية و ٣٦ من الداوية. أنظر : Rothelin, 564; Delaville Le Roulx, Hospitaliers, 191 & n. 4.

(٢) السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣١٨ ؛ الانس الجليل ج ٢ ص ٢٦٢ . راجع أيضا : Matt. Paris, I, 491 — 6; Delaville Le Roulx, op. cit., 190 — 1; Röhricht, Gesch. des Königreichs Jerusalem, 860 — 3; Stevenson, 323; Perry, St. Louis, 132 — 4; Conder, The City of Jerusalem, 319-20, 321.

(٣) تراجم رجال القرنين ص ١٧٤ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣١٧ ؛ الانس الجليل ج ٢ س ٣٦٢ ؛ السلامى : مختصر التواريخ ورقة ٦٤ ا .

(٤) Ludlow, Age of the Crusades, 326—7.

من نفس العام ، وهدم ما استجده الفرنج بها من القلاع والحصون [١] .

يتضح مما سبق أن نهوض لويس التاسع بصليبيته كانت له دوافعه . فقد كانت القدس فى حالة مقلقلة خلال النصف الأول من القرن السابع الهجرى إلى أن فقدها اللاتين نهائيا فى ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م قبل قيام الحملة ببضع سنوات ، كما منيت غزة بضربة قاسية على يد القوات المصرية وفئة الخوارزمية وأصيب الفرنج عندها بهزيمة كبيرة ، إذ وقعوا كلهم تقريبا ما بين قتيل وأسير . وفضلا عن ذلك فقد استولى المسلمون على بعض المدن الساحلية بالشام التى كانت تخص الفرنج ، وأصبحت باقى ممتلكاتهم ومعاقلهم فى سورية مهددة بالخطر والضياع [٢] . كما أنزل الخوارزمية باللاتين فى الشرق صنوفا شتى من العذاب ، واستهتروا بحرمة المعابد والكنائس ، وأشعلوا النيران فى قبر المسيح . فكان كل ذلك باعثا على فزع القديس لويس بخاصة وأهل الغرب بعامة ، وسببا فى إثارة شعورهم وحفزهمم للثأر لما نزل بالأراضى المقدسة [٣] .

تلك هى الأسباب الحقيقية الجوهرية التى من أجلها قامت هذه الحملة الصليبية . وإلى جانب ذلك توجد عوامل أخرى محلية ثانوية أسهمت فى تحقيقها.

---

(١) راجع تراجم رجال القرنين ص ١٨٠ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٢٧ ؛ العبر ج ٥ ص ٣٥٨ — ٣٥٩ ؛ المختصر ج ٣ ص ١٨٤ ؛ الانس الجليل ج ٢ ص ٣٦٣ ؛ الذهبى : دول الإسلام ج ٢ ص ١١٥ ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٢٨٨ ؛ مسالك الابصار ج ٢٧ قسم ٣ لوحة ٢٦٤ ؛ ابن الجزرى : ملخص تاريخ الإسلام ورقة ٧٩٤ . أنظر كذلك: Rothelin, 565; Eracles, 433--4; Delaville Le Roulx, op. cit., 193; Röhricht, op. cit., 867-8.

(٢) Cf. Delaville Le Roulx, 193; Perry, 134; Workman, Crusades (Ency. of Religion & Ethics, IV, 350).

(٣) Rothelin, 561-2; Matt. Paris, I, 491-500, 527-3 & II,68.

فقد شاءت الظروف أن تلعب الصدفة فى تلك الفـــترة التى كان فيهـا الشرق اللاتينى يعانى الأمرين ، دورا لم يمكن متوقعا وتساهم فى إخراج فكرة الحملة إلى حيز التنفيذ . ذلك أن الملك الفرنسى لويس التاسع وقـــع فريسة مرض عضال (١) فى أواخر سنة ١٢٤٤ م خيف عليه منـه وأرجف رعاياه بمـوته حين انقطعت أخباره عنهم ، وأخذوا يبتهلون إلى الله فى الكنائس والأماكن العـامة من أجله . وذكر جوانفيل أن هذا المرض الخطير الذى أصيب به الملك قدأدناه من الموت ، حتى أن إحدى السيدات اللائى كن يعنين به وهو على فراش المرض أرادت أن تلقى الثياب على وجهه ظنا منها أنه أسلم روحه إلى بارئهـا . غير أن هناك سيدة أخرى كانت واقفة إلى الجانب الآخر من فراشه ، أبت عليها ذلك قائلة إنه ما زال فيه عرق ينبض . وبينما هو ينصت إلى هذه المحاورة بين هاتين السيدتين . إذ سرعان ما أسبغ عليه المولى ثياب الصحة والعـــافية ، وثاب إلى رشده لأنه كان قبل ذلك مباشرة أبكما لا يستطيـع نطقا من وطـــأة المرض الذى ألم به . فلما أسعفه الكلام طلب منهم أن يجلبوا له الصليب . وتعهـــد منذ ذلك الحين بحمل الصليب والذهاب لغزو الأراضى المقدسة ، إيمانا منه بأن الله من عليه بالشفاء ليقوم بهذه المهمة التى كرس حياته من أجلها (٢) .

---

(١) ذكر جوانفيل أن لويس التاسع مرض أثناء وجوده بباريس أنظر: Joinville (ed.: Wailly), 60. بينما ذكـر دى نانجى أنه أصيب بالمرض وهو فى مدينـة بنتـواز Pontoise شمـال فرنسا . أنظـر : Nangis, Gesta S. Ludovici noni, 200. ولعل الأرجح رواية جوانفيل مؤرخ الحملة وأحد فرسانها ، والذى لازم الملك الفرنسى زهاء ٢٢ عاما . أنظر : Joinville (Johnes' trans.), 378, n. 3.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 60-2. Cf. Nangis, 200; Matt. Paris, II, 37-8.

ويروى بعض المؤرخين الغربيين المحدثين أن القديس لويس حمل الصليب ، وتعهد القيام بحرب مقدسة لإنقاذ اللاتين بالشرق إثر رؤيا ظهرت له أثناء مرضه [١] . فقد تراءى الكثير من المسيحيين خلال الحملة الصليبية الأولى قتال عنيف بين المسيحيين والمسلمين انتصر فيه الأولون . فاعتبر هذا دليلا على أن النصر سيكون حليف القوات الصليبية . أما لويس فقد ظهر له فيما يظهر للنائم مسيحى ومسلم يتقاتلان ، لكن المسلم انتصر على المسيحى فى هذه المرة . وقد فسر هذه الرؤيا بأن افرنج الشرق فى حاجة إلى الغوث ، وأن المولى قد أناط اليه القيام بهذه المهمة [٢] .

ولعل تملك لويس التاسع لبعض الذخائر المقدسة مثل تاج الشوك وقطعة من خشب الصليب الحقيقى ، والتى حصل عليها من جان دى برين الملك الاسمى لبيت المقدس وبلدوين الثانى امبراطور القسطنطينية اللاتينى (١٢٣٧ — ١٢٦١ م)، كان له أثره غير المباشر فى قيامه بحملته الصليبية على مصر من أجل استخلاص بيت المقدس . إذ يروى الباحث الانجليزى كلود رينيه كندر [٣] (١٨٤٨ — ١٩١٠ م) Claude Reignier Conder أن أول تحول فى أفكار الملك الفرنسى نحو الحرب الصليبية كان نتيجة حيازته لهذه الآثار الدينية ، حتى أنه ابتنى لها خصيصا كنيسته المعروفة بالكنيسة المقدسة «Sainte Chapelle» ، التى تعتبر آية

---

(١) Cf. Joinville (Johnes' trans.), 379 & n. 1.

(٢) Bray, 54; Campbell, 424; King, Knights Hospitallers, 238.
وترجح براى أن هذه الرؤيا كانت نتيجة للهذيان الذى أصيب به الملك الفرنسى فى فترة مرضه ، (نفس المرجع والصفحة) . والغالب أنها وضعت فى ذاك الحين لحث الناس على الانخراط فى سلك الحرب الصليبية .

(٣) Conder, The Latin Kingdom of Jerusalem, 346.

من آيات الفن الرفيع فى العصور الوسطى .

لقـــد حملت الكوارث التى توالت على اللاتين بالشرق إلى إيفاد الرسل إلى الغرب يستنجدون به ويدعون أهله إلى حمل الصليب لنجدتهم ، بعد أن أنذروهم بفقدان باقى معاقل الصليبيين فى الأراضى المقـدسة إذا لم يتخذوا خطوات إيجابية فى هذا الشأن . كذلك أنفذ روبرت بطريق بيت المقدس إلى أمراء الغرب سفارة برئاسة واليران Walleran أسقف بيروت تستحثهم بالنهوض بحملة صليبية ضد المسلمين فى الشرق (١) . وبذلك نشر هؤلاء الرسل أبلغ دعاية للحرب الصليبية المنشودة بين الشعوب الأوروبية بصفة عامة وفرنسا بصفة خاصة (٢) .

وقد حضر واليران أسقف بيروت والبرت دى رزاتو Albert de Rezato بطريق أنطاكية اللاتينى وغيرهما من الرسل الذين وفدوا من الشرق ، المؤتمر الكنسى الذى عقد فى مدينة ليون (٢٨ يونيو — ١٧ يوليو ١٢٤٥ م) تحت رئاسة البابا انوسنت الرابع . وتناول هذا المؤتمر مسألة فلسطين ، فسرد واليران على الموجودين ما كانت تقاسيه أرض الميعاد من ويلات ، كما قص عليهم كيف فقد الفرنج مدينة بيت المقدس وغيرها من البلاد التى كانوا يمتلكونها فى الشرق ، وكيف ذهبت أعداد هائلة من صفوة أبطالهم وزهرة فرسانهم ضحية معركة غزة سنة ١٢٤٤ م . بعد ذلك قرأ راهب يدعى ارنولف Arnulph - من جماعة الرهبان الدومنيكان - على الحاضرين الخطابات التى كان يحملها معه من نبلاء فلسطين وكبار الفرنج فيها . وكانت هذه الرسائل تتضمن وصفا مسهبا للفظائع

(١) Rothelin, 565. Cf. Grousset, Crois., III, 426; Perry, 134; Woodhouse, 231.

(٢) Delaville Le Roulx, Hospitaliers, 194.

وأعمال التدمير التى اقترفتها فئة الخوارزمية فى الأراضى المقدسة حتى بدا عليهم التأثر واضحا ، وذلك حسبما ذكر متى الباريزى . ففى مثل هذه الظروف لم يسع البابا انوسنت الرابع الذى كان يترأس هذا المؤتمر إلا المساهمة هو الآخر فى الدعوة للحرب الصليبية للاستيلاء على الأراضى المقدسة ونجدة اللاتين فى الشرق (١).

بعد ذلك أصدر انوسنت المراسيم البابوية لحض الناس على الاشتراك فى هذه الحملة ، إذ وعد كل من يجاهد فى سبيل الأراضى المقدسة بالغفران التام عن خطاياه والتكفير عن آثامه وذنوبه بمجرد انخراطه فى سلك الحرب الصليبية ، تلك التسهيلات التى كان يمنحها البابوات عادة للمحاربين الصليبيين (٢) .

ويهمنا فى هذا المجال أن نوضح الأسباب التى حدت بانوسنت الرابع الدعوة إلى الحرب المقدسة وتقديم التسهيلات اللازمة للصليبيين وتعضيد الملك لويس ؛ وعما إذا كان مدفوعا فى ذلك بدافع دينى خالص ؛ أم أن هنالك بواعث أخرى دفعته إلى اتخاذ هذا الموقف. الواقع أن الحركة الصليبية بصفة عامة صادفت هوى من نفس البابوات ، إذ أنهم كانوا يجدون فيها فرصة طيبة للتخلص من مضايقة أمراء الغرب لهم ، فى وقت كانت فيه البابوية تسعى إلى فرض نفوذها الروحى والدنيوى على دول الغرب المسيحى (٣) . لذا لا يستبعد أن يكون البابا انوسنت قد دعا إلى الحملة الصليبية السابعة وأيد لويس فى مشروعه ، خوفا من أن يطغى

(١) Matt. Paris, II, 64-5, 67-8. Cf. Campbell, 421; Ludlow, 328-9; Grousset, Crois., III, 426.

(٢) Cf. Matt. Paris, II, 86-8.

(٣) Cf. Rapin, Acta Regia, I, 29.

على نفوذه نفوذ رجل دنيوى كالقديس لويس الذى عرف بتدينه وتقواه ، والذى كان يتمتع بمكانة كبيرة بين المسيحيين الغربيين ، مما قد ترى فيه الكنيسة تهديدا لسلطانها . وهكذا يخلو للبابوية الجو لتحقيق مطامعها بتغيب ملك كلويس التاسع عن أوروبا عرف بمواقفه الحازمة حيال الكنيسة ورجال الدين [١] . أضف إلى ذلك أن كفاح انوسنت الرابع مع فريدريك الثانى شغله عن مسألة التفكير الجدى لمساعدة الحركة الصليبية . وغير خفى أن الغرض الأول من المؤتمر الذى عقده فى ليون هو إصدار قرار الحرمان ضد عدوه اللدود الامبراطور الألمانى ، وليس حث المسيحيين فى الغرب الأوروبى على النهوض بحملة صليبية جديدة كما يتبادر إلى الذهن[٢] . وليس أدل على صحة ما نقول مما ذكره هنرى وليم ديفيز (١٨٧٤—١٩٢٨م) — أحد مؤرخى الانجليز المحدثين — من أن انوسنت الرابع كان مجردا من النزاهة الشخصية والحماس الدينى للحركة المقدسة[٣] . وكان الكاتب الفرنسى جول ميشيليه (١٧٩٨ — ١٨٧٤م) Jules Michelet أكثر صراحة عندما ذكر أن البابا لم يترك وسيلة إلا واستخدمها لإحباط مشروع الحملة الصليبية أو على الأقل لتعطيلها وتأخير قيامها ، حتى يتسنى له استخدام القوات الصليبية ضد عدوه الإمبراطور الذى كرس نفسه للقضاء عليه ، ولم يترك سلاحا — دينيا كان أم دنيويا — إلا وشهره فى وجهه [٤] . ويكفى أن قال فيه الراهب

(١) أنظر حبشى : حملة القديس لويس ص ٢٧ . وحول موقف الجهاز الكنسى البابوى من الحركة الصليبية ، أنظر جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين — ص ٧٠ — ٧٢ والحواشى .

(٢) Matt. Paris, II, 68-73, 77-86. Cf. King, The Knights Hospitallers, 241.

(٣) Davis, England, 434.

(٤) Michelet, France, I, 564. Cf. Lamb, 285; Previté-Orton, 74.

الانجليزى متى البازيزى ، الذى عاصر بابويته : « وهكذا سبب البابا وهو أبونا الروحى ـ الذى اقتفى خطوات الامبراطور قسطنطين وكان الأولى به أن يتتبع خطى القديس بطرس ـ كثيرا من القلاقل والاضطرابات فى العالم »[١]. ومما هو جدير بالذكر أيضا أن ثاديوس دى سسا Thaddeus de Sessa مندوب فريدريك فى مجلس ليون ، حاول التوفيق بين العاهلين بأن وعد البابا أن يساهم الامبراطور فى إعادة الامبراطورية البيزنطية إلى حظيرة الكنيسة الرومانية، وأن يجاهد ضد التتار والخوارزمية والمسلمين ، وأن يعيد الأمن والسلام فى ربوع الامارات اللاتينية بالأراضى المقدسة التى كانت مهددة آنذاك بأخطار بالغة . فكان مصير هذه العروض هو الرفض من جانب البابا [٢]. وكذلك توسط الملك لويس أكثر من مرة لدى انوسنت للعفو عن الامبراطور الألمانى لصالح المسيحية، وذلك حتى تتضافر جميع الجهود فى الغرب الأوروبى لتأليف حملة صليبية جامعة حتى يقدر لها النجاح . لكن شفاعة لويس قوبلت أيضا بالرفض[٣] ، مما لا يدع مجالا للشك فى أن البابا لم تكن تعنيه مسألة اعداد حملة صليبية بقدر ما كان يشغله كفاحه مع الامبراطور ، وابتداعه مختلف الأساليب للقضاء عليه . وعلى هذا يمكن تفسير موقف البابا انوسنت فى أنه وجد نفسه مضطرا فى مؤتمر ليون للدعوة لحرب صليبية حتى لا يثير ضده الشعور المسيحى فى الغرب فى وقت كانت فيه الإمارات اللاتينية فى الأراضى المقدسة فى أمس الحاجة إلى المساعدة ، وإن كان فى قرارة نفسه لا يبغى قيام هذه الحملة تحقيقا لأهدافه ومصالحه .

على أية حال ، بعد انتهاء مجلس ليون أوفد البابا فى نفس السنة مندوبا من

(١) Matt. Paris, II, 67.

(٢) Matt. Paris, II, 144-6. Cf. Bray, 78-80; Bell, 176.

(٣) Matt. Paris, II, 498.

قبله يدعى أدون دى شاترو Odon de Châteauroux للتبشير بالحملة الصليبية الجديدة فى فرنسا بناء على طلب الملك لويس التاسع نفسه . كما طاف والـــيران وارنولف وغيرهما من المبشرين بباقى بلدان أوروبا داعين إلى الانخراط فى سلك الحرب المقدسة لنجـــدة إخوانهم اللاتين بالشرق [١] . وعلى الرغم من الدعاية الواسعة للحملة بين دول الغرب المسيحى ، إلا انها لم تلق تأييدا ملموسا أو عطفا كافيا ، لأن ظروفها إبان تلك الفترة لم تكن تسمح لها بالاشتراك فى حرب خارج أراضيها [٢] ؛ على العكس من فرنسا التى وجدت فيها هذه الدعايات تربة خصيبة خاصة وانه كان يحكمها ملك تقى كرس نفسه وحياته لخدمة هذا الهدف الصليبى والعمل على تحقيقه [٣] .

لقد أخذ القديس لويس التاسع على عاتقه مهمة النهوض بهذه الحملة . ولكى يثير بين جنود فرنسا الغيرة والحماس ، عقد فى نفس العام (١٢٤٥م) مجمعـــا كبيرا فى مدينة باريس حضره المندوب البابوى أدون دى شاترو وكبار رجال مملكته ورجال الدين فيها من الأساقفة ورؤساء الأساقفـــة ورؤساء الأديرة وغيرهم . وخطب لويس فى الحاضرين داعيا اياهم إلى حمـــل الصليب . وتمكن بفصاحته من إثارة غيرتهم الدينية ، وضرب لهم المثل لذلك ، إذ كان أول من أدرج نفسه فى سجل الحرب المقدسة [٤] . وحذا حذوه كثير من الامراء والاشراف ؛

---

(١) Matt. Paris, II, 116; Nangis, 200. Cf. Grousset, Crois., III, 426, N. 2; Bray, [illegible].

(٢) مما يذكر فى هذا المجال أنه عندما ذهب والبران للتبشير بالحملة فى انجلترا عام ١٢٤٥م، منعه ملكها هـــنرى الثالث مبيناً له أن حالة البلاد لاتسمح لها بايفاد جيوشها الى الخارج . أنظـــر : Matt. Paris, 116-7.

(٣) Rothelin, 566; Matt. Paris, II, 116-7.

(٤) Nangis, 200; Matt. Paris, II, 214. Cf. Ludlow, 335; Bray, 55.

فبادر بالانضمام إلى الحملة اخوته الثلاثة روبرت كونت ارتوا ، والفونس كونت بواتييه ، وشارل كونت انجو ، وكذلك هيج الرابع دوق برجنديا Hugues de Bourgogne [١] ، ووليم دى دامبيير أمير الأراضى الوطئة[٢] Guillaume de Dampierre comte de Flandre ، وجوانفيل مؤرخ هذه الحملة وأحد فرسانها، وعدد كبير من البارونات وكبار رجال الاقطاع بفرنسا وفى طليعتهم بطرس كونت بريتانى وهيج العاشر كونت لامارش . ولم تشأ الملكة مرجريت دى بروفانس[٣] زوجة لويس التاسع أن تتركه يسافر دونها ، فحملت هى الأخرى شارة الصليب ، واقتدت بها بعض النبيلات نذكر من بينهن زوجة كل من كونت بواتييه وكونت ارتوا .

سرت الحماسة بين الجميع ، وهبت فرنسا عن بكرة أبيها بمقاطعاتها المختلفة وطبقاتها المتعددة للسير فى ركاب الملك لويس والانضواء تحت لوائه ، وأخذ عدد المتطوعين يزداد يوما بعد يوم[٤]. وكان من بين الذين حملوا الصليب كثير من رجال الدين ليكونوا قدوة لغيرهم من رجال الدنيا ، مثل رئيس أساقفة كل من ريمز Rheims والسين Sens ،واسقف كل من بورج Bourges ولون Laon[٥].

(١) هو هيج الرابع دوق بورجنديا (١٢١٨ — ١٢٧٢م) الذى ينحدر من سلالة أسرة كابت ، وقد اشترك فى صليبية ١٢٣٩م بقيادة تيبود كونت شامبانيا ، كما قام بتحصين عسقلان فى ١٢٤٠م . راجع : Grousset, Crois., III, 429 & n. 1.

(٢) فيما يتعلق بوليم أمير الأراضى الواطئة راجع : Grousset, op. cit., 429 & n. 2.

(٣) هى ابنة ريموند برنجيه Raymond Berenger كونت بروفانس ، وقد تزوج لويس التاسع منها فى ١٢٣٤م ، وصاحبته فى حملتيه على مصر والشام . راجع عن ذلك : Kitchin, I, 334.

(٤) Lacroix, Vie militaire, 130.

(٥) Joinville (ed. Wailly), 62; Matt. Paris., II, 118.

وإلى جانب هذه الأعداد الهائلة من النبلاء والفرسان ورجال الدين ، كنا نجد الاطباء وموردى المؤن والتجار والجزارين وصانعى الأسلحة والعمال (١).

وفضلا عن ذلك فقد التجأ الملك الفرنسى إلى خدعة دينية طريفة لاكتساب أكبر عدد ممكن من رعاياه فى الحملة بطريقة جديدة لم يسبقه اليها احد من قبل منذ بدء الحركة الصليبية . فقد كان من عادة لويس أن يقدم إلى كبار رجال المملكة من النبلاء والبارونات الهدايا بمناسبة عيد الميلاد من كل عام . ففى ليلة عيد الميلاد لسنة ١٢٤٥م دعا فرسانه وكبار رجال مملكته وأهدى كلا منهم وشاحا كان قد أمر بحياكة علامة الصليب عليه دون أن يعلم أحد بذلك ، وهى الشارة التى كان يحملها كل من يشترك فى الحروب الصليبية. وعندما لبسوا الخلع الملكية أبصر كل منهم علامة الصليب مطرزة على كتف زميله ، ففهموا الحيلة التى لجأ اليها مليكهم ،وارتسمت على وجوههم ابتسامة الفرح،ولم يمكنهم إلا الانصياع لرغبته بالانخراط فى سلك الحملة الصليبية. وهكذا ابتكر القديس لويس طريقة مبتكرة للتبشير بالحملة والدعاية لها ، حتى أنهم اطلقوا عليه منذ ذلك الحين لقب « صائد الحجاج » و « بطرس الجديد »(٢).

لقد كانت الاستعدادات فى فرنسا قائمة على قدم وساق من أجل الحملة الصليبية منذ أن حمل الملك الفرنسى الصليب . فكان أول ما اهتم له لويس التاسع هو مسألة اعداد أسطول قوى لنقل الجند والعتاد عبر البحر حتى يضمن لحملته النجح . ولما لم يكن لديه بحرية خاصة (٣) يمكنه الاستعانة بها ، فقد استأجر

---

(١) Bray, 82-3.

(٢) Matt. Paris, II, 127, 128. Cf. Campbell, 424-5; Ludlow, 335; Kitchin, I, 339.

(٣) من الطريف أن أحد مؤرخى السابين — وهو ابن فضل الله العمرى — أدرك هذه المسألة ، فذكر فى كتابه (رسالة فى أمر مشاهير ممالك الفرنج ص ٣) : «وهو =

عدداً من السفن من جنوة ومرسيليا ، وعقد معها اتفاقيات بهذا الشأن (١) . من ذلك المرسوم الذى استصدره فى أكتوبر ١٢٤٦ م الخـــاص باستئجار ست عشرة سفينة جنوية ما بين كبيرة وصغيرة من أجل حملته الصليبية (٢) . أما البندقية فقد رفضت تزويده بما يحتاج إليه من سفن (٣) نظـرا لعلاقاتها الطيبة مع مصر (٤) . إذ كانت تخشى قيام حملة صليبية بحرية عليها تؤدى إلى إغلاق أبواب التجارة فى وجهها وهى مصدر ثروة طائلة بالنسبة لها (٥) .

كذلك استعد لويس بتوفير الذخيرة والمؤن للحملة ـ تلك المشكلة التى تعتبر بحق أول ضمين لنجاح الحرب فى أى عصر من العصور ـ فنراه يرسل قبل قيامها من فرنسا بحوالى عامين جماعة من الرجال إلى قبرص على رأسهم شخص يدعى نيقولا دى سوزى Nicolas de Sousi لشراء واعداد ما يحتاجه الجيش، من الميرة والنبيذ والحبوب ، حتى يجدها معدة عند مروره بالجزيرة التى اعتبرت

= (أى لويس) فى عساكره فى البر أطول منهم (يعنى الممالك الفرنجية الأخرى) فى البحر يدا وأثبت رجلا ، وما له اسطول ولا مراكب ... »

(١) Heyd, I, 409 & n. 3. — كان مندوبو الملك لويس وعلى رأسهم اندريه بولان André Polin من رجال الدين بفرنسا ورينوه دى فيشيه Renaud de Vichiers كبير الداوية بها ، قد استأجروا ٢٠ سفينة من مرسيليا (١٦ أغسطس ١٢٤٦ م) لنقل الجند والعتاد . راجع Delaville Le Roulx, Hospitaliers, 194 n.5.

(٢) Une charte de nolise de S. Louis, cf. Ar. Or. Lat. ,II, 232-6.

(٣) Daru, 181.

(٤) كان للبندقية فى الاسكندرية حينذاك فندقان لسكن التجار البنادقة ولتخزين بضائعهم كما كان لهم كنيسة خاصة وغير ذلك من الامتيازات التى منحهم اياها سلاطين بنى أيوب . انظر عن ذلك : Heyd, I, 410-2; Lane-Poole, History of Egypt, 218.

(٥) Grousset, Crois., III, 428.

المكان الذى تلتقى فيه الجيوش الصليبية الذاهبة إلى الشرق (١) .

وكان من الضرورى أيضا أن يعمل الملك الفرنسى على توفير المال اللازم لتغطية نفقات الحملة ، من حيث الصرف على الجند وتيسير وسائل النقل وإعداد المؤن والذخيرة وغير ذلك . وقد تحصل الملك على المبالغ اللازمة من الضرائب والعشور التى جمعها من رجال الدنيا والدين الذين لم يشتركوا فى الحملة بشخصهم. فقد دعا البابا انوسنت الرابع الملوك والأمراء والنبلاء وكبار تجار المدن الذين لن يذهبوا بأنفسهم لغزو الأراضى المقدسة ، ان يمدوا الفرق الصليبية بالمصاريف اللازمة لمدة ثلاث سنوات كل حسب مورده ، وذلك للخلاص من خطاياهم . كما دعا جميع رجال الكنيسة أن يساهموا بجزء من عشرين من دخل الكنائس لمدة ثلاث سنوات ، اما الكرادلة فيدفعون العشور ، ويعفى من هذا من يشترك فى الحملة من رجال الدين . وقد أثارت هذه الضريبة الكثير من السخط بين رجال الكنيسة ، ولكن الرسالة البابوية هددت بحرمان كل من يخالف هذه التعليمات . وكانت هذه الأموال تجمع بواسطة عمال البابا (٢) . كذلك اصدر البابا قانونا بأن يكون الصليبيون فى أمان من مطالب دائنيهم على الديون المستحقة عليهم لمدة ثلاث سنوات (٣) . ولما كان الجيش الصليبي جيشا اقطاعيا بتكوينه ، فقد كان على كبار رجاله من النبلاء والبارونات إعداد المال اللازم للصرف

---

(١) "Et les i envoia por lui faire atrait de viandes et d'autres choses, qui mestier li pooient avoir et amenerent .L. chevaus de pris. Et fu lor chevetaine .I. vaillant serjant, qui avoit non Nicolas de Sousi." Eracles, 436. Cf. also Joinville (ed. Wailly), 72.

(٢) Matt. Paris, II, 87-8. Cf. Wallon, I, 244-5; Woodhouse, 231.

(٣) Bray, 56.

على فرقهم ، كأن يبيعوا أو يرهنوا أراضيهم وممتلكاتهم [1] . فنرى جوانفيل مثلا يحدثنا فى مذكراته أنه لم يتأخر عن رهن أفضل أملاكه للصرف على فرسانه التسعة الذين اصطحبهم معه إلى الشرق على نفقته الخاصة [2].

بعد أن فرغ لويس التاسع من المشاكل الخاصة بالنقل والتموين ومــــوارد الحملة ، عمل على تنظيم شئون مملكته وإقرار الأمن والطمأنينة بين ربوعها قبل سفره إلى الشرق ، كما كان كبار الصليبيين المسافرين بصحبته منهمكين فى الاستعداد هم أيضا من أجل الحملة [3] . على أى حال أناب الملك الفرنسى عنه فى حكم البلاد

---

(١) Bray, 85. — لما كان للصليبيين الأوائل من رغبـة فى الفتح والتوسـع والحصول على المجـد فى حروبهم ، فانهم لم يتوانوا ليس عن مجرد التغرب عن عائلاتهم وأوطانهم فحسب ، إنما كانوا يبيعون أو يرهنون أفضل أراضيهم لمواجهة مصاريف الحملة . ويزخر تاريخ الحملات الصليبية بأمثال جود فرى دى بويون دوق اللورين السفلى وريموند الصنجيلى ووليم دوق نورمانديا من قواد الحملة الصليبية الاولى ، أولئك الذين باعوا أو رهنوا دوقياتهم أو أملاكهم لتغطية نفقات أمثال تلك الحملات . أنظر : Joinville (Johnes, trans.), 381 & n. 1; Pirenne, Les Grands Courants, II, 86 & n. 1.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 64. Cf. Bray, 106.

(٣) كان من عادة أولئك الذين يحملون الصليب أن يسووا أمورهم قبل القيام بحملاتهم إلى الأراضى المقدسة ، وأن يكتبوا وصاياهم ويحددوا أنصبة أولادهم . ونظراً لما كانت تنطوى عليه هذه الحملات من أخطار ، فقد اتخذ هؤلاء المحاربون إجراءات كما لو كانوا مقبلين على الموت ، كأن يعيدوا مثلا لأصحاب الحقوق ما اغتصبوا من حقوقهم لإرضاء ضمائرهم . ورغم أن جوانفيل لم يشعر أنه اقترف اى وزر، إلا أنه تبعاً لهذه العادة ، عمل على التكفير لجيرانه ورعاياه عن كل ما قد يشكون فيه . ويعتقد الكثيرون أن الجـزء الاكبر من الاديرة التى شيدت فى أواخر القرن الحادى عشر للميلاد والقرون التالية ، كانت من نتائج رد النبلاء ما اغتصبوه من الكنيسة قبل قيامهم بتلك الحملات . أنظر : Joinville (Johnes' tr.), 380 & n. 1.

الملكة الوالدة بلانش صاحبة قشتالة تدير شئونها فى فترة غيابه . ثم استدعى باروناته وكبار رجال مملكته فى باريس ، حيث أقسم المقيمون منهم بين يديه يمين الطاعة والولاء بمراعاة حقوقه ، متعهدين بالمحافظة على البلاد والاخلاص لأبنائه الصغار ، وعدم التفكير فى خيانته أو اغتصاب ملكه أثناء تغيبه عن فرنسا [١] .

لقد تأخر المسير من فرنسا زهاء ثلاث سنوات منذ ١٢٤٥م وذلك للاستعداد من أجل الحملة [٢] . وبعد أن تم إعداد كل شيء غادر الملك الفرنسى باريس إلى ميناء اجمورت [٣] Aigues-Mortes جنوبى فرنسا فى ١٢ يونيو ١٢٤٨ م [٤] ، وكان بصحبته جانب كبير من الصليبيين من بينهم زوجته الملكة مرجريت واخويه شارل كونت انجو وروبرت كونت ارتوا ، أما شقيقه الثالث الفونس كونت بواتييه فقد بقى فى فرنسا بعض الوقت لجمع نجدات وإمدادات أخرى ليلحق بالجيش الفرنسى فيما بعد [٥] . ومر الصليبيون فى الطريق بمدينة ليون حيث كان يقيم البابا انوسنت الرابع . فأفضى لويس باعترافه بين يدى البابا حاصلا منه على صك

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 64-6. Cf. Bray, n.p. 85-6; Wiegler, The Infidel Emperor, 256; Lacroix, La Chevalerie et les Croisades, 182.

(٢) Lacroix, Vie militaire, 130 .

(٣) تعرف باللاتينيه باسم (Aquae Mortuae) أى « المياه الراكدة » . أنظر : Kitchin, I, 341 & n. 1. واجمورت الحالية هى بعينها أجمورت الصليبية أنظر : Bordeaux, 217.

(٤) Calmette, 419 .

(٥) Joinville (ed. Wailly), 98. Cf. Campbell, 426.

لوحـة رقم ١



ابحار لويس التاسع ورجاله من فرنسا قاصدين مصر

هذه الصورة توجد فى مخطوط يرجع الى القرن الرابع عشر ،
وهى مأخوذة من كتاب :
Joinville, St. Louis (ed. Wailly), p. 453.

الغفران على آثامه ، ثم توسل اليه أن يصفح عن الامبراطور فريدريك لصالح المسيحية دون جدوى . بعد ذلك غادر لويس وجيشه ليون الى أجمورت حيث صادفتهم فى الطريق بعض الأخطار والمكدرات التى لم يلق الملك الفرنسى بالا اليها [1].

وأخيرا خرجت الحملة من ميناء اجمورت فى عدد ضخم من المراكب ما بين كبيرة وصغيرة، تقل الملك الفرنسى وزوجه وغالبية الجيش فى ٢٥ أغسطس ١٢٤٨م [2]. وأسندت قيادة الأسطول الى الجنوية لعدم خبرة الفرنسيين بشئون الملاحة . [3] وكان يتقدم قطع الاسطول السفينة التى تحمل علم القديس دنيس [4] شعار الحملة ،

---

(١) Matt. Paris, II, 268–70. Cf. Ludlow, 336; Bray, 114; Wiegler, 256. — وعندما اقترب الصليبيون من أفنيون بعد مغادرتهم ليون ، هاجمهم أهلها عاملين فيهم النهب والسلب ، وقتلوا عدداً منهم ، وذلك لوجود عداء قديم مستحكم بين الملكية الفرنسية وسكان أفنيون الذين قاسوا الأمرين على أيدى عسكر لويس الثامن أبو القديس لويس . وقد أراد بعض النبلاء الفرنسيين فى الحملة تأديب هذه المدينة، لكن لويس التاسع منعهم من ذلك . وعندما بلغت الحملة مرسيليا هاجمها سكانها أيضا وألحقوا بها خسائر كبيرة . فثار كبار الصليبيين للمرة الثانية وكادوا أن يدمروا هذه المدينة لولا أن تدخل الملك وأفهمهم أنهم بعملهم هذا سيضرون بالحملة وبالهدف الذى قامت من أجله إضراراً بالغا . راجع متى الباريزى نفس الجزء والصفحة .

(٢) Cf. Bréhier, 222; Grousset, Crois., III, 427; Campbell, 425; Davis, Invasion of Egypt, 27; Ludlow, 336.

(٣) Cf. Ludlow, 336; Bray, 113.

(٤) هذا العلم هو الشعار الخاص لدير القديس دنيس بفرنسا ، ولونه أحمر وهو مشقوق من جانبه الطليق بحيث كان يبدو عندما يرفرف كألسنة النار . وكان هذا العلم فى أول الأمر شعار رجال كنيسة دنيس الخاص فى حروبهم ، ولم يصبح شعار ملوك فرنسا إلا بعد ضم مقاطعتى بنتوازومنت Mantc الى الدومين الملكى فى عهد فيليب أغسطس وابنه لويس الثامن . فأصبح منذ ذلك الحين شعار ملوك فرنسا فى حروبهم . راجع :
Joinville (Johnes' trans.), 390-1 & n. 2.

وأرسى الملك فى ميناء النمسون Limassol جنوبى قبرص التى اعتبرت الملتقى العام للجيوش الصليبية ، فى السابع عشر من سبتمبر من نفس السنة (١) . وقد أبحر بعض الصليبيين ومن بينهم جوانفيل وفرسانه من ميناء مرسيليا فى سبتمبر ١٢٤٨م، ووصلوا قبرص بعد رحلة بحرية تعرضوا فيها للمخاطر ، حيث وجدوا الملك الفرنسى قد سبقهم إليها (٢) .

عندما وصل الصليبيون قبرص شعروا بأنهم فى ديارهم مع بنى عشيرتهم ، وبأنهم ليسوا غرباء فى هذه الجزيرة التى كانت وقتئذ تحت حكم أسرة لوسنيان اللاتينية المسيحية ، فكانت من ثم دولة صديقة لهم . وقد تلقى هنرى الأول لوسنيان ملك الجزيرة لويس التاسع ورجاله بالترحاب فى عاصمة ملكه الافقوسية Nicosia ، وشاركه شعبه والموارنة (٣) وممثلو الداوية والاسبتارية الذين كانوا

---

(١) Bréhier, 222; Delaville Le Roulx, Hospitaliers, 194; Guizot, Saint Louis, 58; Bray, 116; Wiegler, 256.

وجدير بالذكر أنه بعد مغادرة الملك لويس واخوته فرنسا الى الشرق الاسلامى ، أرسل البابا انوسنت الرابع خطابا رقيقا الى الملكة بلانش مشجعا اياها ، راجيا منها أن تضع ثقتها فى المولى الى أن يعود أبناؤها الى بلادهم سالمين . أنظر : Epistola Innocentii IV papae super profectione Ludovici noni regis in subsidium Terrae Sanctae, cf. Michaud, Crois., VI, 203.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 70-2. Cf. Le Bas, I, 186; Campbell, 425; Bray, 116; Masson, 97; Bordeaux, 218.

(٣) نسبة الى القديس مارون St. Maron ، وهم طائفة كاثوليكية لبنانية كانت موضع رعاية ملوك فرنسا وحمايتهم فى فترة الحروب الصليبية . وقد اشترك عدد كبير منهم فى حملة لويس على مصر ، وساهموا فى موقعة المنصورة فى فبراير سنة ١٢٥٠ م . كما كانت جموعهم الغفيرة فى استقبال الملك الفرنسى وفلول قواته عند وصولهم عكا فى مايو ١٢٥٠م، حيث قدموا لهم الهدايا والتحف النفسية ابتهاجا بنجاتهم من الأسر ، حتى أن لويس التاسع أرسل =

بالجزيرة فى الترحيب بالجيش الصليبى والملك الفرنسى(١) .

اطمأنت الحملة الفرنسية للإقامة فى قبرص ، وأمضت زهاء ثمانية أشهر بها (سبتمبر ١٢٤٨ - مايو ١٢٤٩م) قبل تحركها صوب الديار المصرية . وقد أمدتنا الاصول الغربية بمعلومات متفرقة حول هذه الفترة الطويلة التى أمضاها الصليبيون بالجزيرة . ولعل أهم حادثة وقعت خلالها هى تلك التى انفرد بذكرها المؤرخ الغربى المعاصر غليوم دى ناجى ؛ إذ ذكر أن الصليبيين ألقوا القبض على بعض الأشخاص كان قد أرسلهم سلطان مصر الصالح أيوب لدس السم للويس التاسع وقواد جيشه حتى يتخلص منهم (٢) . وأن عدم تعرض باقى مراجع الحملة ، شرقية كانت أم غربية ، الى هذه الحادثة الخطيرة يدفعنا الى الشك فى صحتها . ولو كانت هذه المؤامرة قد دبرت فعلا ، لوجدنا الصليبيين الذين اشتركوا فى الحملة وكتبوا عنها ، أمثال جوانفيل وجوفروا دى بليه والملك لويس نفسه ، يبالغون فى وصفها ويهولون من أمرها .

وفى تلك الأثناء أيضا أرسل جغطاى (٣) Äljigidäi أحد ايلخانات التتار فى وسط فارس الى لويس التاسع حالما ذاع فى الشرق أنباء مشروعه الصليبى ، سفيرين

= اليهم خطابا فى ٢١ مايو من نفس السنة يشكرهم فيه على حسن استقبالهم له . أنظر :
Lettre de S. Louis a l'Emir des Maronites du Mont Liban, cf. Lamartine, Voyage en Orient, I, 535-6.

(١) Davis, Invasion of Egypt, 22; Grousset, Crois., III, 430-1 ; Delaville Le Roulx, 194; Wallon, I, 271-2.

(٢) Nangis, cf. Michaud, Crois., VI, 201.

(٣) يعرف جغطاى خان فى المصادر الغربية بأسماء عديدة مختلفة هى : Elchalchai, Elgigaday, Elchelchai, Elchalcai, Elcheltay, Ercalthay, Eschartay, Achatay. Cf. A. S. Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 241, n. 4. Cf. also Joinville (Johnes' trans.) 385, n. 1; Wiegler, 256; Wallon, I, 277.

هما مرقس وداود (١) من المسيحيين النساطرة (٢) مزودين برسالة الى الملك الفرنسي يعرض فيها جغطاى خان استعداده للمساهمة مع الفرنسيين فى انتزاع بيت المقدس وفلسطين بأجمعها من أيدى المصريين ، ورغبته فى التحالف معهم ضد أعدائهم المسلمين(٣) . والواقع أن هذه الرسالة تعتبر عملا دبلوماسيا عظيما قام به المغول (٤) .

لقد اعتبرت سفارة المغول على جانب عظيم من الأهمية والخطورة لما كانت تدعو إليه من التعاون مع الفرنسيين ضد المسلمين الآمنين ، حتى لقد اعتقد المؤرخ لويس بريبه أن قرار لويس التاسع مهاجمة مصر كان على اثر الدعوة التى تلقاها من ايلخان التتار (٥) . ويجب أن نتقبل هذا الرأى بشىء من الحذر لعدة أسباب . أولا: أن سفارة المغول لم تؤت ثمارها من حيث التعاون مع الصليبيين ، كما باءت

(١) داود مسيحى نسطورى ويحتمل أنه من الموصل ، أما مرقس فهو نسطورى أيضا والغالب أنه كان فى خدمه المغول . أنظر : Atiya, op. cit., 241 & n. 5.

(٢) نسبة الى شخص يدعى نسطور Nestorius الذى كان بطريقا للقسطنطينية فيما بين عامى ٤٢٨ و ٤٣١م. ويتلخص مذهبه فى أن للمسيح طبيعتين: هما طبيعة الانسان وطبيعة الله ، وان الجزء الالهى من المسيح لم يولد من العذراء ، وبذا تصبح العذراء أما للمسيح الانسان فحسب. وقد أدين نسطور هذا فى مجمع أفسس المسكونى عام ٤٣١م برئاسة بطريق الاسكندرية كرلس الاول فى عهد الامبراطور البيزنطى تيودسيوس الثانى، حيث اعتبرت حركته هرطقة والحادا. انظر عن ذلك كتاب : Maclean, Nestorianism, cf. Ency. of Religion & Ethics, IX, 323-32; Atiya, op. cit., 78, 164, 224, 237, 240, 242, 244, 245, 247, 249, 250, 252.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 74. Cf. also Nangis, 201; Rothelin, 569-71; Atiya, op. cit., 241-2.

(٤) Atiya, Crussade in the Later Middle Ages, 242.

(٥) Bréhier, 222.

بعثة لويس التاسع إلى ايلخان التتار بالفشل . وثانيا : أن فكرة الهجوم على مصر كانت أقدم من ذلك بكثير حسبما يتضح مما سبق أن ذكرناه فى صدر الفصل الأول . فضلا عن أننا لا نجد من بين مصادر الحملة ما يؤكد أن سفارة المغول كانت عاملا محركا فى توجيه لويس شطر مصر .

ويحسن قبل أن نعرف ما كان من أمر هذه السفارة أن نمهد لها بالحديث عن العلاقات بين المسيحية والتتار فى تلك الفترة . الواقع أن الدارس لتاريخ هذه العلاقات يجد أن كلا منهما كان يعمل على استغلال الآخر لمصلحته الشخصية . فاذا نظرنا إلى التتار نجد أنهم كانوا يحكمون يومذاك رقعة فسيحة تشمل شمال الصين وتركستان وفارس وجورجيا وقسما من جنوب روسيا. وقد أخذوا منذ وقت غير قريب فى وضع الخطط الأولية لتكوين امبراطورية قوية لهم تدخل فى نطاقها بلاد العراق والشام(١) . وكانوا يعرفون جيدا مبلغ الضعف الذى وصلت اليه الخلافة العباسية فى بغداد ، وانها لابد أن تسقط قريبا عند أول ضربة قوية توجه اليها . وقد أدركوا أيضا أنه يستحيل على مصر ـ زعيمة العالم الاسلامى ـ أن تقف من الهجوم المغولى على بغداد موقف المتفرج ، بل لا بد لها من أن تهب فى وجههم لصد عدوانهم الذى كان يهددها هى الأخرى بشر مستطير. لذا وجد التتار أن أسلم الطرق لتحقيق مآربهم القادمة فى رقعة الشرق الاسلامى هى العمل يدا واحدة مع الصليبيين للقضاء على سلطان مصر فى الشرق (٢) . أما الجانب المسيحى فقد كان له هدف آخر ، إذ كانت سياسة البابوية آنذاك ترى

---

(١) Cf. Bréhier, 222; Sedillot, Hist. générale des Arabes, I, 292–3.

(٢) راجع حبشى : حملة القديس لويس ص ١١ — ١٢ و ٣٦ — ٣٧.

إلى استمالة هذا العنصر وادخاله فى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية واستخدامه فى صراعها ضد القوات الإسلامية فى الشرق الأدنى (١) . ويرجع أول تبادل للسفارات بينهما إلى منتصف القرن الثالث عشر للميلاد، فقد أرسل البابا انوسنت الرابع أثناء انعقاد مجلس ليون سنة ١٢٤٥ م سفيرين مزودين بخطابات لدعوة جيوك Güyük ايلخان التتار العظيم (١٢٤٦ - ١٢٤٨ م) ورعاياه لاعتناق المسيحية على مذهب الكنيسة الرومانية الكاثوليكية . كما أرسل فى نفس الوقت بعثة أخرى على رأسها شخص يدعى اسلين Ascelline اللبباردى من الرهبان الدومنيكان إلى الايلخان العظيم لنفس الغرض. ويمكن القول بأن ردود ايلخان التتار كانت تبشر بالخير(٢) . لذا لم يجد لويس التاسع من جانبه غضاضة فى السير على نهج سياسة البابا انوسنت فى الاستعانة بالمغول والاتفاق معهم، إذ كان يعلق آماله على اكتساب هذا العنصر فى ديانته للحصول على مساعدته ضد المسلمين من جهة ولتقوى به الكاثوليكية من جهة أخرى ، خاصة وأنه كان يدرك ميول التتار - لا سيما زعيمهم جيوك - إلى النساطرة واستوزاره جماعة من المسيحيين واعتماده عليهم فى إدارة شئون بلاده(٣) .

على أى حال أكرم الملك الفرنسى وفادة سفيرى ايلخان المغول مرحبا بفكرة التعاون معه ، وسمح لهما بالعودة إلى بلادهم فى ٢٧ يناير ١٢٤٩م ، وارسل معهما بعثة مكونة من ثلاثة من جماعة الاخوان الدومنيكان هم أندريه André

---

(١) Atiya, op. cit., 233-4.

(٢) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 238-41. Cf. also Maycock, The Papacy, 53.

(٣) Rothelin, 569. Cf. also Dubeux et Valmont, Tartarie, 329; Pirenne, II, 151.

وغليوم دى لونجمو Guill. de Longjumeau ويوحنا الكركسونى Jean de Carcassonne الذى كان قد عاد من الشرق فى ذاك الحين ، فعينه رئيسا لهذه البعثة نظرا لما اكتسبه من خبرة مع التتار . وارسل مع البعثة هدية ثمينة إلى الايلخان عبارة عن خيمة على هيئة كنيسة صغيرة نقشت بداخلها بعض آيات الكتاب المقدس وبعض الصور الدينية،وذلك بقصد استمالته إلى الغرب.سارت البعثة من قبرص إلى انطاكية ومنها أخذت الطريق البرى إلى الموصل فتبريز ، ووصلت فى النهاية إلى معسكر جغطاى خان فى وسط فارس . ولسوء الحظ كان جيوك كبير التتار قد مات.ولم يكن جغطاى مستعدا لمواصلة السياسة التى سار عليها سلفه من قبله فيما يختص بالتعاون مع الملك الفرنسى . وهكذا فشلت البعثة فى مهمتها من حيث اكتساب التتار إلى الغرب الكاثوليكى أو استخدامهم فى الحملة الصليبية ، لأن الدسائس التى اعقبت وفاة جيوك أحدثت حالة من الفوضى منعت قيام أى عمل جدى . ولم تعد البعثة إلا فى سنة ١٢٥١ م بعد انتهاء حملة لويس على مصر ورحيله هو وقواته إلى فلسطين(١) .

---

(١) Joinville (ed. wailly), 74, 268 - 70; Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 242 - 3.

وعند عودة هذه السفارة ارسل الملك لويس التاسع بعثة أخرى مكونة من اثنين من الرهبان هما برثولماوس دى كرمونا Bartolomeo de Cremona ،وغليوم دى روبرك Guill. de Rubruck الذى دون أخبار رحلته ومغامراته فى الشرق على هيئة مذكرات قدمها الى لويس التاسع . وقد ابحرت البعثة من قيسارية فى ١٢٥٢ م حتى وصلت الى بلاط منجكا (١٢٥١ — ١٢٥٩ م) Mongka ايلخان التتار فى منغوليا . وقد استقبل منجكا أفراد البعثة ، ولكنها فشلت فى التأثير عليه ، وعاد روبرك الى أوروبا فى يوليو ١٢٥٤ م بعد أن ترك زميله برثولماوس للاستمرار فى التبشير بالمسيحية الغربية بين التتار . انظر عن ذلك الكتاب التالى :

= Atiya, op. cit., 243-6.

وفى فترة اقامة لويس التاسع بقبرص ، وفدت اليه هناك أيضا الامبراطورة مارى زوجة بلدوين الثانى امبراطور القسطنطينية اللاتينى وابنة جان دى برين صاحب عكا والملك الاسمى لبيت المقدس،فى طلب العون منه ومن كبار الصليبيين لإقرار مركز زوجها المزعزع فى عاصمة ملكه . ولكنها لم تلق الاعطفـــا ووعودا خلابه لم تلبث أن ذهبت أدراج الرياح بعد مغادرتها الجزيرة [١] .

ولقد ابثت الحملة الصليبية فى قبرص قرابة ثمانية أشهر على الرغم من رغبة الملك الفرنسى فى التقدم السريع إلى مصر ، وذلك نزولا على نصيحة البارونات والقواد بالانتظار ريثما يلحق به بقية الجيش الذى لم يصل إلى الجزيرة بعد [٢] . فاستقر الرأى على تمضية فصل الشتاء فيها وأن تبدأ العمليات الحربية فى الربيع القادم [٣] .

والواقع أن هذه المدة الطويلة التى قضاها الفرنج فى الجزيرة دون القيام بأى عمل مجد نافع ، قد أضرت بالحملة أكثر مما أفادتها . ونضرب مثـــلا لذلك بالصراع الذى قام فى شهر مارس سنة ١٢٤٩ م بين الجنوبية والبيازنة فى عكا ، الذى تطور إلى حرب مكشوفة بينها فى شوارع المدينـــة استمرت ٢١ يوما واستخدمت فيها آلات القتال المختلفة . وقد رجحت كفه البيازنة على الجنوية الذين قتل أحد قناصلهم . وأخيرا عقدت هدنة لمدة ثلاث سنوات بين الفريقين

= وللمزيد من التفاصيل عن البعثات المتبادلة بين لويس التاسع وخانات المغول أثناء اقامته فى الشرق ، انظر جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع فى الشرق الأوسط — ص ٢٣٥ — ٢٧٣ .

(١) Joinville (ed. wailly), 76–8 & 76 n. 137-1; Guizot, 60-1.

(٢) Joinville (ed. wailly), 74. Cf. Grousset, Crois., III, 432; Guizot, 58.

(٣) Campbell, 426.

بعد توسط يوحنا دبلين Jean d'Ibelin حاكم أرسوف وبفضل ما كان يتمتع به الملك لويس التاسع من مكانة بين إفرنج الشرق . ولقد تسبب هذا القتال فى تأخير إبحار الصليبيين من قبرص فترة من الوقت . ذلك أن الملك الفرنسى كان قد طلب من الجنوية بعكا عددا من السفن لتسهيل نقل الجند والمهمات عبر البحر إلى مصر. ولكنه لم يتلق أية معونة بسبب القتال الذى نشب حينذاك بين هاتين الجاليتين، ولم تعد قطع الأسطول اللازمة إلا بعد أن استتب السلم بينهما ، وكان ذلك قبل مغادرة الحملة الجزيرة بفترة وجيزة . وتعتبر هذه الحرب طورا من أطوار الصراع المستمر بين الجنوية والبيازنة فى عكا ،الذى امتلأ به تاريخ النصف الأول من القرن الثالث عشر للميلاد . وكانت غالبا ما تقوم لأسباب تتعلق بالملكية أو المسائل التجارية ؛ كما كانت من العوامل التى أضعفت قوى الفرنج فى الشرق اللاتينى ، إلى درجة أنه لم يكن بوسعهم الصمود فى وجه الهجمات التى كانوا يتعرضون لها أو الدفاع عن ممتلكاتهم ومعاقلهم [١].

وغير ذلك فان هذه الوقفة الطويلة التى أمضاها الجيش بقبرص كانت سببا فى نفاد الأموال التى كان الصليبيون قد جمعوها قبل سفرهم للصرف على أنفسهم فى الشرق ، حتى أن الملك لويس اضطر إلى إمداد عدد كبير منهم بالمال اللازم [٢]. فقد حدث مثلا أن فرسان جوانفيل التسعة الذين اصطحبهم معه أخذوا يهددونه بعد وصولهم قبرص بالتخلى عنه ان لم يدفع لهم رواتبهم فى الوقت الذى لم يبق معه سوى مبلغ ضئيل من المال الذى جمعه قبل مغادرته فرنسا . ولكن عندما علم الملك الفرنسى بذلك ، أمر بإدخال جوانفيل وفرسانه تحت نفقته متعهدا

(١) Grousset, Crois., III, 433, 436—7; Heyd, I, 343—4.

(٢) Cf. Wallon, I, 279—80.

بالصرف عليهم من ماله الخاص (١).

كذلك استنفد الفرنج خلال إقامتهم بقبرص معظم المؤن والمهمات المكدسة التي كانوا قد جمعوها لتموين قواتهم عند إقتتالهم مع المسلمين، حتى أنهم اضطروا إلى انتظار ورود مؤن جديدة . وكان أهل البندقية يقدمون للحملة ما كانت تحتاج إليه من الأزواد نظير مقابل ؛ فإن البنادقة كانوا قوما نفعيين يجرون وراء مصالحهم الخاصة ، وكان شعارهم « لنكن أولا بنادقة وبعد ذلك مسيحيين » (٢).

أما الامبراطور فريدريك الثانى فقد بعث إلى الصليبيين كميات وافرة من الميرة دون مقابل . ومن ثم أرسل اليه ملك فرنسا وكبار رجال الحملة كتابا باللاتينية يشكرونه فيه لهديته . كما أرسل لويس التاسع فى نفس الوقت الى البابا يلتمس منه الصفح عن فريدريك فى سبيل المسيحية، ولصالح الهدف الصليبى الذى قامت الحملة من أجله ، ولو أن هذا الالتماس لم يحرك شعور الرحمة فى قلب ذلك البابا العنيد (٣).

لقد كانت هذه الفترة الطويلة التى أمضاها الفرنج فى قبرص خطة خاطئة ، إذ أضاع الجيش الفرنسى وقتا ثمينا فى الجزيرة عاد عليه بكثير من الاضرار . فقد استنفد مؤونته ، ولم يبق على شىء من تلك التلال الممتدة من الحنطة والحبوب وبراميل النبيذ التى رآها جوانفيل مكدسة فى الخلاء على ساحل الجزيرة عند

---

(١) Joinville (ed. wailly), 76. Cf. Wallon, St. Louis, I, 280; Guizot, 61.

(٢) Matt. Paris, II, 306. Cf. Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 114; Davis, Invasion of Egypt, 23 -4; Ludlow, 337; Joinville (Johnes' trans.), 384 n. 1.

(٣) Matt. Paris, II, 306—7. Cf. Joinville (Johnes' trans.), 384 & n. 1; Davis, Invasion of Egypt, 24; Ludlow, 337.

وصوله إليها(١) . فكل هذا قد نفد عن آخره وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن الأسطول الصليبي لم يستطع مغادرة الجزيرة إلا بعد تدبير المؤونة اللازمة له من جديد(٢) . كما أنفق الفرنج أموالا كثيرة بدون حساب حتى أنه لم يبق معهم إلا القليل مما لا يكفى لسد نفقاتهم. كذلك انغمسوا فى اللهو والملذات نتيجة الكسل والتراخى مما أضعف قواهم وأنهكها ، وباتوا فى أمس الحاجة إلى فترة أخرى للراحة والاستجمام (٣) . وقد ترتب على ذلك أن اختل نظام الجيش ، وانتشرت الأمراض بين صفوفه ، حتى أنه مات ما يقرب من ٢٥٠ من رجال الحملة قبل تحركها من الجزيرة صوب مصر(٤). وفى أثناء هذه العطلة الطويلة وصلت أخبار الحملة إلى سلطان مصر مما أتاح له الفرصة للاستعداد لمواجهة الصليبيين بتحصين مدينة دمياط التى كان يتوقع هجومهم عليها ، وتزويدها بالمقاتلة والمؤن والذخيرة (٥).

ولو أن الصليبيين قد أبحروا مباشرة إلى مصر دون البقاء فى قبرص طيلة هذه الأشهر الثمانية، لوصلوا هنالك فى الخريف حيث يكون الجو ملائما لهم من الوجهتين الحربية والصحية ، ولباغتوا المصريين قبل أن يجدوا وقتا كافيا للتسلح والتأهب لملاقاتهم . فضلا عن أن فصل الخريف يتفق وجنى بعض المحاصيل وخزنها فيمكنهم حينئذ نهبها والاستفادة منها (٦) .

(١) Cf. Joinville (ed. Wailly), 72.

(٢) Cf. Davis, op., cit., loc. cit.

(٣) Grousset, Crois., III, 431.

(٤) Matt. Paris, II, 323—4. Cf. Ludlow, 337.

(٥) راجع ابن واصل ج ٢ لوحة ١٣٥٦ .

(٦) Davis, Invasion of Egypt, 23. أنظر أيضا جمال الدين الشيال : مجمل تاريخ دمياط ص ٢٧ .

ويذكر بعض المؤرخين والكتاب المحدثين أنه كما كان لهذه المطلةفى قبرص مضارها ، فلها أيضا مزاياها التى تتلخص فى أنها أعطت للملك لويس وجيشه الفرصة لوضع « التكتيكات » الحربية وخطط الهجوم المقبلة على الديار المصرية بعناية وحذر ، كما أنها جعلت جميع قوات الشرق اللاتينى تلتف حول الملك الفرنسى وتنضوى تحت لوائه فى عدوانه على الإسلام (١) . ولكن مهما كانت الدوافع أو الأسباب التى دعت إلى ذلك التأخير الطويل فى الجزيرة،فإنهقد أضر بالحملة أكثر مما أفادها .

كل ذلك يتصل بالمعسكر الصليبى فى قبرص ، أما فى مصر فقد كان الصالح أيوب مشغولا بنزاعه مع الناصر يوسف صاحب حلب . إذ توجه بعسكره من مصر إلى الشام لاسترجاع حمص التى كان قد استولى عليها صاحب حلب . وبينما كان الصالح نجم الدين بدمشق وجنده على حصار حمص،تواترت إليهالأخبار بخروج الصليبيين فى جموعهم العظيمة من جزيرة قبرص وعلى رأسهم ملكفرنسا لويس التاسع (٢) يتأهبون لقصد مصر . فاضطر إلى عقد الصلح مع صاحب حلب

---

(١) حبشى : حملة القديس لويس ص ٣٥ : راجع أيضا Grousset, Crois., III, 431; Delaville Le Roulx, Hospitaliers, 195.

(٢) يعرف الملك الفرنسى لويس التاسع عند كتاب المسلمين بعدة أسماء هى : الفرنسيس أنظر (تراجم رجال القرنين ص ١٨٤ ؛ فوات الوفيات ج ١ ص ٨٣ ؛ العبر ج ١ ص ٣٥٩ ؛ حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٤ ؛ تتمة المختصر ج ٢ ص ١٨١ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٣) ؛ والافرنسيس أنظر (مرآة الزمان ج ٨ لوحة ٥١٧) ، وبواش (خطط المقريزى ج ١ ص ٢١٩ ؛ المنهل الصافى ج ١ ورقة ٣٥٨ ا) ، ورواد فرنس (خطط المقريزى ج ١ ص ٢١٩) ، وريدا فرنز (السلامى : مختصر التواريخ ورقة ٦٤ ب) ، والفريساس (ابن رسول : نزهة العيون ج ٢ ورقة ١٩٨) ، وفراسين (أبو المحاسن : مورد اللطافة ورقة ٥٣) ، وريدا فرانس — أى ملك فرنسا — "Roi de France" أنظر (ابن واصل ج٢ =

وأسرع بالعودة إلى مصر كيما يعد العدة لملاقاة الفرنج ودفع شرهم (١) .

وكانت الأنباء الخاصة بحركة لويس التاسع تصل إلى الملك الصالح نجم الدين من جانب الامبراطور فريدريك الثانى حسبما جاء فى بعض المراجع العربية . فقد روى كل من المقريزى والعينى (٢) أن الامبراطور فريدريك الذى كان مصافيا للصالح ايوب كما كان مصافيا للملك الكامل محمد من قبله ، بعث برسول متنكر فى زى تاجر إلى نجم الدين وهو بدمشق وعساكره على حصار حمص يخبره بأن لويس التاسع عازم على المسير بجحافله الجرارة إلى ارض مصر لامتلاكها . أما ابن ايبك فكان أكثر دقة، إذ ذكر أن فريدريك هذا بعث برسالة إلى السلطان « يعرفه بوصول الفرنسيس اليه وهو طالب لثغر دمياط ، وهذا الفرنسيس يسمى الريد افرنس.ثم قال الانبرور (الامبراطور فريدريك) فى كتابه للسلطان انه وصل فى خلق كثير وقد اجتهدت غاية الاجتهاد على رده

= لوحة ٣٥٥ ب ؛ أبو الفرج : تاريخ مختصر الدول ص ٤٥٢ ؛ السلوك ج١ قسم٢ ص٣٣٣ ؛ النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٢٩ ؛ المختصر ج ٣ ص ١٨٧ ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ ورقة ٣٠٠ - ٣٠١ ؛ مسالك الابصار ج ٢٧ قسم ٣ ورقة ٢٦٦) . والاسم الاخير أكثرها شيوعا لدى المؤرخين .

(١) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٤ ب و ٣٥٦ ا . أنظر أيضا النجوم الزاهرة ج٦ ص٣٢٩ ؛ المختصر ج ٣ ص ١٨٦ ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٢٩٤ . ــ هذا وقد ذكر صاحب عقد الجمان (ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٢٩٦) أن الصالح أيوب رحل عن دمشق قاصدا مصر يوم الاثنين ٤ محرم ٦٤٧هـ/١٩ ابريل ١٢٤٩م . انظر جدول تواريخ الحملة بآخر الكتاب .

(٢) خطط المقريزى ج ١ ص٢١٩ ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠١ . أنظر كذلك:
Reinaud, Extr. des historiens Arabes, 448.

عن مقصده وخوفته فلم يرجع لقولي ، فكن منه على حذر » (١) .

وقد يبدو غريبا أن يفشى الامبراطور فريدريك أخبار الحملة الى المصريين بينما يقـــدم المساعدات المادية للصليبيين. ولكن الدارس لموقف فريدريك من الحملة الصليبية على مصر ، يجد أنه كان يتبع سياسة ذات لونين أو ذات شقين متناقضين . احدهما يقتضيه معاونة الحملة وامدادها بما تحتـــاج اليه من المؤونة والمال باعتباره مسيحيا وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة . وليس أدل على هذه الصفات مما ذكره العيني (٢) من أنه « قيصر المعظم ... حافظ بيت المقدس ، معز امام رومية ، مالك ملوك النصرانية ، حامى الممالك الفرنجية ، قائد الجيوش الصليبية » . لذا كان طبيعيا وهذه ألقابه والحملة حملة صليبية تهدف الى الاستيلاء على الأراضى المقدسة ، أن يمد يد العون الى القـــديس لويس ، خاصة وان العلاقات بينهما كانت طيبة وطيدة ، إذ توسط الملك الفرنسى مرارا لدى البابا انوسنت الرابع من أجل العفو عن فريدريك ، كما دافع عنه ضد الاتهامات التى كان البابا يوجهها اليه . أما الشق الثانى من سياسته فيرمى الى افشاء اسرار الحملة الصليبية الى سلطان مصر . ولم يكن هذا غريبا من فريدريك بالذات ، إذ كانت علاقته بالصالح أيوب وبأبيه الكامل قائمة على الود وحسن التفاهم. ويكفى أنه عقد مع الكامل محمد معاهدة سلمية ـ تكاد أن تكون الأولى من نوعها فى تلك العصور التى اشتهرت بالتعصب الدينى ـ تنازل له فيها السلطان عن طيب خاطر عن مدينة بيت المقدس . كما كان المسلمون فى مصـــر وسورية وفى جزيرة صقلية يكنون للإمبراطور الالمانى كل تبجيل واحترام ، لسياسة التسامح الدينى التى سار

---

(١) ابن ايبك : كنز الدرر جـ ٧ ورقة ٣٦٤ ـ ٣٦٥ . راجـــع أيضا :
Grousset, Crois., III , 427-8.

(٢) عقد الجمان (مجموعة الحروب الصليبية) ص ١٩٩ ـــ ٢٠٠ .

عليها فى عصر امتاز بالتعصب الأعمى فى هذه الناحية [١] . ويكفى للدلالة على ذلك انه لم ينقذ جوانفيل من الموت عندما وقع فى أسر الاسطول المصرى خلال تراجع الفرنج من المنصورة إلى قاعدتهم فى دمياط ، الا عندما صاح أحـــد المسلمين الذين فى الاسطول بأنه ـ أى جوانفيـــل ـ من أقارب الامبراطور فريدريك الثانى [٢] . وكان من نتيجة ذلك ان اعتبره كثير من العرب أنه أميل إلى الاسلام منه إلى النصرانية ، وأنه كان يؤثر القرآن على الانجيل [٣] . بل لقد اتهمه أحد مؤرخى الغرب المحدثين بأنه كان يهدف إلى التحالف مع سلطان مصر الصالح ايوب ضد الصليبيين [٤] . وفى الوقت نفسه لا ينبغى أن يغرب عن الفكر أن أخبار الحملة كانت تتسرب إلى المصريين عن طريق جواسيسهم [٥] . يؤيد هذا ما ذكره أحد المحاربين الصليبيين ـ ويدعى جاى دى ميلان ـ من أن

---

(١) راجع المختصر ج ٣ ص ١٤٨ . وكذلك . Davis, Invasion of Egypt, 4

(٢) Joinville (ed. Wailly), 174, 176.

(٣) العينى : عقد الجمان (مجموعة الحروب الصليبية) ص ١٩٩ . أنظر أيضا المختصر ج ٣ ص ١٤٨ .

(٤) Conder, The Latin Kingdom of Jerusalem, 346.

وللمزيد من المعلومات حول موقف فريدريك الثانى من الحركة الصليبية أنظر جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ـ ط . ثانية ـ ص ٩٩ ـ ١٠٠ والحواشى .

(٥) أفرد محمد بن منكلى فصلا هاما فى الشروط الواجب توافرها فى العيون والجواسيس ، منها أن يكون للجاسوس ميل طبيعى لا غرضى لشغل هذا العمل ، وأن يكون ممن يحسن الكتابة ولسان المرسل اليهم ، وأن يكون شجاعا مقداما ، له دربة لما هو بصدده ، وأن يكون ممن له جلد على الجوع والعطش ، وأن يكون معه مال مخفى لاحتمال أن تطول اقامته بين أعدائه فيمكنه مثلا أن يفتح دكانا ليخفى أمره وتستمر قضيته . أنظر ابن منكلى : الأحكام الملوكية لوحة ١١٤ ـ ١١٥ .

سلطان مصر عرف بأنباء الحملة عن طريق عيونه (١) . ثم أن الفترة الطويلة التى أمضاها الفرنج فى قبرص كانت كفيلة بتسرب دقائق الحملة إلى الخارج . وليس أدل على ذلك من أن جغطاى أحد ايلخانات التتار ارسل سفارته المشهورة إلى لويس التاسع أثناء إقامته بقبرص عندما ذاع فى الشرق الاسلامى أنباء مشروعه الصليبى (٢) . وأن الملك الناصر داود بن المعظم صاحب الكرك ، امتنع عن تسليم الكرك إلى الملك الصالح ، بعد أن وعده بها ، عندما بلغته حركة الفرنج إلى الديار المصرية (٣) .

كيفما كان الأمر ، ما أن علم الملك الصالح أيوب بحركة الفرنج حتى عاد مسرعا إلى مصر ، ونزل بأشموم طناح (٤) فى يوم الثلاثاء ٣ صفر ٦٤٧ هـ (٥) /

(١) Cf. Guy de Melun, 612.

(٢) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 241.

(٣) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٠٥ ا.

(٤) أشموم طناح إحدى المدن المصرية القديمة ،وهى تقع على الشاطىء الشرقى للبحر الصغير الذى كان يسمى وقتذاك بحر أشموم نسبة إلى هذه المدينة . وجاء فى ابن دقماق (كتاب الانتصار جـ ٥ ص ٦٨ — ٦٩) أنها « تعرف باسم أشموم طناح وأشموم الرمان ، وهى قصبة كورة الدقهلية ، وأنها مدينة ذات حمامات وأسواق وجامع وفنادق ... ومساحتها ١٧٥٨ فدانا » . راجع أيضا ابن مماتى (قوانين الدواوين ص ٨٩) . وقد استمرت أشموم طناح قاعدة لإقليم الدقهلية إلى آخر عصر دولة المماليك . وفى أوائل الحكم العثمانى نقلت القاعدة إلى مدينة المنصورة . ومنذ ذلك الحين اضمحلت أشموم طناح وزال ما كان فيها من آثار المدنية والعمران . وأصبحت اليوم قرية عادية من قرى مركز دكرنس بمدينة الدقهلية. راجع النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٢٨ حاشية ١ . وكذلك : Maspéro & Wiet, Materiaux pour servir à la géographie de l'Égypte, XXXVI, 17–19; Mohammed Ramzi, Rectifications à l'ouvrage d'É. Amélineau, 300–1.

(٥) يقول ابن واصل (مفرج الكروب جـ ٢ لوحة ٣٠٥ ب) ان نزول الصالح أيوب =

١٨ مايو ١٢٤٩ م » ليكون فى مقابلة الفرنج إذا وصلوا إلى دمياط » (١) . وفى الحال أخذ فى الاستعداد لمواجهة العدو وإعداد الجيوش للدفاع عن مملكته . فعمل على تحصين مدينة دمياط لعلمه أنها كانت هدف الصليبيين فى حملاتهم السابقة على مصر ، وخوفه أن يجرى عليها ما جرى فى أيام أبيه الملك الكامل محمد . ثم أنه كان يتوقع هجوم الفرنج عليها إذا أخذنا برواية ابن ايبك (٢) . كما أن أحد المحاربين الصليبيين ويدعى جان دى بومون ـ وكان شاهد عيان للحملة ـ ذكر فى خطاب له حول الاستيلاء على دمياط ، أن الجيش الصليبى أبحر من قبرص ميمما شطر مصر بقصد محاصرة دمياط واحتلالها (٣) ، مما يؤيد رواية ابن ايبك فى أن دمياط كانت هدف الفرنج . فزودها الصالح أيوب بالمسيرة والذخيرة وآلات الحرب (٤) . ثم عهد إلى طائفة بنى كنانة (٥) ، وهم قوم

= باشموم طناح كان فى ٣ صفر ٦٤٧ هـ ، ويؤيده العينى فى ذلك (عقد الجمان جـ ١٨ قسم ٢ لوحة ٢٩٥) . ويقول المقريزى (الخطط جـ ١ ص ٢١٩ ؛ السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٣٣) ان ذلك كان فى المحرم ٦٤٧ هـ / ابريل ١٢٤٩ م . وقد أخذنا بالرواية الأولى باعتبارها أقوى وأرجح ؛ لأن ابن واصل عاصر أحداث هذه الحملة التى كتب عنها ، وكان شاهد عيان لجانب كبير من أحداثها .

(١) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٥٥ ب . أنظر كذلك : Wiet, Hist. de la Nation Égyptienne, IV, 375.

(٢) كنز الدرر جـ ٧ ورقة ٣٦٥ .

(٣) Jean de B.aumont, cf. Ar. Or. Lat., I, 389.

(٤) جاء فى وصية الصالح أيوب إلى ابنه المعظم التى انفرد بذكر نصها النويرى فى كتابه « نهاية الأرب جـ ٢٧ لوحة ٩٠ » أنه بلغ من وفرة المؤن والامدادات الموجودة بدمياط أنها كانت تكفيها ٢٠ سنة . وقد يكون فى هذه الرواية بعض المبالغة ، الا أنها تدل على الاستعداد الهائل بدمياط لمواجهة الفرنج . أنظر أيضا ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٥٦ ب ؛ وابن ايبك : كنز الدرر جـ ٧ ورقة ٣٦٩ .

(٥) لاتوجد فى مراجع هذا العصر فرقة فى الجيش الأيوبى تعرف ببنى كنانة أو الكنانية =

مشهورون بالشجاعة والإقدام ، بحماية المدينة من الداخل والدفاع عنها ضد غائلة المعتدين . بعد ذلك أصدر السلطان أمره من أشموم طناح إلى نائبه بالقاهرة الأمير حسام الدين بن أبى على بإعداد قطع الاسطول من صناعة مصر وبمائها بالعدد والمقاتلة ، إذ لم يكن يخفى عليه أهمية القوة البحرية المصرية فى دفع أية إغارة على مصر تأتيها من وراء البحار حيث تمتد شواطئها مسافة أميال طويلة فى البحر المتوسط (١) . فشرع الحسام فى تجهيز السفن ، وأرسلها إلى دمياط شيئا بعد شيء . ثم أوفد السلطان الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ مقدم العساكر على رأس جيش كبير إلى البر الغربى لدمياط (٢)، حتى يكون فى مقابلة الصليبيين عند وصولهم إلى الشاطىء المصرى ، ليحول بينهم وبين النزول إلى أرض مصر (٣) .

= أو السكنانيين، إذ كان أمراء البيت الأيوبى يسمون فرقهم عادة باسمائهم. فالكاملية مثلا تنتسب إلى الكامل محمد ، والعادلية إلى العادل الصغير ، والصالحية إلى الصالح أيوب وهكذا . ولعل هذه الطائفة هى إحدى القبائل العربية التى استقرت بمصر من بقايا العرب الذين وفدوا إليها وشهدوا الفتح الاسلامى لها على يد عمرو بن العاص فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب . أنظر المقريزى (البيان والاعراب ص ٢٠ـ٢١). هذا ، وقد ذكر المقريزى أنه كانت توجد فى أيامه طائفتان فى مصر بهذا الاسم ، هما بنو كنانة بن خزيمة بن مدركة . . . بن عدنان بصعيد مصر ، وبنو كنانة بن عذرة بن زيد اللات . . . بن قضاعة بالدقهلية والمرتاحية (نفس المرجع السابق ص ٥٠ — ٥١ و ٦٢ — ٦٣) . والراجح أن الذين عهد إليهم الصالح أيوب بحماية دمياط هم كنانة عذرة الذين يقطنون بالدقهلية لقربها من دمياط ، هذا إذا أخذنا بالرأى القائل بأن بنى كنانة قبيلة عربية . راجع أيضا السويدى . سبائك الذهب ص ٢٨ ؛ وكذلك :

Michaud, Crois., IV, 133.

(١) أنظر حبشى : حملة القديس لويس ص ٣٦.

(٢) فيما يتعلق بالبر الغربى وموقعه ، أنظر خريطة رقم (٢) الخاصة بنزول الفرنج إلى جزيرة دمياط .

(٣) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٥٥ ب — ٣٥٦ أ. راجع كذلك السلوك جـ١ قسم ٢ =

وهكذا كان كل من المصريين والصليبيين يتأهب للمعركة المنتظرة . فبينما كان الصالح أيوب يعد العدة لملاقاة الأعداء ودفعهم عن بلاده بتحصينه دمياط التى كان يتوقع هجومهم عليها، كان الملك لويس التاسع وجيشه يتأهبون للرحيل عن جزيرة قبرص بحدهم وحديدهم صوب الشاطىء المصرى آملين احتلال الديار المصرية حتى يسهل عليهم غزو البيت المقدس الهدف الأصلى لحملتهم .

= ص ٣٣٢ ؛ خطط المقريزى ج١ ص ٢١٩ ؛ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٩ — ٣٣٠؛ المختصر ج ٣ ص ١٨٧ ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠١ ؛ ابن بهادر . كتاب فتوح النصر ورقة ١٥٥ ؛ مسالك الأبصار ج ٢٧ مجلد ٣ لوحة ٢٦٦—٢٦٧ ؛ نهاية الارب ج ٢٧ لوحة ٩٠ .

الفصل الثالث

الاستيلاء على دمياط

الابحار من قبرص ـ مدينة دمياط ـ أسباب توجه الفرنج إليها ـ نزول الفرنج إلى البر الغربي لدمياط ـ فرار فخر الدين بالعسكر ـ دخول الفرنج المدينة ـ الاضطراب فى مصر والقاهرة ـ رحيل السلطان بالعسكر الى المنصورة ـ استيلاء جند دمشق على ميناء صيدا ـ موقف الأقباط بمصر من الحملة ـ الفرنج فى دمياط ـ المناوشات بين الفريقين ـ مناقشة مقترحات للصلح ـ تحرك الفرنج من دمياط .



قضى الجيش الصليبي فى قبرص فترة الخريف والشتاء وجانبا من الربيع (سبتمبر ١٢٤٨ — مايو ١٢٤٩م) . وأخيرا بعد أن تم إعداد كل شيء عقد الملك الفرنسي مجلسا من البارونات وقواد الجيش للتشاور فى أمر الرحيل[١] . وفى يوم الخميس ١٣ مايو ١٢٤٩م[٢] أقلعت الحملة من ميناء ليمسون ميممة شطر مصر فى أسطول ضخم من الشوانى والبطس والمسطحات الحربية التى تقرب من ١٨٠٠[٣]

(١) Guy de Melun, cf. Michaud, Crois., IV, 611.

(٢) تختلف الرواية المسيحية فى تاريخ ابحار الفرنج من قبرص . فيقول كل من كونت ارتوا وجان دى بومون انهم ابحـــروا فى ١٣ مايو . أنظر: Comte d'Artois, 609; Jean de Beaumont, 389. ، وفى تاريخ هيرقل انهم ابحـــرو يوم الخميس ٢٠ مايو انظر : Eracles, 437. ، ويقول جوانفيل ان ذلك كان يوم السبت ٢٢ منه . انظر Joinville (ed. Wailly), 82. — ومن المحتمل أن هذا الاختلاف يرجع الى قيام الحملة على دفعات فى فترات متفاوتة .

(٣) اختلف مؤرخو الفرنج فى تقدير عدد السفن الصليبية . فذكر جوانفيل انها كانت تتكون من ١٨٠٠ قطعة . راجع Joinville (ed. Wailly), 82. ؛ بينما ذكر جاى دى ميلان انها بلغت ١٥٠٠ قطعة عندما أصبح الفرنج قبالة دمياط غير تلك التى شتتها الرياح والتى تقدر بـ ١٥٠ سفينة راجع : Guy de Melun, 613 ، اما جان دى بومون فيذكر أن عددها كان ينيف على ١٢٠ من بينها أكثر من ٨٠ سفينة من الحجم الصغير . راجع Jean de Beaumont, 389. وليس من المعقول أن تكفى ١٢٠ سفينة أو حتى ضعف هذا العدد لنقل مايقرب من ٥٠,٠٠٠ مقاتل ومعهم عدتهم وعتادهم . وقد أخذنا برواية جوانفيل لأنه كان شاهد عيان للحملة ، ومؤرخا عرف بالدقة والصدق فيما يكتب ، ثم أن تقدير جاى دى ميلان — الذى اشترك فى الحملة هو الآخر — قريب مما ذكره مؤرخنا . ويؤيد جوانفيل كثير من المؤرخين المحدثين . راجع Lane-Poole, Hist. of Egypt, 232; Lacroix, Vie militaire, 132; Funck-Brentano, Crois., 108; Lavisse & Rambaud, Hist. générale, II, 336; Wiegler, 257; Workman, Crusades, 350.

قطعة مابين كبيرة وصغيرة تحمل نحو ٥٠٫٠٠٠ [1] مقاتل من مشاة وفرسان ، ومعهم عدتهم وسلاحهم ومؤنهم وخيولهم .

ويصور لنا جوانفيل الحملة عند إبحارها تصويرا رائعا ؛ فالبحر قد كسته السفن لكثرتها ، حتى أنه لم يعد يرى سوى الساريات وهى تعلو وتهبط فوق سطح الماء . ولكن رياحا عاصفة اعترضتها فى طريقها فشتت شملها حتى أنه لم يبق مع الملك عند وصوله إلى الساحل المصرى من فرسانه البالغ عددهم ٢٨٠٠ أكثر من ٧٠٠ فارس ؛ أما الأغلبية فقد دفعتهم الرياح دفعا فى الاتجاه الشمالى الشرقى

---

(١) لم تمدنا الأصول الغربية بمعلومات دقيقة وافية عن عدد الصليبيين . فيقدر جوانفيل مثلا عدد الفرسان بحوالى ٢٨٠٠ دون اشارة الى عدد المشاة راجع كتاب Joinville (ed. Wailly) 82. انظر أيضا : Jean de Beaumont, 390. أما المراجع الشرقية فقد اختلفت حول تعداد الفرنج . فذكر كل من أبى المحاسن (النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٩) والذهبى (دول الاسلام ج ٢ ص ١١٨) انهم كانوا ٩٥٠٠ فارس و١٣٠٫٠٠٠ من المشاة سوى الخدم والعمال والبحارة . ولا شك أن هذا العدد كما يقول ديفيز مبالغ فيه . راجع : Davis, Invasion of Egypt, 71. ويقدر معظم المؤرخين المسلمين الجيش الصليبى بنحو ٥٠٫٠٠٠ مقاتل راجع (ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٥ ب ؛ السلامى : مختصر التواريخ ورقة ١٦٥ ا ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ١٥٥ ؛ العبر ج ٥ ص ٣٥٩ ؛ المختصر ج ٣ ص ١٨٧ ؛ تتمة المختصر ج ٢ ص ١٨١) ، والغالب أن التقدير الأخير هو الصواب لأنه يتفق وما وقع من الفرنج بين قتيل وأسير فى حملتهم على مصر . ويحاول ماس لا ترى التوفيق بين هذه الروايات المتناقضة ، فيقدر عدد الجيش بـ ٢٥٫٠٠٠ مقاتل من فرنسا وحدها ، عدا الفرق التى انضمت إليه من انجلترا وسورية اللاتينية وقبرص وشبه جزيرة المورة وايطاليا ، راجع : Mas Latrie; Hist. de Chypre, I, 350. ويؤيده فى ذلك كل من جروسيه وبوردو . راجع : Grousset, Crois., III, 438, n. 1; Bordeaux, 229.

صوب عكا وشواطىء الشام، ولم يتمكنوا من إدراك الملك إلا بعد وقت طويل[١].
وبعد أن سكنت العاصفة تابعت الحملة رحلتها حتى وصلت فى الساعة الثانية من نهار الجمعة ٤ يونيو ١٢٤٩ م[٢] / ٢٠ صفر ٦٤٧ هـ إلى الفرع الشرقى للنيل، وأرست بالبر الغربى تجاه دمياط.

وكان هـذا البر الغربى يسمى فى المراجع العربية « بحيرة دمياط » (٣) أو « الجزيرة » (٤)، وهى تسمية مجازية لأن مياه البحر الأبيض تحيط به شمالا، ومياه النيل تحيط به شرقا، كما كان يسمى أيضاً « جيزة دمياط »[٥] والجيزة فى

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 82.

(٢) تضاربت الأقوال حول تاريخ وصول الفرنج إلى البر الغربى لدمياط؛ فقد ذكر أبو شامة فى تراجم رجال القرنين ص ١٨٣؛ والمقريزى فى كتابيه: الخطط ج ١ ص ٢١٩ والسلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٣؛ والعينى فى عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠١؛ والعمرى فى مسالك الأبصار ج ٢٧ مجلد ٣ لوحة ٢٦٧؛ وأبو الفداء فى المختصر (مجموعة الحروب الصليبية) ج ١ ص ١٢٦ — انهم وصلوا يوم الجمعة ٢٠ صفر ٦٤٧ هـ الذى يوافق يوم ٤ يونيو ١٢٤٩ م. ويتفق معهم فى ذلك من مؤرخى الغرب المعاصرين للحملة كل من روتلان وهرقل وكونت ارتوا وجان دى بومون. أنظر: Rothelin, 589; Eracles, 437; Comte d'Artois, 609; Jean de Beaumont, 389. ويمكن القول ان كلا من: Joinville (ed. wailly), 82. وابن واصل (مفرج الكروب ج ٢ لوحة ٣٠٦ ا) قد أخطأ فى جعل الوصول يوم الخميس وليس يوم الجمعة أنظر: Stevenson, 326,n. 1. وكذلك الملحق الرابع الخاص بتواريخ الحملة.

(٣) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٠٦ ا.

(٤) السيوطى: تاريخ الخلفاء ص ١٨٣؛ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٣٠؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠١.

(٥) المقريزى: السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٣؛ ابن الاثير: الكامل فى التاريخ (مجموعة الحروب الصليبية) ج ٢ قسم ١ ص ١١٤.

اللغة الناحية ، أو لعله سمى كذلك لأنه يجاز اليه من دمياط (١) .

أما دمياط فتقع على الجانب الأيمن للفرع الشرقى للنيـــل عند اتصاله ببحر الروم (٢) . وهى إحـدى المدن المصرية العريقة فى القدم ، يرجع تأسيسها إلى ماقبل الفتح العربى . وإن كان تاريخها قبل الاسلام يحيط به الغموض ، إلا أنها أصبحت منذ الفتح هدفا لغارات الروم فى العصر الأول ولحملات الفرنج فى عهد الحروب الصليبية . ولقد أدى ذلك فى النهاية ، وبعد حملة لويس التاسع على وجه الأخص ، إلى اتفـاق المماليك البحرية فى شعبان ٦٤٨ هـ / نوفمبر ١٢٥٠ م على تخريبها ودك أسوارها وحصونها ، وبناء دمياط الجديدة إلى الداخل بعيدا عن

(١) راجـــع : Blochet, Hist. de l'Egypte de Makrizi, 509 n. 2. جمال الدين الشيال : مجمل تاريخ دمياط ص ٢٠ . أنظر كذلك الخريطة رقم (٢) الخاصة بنزول الفرنج إلى البر الغربى لدمياط .

(٢) لم تقدم لنا كتابات الرحالة والخطط المصرية ما يسمح بتـكوين فـكرة واضحـــة عن موقع مدينة دمياط الصليبية بالضبط ، خاصة وأن المماليك قد قاموا بهدمها فى شعبان ٦٤٨ هـ « حتى خربت كلها ومحيت آثارها » . راجع خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٣ ؛ مسالك الابصار ج ٢٧ قسم ٣ لوحة ٢٧٥ ؛ الانتصار ج ٥ ص ٨١ ؛ الخطط التوفيقية ج ١١ ص ٤٦ . كما أن كتب الرحالة الغربيين الذين زاروا مصر خلال القرنين الماضيين مليئة بالاخطاء والمغـالطات فى هذه الناحية . فقد ذكر كل من مييه (١٦٥٦ — ١٧٣٨ م) وتوماس شو (١٦٩٢ — ١٧٥١ م) أن دمياط القديمة هى بعينها البلوزيوم (الفرما). راجع عن ذلك Maillet, Descript. de l'Egypte I, 126-7; Shaw, Travels, II, 64. كما خلط ريتشارد بوكوك (١٧٠٤ — ١٧٦٥ م) بين المدينتين القديمة والحديثة . راجع : Pococke, Voyage, I, 54-5. كذلك لم يستطع جوليان الذى عاش فى القرن التاسع عشر الميلادى تحديد مكانها تحديداً نهائياً . راجع : Julien, Note sur L'emplacement de l'ancienne Damiette,73. والواقع أن مسألة تحـديد موقعها ومعالمها تحديداً دقيقـاً قاطعاً مازالت تتطلب حفـائر علمية وأبحـاث أثرية واسعة فى الرقعـة الفسيحة الـكائنة فى الشمال والشمال الشرقى من دميـاط الحـالية .

شاطىء البحر ، حتى تخلص البلاد من شر اعتداء الفرنج عليها وطمعهم فيها (١).

وكانت دمياط مدينة حصينة غاية الحصانة تحيط بها الأسوار والأبراج . كما كان عند مدخل فرع دمياط برج مشحون بالمقاتلة والسلاسل الحديد المتينة التى تمتد منه إلى برج مقابل على شاطىء دمياط لمنع سفن العدو من العبور فى النيل والوصول إلى المدينة (٢) . وقد بلغ من حصانتها أن قوات جان دى برين قائد الحملة الصليبية الخامسة لم تتمكن من الاستيلاء عليها إلا بعد حصار دام قرابة ١٧ شهراً (٣) .

ولم تذكر الأصول المعاصرة للحملة شيئا عن أسباب توجه لويس التاسع إلى دمياط . إلا أننا نستطيع أن نعلل ذلك بما كان لهذه المدينة حينذاك من أهمية كبيرة .. فالواقع أن مركز دمياط الساحلى بين مصب فرع الدلتا الشرقى وساحل البحر الأبيض المتوسط جعل منها سوقا تجارية دولية تنقل اليها بضائع الشرق الأقصى عن طريق البحر الأحمر والنيل ـ تلك البضائع التى تحملها السفن فى البحر المتوسط الى سواحل الشام وآسيا الصغرى واليونان ومنها تنقل الى الغرب . وكانت هذه التجارة تدر على سلطان مصر أرباحا طائلة (٤). لذا كان احتلال الفرنج دمياط من أشد وسائل مضايقة المصريين وعرقلة

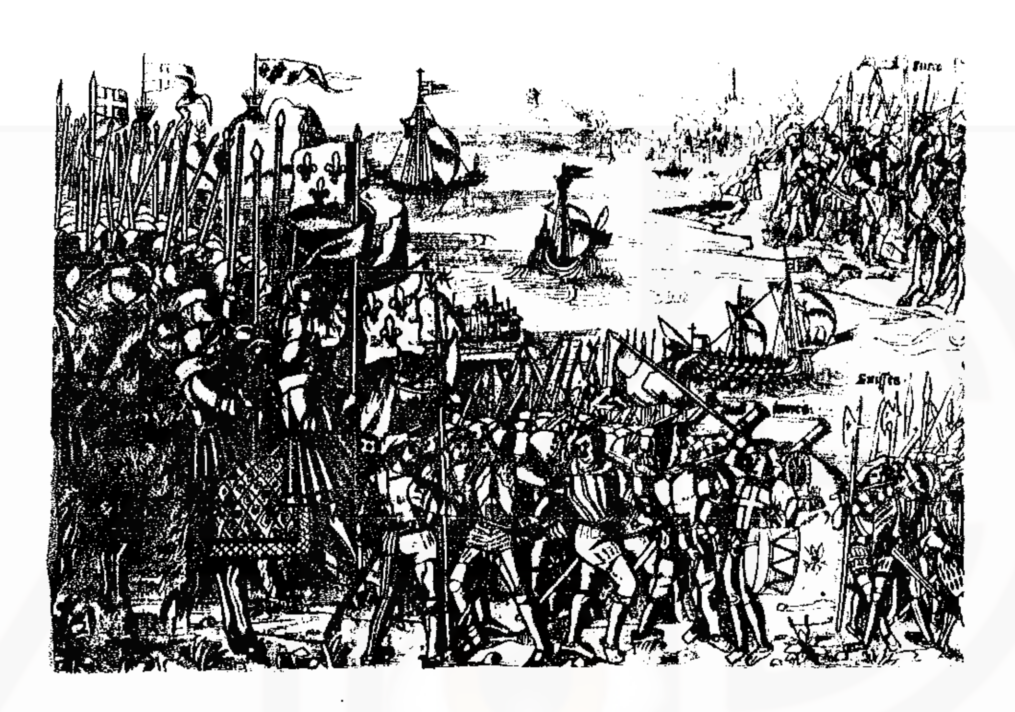
(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٣ — ٢٢٤ . راجع أيضاً ابن دقاق : الانتصار ج ٥ ص ٨١ ؛ العمرى : مسالك الابصار ج ٢٧ قسم ٣ ورقة ٢٧٥ ؛ على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١١ ص ٤٦ .

(٢) الانتصار ج ٥ ص ٨١ ؛ القزوينى : آثار البلاد ص ١٢٩ . راجع أيضا :
Abulfeda, Descriptio Aegypti, 30; Gesta Crucigerorum, cf. Mon. Cart., III, fasc. II, 933; Rothelin, 591.

(٣) ابن الاثير : الكامل (مجموعة الحروب الصليبية ج ٢ قسم ١) ص ١١٤ — ١١٩ .

(٤) = Jacques de Vitry, Historia Hierosolimitana, cf. Mon.

لوحة رقم ٢



نزول العدو الصليبي بأسلحته وخيله وعتاده بشاطىء دمياط الغربي

عن لوحة محفورة على الخشب يرجع تاريخها الى القرن السادس عشر
باسم : Grand Voyage de Hiérusalem
وهى مأخوذة من كتاب :
Lacroix, Chevalerie et Croisades, p. 185.

تجارتهم مع العالم الخارجى . ان ذلك يضع فى يد الغزاة موردا ماليا له أثره فى توجيه السياسة العامة للدولة . وفوق هذا فقد اشتهرت دميـــاط فى العصور الوسطى — وفى العصر الأيوبى بصفه خاصة — أنها مدينة صناعية هامة تخصصت فى صناعة النسيج ، واشتغلت بتصديره إلى الأسواق الخارجية (١) . فلعل هـذا قد أطمع فيها الفرنج . فضلا عن أن مدينة دمياط — إلى جانب أهميتها الصناعية وموقعها الممتاز من الناحيتين الجغـــرافية والتجارية — كانت أقرب موانى مصر (٢) . إلى بيت المقدس ، وهى الهـــدف الأساسى الذى قامت من أجله هذه الحملة الصليبية (٣) ولعل ميناء دمياط كان مغريا لهؤلاء الفرنج على قصده بالذات لأنه يؤدى بهم إلى القاهرة مباشرة ، وهى قلب الدولة أو رأس

Cart. , t. III, fasc. IV, 944; Gesta Crucigerorum Rhenanorum, 938; = Guill. de Tyr, Historia rerum, cf. Mon. Cart. , t. III; fasc. IV, 908; Albricus Monachus Trium Fontium, cf. Mon. Cart., t. III.; fasc. V, 970; Heyd, Hist. du Com. , I, 384.

(١) راجع اليعقوبى : كتاب البلدان فى الأطلس الجغـــرافى ج ٣ قسم ١ ص ٥٤٠ ؛ الاصطخرى : مسالك الممالك فى الاطلس الجغـــرافى ج ٣ قسم ٢ ص ٥٨٦ ؛ ابن الحسين : كتاب آكام المرجان فى الاطلس الجغرافى ج ٣ قسم ٢ ص ٦٢٣ ؛ ابن حوقل : المسالك والممالك فى الاطلس الجغرافى ج ٣ قسم ٢ ص ٦٥٢ ؛ المهلبى : المسالك والممالك فى الاطلس الجغرافى ج ٣ قسم ٢ ص ٦٨٥ ؛ القزوينى : آثار البلاد ص ١٢٩ ؛ على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١٠ ص ٤٦ .

(٢) حقا ان تنيس والفرما كانتا أقرب من دمياط الى بيت المقدس ، لكن أمرها فى ذلك الحين قد آل الى الخراب ، وزالتا من الوجود قبيل حملة لويس التاسع على مصر ، فغدت دمياط الميناء المصرية الوحيدة فى الركن الشمالى الشرقى من البحر المتوسط . أنظر خطط المقريزى ج ١ ص ٢١١ و ١٨١ ؛ وكذلك الخطط التوفيقية ج ١٠ ص ٤٩ و ج ١٤ ص ٧٤ .

(٣) Cf. wallon, I, 297 .

الحية كما وصفها بذلك روبرت كونت أرتوا شقيق لويس التاسع (١) . وكما كانت دمياط فى مركز متوسط بين مصر والشام ، فقد كانت « تقارب فى البحر جزيرة قبرص » (٢) ملتقى جيوش حملة لويس التاسع الوافدة إلى الشرق . وهناك سبب غير مباشر ينبغى الإشارة اليه، وهو أن الروم ومن بعدهم الفرنج كانوا يوالون هجومهم على ثغر دمياط بعد فتح الاسلام لمصر (٣) . فلعل ذلك كان له أثره فى توجيه الملك الفرنسى إلى مدينة دمياط نفسها وإيثاره إياها على سواها من الثغور والمدن المصرية لسابق صلتها بالدولة الرومانية الشرقية فى بادىء الأمر وبالفرنج بعد ذلك عن طريق الغزو المتواصل. ولهذا كله اتخذت الحملة الصليبية هدفا لها الاستيلاء على مدينة دمياط لتكون نقطة البدء فى طريقها إلى الاستيلاء على بيت المقدس نفسه .

أما ماذكره جاى دى ميلان — وهو أحد الصليبيين الذين اشتركوا فى هذه الحملة وكتبوا عنها من أن هدف المسيحيين كان الاسكندرية وليس دمياط ، وأن سلطان مصر أسرع بتحصين هذه المدينة عندما بلغه ذلك عن طريق بعض الجواسيس الذين كانوا يأتون اليه بأخبار الحملة (٤) ، فيفتقر إلى ما يؤيده ويدعمه خاصة وأنه ليست لدينا أدلة قاطعة تثبت صحة ذلك ؛ اذ أن جاى هو المؤرخ الوحيد الذى أشار إلى هذه المسألة التى يحتمل أن تكون مجرد إشاعة ترامت إلى مسامعه فسجلها فى خطابه . ومما يدفعنا إلى الشك فى صحة هذه الرواية،

(١) Cf. Joinville (ed. Wailly), 100.

(٢) أنظر اسحق بن الحسين : كتاب آكام المرجان فى الأطلس الجغرافى ج ٣ قسم ٢ ص ٦٢٣ .

(٣) خطط المقريزى ص ٢١٤ .

(٤) Guy de Melun, 611-2. Cf. also Michelet, I, 566.

ما ذكره كل من جاى دى بومون وابن أيبك من أن دمياط ـ وليس الاسكندرية ـ هى التى كانت هدف الفرنج ، حتى أنه عندما بلغ الملك الصالح أيوب خبر استعدادهم فى قبرص للتوجه إلى مصر ، أسرع بتحصينها دون غيرها ، فأقام بها حامية كبيرة وشحنها بالمؤن والذخائر لمنع نزول الفرنج فيها وامتلاكهم لها(١) .

على أى حال، عندما وصلت مراكب الفرنج وفيها جموعهم العظيمة قبالة البر الغربى لدمياط ورست فى مواجهة المسلمين (٢) ، لم يشأ مليكهم مهاجمة البلاد قبل إخبار سلطانها ، فأرسل من قبله قاصدا إلى الملك الصالح أيوب ومعه كتاب يهدده فيه بالويل ، ومبينا أنه سيشهر ضده حربا عوانا لا هوادة فيها إن لم يستسلم له ويرضخ لمطالبه . فلما وصل الكتاب إلى السلطان وقرىء عليه ، تأثر لذلك أيما تأثر وجهز له رسالة بخط القاضى بهاء الدين زهير (٣) كاتب الإنشاء بالديار المصرية ، وأنفذها اليه ، وفيها يعلن تحديه للفرنج وملكهم واستهانته بكثرة جموعهم ، وبأنه على أتم استعداد لنزالهم والتنكيل بهم اذا ما سولت لهم

---

(١) ابن واصل ج٢ لوحة ٣٥٦ ا . راجع أيضا خطط المقريزى ج ١ ص ٢١٩ .

(٢) ابن واصل نفس الجزء واللوحة . راجع أيضا السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٣ـ ٣٣٤ .

(٣) ولد البهاء زهير بمكة سنة ٥٨١ هـ/١١٨٦م ومات بمصر سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م عن ٧٥ سنة تقريبا . وقد اشتغل فى تحصيل العلم والأدب ، وكان من فضلاء عصره وأحسنهم نظما ونثرا . واتصل بخدمة الملك الصالح أيوب بالقاهرة فى حياة أبيه الملك الكامل محمد ، كما كان فى صحبته عندما تسلم مدينة دمشق من الملك الجواد يونس . وأخيرا لما ملك الصالح أيوب الديار المصرية فى ٦٣٧هـ / ١٢٤٠م جعله كاتبا للانشاء عنده ، وظل ملازما له ذا حظوة عنده حتى تنير عليه السلطان قبل موته بمدة يسيرة لغفلة غفلها ، وصرفه عن خدمته . فلزم البهاء زهير داره حتى مات فى ٦٥٦هـ ؛ وله ديوان شعر مطبوع . راجع اليونينى : ذيل مرآة الزمان ج ١٥ ورقة ٤٨ ب ـ ٤٩ا و ١٥٠ ـ ١٥٣ا ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٤٢ ؛ ابن واصل ج ٢ لوحة ٢٦٢ا .

نفوسهم القيام بأى عمل عدائى (١) .

فلما وصلت هذه المكاتبة الى لويس اجتمع بالبارونات فى سفينته للتداول معهم فيما يجب عمله (٢) . وقد نصحه مجلسه الاستشارى بأن ينتظر الجانب المتخلف من الاسطول قبل النزول الى أرض مصر لأنه لم يكن معه سوى ثلث الحملة تقريبا؛ ولكنه رفض أن يفعل ذلك قائلا إن التردد ربما يشجع العدو ويعطيه الفرصة الكافية للاستعداد لمواجهة الصليبيين ودفعهم عن البلاد . وكان يخشى أن تهب رياح أخرى فتبدد باقى السفن كما حدث لهم من قبل ، خاصة وأنه ليس هنالك مرفأ آمن ينتظر فيه وصول السفن المتفرقة[٣] . ويعلق القائد الفرنسى مارى رينيه سفارى (١٧٧٤ - ١٨٣٣ م) - الذى اشترك مع القائد دسوه Desaix فى الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ م - على قرار لويس بعدم الانتظار بأنه يدل على حكمة وجرأة نظراً لاستعداد المصريين وتأهبهم للقتال ، حتى أن أى تأخر أو إبطاء قد يضر بالحملة[٤] . وقد استقر رأى الفرنج فى هذا الاجتماع على النزول الى البر فى يوم السبت وهو اليوم التالى لوصولهم . كما تقرر أن يعترف الجميع بآثامهم وخطاياهم ، وأن يكتبوا وصاياهم قبل الدخول فى معمعة القتال كما لو كانوا سيلاقون حتفهم (٥) .

وكانت قوات المسلمين بقيادة الأمير فخر الدين مرابطة على الشاطىء متأهبة

---

(١) راجع الملحق الأول الخاص بالمكاتبات المتبادلة بين الملكين الفرنجى والمصرى والمناقشات حول هذا الموضوع .

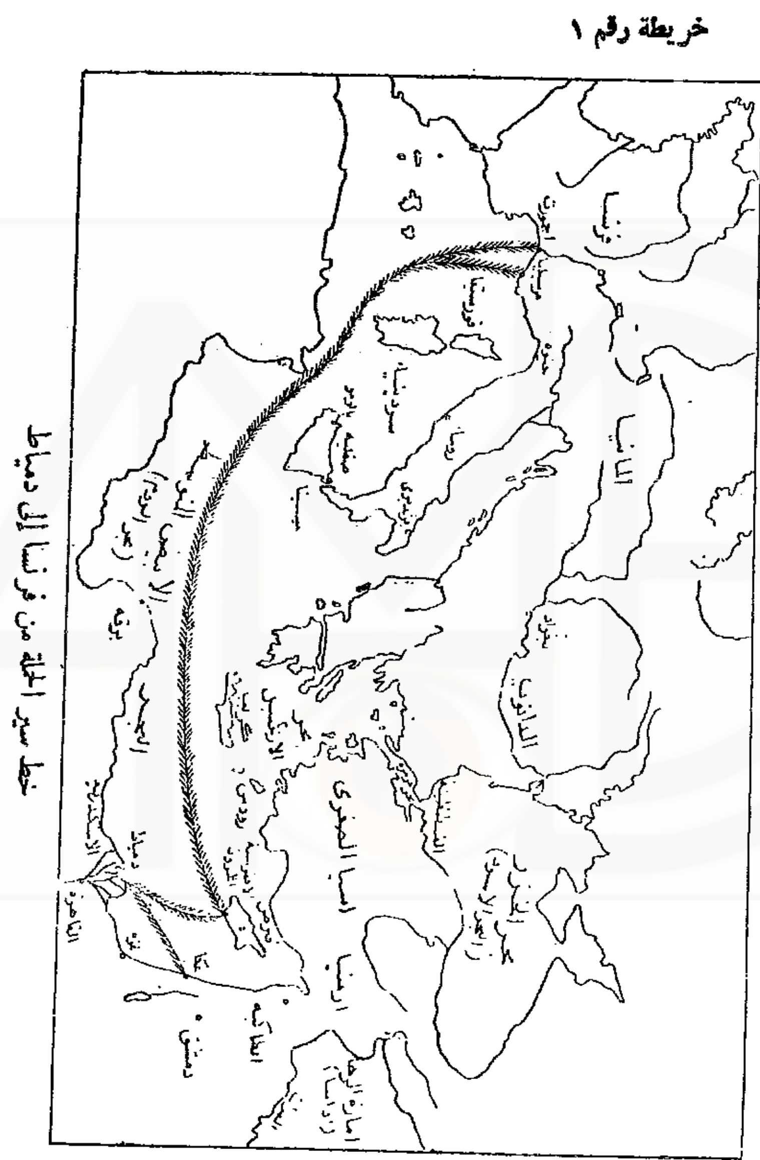
(٢) Joinville (ed. Wailly), 82; Comte d'Artois, 609.

(٣) Joinville, op. cit. loc. cit. Cf. Wallon, I, 286; Bordeaux, 230.

(٤) Savary, Letters on Egypt, II, 340, n. V.

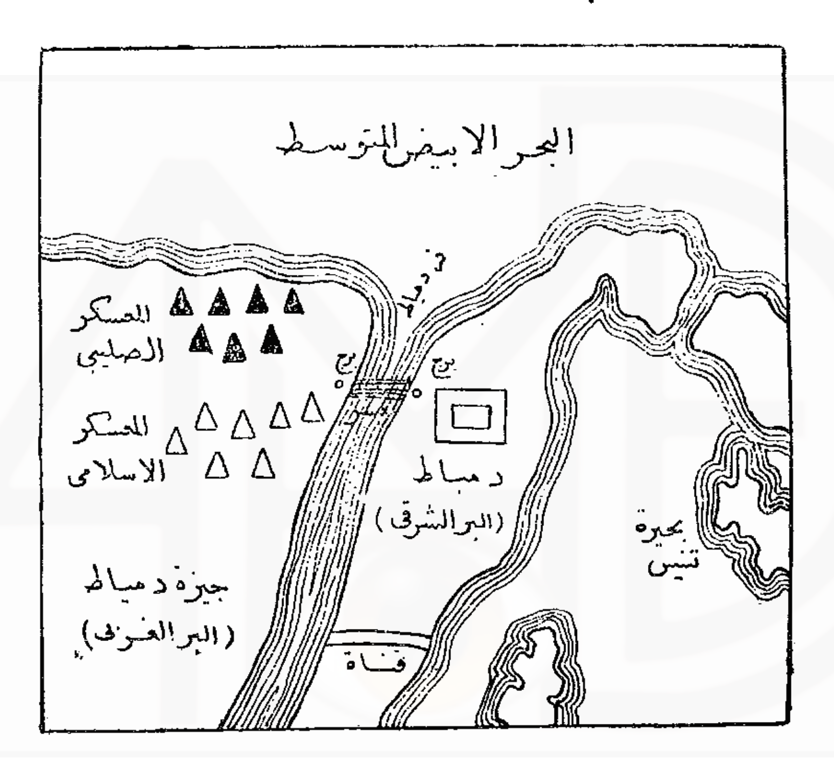
(٥) Rothelin, 589.

خريطة رقم ١



خط سير الحملة من فرنسا الى دمياط

خريطة رقم ٢



نزول الصليبيين إلى البر الغربي لدمياط

(رسم تخطيطي)

للقتال [1] . ويصف المؤرخ جوانفيل الرهبة التي استولت على الفرنج عند رؤية الجيش المصرى فيقول : « وصل الملك أمام دمياط ، ووجدنا هناك كل جيوش السلطان واقفة على الشاطىء . وهي تتألف من رجال رائعى المنظر متأهبين للقتال ، وقائدهم ذو الدرع الذهبي الذى يتألق فى الشمس حين شروقها ، وأصوات أبواقهم وقرع طبولهم تبعث الرعب فى النفوس ، وقد كان لها وقع موحش فى قلوبنا (٢) . وإلى جانب هذه القوات المصرية ، كان يوجد عدد كبير من السفن المسلحة راسية عند فم النهر ، للحيلولة بين الفرنج وبين نزولهم إلى البر (٣) .

ولما شاهد المسلمون أسطول الفرنج يقترب من الشاطىء ، أرسلوا أربع سفن للقيام بحركة استكشافية واجتلاء حقيقة الأمر . وعندما اقتربت سفنهم من الفرنج وتعرفت عليهم أرادت العودة من حيث أتت ، لكن أسطول الصليبيين أحاط بها عن كثب واشتبك معها فى معركة بحرية انتهت بغرق ثلاثة منها ، بينما أفلتت الرابعة بعد أن أصابها التلف . أما الذين نجوا من هذه المعركة من المسلمين ، فقد أخبروا إخوانهم الذين كانوا فى انتظارهم على الشاطىء بما شاهدوه من ضخامة أسطول الأعداء وكثرة جموعهم ، وأخذوا يحثونهم فى التعجيل بالقضاء عليهم قبل أن يتفاقم الخطب ويفلت الزمام من أيديهم (٤) .

---

(١) جاء فى (مونروند : تاريخ الحروب المقدسة ج ٢ ص ٣٠٦) وفى : Joinville (Johnes' tr.), 389. أن سلطان مصر كان موجودا على الشاطىء بين قواته وهو بملابس الحرب . وهذا غير صحيح لان الصالح أيوب كان وقتئذ نازلا باشموم طناح ليكون فى مواجهة الفرنج . راجع (ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٥ ب و ١٣٥٧) ؛ ولعل جونز ومونروند يقصدان الأمير فخر الدين قائد القوات الاسلامية آنذاك .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 82. Cf. Davis, Invasion of Egypt, 25.

(٣) Lettre du Comte d' Artois, 610.

(٤) Lettre du Guy de Melun, 613–4. Cf. Wallon, I, 286; Bray, 125; Wiegler, 257. — ومما يجدر ذكره أن جاى دى ميلان هو المعاصر الوحيد الذى انفرد بذكر هذه الواقعة .

وفى يوم السبت ٥ يونيو ١٢٤٩ م (١) / ٢١ صفر ٦٤٧ هـ - وهو اليوم التالى لوصول الفرنج الى الشاطىء المصرى - شرعت قواتهم فى النزول إلى البر . ولم تكن هذه العملية بالأمر اليسير ؛ فقد واجهت الحملة بعض الصعاب ، ولم يتمكن اللاتين من النزول إلا بعد جهد جهيد ، إذ أن مياه الشاطىء كانت ضحلة بحيث اضطر الصليبيون إلى ترك سفنهم الكبرى فى عرض البحر ، وانتقلوا إلى البر فى قواربهم الصغرى حيث ألقوا بأنفسهم فى الماء غير هيابين وعلى رأسهم الملك لويس التاسع الذى لم يربأ بتوسلات رجاله فى ألا يعرض نفسه للخطر (٢). بينما ظلت الملكة مرجريت على ظهر السفينة الملكية المسماة « منتجوا » "Montjoie" تراقب القتال عن بعد (٣) .

وكانت قوات المسلمين - فى تلك الأثناء - تستقتل فى الدفاع عن الشاطىء ، بينما بذل الفرسان قصارى جهدهم لمنع الفرنج من النزول ، وأخذوا يرمونهم بالسهام والرماح (٤) .

(١) أنظر ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٦ ا ؛ تراجم رجال القرنين ص ١٨٣ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢١٩ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٥ . راجع أيضا : Lettre du Comte d'Artois, 610; Eracles, 437; Rothelin, 589; Melun, 615—6. هـذا ، وقد ذكر جوانفيل ان الصليبيين وصلوا قبالة دمياط يوم الخميس ونزلوا الى البر الغربى يوم الجمعة ، مما لا يتفق وما ورد فى الاصول الاخرى من عربية وأوروبية ، أنظر : Joinville (ed. Wailly), 84. ولعل هذا الخطأ الذى وقع فيه جوانفيل راجع الى أنه لم يدون مذكراته عن الحملة الا بعد مضى زمن طويل من انتهائها .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 86-?; Guy de Melun, 615; Jean de Beaumont, 389; Lettre du Comte d'Artois, 610; Rothelin, 590.

(٣) Cf. Ludlow, 339; Bordeaux, 237-8.

(٤) Jean de Beaumont, 389; Lettre du Comte d'Artois, 610; Jean Sarrasin, 256; Rothelin, 590; Joinville (ed. Wailly), 86.

وعندما نزل الملك لويس إلى الشاطىء نصبت له خيمة حمراء عظيمة، وكذلك ضرب الصليبيون خيامهم استعداداً للقتال (١) . وسرعان ما بدأت بين الجيشين مناوشات استمرت من الصباح الباكر حتى وقت الظهيرة، وانتهت بانتصار الفرنج على المسلمين بعد أن أجهزوا على عدد كبير منهم (٢) . وكان ممن استشهد فى ذلك اليوم من أمراء مصر الأمير نجم الدين بن شيخ الاسلام(٣) وأمير آخر يقال له الوزيرى (٤) . وتذكر المصادر الغربية أن الفرنج قتلوا أميرا مصريا بارزا كان قد أسر بعض كبار الصليبيين فى موقعة غزة الشهيرة سنة ٦٤٢ هـ/١٢٤٤م(٥) .

وهنا تطورت الحوادث تطورا خطيرا لم يكن فى الحسبان . فكما أن مؤامرة ابن المشطوب(٦) كادت تنزل الهزيمة بالجيش المصرى وتوقع الفرقة والاضطراب

---

(١) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٦ ا . راجع أيضا خطط المقريزى ج ١ ص ٢١٩ .

(٢) Jean de Beaumont, 390; Guy de Melun, 615; Comte d'Artois, 610; Joinville (ed. Wailly), 86-8; Rothelin, 590-1.

(٣) من الأمراء الصالحية، ونعرف أنه كان يؤنس الملك الصالح أيوب عندما كان فى اعتقال ابن عمه الناصر داود بالكرك . وانتقل بعد ذلك من الكرك إلى مصر، وقتل على دمياط مجاهدا ضد الفرنج، وكان رجلا تقيا دينا . أنظر ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٦ ا؛ ابن دقماق : نزهة الأنام مجلد ١ لوحة ١٧٩ ا؛ الذهبى : تاريخ الاسلام (مخطوط بدار الكتب برقم ١٤٥٢ تاريخ) فى حوادث سنة ٦٤٧ هـ تحت اسم « نجم الدين بن شيخ الاسلام » .

(٤) وهو من أمراء مصر الذين اشتركوا فى هذه الموقعة أيضا، ويدعى صارم الدين أزبك الوزيرى، وقد استشهد هو الآخر على دمياط . راجع ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٦ ا؛ ابن دقماق : نزهة الأنام مجلد ١ لوحة ١٧٧ ا؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٥ .

(٥) Rothelin, 591.

(٦) تتلخص هذه المؤامرة فى أن أحد كبار الأمراء فى المعسكر الاسلامى ويدعى عماد الدين احمد بن على المعروف بابن المشطوب، انتهز فرصة موت الملك العادل — وكان الفرنج تحت قيادة جان دى برين على حصار دمياط — واستمال اليه عددا من قواد الجيش، وحاول أن

بين جنوده فى عهد الملك الكامل محمد أبى الصالح أيوب إبان حملة جان دى برين على الديار المصرية . كذلك جد فى حوادث هذه الحملة فى تلك الساعة العصيبة حادث جلل كاد أن ينتهى بها إلى نفس النتيجة . ومجمل ذلك الحادث أن السلطان الصالح نجم الدين ـ حسبما ذكر جوانفيل دون غيره ـ كان فى ذلك الحين مريضا (١) ومقيما فى اشموم طناح ، وقد اشتد به المرض حتى أشرف على الموت . فلما وصلت السفن الفرنسية إلى الشاطىء الغربى لدمياط أطلق الأمير فخر الدين قائد القوات المصرية الحمام الزاجل يحمل النبأ إلى السطان ، وتعددت رسائله دون أن يتلقى ردا ، فاعتقد أن السلطان قد مات[٢] . فلما جن الليل رحل بمن معه من عساكر المسلمين من الشاطىء الغربى وقطع بهم

= يخلع الكامل ويولى مكانه أخاه الملك الفائز ليصير الملك اليه . فلما علم الكامل بالمؤامرة — وكان مقيما مع العسكر بالعادلية قرب دمياط لمنع الفرنج من الاستيلاء على المدينة — خشى على نفسة وترك معسكره بالعادلية فى الليل وانسحب جنوبا الى اشموم طناح . فعندما أصبح الجند بغير سلطان تفرقت كلمتهم ولحقوا بالكامل . فانتهز الفرنج هذه الفرصة المواتية وتم لهم النزول الى البر الشرقى لدمياط دون أن يلقوا أية مقاومة . راجع ابن الاثير : الكامل (مجموعة الحروب الصليبية) ج ٢ قسم ١ ص ١١٦—١١٧ ؛ البداية والنهاية ج ١٣ مجلد ٧ ص ٨٠ .

(١) هذا نص عبارة ابن واصل (مفرج الكروب ج ٢ لوحة ١٣٥٣) حول مرض السلطان: « وكان الملك الصالح نجم الدين وهو باشموم طناح قد عرض له ورم فى مخاصيه ، ثم فتح وحصل له منه تمسر بول . وبعد ذلك حصلت له قرحة ، تيقنت الاطباء أنه لا خلاص منها، لكنه لم يشعر بذلك . . » راجع كذلك خطط المقريزى ج ١ ص ٢١٩ ؛ أبو الفرج : تاريخ مختصر الدول (طبعة بيروت) ص ٤٥٢ .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 90. Cf. Walsh, S. Louis et son siècle, 141; Wiegler, 257.

الجسر (١) إلى الجانب الشرقى الذى فيه مدينة دمياط ، وبذا خلا البر الغربى للفرنج. ثم ترك المدينة وسار جنوبا متجها إلى معسكر السلطان عند اشموم طناح (٢). لكن الجند فى عجلتهم خلال التراجع نسوا أن يحطموا الجسر الذى كان يصل بين الشاطئين الشرقى والغربى وتركوه كما هو ، فانقض الصليبيون عليه واحتلوه وانفتح أمامهم الطريق إلى المدينة (٣) .

ولقد اتهم فخر الدين بالخيانة والجبن وسوء التصرف لارتداده بالعساكر عن دمياط غداة وصول أسطول الفرنج اليها ، مما أتاح لهم فرصة الاستيلاء على البر الغربى ودخول الثغر المصرى ، وألقى عليه المؤرخون تبعة ما نزل بالمسلمين من البلاء والمحن بسبب فراره ، واعتبروا هذه الفعلة وصمة عار فى جبينه (٤) .

ويعلل بعض المؤرخين والكتاب المحدثين تراجع فخر الدين والعسكر بعجزهم عن ملاقاة الفرنج عندما أصبحوا أمامهم وجها لوجه بسبب تفوقهم عليهم فى العدة والعدد ؛ حتى أن الرعب تملك القوات المصرية نتيجة هذا الهجوم المباغت ، فارتدت إلى دمياط وتركتها دون أية مقاومة إلى اشموم طناح (٥) .

---

(١) المقصود هنا فى الغالب جسر من السفن ، بعكس القنطرة التى تبنى عادة من الحجارة راجع : Blochet, 511, n. 2.

(٢) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٥٦ ا . راجع أيضا السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٣٥ ؛ المختصر جـ ٣ ص ١٨٧ ؛ النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٣٠ ؛ Walsh, op. cit., 141 Grousset, Crois., III, 443.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 90. Cf. Davis, Invasion of Egypt, 26.

(٤) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٥٦ ب ؛ خطط المقريزى جـ ١ ص ٢١٩ — ٢٢٠ ؛ النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٣٠ ؛ الاسحاقى ص ١٢٤ .

(٥) حبشى : حملة القديس لويس ص ٤١ . Savary, Letters on Egypt, I, 341; Heyd, Hist. du Com., I, 409; Lacroix, Vie militaire, 132.

ويبدو ان هذا التعليل غير معقول لأن دمياط كانت مدينـــة مسورة محصنة ومزودة بكميات وفيرة من الأقوات والأسلحة ، كما شهد بذلك كتاب الفرنج والمسلمين [١] ، مما كان يكفى لمواجهة أى هجوم يشنه عليها العدو . وليس أدل على ذلك من وقفتها المشهودة زهاء عام ونصف فى وجه ذلك الحصـار الشديد الذى ضربه عليها الفرنج فى حملة جان‌دى برين سنة ١٢١٨ م/ ٦١٥ هـ ، بالرغم من قلة ما كان فيها من العتاد والمؤن ، ومع ذلك فإنها لم تستسلم للعدو الا بعد أن فنى غالب أهلها بالوباء والمجاعة [٢] . وإذا فرضنا جدلا أن فخر الدين فوجىء بوصول الفرنج إلى البر الغربى لدمياط ، فتراجع - وهو فى حالة من الخوف والاضطراب - إلى الجانب الشرقى ، أفلم يكن بوسعه التحصن داخل المدينة ضد الصليبيين والحيلولة دون استيلائهم عليها ؟ لقـد أكد ابن واصل أن فخر الدين لو منع العسكر المصرى من الهرب وأقام بدمياط لامتنعت على الفرنج . كما أنه لو بقى جماعة الكنانية بعد ارتداد فخر الدين والعسكر إلى اشموم طناح لما قدر الفرنج عليهم ، خاصة وأن دمياط كانت مليئة بالميرة والذخيرة التى تكفى لحفظها مدة طويلة [٣] .

من الجائز أن يكون الرعب قد تسلل إلى نفوس العساكر الاسلامية عند مرأى الفرنج وأساطيلهم ، لكن هـذا لا يمنعنـا من القول بأن خوفهم من الصليبيين ليس هو السبب الحقيقى الذى دفع فخر الدين إلى الفرار بالعسكر

---

(١) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٦ ا ؛ عقد الجمـان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠١ ؛ نهاية الارب ج ٢٧ لوحة ٩٠ ؛ المختصر ج ٣ ص ١٨٧ راجع أيضا : Lettre du Comte d'Artois, 610; Rothelin, 591.

(٢) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٦ ب ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٠ . راجع أيضا : Wiet, Hist. de la Nation Égyptienne, IV, 376.

(٣) ابن واصل ؛ نفس الجزء واللوحة ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ورقة ٣٦٩ .

وترك دمياط فريسة سهلة فى أيدى العدو . ويمكننا تفهم حقيقة هذا الموضوع الخطير من تحليل حياة فخر الدين نفسه وبحث المشاكل العامة المتعلقة بالدولة وقتئذ [١] .

لقد كان فخر الدين - كما وصفه المؤرخون - كبير المطامع عريض الآمال. وليس أدل على ذلك مما ذكره ابن واصل من أنه يوم ملك الصالح أيوب مصر، ركب فخر الدين ركبة عظيمة ودعا له المصريون واحتفوا به حتى أن السلطان استشعر منه وألزمه داره فترة من الوقت خشية على مركزه [٢] . ويظهر أن هذا الأمير أيضا كان قد حدثته نفسه بالسلطنة فى ذاك الوقت ، فإنه حسبما جاء فى نفس المصدر السابق «كان قد انتهى إلى قريب رتبة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وكانت همته تترقى إلى الملك » [٣] .

أخذ فخر الدين يتحين الفرص لبلوغ أهدافه وتحقيق مآربه . ولقد وجد جميع الظروف مهيأة له تستدعيه لتحقيق حلمه المنشود الذى طالما كان يسعى إليه. فعندما لم يتلق ردا على رسائله التى بعث بها إلى السلطان بعد نزول الفرنج إلى الشاطىء — كما سبق أن أسلفنا — اعتقد أن السلطان المريض قد مات . فانتهز هذه الفرصة المواتية ورحل هو والعسكر عن دمياط علّه يستولى على الملك . وقد جاء فى مخطوط ابن واصل نص صريح يكشف عن حقيقة نوايا هذا الأمير المصرى وعسكره يقول فيه : « وحصل عند العسكر طمع بسبب مرض السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فلم يكن لهم من يردهم أو يردعهم »

---

(١) Cf. Wiet, op. cit. loc. cit; Walsh, S. Louis,141.

(٢) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٢ ب .

(٣) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٦ ا .

فرحل فخر الدين يوسف بن الشيخ إلى جهة أشموم طنـاح ،(١). كما ذكر فى موضع آخر : « ولم يبق للسلطان قدرة على ضبط جنــده وقد اشتد طمعهم فيــه (٢) » .

يتضح لنـا مما سبق أن فرار فخر الدين والعسكر لم يكن فى الواقع خوفا من كثرة عدد الفرنج أو عدتهم ، لكنهم أرادوا استغــلال هذه الفرصة الذهبية لتحقيق مطامعهم ، ظنا منهم أن سلطانهم قد وافته منيته . فتركوا المدينة مسرعين نحو العاصمة علهم يحصلون على ما كانوا يأملون من الملك والسلطان،غير ملتفتين إلى الدفاع عن دمياط ، بينما لو ثبتوا فيها لأمكنهم صد عدوان الصليبيين وردهم على أعقابهم .

على أى حال ، عندما خلا البر الشرقى من عساكر المسلمين بعـد فرار فخر الدين والقوات المصرية التى كانت تحت إمرته ، أخذ الفزع من نفوس أهــل دمياط مأخذه وخافوا على أرواحهم ، فانطلقـوا يهيمون على وجوههم طوال الليل ، تاركين المدينة خالية من الرجال والنساء والأطفال (٣) . ولحقوا بالجند فى اشموم طناح وهم فى حالة يرثى لها ، ثم واصلوا المسير إلى القـاهرة حيث نهبهم النـاس فى الطريق (٤) .

---

(١) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٥٦ ب .

(٢) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٥٧ ا .

(٣) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٥٦ ب ؛ عقد الجمان جـ ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠١ . — وقد ذكر ابن ايبك (كنز الدرر جـ ٧ ورقة ٣٠٩) ان فخر الدين هو الذى اخرج جميــع من كان فى دمياط من النساء والرجال وتركها خالية من الأهلين . لكن المراجع الأخرى لم تشر الى هذه المسألة مما يجعلنا نشك فى صحتها .

(٤) خطط المقريزى جـ ١ ص ٢١٩ ؛ السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٣٥ .

وكان فى المدينة أيضا بنو كنانة وهم جنود الحامية الذين أنزلهم بها الصالح أيوب للدفاع عنها ضد المعتدين ،فتملكهم الرعب وخشوا أن يهلكوا كما هلك أهل دمياط أيام الملك الكامل فى النوبة السابقة ، فهرولوا هم أيضا خلف الناس تاركين المدينة بكل ما فيها من المؤونة والأسلحة وآلات الحرب ووسائل الدفاع الأخرى ، لكى يلحقوا بفلول الجيش الهارب إلى أشموم طناح (١) ولكنهم تمكنوا قبل فرارهم من إحراق الزردخاناه ، (٢) وإشعال النيران فى سوق المدينة حيث تكدست البضائع ، وفى بعض الدور الكبرى حتى لا تقع بما فيها من الخيرات والعتاد فى أيدى الفرنج (٣) .

ولما أصبح الفرنج يوم ٦ يونيو ١٢٤٩ م (٤) / ٢٢ صفر ٦٤٧ هـ ، قصدوا دمياط لاحتلالها ، فلما وجدوا أبوابها مفتوحة وليس بها أحد يحميها ، خشوا أن

---

(١) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٦ ب ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠١ ؛ نهاية الارب ج ٢٧ لوحة ٩٠ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٠ ؛ راجع أيضا : Guy de Melun, 616.

(٢) مرآة الزمان ج ٨ لوحة ٥١٣ ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٢ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٠ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٦ . — أما الزردخاناه فهى دار السلاح أو بيت الزرد لما فيها من الدروع والزرد والسيوف والنشاب والرماح وغير ذلك من الاسلحة ، وفيها صناع مقيمين لاصلاح العدد وتجديد المستعملة منها . أنظر صبح الأعشى ج٤ ص ١١ — ١٢ . وكذلك قوانين الدواوين ص ٣٥٤ . ومن معانى الزردخاناه أيضا السجن المخصص للمجرمين من الامراء وأصحاب الرتب . أنظر : Dozy, Supp. Dict. Arabe.

(٣) Matt. Paris, II, 361; Joinville (ed. Wailly), 90; Jean de Beaumont, 390.

(٤) جاء فى المراجع التالية : Vaujany, Hist. de l'Égypte, 234; Marcel, Egypte depuis la conquête des arabes, 153; Huart, Hist. des arabes, II, 31. أن الفرنج استولوا على دمياط فى ٢٢ صفر ٦٤٥ هـ الذى يوافق ٢٩ يونيو ١٢٤٧ م . وهذا خلط ظاهر لأن حملة لويس التاسع على مصر كانت فيما بين =

تكون هناك مكيدة مدبرة أو مناورة حربية قصد بها المسلمون أخذهم على غرة(١)، لأن المدينة وفقا لما يرويه جان بيير سرازان ـ الذى كان شاهد عيان لحوادث هذه الحملة وكتب خطاباً مسهباً بالفرنسية القديمة حول استيلاء الفرنج على دمياط ـ كانت محصنة بعدد كبير من الأبراج المرتفعة المنيعة التى يصعب الاستيلاء عليها وقد يتعذر (٢)، فآثروا التريث حتى يعرفوا جلية الأمر.

وقد تضاربت أقوال المؤرخين الغربيين فى ذكر كيفية تحقق الفرنج من خلو المدينة من العسكر والسكان. فمن قائل أن الملك لويس أوفد فارسا من قبله للتأكد من صحة هذا الخبر، وبعد أن قام الفارس بمهمته أبلغ الملك أنه وجدها خالية تماما من الجنـــود والأهلين (٣). وذكر فريق آخر من المؤرخين أن الفرنج علموا بفرار المسلمين عن طريق بعض الأسرى المصريين (٤). ومما يدفعنا إلى الشك فى صحة هذا الرأى ما ذكرته مراجع الحملة من أن المصريين تركوا المدينة صفراً من النـاس. بينما يرى فريق ثالث أن الفرنج عرفوا بهروب المسلمين من ألسنة

= سنتى ٦٤٧ـ٦٤٨ هـ/١٢٤٩ـ١٢٥٠ م. وقد ذكر فييت أنهم استولوا عليها فى ٧ يونيو ١٢٣٩ م. أنظر: Wiet, IV, 376. والغالب أن هذا خطأ مطبعى.

(١) راجع مرآة الزمان جـ ٨ لوحة ٤٠١؛ عقد الجمان جـ ١٨ قسم ٢ لوحـة ٣٠١؛ خطط المقريزى جـ ١ ص ٢٢٠؛ السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٣٦. راجـع أيضا:
Guy de Melun, 616.

(٢) „ car la citez de Damiete estoit si forz de murz et de fossez et de grant planté de tourz forz et hautes ... qu'à painnes peust nus homz cuidier que ele peust estre prise ". Jean Sarrasin (ed.F. Michel), 258. Cf. also Rothelin, 591.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 90.

(٤) Cf. Guy de Melun, 616; Rothelin, 591 & n. G.

اللهب والدخان المتصاعد فى سماء المدينة بعد إشعالهم النيران فيها (١) ؛ ولعل هذا هو المعقول لأنه يتفق وما جاء فى الأصول المعاصرة ، من غربية وشرقية ، من إشعال المسلمين النيران فى بعض الاماكن فى دمياط قبل فرارهم.

ولما توثق الفرنج من خلو دمياط دخلوها واستولوا عليها فى نفس هذا اليوم (٢) دون قتال أو اراقة للدماء (٣) ؛ واستحوذوا على ما كان فيها من الذخائر والمؤن التى كانت توجد بكميات هائلة بالرغم من الحرائق التى أشعلها السكان فى المدينة قبل جلائهم عنها (٤) .

وفى نفس اليوم الذى استولى فيه الفرنج على دمياط ورد إلى الامير حسام

---

(١) Jean de Beaumont, 390.

(٢) تتفق الأصول المعاصرة للحملة من شرقية وغربية فيما يتعلق بتاريخ دخول الفرنج دمياط وامتلاكهم لها . راجع تراجم رجال القرنين ص ١٨٣ ؛ وفيات الأعيان ج ٢ ص ٦٤٧ ؛ ابن واصل ج٢ لوحة ٣٥٦ ب ؛ Eracles, 437; Lettre du Comte d'Artois, 610.
أما ماورد ذكره فى كتاب السلامى : مختصر التواريخ ورقة ١٦٥ ، وابن العماد : شذرات الذهب ج ٥ ص ٢٣٧ ؛ وابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ مجلد ٧ ص ١٧٧ ، من أن الفرنج هاجموا دمياط واستولوا عليها فى ربيع الأول ٦٤٧ هـ فغير صحيح ولا يحتاج إلى تفنيد لأنه ينافى ما أكدته المصادر المعاصرة والتسلسل التاريخى لأحداث الحملة نفسها .

(٣) ليس صحيحا ما ذكره ابن دقماق (الجوهر الثمين ورقة ١٠٢) وكذلك أبو المحاسن (مورد اللطافة ورقة ٥٣) ، من أن الفرنجة ملكوا دمياط بعد حصار شديد حيث قتلوا من أهلها خلقا كثيرا . ولعل الأمر قد التبس عليهما ، فخلطا بين حوادث هذه الحملة وحوادث حملة جان دى برين على مصر فى عهد الملك الكامل محمد .

(٤) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٦ ب ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠١ ؛ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٣٠ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٠ ، السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٦ .
راجع أيضا : Guy de Melun, 616; Comte d'Artois, 610-1.

الدين محمد بن أبى على نائب السلطنة بالقاهرة بطاقة تحمل خبر سقوط المدينة فى أيدى الصليبيين (١) . فاشتد الجزع فى مصر والقاهرة ، وأيقن الشعب أن نجاح الفرنج فى دخول المدينة سوف يزيد فى حماسهم ويضاعف من استخفافهم بالمصريين ، وقد رأوا جيوشهم تفر أمام طلائع جندهم ، وقد وقعت فى أيديهم تلك الاكوام المكدسة من الأزواد والمؤن ، وهذه الكميات الكبيرة من الأسلحة والذخيرة ، وذلك الحصن الشامخ المنيع . وزاد تشاؤم الناس ما كان فيه الملك الصالح من مرض أعجزه عن تقلد زعامة الجيش فى هذا الظرف الرهيب ، فغمرت البلاد موجة من اليأس وأيقن الجميع أن المملكة ضائعة لا محالة بين براثن الفاتحين الاجانب (٢) .

وبينما كان نجم الدين يعانى الأمرين من وطأة المرض ، وافاه العسكر والحامية وأهل دمياط الذين أخلوها منهزمين . لكنه لم يسلم للمرض ولم يتطرق اليأس إلى نفسه . فما وصلت إلى مسامعه أنباء تلك الهزيمة حتى تماسكه الجزع وقد أثار ثائرته فرار بنى كنانه من دمياط على هذا الوجه المشين (٣) فأصدر أمره بشنق ما ينيف عن خمسين من أمرائهم وكبار رجالهم الذين كانوا يتولون الدفاع

---

(١) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٥٦ ب .

(٢) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٥٧ ا . راجع أيضا خطط المقريزى جـ ١ ص ٢٢٠ ؛ السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٣٦ ؛ الاسحاقى : لطائف أخبار الاول ص ١٢٤ . أنظر كذلك : Savary, I, 341-2; Davis, Invasion of Egypt, 26.

(٣) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٥٧ ا ؛ مسالك الأبصار جـ ٢٧ مجلد ٣ لوحة ٢٦٧ ؛ ابن بهادر : فتوح النصر ورقة ٢٥٥ ؛ خطط المقريزى جـ ١ ص ٢٢٠ ؛ السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٣٦ ؛ النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٣٠ ؛ المختصر جـ ٣ ص ١٨٧ .

عن المدينة دون أن تأخذه نحوهم رحمة أو شفقة [١] . وعبثا حاولوا الدفاع عن أنفسهم وتبرير مسلكهم هذا بتراجع فخر الدين والعسكر ، فإنه صاح فيهم أنهم يستحقون الموت لفرارهم من غير إذنه وبدون حرب أو قتال [٢] . وقد صلب أمراء الكنانية على النخل كما هم بثيابهم ومناطقهم جزاء على فعلتهم هذه [٣] . ويقال إن السلطان عزز قضاءه هذا بفتوى من الفقهاء والعلماء [٤] .

بعد ذلك ارتد الملك الصالح ايوب على فخر الدين فى حنق زائد ، إذ كان متألما لرجوعه بالعسكر عن دمياط وتهاونه بها حتى أخذها الصليبيون لقمة سائغة [٥] . وكاد يأمر بقتل فخر الدين نفسه [٦] ، غير أن الوقت كان حرجا ،

(١) بلغ من شدة حنق الصالح أيوب على الكنانية أنه كان فى جملة من أمر بشنقهم أمير كنانى جليل له ابن وسيم سأل أن يشنق قبل ابنه . وبلغ السلطان ذلك فأمر أن يشنق الابن أولا على مرأى من ابيه ، فشنق الابن ثم الاب. راجع مرآة الزمان ج ٨ لوحة ٥١٣؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٢ ؛ ابن شاكر : عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة ١٧ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٠ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٦ .

(٢) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٧ ا ؛ مرآة الزمان ج ٨ لوحة ٥١٣ ؛ ابو الفرج: تاريخ مختصر الدول (طبعة بيروت) ص ٤٥٢—٤٥٣ ؛ ابن دقماق : الجوهر الثمين ورقة ١٠٢ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٠ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٦ ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٢ ؛ ابن شاكر : عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة ١٧ .

(٣) ابو الفرج : تاريخ مختصر الدول (طبعة بيروت) ص ٤٥٣ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ورقة ٣٧٠ .

(٤) نهاية الارب ج ٢٧ لوحة ٨٨ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٠ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٦ ؛ الاسحاقى ص ١٢٤ . ومما يؤسف له أن المراجع العربية لم تحفظ لنا صيغة هذه الفتوى .

(٥) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٧ ا و ٣٦١ ب ؛ مرآة الزمان ج ٨ لوحة ٥١٤ ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٢ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٠ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٦ . راجع ايضا: Matt. Paris, II, 364.

(٦) أنظر مرآة الزمان ج ٨ لوحة ٥١٤ ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٢ .

فكتم غيظه وأسر هذا الأمر فى نفسه إلى أن تنكشف الغمة (١) . حينئذ تسلل الخوف إلى قلوب العسكر بعد ما رأوه من قسوة سلطانهم وإعدامه زعماء الكنانية ، وفكروا فى قتله للتخلص من بطشه وجبروته . لكن فخر الدين منعهم من ذلك قائلا لهم إن السلطان يوشك أن يموت ، فإن مات فقد استراحوا منه وإلا فهو بين أيديهم لهم أن يفعلوا به ما يطيب لهم (٢) . وتعتبر مسألة تآمر المماليك ضد سلطانهم سابقة خطيرة ستظهر آثارها بعد ذلك فيما يتعلق بالقضاء على دولة بنى أيوب بمصر (٣) وأثناء حكم المماليك .

لقد اضطرب المعسكر المصرى بانسحاب حامية دمياط وفرار أهلها ووقوعها فى يد العدو ، وكان السلطان الملك الصالح معسكرا باشموم طناح والمرض يشتد به يوما بعد يوم ، ولكنه مع هذا لم يفقد شجاعته بل قرر أن يتراجع مع جيشه جنوبا إلى مدينة المنصورة لأنها تمتاز بموقع حصين ، فالنيل يحميها غربا وبحر اشموم يفصل بينها وبين الفرنج فى الشمال . أصدر السلطان أمره بالرحيل إلى المنصورة ، فحمل فى حراقة (٤) حتى وصلها واستقر بها فى يوم الثلاثاء

---

(١) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٥٧ ا ؛ السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٣٦ ؛ خطط المقريزى جـ ١ ص ٢٢٠ .

(٢) راجع مرآة الزمان جـ ٨ لوحة ٥١٣ — ٥١٤ ؛ الجوهر الثمين ورقة ١٠٢–١٠٣ ؛ عيون التواريخ جـ ٢٠ لوحة ١٧ ؛ عقد الجمان جـ ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٢ ؛ السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٣٦ ؛ شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٣٧ .

(٣) Grousset, Crois. , III, 446.

(٤) حراقة مفرد حراريق أو حراقات ، وهى نوع من السفن الحربية كانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية مثل مكاحل البارود والمنجنيق وغير ذلك . وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو . أنظر دوزى : مادة حراقة ؛ محيط المحيط ؛ عبد الفتاح عباده : سفن الأسطول الاسلامى ص ٥ . والحراقه أقل من الشينى حجما . أنظر ابن مماتى : قوانين =

٢٤ صفر ٦٤٧هـ [١]/ ٨ يونيو ١٢٤٩ م . وكان للملك الكامل فيها قصر عظيم يقع على النيل ، فنزل به الملك الصالح نجم الدين وضرب دهليزه [٢] إلى جانبه . وكان الصالح قبل توجهه إلى المنصورة قد أمر بتشييد المبانى فيها وجعل بينها وبين البحر سورا ليحول دون اعتداء المغيرين عليها . فلما وصل اليهما شرع الجند المصريون فى تجديد هذه المبانى للسكنى ، كما نصبوا بها الأسواق، وبدأوا فى تحصين المدينة فأصلحوا السور الذى كان يحيط بها من ناحية البحر وستروه بالستائر [٣] . وقدمت الشوانى (٤) والحراريق المصرية بالعدد الكاملة والمقاتلة والرجالة

= الدواوين ص ٣٤٠ . وكان فى مصر نوع آخر من الحراقات، استخدم فى النيل لحمل الملوك والأمراء وكبار رجال الدولة فى الاستعراضات البحرية والحفلات الرسمية . أنظر خطط المقريزى ج ٢ ص ١٩٤–١٩٥ . وكذلك : Quatremère, Hist. des Sultans Maml., I, 143, n. 17.

(١) تتفق جميع المصادر العربية حول تاريخ نزول الصالح بالمنصورة . أنظر ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٧ ا ؛ المختصر ج ٣ ص ١٨٧ ؛ تتمة المختصر ج ٢ ص ١٨١ ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحه ٣٠٢ ؛ مسالك الأبصار ج ٢٧ مجلد ٣ لوحة ٢٦٧ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٠ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٧ .

(٢) الدهليز ما بين الباب والدار والجنية ، والجمع دهاليز ، وعند العامة هو المسلك الطويل الضيق . والمقصود بالدهليز هنا البهو أو السرادق . راجع مادة دهلز فى محيط المحيط .

(٣) الستائر جمع ستارة وهى تنصب فى المواقع التى يحتاج الى سترها . وهى عبارة عن آلة تعمل سترة للرجال الذين يستخدمون فى جر المنجنيق وما شاكله ، من أن يرموا بحجارة منجنيق يقابله . واذا وقع عليها الحجر لا يؤثر فيها ، وتنفضه عنها بقوة فتقى من هو تحتها شر إصابته . راجع : Cahen, Un traité d'armurerie composé pour Saladin, 18-19. وكذلك القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٨ .

(٤) الشوانى جمع شونه أو شينى أو شينية ، وهى أهم القطع التى كان يتألف منها الاسطول الاسلامى فى مصر ، وهى نوع من السفن الحربية الكبيرة كانوا يقيمون فيها أبراجا وقلاعا للدفاع والهجوم . راجع خطط المقريزى ج ٢ ص ١٩٤ — ١٩٥ ؛ عبد الفتاح عبادة : سفن الاسطول الاسلامى ص ٤ ؛ عواد : المآصر فى بلاد الروم والاسلام ص ٦٦ حاشية ٤ . وتجهز الشوانى فى أيام الحرب بالسلاح والميرة وتحشد بالمقاتلة والجدافين . وجدير بالذكر أن الشينى كان يسمى الغراب أيضا ، أنظر ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٤٠ .

فأرسوا قدام السور . واجتمع بالمدينة أعداد كبيرة من المتطوعة (١) والعربان وعوام الناس للجهاد ضد الصليبيين (٢) . وكانت هذه الاستعدادات التى قام بها الصالح أيوب ضرورية للوقوف فى وجه الفرنج إذا ما تحركوا من دمياط جنوبا صوب العاصمة .

ومما يجدر ذكره فى هذا المقام أنه لما بلغ أهل دمشق امتـــلاك الصليبيين دمياط ، قصد عسكرهم إلى صيدا واستولوا عليها من الفرنج بعد فترة من الحصار والقتال الذى نشب بين الفريقين (٣) . وقد ورد الخبر بهذا النصر إلى مصر يوم الجمعة ٢٤ ربيع الآخر ٦٤٧ هـ / ٦ أغسطس ١٢٤٩ م . فسر الناس به سرورا كبيرا (٤) . ويلوح أن إغارة جند دمشق على إمارات اللاتين بسورية واستيلائهم على صيدا كان المقصود به إما الانتقام من الصليبيين لهجومهم على دمياط وأخذهم لها ، أو تحويل أنظارهم عن مصر وصرفهم عنها . لكن هذه الوقعة لم تحدث أى تغيير فى الموقف فى مصر ، ولم يترتب عليها أى أثر بالنسبة للحالة الراهنة فى البـــلاد (٥) .

---

(١) عقد ابن منكلى مقارنة طريفة بين المتطوعة والمسترزقة من الجند وأيهما أفضل ، ذكر فيها أن أهل العلم اختلفوا فى الفرق بينهما . ولـكن ابن منكلى نفسه يرى أن المتطوع والمسترزق اذا استويا فى العلم بصناعة الحرب فالمتطوع أعلا رتبة ، ولمن رجح أحدهما عن الآخر فهو أعلا لأن المعول على العالم بصناعة الحرب . راجع الأحكام الملوكية لوحة ٧٧ .

(٢) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٧ ا . راجع أيضا السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٧ ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٢ ؛ الاسحاقى ص ١٢٤ .Grousset, Crois., III, 447

(٣) السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٧ .

(٤) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٧ ب .

(٥) Cf. Wiet, Hist. de la Nation Égyptienne, IV , 379.

أما الصليبيون الفاتحون ، فقد وجدوا عند دخولهم مدينة دمياط — حسبما جاء فى كتاب روتلان — عددا من المسيحيين السوريين الذين كانوا يخضعون لنفوذ المسلمين ، وما أن أبصروا أولئك الفاتحين حتى حملوا الصلبان وساروا أمامهم يتقدمونهم ، فترك الفرنج لهم ديارهم وممتلكاتهم دون أن يمسوها بأذى أو سوء (١) .

وإن ما تضمنه هذا النص من إشارة صريحة إلى معاونة بعض المسيحيين بدمياط للصليبيين ، يدفعنا إلى التساؤل عن موقف هذا العنصر حيال حملة لويس التاسع ، وعما إذا كان قد ساعد الفرنج أم لا .

يعلق المؤرخ الفرنسى رينيه جروسيه على النص السابق فيقول إن « المسيحيين السوريين » الذين أشار إليهم روتلان هم أنفسهم « الأقباط المونوفيسيون » . ويفسر ذلك بقوله : « من البديهى أن هذا النص يعنى — بالمعنى الضيق — مسيحيى سورية الذين هاجر عدد كبير منهم إبان الحملة الصليبية الأولى إلى مصر واستوطنوا فيها . ويظهر أن الأقباط بمصر — الذين كانوا يدينون بالمذهب المونوفيسى مثل يعاقبة سورية — أصبحوا منذ ذلك الحين يعرفون أيضا بهذا الاسم ، حتى أنه كان يصعب على كتاب الفرنج المعاصرين التمييز أو التفرقة بين السوريين والأقباط ، فكانوا يطلقون على كليهما لفظ « المسيحيين السوريين » (٢) .

---

(١) "L'en i trouva ausint ne sai quanz Surienz Crestienz, qui manoient laianz en subjection des Sarrasins. Quant cil virent les Crestienz entrer en la ville, il pristrent croix et por ce n'orent garde. L'en leur laissa leur maisonz et ce qu'il avcient." Rothelin, 592.

(٢) Grousset, Crois., III, 445, n. 1.

ويعقب نفس المؤرخ على ذلك بأن هؤلاء الأقباط الذين بقوا فى دمياط بعد فرار الأهالى تفاهموا مع الفرنج ، وأنه كان بوسعهم تقديم مساعدات قيمة إلى الصليبيين لتأسيس إمارة لاتينية فى مصر (١).

يلاحظ أن تفسير جروسيه للعبارة الواردة فى روتلان — والتى على أساسها أوجد العلاقة بين اللاتين والقبط بمصر — تفسير بعيد الاحتمال لعدة أسباب. أهمها أن روتلان لم يذكر صراحة اسم الاقباط ، ولم ينص عليهم فى روايته ، إنما قال مسيحى سورية . وغير ذلك فإن جميع الصليبيين الذين اشتركوا فى الحملة وكتبوا عنها أمثال جوانفيل وجان دى بومون وروبرت كونت ارتوا والملك لويس التاسع نفسه ، لم يذكروا شيئا عن هذه المسألة ؛ ولو كانت هناك حقا علاقة بين الطرفين — أيا كان نوعها — لعرضوا لها فى كتاباتهم ورسائلهم التى توجد بين أيدينا . ومما يجعلنا نقطع بعدم صحة هذا النص الذى أورده روتلان وبالتالى عدم وجود أية رابطة بين القبط واللاتين الفاتحين حسبما ذكر جروسيه ، ما جاء فى الأصول المعاصرة للحملة ، شرقية كانت أم غربية ، من أن دمياط كانت خالية تماما من الناس بعد فرار القوات والأهالى منها (٢).

والواقع أن الأمل المعقود على معونة الأقباط فى مصر للصليبيين الغزاة كان أملا ضعيفا جدا . فإن الدارس للتاريخ الكنسى فى العصور الوسطى يجد أن الاختلافات المذهبية والنزعات الدينية كانت سببا لإثارة الصراع الدائم والاحتكاك المستمر بين مسيحى الغرب والمسيحيين فى الشرق ، أو بين البابوية فى روما

(١) "Cet element copte pouvait apporter un précieux concours pour l'ètablissement de la domination franque dans le Delta." Grousset, Crois., III, 445.

(٢) أنظر ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٦ ب . وكذلك : Joinville (ed Wailly), 90.

وبطاركية كل من الاسكندرية والقسطنطينية — هذا النزاع الذى ظهرت بوادره بشكل واضح فى مجمع خلقيدونية المسكونى سنة ٤٥١ م ، الذى اعتبر فيه المونوفيسيون بمصر هراطقة، وأصبحوا منذ ذلك الحين محلا للاضطهاد الدينى[١].
وقد انتهى هذا النزاع آخر الأمر بانفصال الكنيستين الشرقية والغربية عن بعضها انفصالا تاما فى أواسط القرن الحادى عشر الميلادى ، قبل بدء الحركة الصليبية بقليل[٢]. وحتى بعد ذلك التاريخ بفترة طويلة ، قامت محاولات عديدة خلال القرون الثالث والرابع والخامس عشر للميلاد ، فيما بين مجمع ليون ١٢٧٤م ومجمع فلورنسا ١٤٣٩م ، لتحقيق الاتحاد بين الكنيستين الغربية والشرقية حتى يمكن للصليبيين القيام بحملة جامعة ضد المسلمين ، ولكن هذه الجهود باءت جميعها بالفشل[٣].

لقد كان لهذه الخلافات أثرها السىء فى العلاقات بين العنصرين . لذا يمكن القول إنه حتى إذا كان فى مكنة الأقباط القيام بمساعدتها ، فذلك كان يتوقف على مقدار ولائهم للفاتحين . ولم يكن هذا الولاء — كما رأينا — موجودا ولا متوقعا من أقباط مصر ، أولئك الذين كانوا على الدوام ذوى عقيدة متطرفة

(١) راجع القول الابريزى للعلامة المقريزى ص ٣٣ — ٤٢ ، أنظر أيضا :
Baynes, Byzantine Empire, 75-83, 88-96; Butcher, The story of the Church of Egypt, I, 291-300; Krüger, Monophysitism, cf. Ency. of Religion & Ethics, VIII, 811-7.

(٢) Cf. Runciman, Byzantine Civilisation, 123-4.

(٣) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 261-8.

وحول أوجه الخلاف المذهبية بين المسيحيين الغربيين الكاثوليك والمسيحيين الشرقيين الأرثوذكس وبخاصة البيزنطيين ، أنظر جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين — ص ١١٢ — ١١٨ .

وضالين عن جادة الدين الحقيقى فى نظر الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، مما جعلهم مكروهين فى الأوساط اللاتينية (١) . حتى ان أهل الغرب كانوا يعتبرون القبطى والمسلم على حد سوى غير مؤمنين لأن كليهما على غير المذهب الكاثوليكى(٢). يضاف إلى ذلك أن الأقباط لم يكونوا كثيرى العدد ولا رجال حرب ليقدموا للفرنج مساعدة لها قيمتها أو اعتبارها (٣) . واخيرا فإن الأقباط لم يصبهم فى أيام الدولة الأيوبية ضرر بقدر ما لحقهم من الفرنج أنفسهم الذين كانوا يغيرون على الديار المصرية من حين لآخر ويعيثون فيها فسادا . ويستشهد يعقوب نخلة روفيله فى كتابه عن تاريخ الأمة القبطية ببعض الأمثلة ليؤكد صحة ما ذكرناه . من ذلك أنه لما استولى الصليبيون على بيت المقدس فى الحرب الصليبية الأولى ، منعوا القبط من زيارة الأراضى المقدسة ، فلم يدخلوها حتى استردها السلطان صلاح الدين منهم فى ٥٨٣ ﻫ / ١١٨٧ م . وفى ٦٠٠ ﻫ / ١٢٠٤ م فى عهد الملك العادل أبى بكر فاجأ الفرنج مصر من جهة رشيد وتقدموا إلى فوه وتحصنوا فيها وكانت خاصة بالاقباط ولها أسقف مخصوص ، فقتلوا بعض من بها من القبط وسبوا البعض ولم يسع الباقين إلا الهرب . أما الأسقف فإنه لما وجد نفسه وحيدا تركها هو الآخر وذهب إلى مصر حيث أقام بها فترة من الوقت حتى ولى مطرانا على بلاد الحبش(٤) . وتذكر الكاتبة بوتشر أنه عندما استولى الفرنج على

---

(١) Davis, Invasion of Egypt, 26.

(٢) Butcher, II, 128, 132-3.

(٣) Jacques de Vitry, Siège de Damiette, 1218 de J.C., cf. Mon. Cart., t. III, fasc. IV, 936; Atiya, op. cit., 273; Davis, op. cit., loc. cit.

(٤) يعقوب نخله روفيله : تاريخ الأمة القبطية ص ١٧٨ — ١٩٧ . راجع أيضا : Butcher, II, 71 .

دمياط فى ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م ، أساءوا إلى الأقباط بها، وأنكروا عليهم حقوقهم الوطنية وعينوا مطرانا لاتينيا على المدينة ، وحولوا جامع المسلمين العظيم إلى كنيسة رومانية ، ومما ساعدهم على ذلك أن الكنيسة القبطية حينذاك كانت خالية من بطريرك يعارض فى الانشقاق الذى أحدثه الصليبيون (١). وقد سارت حملة لويس التاسع على هذه السياسة. فكان أول ما عمله الفرنج بعد استيلائهم على دمياط فى ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م ، أن شرعوا فى تثبيت رسومهم وشعائرهم بها، فجعلوا جامعها كنيسة رومانية دشنها القاصد الرسولى فى الحملة باسم كنيسة مريم العذراء ، ورسم لها أسقفا لاتينيا يدعى جيل Giles ، الذى سيصبح أسقفا على صور فيما بعد (٢) . وليس أدل على سوء معاملة الصليبيين للقبط مما ذكره الدكتور عزيز سوريال عطية عندما تناول بالبحث حملة بطرس الأول لوسجنان ملك قبرص اللاتينى على الاسكندرية فى ١٣٦٥ م / ٧٦٧ هـ ، من أن امرأة قبطية مشلولة ابنة قسيس يدعى جرجس بن فضائل كانت تعمل حارسة لكنيسة قبطية على مقربة من منزلها ، حاولت بصعوبة كبيرة أن تنقذ محتويات الكنيسة من عدوان الصليبيين ، ولكنها اضطرت إلى التنازل عن حاجاتها الخاصة للفرنج حتى بعد أن رسمت لهم علامة الصليب وأعلنت دينها (٣) .

---

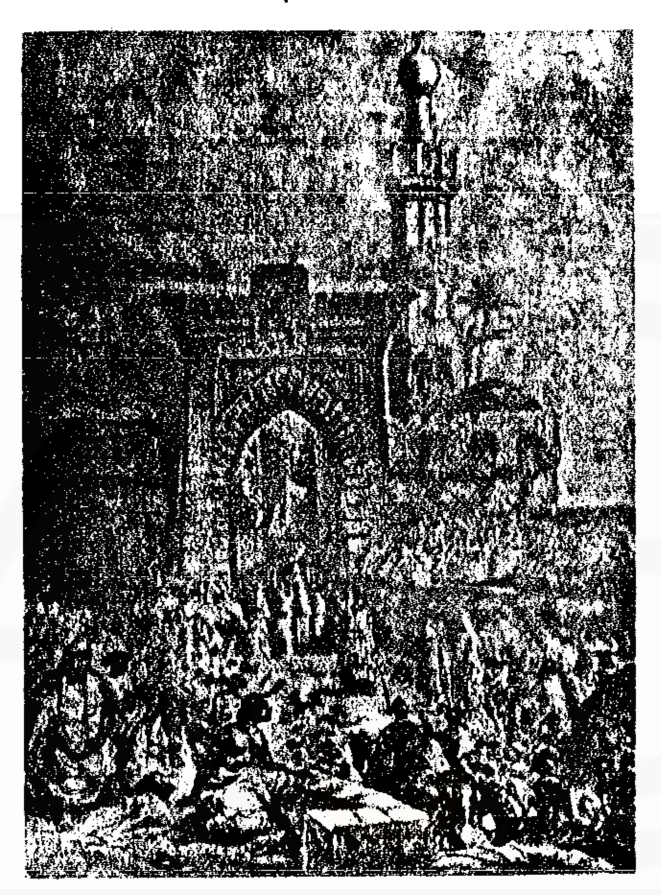
(١) Butcher, II, 130. راجع أيضا ابن واصل ج ١ لوحة ١٨٧ ؛ حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٨ ؛ المختصر ج ٣ ص ١٢٨؛ تتمة المختصر ج ٢ ص١٣٧؛ البداية والنهاية ج ١٣ مجلد ٧ ص ٨٤ .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 98; Rothelin, 594. Cf. Grousset, Crois., III, 444; Wiegler, 257; Wallon, St. Louis, I, 294.

راجع أيضا ابن الوردى : تتمة المختصر ج ٢ ص ١٣٧ .

(٣) Atiya Crusade in the Later Middle Ages, 366.

لوحة رقم ٣



الفرنج يدخلون دمياط ويحيلون جامعها إلى كنيسة لاتينية

الصورة مأخوذة من كتاب :

الدكتور جمال الدين الشيال : مجمل تاريخ دمياط ، ص ٣٠.

مما سبق يمكننا القول ونحن مطمئنون إلى ذلك أن العلاقات بين القبط واللاتين لم تكن قائمة على الود أو حسن التفاهم ، وأنهم ـ أى القبط ـ كانوا ساخطين على الفرنج لسوء مسلكهم ولتصرفاتهم الحمقاء ، هذا من جهة والاختلاف المذهبى بينهما من ناحية أخرى ، وما كانوا يتوقعون خيرا منهم لو أتيح لهم فتح مصر . وعلى هذا يمكننا أيضا أن نقطع بأن الاقباط بمصر لم يمدوا يد المساعدة إلى الغزاة الفاتحين على أية صورة كانت . وإن موقف الأقباط الحاسم فى هذا الصدد إنما يرجع إلى شعورهم الدائم المتوارث بالقومية المصرية. وإيمانهم بها، وإخلاصهم لبلادهم ، وولائهم لأولى الأمر فيها . ثم أيضا إلى الفروق المذهبية العديدة التى خلقت بين المسيحية الشرقية والمسيحية الغربية هوة هائلة ؛ جعلتهم يفضلون أن يبقوا فى منحى منيع عن النفوذ اللاتينى الغربى . ولاشك عندنا ، أن الإمعان بين السطور فى كلام المعاصرين لهذه الحملة ، مثل ابن واصل وجوانفيل ، يؤيد هذا الرأى تأييدا لا مرد له .

وإذا كنا قد تناولنا موقف الأقباط بالدراسة باعتباره مشكلة ينبغى معالجتها ، فذلك لا يبعدنا عن مواصلة استكمال قصة سقوط دمياط فى أيدى الفرنج . فبعد أن استقرت القوات الصليبية بها ، بدأت تختلف فى أمر تقسيم الغنائم التى عثرت عليها ، إذ وجدتها ممتلئة بكل ما تشتهيه الجيوش الغازية من الأقوات والأسلحة (١). ويذكر جوانفيل أن مسألة تقسيم الأسلاب قد أثارت الكثير من الجدل بين رجال الحملة ، وأشاعت الفوضى فى صفوفهم . فقد اقترح روبرت بطريرك بيت المقدس أن يحتفظ الملك بالأقوات وما يلزم لتموين الحامية ، وأن ترسل باقى الأسلاب إلى منزل القاصد الرسولى بدمياط ، وقد

---

(١) Comte d'Artois, 610-1; Guy de Melun, 617.

صادفت هذه الفكرة قبولا من البارونات والنبلاء واقترح محارب آخر من عامة الصليبيين يدعى جون‌دى فاليرى John de Valery أن تقسم الغنيمة بحيث يأخذ الملك الثلث ويوزع الباقى بالتساوى بين الصليبيين دون تفرقة أو تمييز ، كما فعل جان‌دى برين عندما استولى على دمياط قبـل ذلك التاريخ بثلاثين سنة ، وتمشيا مع العادة القديمة المتبعة فى تقسيم الغنيمة عندما كان الفرنج يستولون على بلد ما . لكن لويس رفض هذا الاقتراح ، مما أدى إلى حدوث موجة من السخط بين عامة الصليبيين (١) . فكان هـذا الشقاق حول اقتسام الغنيمة بداية ونموذجا لما سيكون عليهم سلوكهم فيما بعـد، من حيث إخلالهم بالنظام وعصيانهم للأوامر وانغماسهم فى الملذات ، الأمر الذى سيكون له أسوأ الأثر على مصير الحمـلة .

وكيفما كان الأمر ، بعد أن وطد الصليبيون أقدامهم فى مدينة دمياط، وبعد أن استقرت بهم الأحوال لحد ما ، توقفت الأعمال الحربية فترة من الزمن . وظل الجيش الصليبى مقيما بدمياط فترة تقرب من خمسة أشهر ونصف دون القيام بأى عمل جدى ، أو مواصلة التقدم نحو الجنوب لجنى ثمار النصر الأول الذى أحرزه . والواقع أن الأصول الغربية المعاصرة للحملة مختلفة حول تبيان أسباب بقاء الفرنج فى دمياط طيلة هذه المدة . فيقول جوانفيـل إن الملك لويس آثر البقاء إلى حين وصول أخيه الفونس كونت بواتييه على رأس النجدة التى أخـذ فى جمعها من فرنسا (٢) . بينما ذكر كونت أرتوا شقيق الملك الفرنسى فى خطابه

(١) Joinville (ed. Wailly), 90-2. Cf. also Bray, 136; wallon, I, 294-5.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 98. Cf. Archer & Kingsford, 395; Watson, The Story of Jerusalem, 235; Hénaut, Manuel d' hist. de l, Égypte, 176.

حول الاستيلاء على دمياط، أن الفرنج كانوا يخشون استئناف الحملة بعد استيلائهم على المدينة مباشرة لأن الفيضان كان قريب الوقوع حيث تغمر مياه النيل القرى والبلاد . لذا آثروا الانتظار وعدم المبادرة بالزحف إلى أن تنتهى زيادة النيل ، حتى لا يعرضوا قواتهم للخطر (١) .

والظاهر أن معلومات الفرنج عن النيل كانت سطحية غير دقيقة ، فإن البيانات التى أوردها جوانفيل فى مذكراته عنه ، والتى لا تخلو من طرافة ، تدلنا على مبلغ جهلهم به . فهو يقول عن الفيضان : « ولا يعرف أحد موعد فيضان النيل ، إذ يرتفع بالزيادة وفقا لمشيئة الله ورغبته » (٢) . ويؤيد هذا ما ذكره كتاب المسلمين فى معرض الكلام عن حملة جان دى برين على مصر ، من أن الفرنج لم يكن لهم خبرة بأمر النيل (٣) . ويلوح أيضا أن خوف الصليبيين من قرب موعد الفيضان ـ حسبما ذكر كونت ارتوا ـ لم يكن قائما على أساس ثابت ، إذ كان لديهم الوقت الكافى للمبادرة بالزحف السريع المتواصل بعد امتلاكهم المدينة مباشرة . لأن أول زيادة النيل تكون فى الخامس من بؤونة (١٢ يونيو) ويبلغ ذروته فى شهر مسرى (أغسطس) ونهايته فى الثامن من بابه (١٩ أكتوبر) (٤) . لذا كان بوسع الملك لويس لو غادر دمياط فى الثامن

(١) Lettre du Comte d' Artois, 611. Cf. Stevenson, 326; Lavisse & Rambaud, Hist. générale, II, 336; Kitchin, I, 343.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 102. Cf. Petit-Dutaillis, 318.

(٣) راجع ابن واصل ج ١ لوحة ٢٠٨ ب ؛ المختصر ج ٣ ص ١٣٦ ؛ تتمة المختصر ج ٢ ص ١٤٢ .

(٤) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٧٤ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٣ — ٢٩٤ ؛ الادريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق « الاطلس الجغرافى ج ٣ قسم ٤ » ص ٨٤٢ . وراجع أيضا الجدول المثبت بآخر كتاب قوانين الدواوين حيث يوجد به بيان بالشهور القبطية وما يقابل أوائلها من التواريخ الميلادية .

من يونيو بعد استيلائه عليها مباشرة ، من وصول المنصورة ودخول العاصمة المصرية فى نفس الشهر ، أى قبل أن يبلغ ماء النيل ذروته ، مع ملاحظة أنه كان بوسعه هو وجيشه وهم فى نشوة انتصارهم الأول مواصلة الزحف دون مقاومة من جانب المصريين قبل أن يستفيقوا من الذهول الذى استولى عليهم بامتلاك الفرنج دمياط (١) .

على أى حال ، نلاحظ أن هذه الفترة الطويلة من الجمود والتراخى التى أمضاها الفرنج بدمياط قد أضرت بالحملة أيما إضرار . فقد اختل النظام فى معسكرات الفاتحين ، وساد الإفراط فى الملذات والفجور بين الأمراء والبارونات وعامة الصليبيين على السواء . وكان ذلك يرتكب على الرغم من إرادة الملك لويس ، الذى يبدو أنه أصبح عاجزا عن السيطرة على جيوشه أو كبح جماحها (٢) . ومما زاد الطين بلة أن شدة الحرارة وكثرة الذباب سببا لهم مضايقات كثيرة (٣) . يضاف إلى ذلك أن الصليبيين أنفسهم كانوا فى نزاع دائم وشجار مستمر ، فقد كانت جماعات الرهبان المحاربين التى اشتركت فى الحملة من الاسبتارية والداوية فى نزاع مع بعضها البعض ، كما كان الفرنسيون يعادون الانجليز وهكذا (٤) . ومن أمثلة ذلك الصراع الذى نشب بين وليم كونت سالسبرى وروبرت كونت ارتوا خلال إقامة الفرنج بدمياط . فقد حدث أن علم وليم هـــذا عن طريق جواسيسه الذين أنفذهم عيونا على الأعداء ، أن بعض تجـار الشرق الأثرياء

---

(١) Cf. Oman, Art of War, I, 341; Lane-Poole, Hist. of Egypt, 232; Michelet, I, n. p. 566; Grousset, Crois., III, 445.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 94, 96. Cf. Davis, Invasion of Egypt, 28; Campbell, 427; Wiegler, 257; Ludlow, 341.

(٣) Rothelin, 592. Cf. Grousset, op. cit, 447.

(٤) Cf. Matt. Paris, II, 353.

بحرسهم خامية متواضعة سيحضرون إلى أسواق مقامة بالقرب من الإسكندرية أملا فى الكسب . لذا أسرع وليم وجماعة من جنده إلى هناك[١] متسترين بظلام الليل ، وباغتوا التجار وأجهزوا عليهم ثم شتتوا رجال الحامية واستولوا على القافلة التى كانت تحوى أعدادا وافرة من الجمال والبغال والحمير المحملة بالحرائر والفضة والذهب . ثم قفل عائدا إلى دمياط مزهوا فخورا بما غنم . ولكن عند عودته قابله الفرنسيون وعلى رأسهم كونت ارتوا بشعور عدائى ، وسلبوا منه الغنيمة عنوة موجهين إليه الفاظا نابية . فالتجأ وليم إلى الملك لويس شاكيا من تصرفات أخيه روبرت ، ولكن دون جدوى . حينئــذ ترك المعسكر بدمياط وذهب هو وفرسانه إلى عكا حيث أقام هناك فترة من الزمن ، ولم يعد إلى مصر إلا بعد أن بعث لويس فى طلبه واعدا بإرضائه ورد اعتباره إليه [٢] .

ولما أحس المصريون باستسلام الصليبيين إلى الجمود وامتناعهم عن العمل المجدى النافع ، استغلوا الفرصة ، فشنوا عليهم الغارات متوالية هوجاء ، وأخذوا فى مناوشتهم القتال حتى أقضوا مضاجعهم وأقلقوا راحتهم [٣] .

فقد تحدث جوانفيل فى مذكراته عن موقعة نشبت بين الفريقين فى منتصف أغسطس سنة ١٢٤٩م ؛ إذ هاجمت القوات المصرية المعسكر الصليبى بدمياط من

(١) مما يوسف له أن متى الباريزى الذى انفرد بذكر هذه الرواية ، لم يمدنا بمعلومات وافية عنها . فلم يحدد مكان الأسواق القريبة من الاسكندرية ، أو خط السير الذى اتخذه وليم كونت سالسبرى وهل هو بالبحر أم بالبر — تلك المعلومات التى لو ذكرها لكان لها أهمية فى الدلالة على كثير .

(٢) Matt. Paris, II, 354-6, 362-3. Cf. Wallon, I, 301, 302.

(٣) ابن واصل ج ٢ لوحة ١٣٥٧ . راجع أيضا عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٢ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٠ ، السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٧ .

ناحية البر، وكان الملك لويس قد أصدر أمرا لقواته بألا يبرح أحد منها معسكره دون إذنه . ولما أراد جوانفيل الخروج هو ورجاله لملاقاة المسلمين ودفعهم عن المعسكر ، منعه الفارس جان دى بيرمون ، وأفهمه ألا يبرح مكانه إلا بعد الحصول على تصريح من الملك . لكن أحد الصليبيين المتهورين ويدعى جوتييه الأنطاكى [١] Gautier d'Autrèche ضرب بهذه الأوامر عرض الحائط ، فلبس درعه وامتطى جواده وانطلق من خيمته مسرعا نحو الاعداء . وبينما هو فى اندفاعه وقع من فوق الجواد وسقط على الأرض . وسرعان ما أقبل نحوه أربعة من عساكر المسلمين ووجهوا اليه ضربات مبرحة فأصابوه بجراح بالغة . وكاد أن يهلك لولا أن أسرع لإنقاذه بعض اخوانه من قبضتهم ، وحملوه إلى خيمته وهو فاقد النطق ، حيث مات بعد ذلك متأثرا بجراحه نتيجة استخفافه بسلطة قائده الأعلى وعصيانه لأوامره [٢] .

وأخذ سلطان مصر يتفنن فى مضايقة الصليبيين ، فراح يمنح مبلغا من المال عن كل رأس من رؤوس الأعداء يأتيه بها أحد جنوده [٣] . فكان رجالة المسلمين يدخلون المعسكر المسيحى ليلا ويجهزون على كل من تصل يدهم إليه، ثم يعودون أدراجهم من حيث أتوا . وقد بلغ بهم الأمر أنهم كانوا فى بعض الأحيان ينبشون الأرض لإخراج جثث الموتى من الفرنج طمعا فى الحصول على هذه المكافأة التى وعدهم بها السلطان [٤] . ويرجع السبب فى هذا أن التدابير التى اتخذت لحراسة المعسكر الصليبى لم تكن كافية . فقد كان الجنود المكلفون

---

(١) فيما يتعلق بسيرة جوتييه الانطاكى راجع : Rothelin, 595 & n. C.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 94, 96. Cf. Rothelin, 595-6.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 93; Rothelin, 592; Matt. Paris, II, 364.

(٤) Rothelin, 592.

بالحراسة يقومون بمهمتهم وهم راكبون جيادهم ، فكان المسلمون يتسللون خلسة إلى المعسكر خلف جياد الصليبيين دون أن يشعر بهم أحد . ولما أدرك الملك لويس ما ترتب على هذا الإهمال من أضرار بالغة،أصدر أوامره بأن يقوم الجند بحراسة المعسكر وهم مترجلون ، حتى يتسنى لهم مراقبته مراقبة دقيقة ليحولوا دون وصول المسلمين إليه (١) . لم يكتف الفرنج بذلك ، بل حصنوا مدينة دمياط نفسها وشحنوا أسوارها بالمحاربين وآلات القتال (٢) . ثم شرعوا بعد ذلك فى حفر خنادق عميقة حول معسكرهم ،وعهد الملك إلى رماة السهام بحراسة هذه الخنادق وجميع المنافذ المؤدية إلى داخل المعسكر (٣) .

وعلى الرغم من كل هذه الاحتياطات ، فإن حرب العصابات والكرات الليلية هذه أخذت تتوالى على معسكر الصليبيين ، واغتيل الحراس واحدا إثر الآخر ، وأسر كثير من رجالهم (٤) . وكان الأسرى يصلون تباعا إلى القاهرة حتى أنه وقع فى أيدى المسلمين فى غضون ثلاثة أشهر (ربيع الأول والثانى ورجب/ يوليو وأغسطس وأكتوبر) ما يقرب من ٣٠٠ أسير من الفرنج(٥) . وفى إحدى هذه الغارات ـ وكانت فى شهر رجب ـ ظفر المسلمون بسفينة من

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 96,9?.

(٢) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٧ ا . راجع أيضا عقد الجمان ج١٨ قسم٢ لوحة ٣٠٢ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٠ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٧ .

(٣) Joinville (ed. Wailly), 98. Cf. Grousset, Crois., III, 448.

(٤) Cf. Davis, Invasion of Egypt, 28.

(٥) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٧ ا و ٣٥٧ ب و ٣٥٨ ب ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٠ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٧ . أنظر كذلك جدول تواريخ الحملة فى الملحق الرابع بآخر الكتاب .

النوع المعروف باسم مسطح[١] من أسطول الصليبيين وبه عدد من المقاتلين فى النيل بالقرب من نستراوه [٢] .

وقد أراد سلطان مصر ـ وفقا لما رواه متى الباريزى ـ وضع حد للقتال الناشب بين الطرفين لإقرار السلم والطمأنينة فى البلاد . فعرض على الملك الفرنسى أن يتنازل له عن بيت المقدس ، وأن يطلق سراح المسيحيين الذين فى أسره ، مقابل إعادة مدينة دمياط إليه بما تحويه من مؤونة وعتاد . وقد وافق على ذلك عامة الصليبيين وبعض النبلاء ، وكاد الملك لويس أن يوافق هو الآخر لو لم يعترض كونت أرتوا بشدة على هذه المقترحات ، مطالبا بمدينة الاسكندرية إلى جانب بيت المقدس . لكن السلطان رفض التنازل للفرنسيين عن هذا الثغر البحرى الهام . وهكذا انقطعت المباحثات فى سبيل الوصول إلى تسوية يقبلها الفريقان [٣] .

---

(١) المسطح نوع من السفن الحربية الكبيرة ، جمعه : مسطحات ، والغالب أنه سمى بذلك لأنه كان له سطح . أنظر قوانين الدواوين ص ٣٤٠ ؛ السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٣٩ حاشية ١ . وكذلك : Dozy. Supp. Dict. Ar.

(٢) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٥٨ ب ـ ونستراوه كانت تطلق فى تلك العصور على بلدة البرلس الحالية وعلى بحيرة البرلس أيضا . أنظر ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٩٥ و ١٩٠ ؛ ياقوت : معجم البلدان جـ ٤ ص ٧٨٠ و جـ ١ ص ٥٩٣ .

(٣) Matt. Paris, II, 333–4. Cf. Michaud, Bib. des Crois. , I, 545–6; Bordeaux, St. Louis, 244. — وقد ذكر النويرى (نهاية الأرب جـ ٢٧ لوحة ٩٠) أن الصالح نجم الدين نصح ابنه المعظم فى وصيته إليه بالتنازل للفرنج عن الساحل الشامى وبيت المقدس إن ضاقت به الأمور وأوشك الاعداء على تملك الديار المصرية . لكن النويرى لم يذكر أن الصالح عرض فعلا على المسيحيين التنازل لهم عن البيت المقدس .

ومما هو جدير بالذكر أن متى الباريزى هو المؤرخ الوحيد المعاصر للحملة ـ وإن لم يكن شاهد عيان لها ـ الذى أشار إلى هذه المفاوضات التى جرت بين الفرنج والصالح أيوب . والواقع أنه ليس من المعقول أن يتقدم المصريون بمثل هذه الشروط المغرية فى وقت كان فيه الصليبيون يعانون الأمرين من مضايقة المسلمين لهم . ثم أنه لو كان الصالح أيوب يرغب حقيقة فى إيقاف القتال ، لما ثار ثورة مضرية على بنى كنانة عقب فرارهم من دمياط ، ولما انتقل بجيشه إلى المنصورة ـ وقد أخذ منه المرض كل مأخذ ـ للتحصن بها ضد الغزاة وإعداد العدة لصدهم عند تقدمهم من دمياط صوب العاصمة . ويرى الكاتب هنرى بوردو أن متى الباريزى قد خلط بين حوادث هذه الحملة وبين العروض التى كان قد تقدم بها الملك الكامل محمد إلى جان دى برين فى الحملة الصليبية السابقة ، والتى رفضها بيلاجيوس القاصد الرسولى(١) . وأنه لو كانت هذه العروض قد تقدم بها فعلا الصالح ايوب لما رفضها لويس ، خاصة وأنها تصل به الى الهدف الرئيسى لحملته ألا وهو انتزاع بيت المقدس من قبضة المسلمين ، دون حرب أو إراقة للدماء (٢) .

ولعل ما أورده متى الباريزى هو إحدى الشائعات المبالغ فيها التى انتشرت فى أوروبا فى وقت الحملة حول انتصارات الصليبيين . ومن أمثلة ذلك ما ذكره نفس المؤرخ تحت حوادث عام ١٢٥٠ م ، عن استيلاء المسيحيين على العاصمة

(١) كان الملك الكامل قد عرض على الفرنج أن يرد إليهم بيت المقدس وجميع ما كان صلاح الدين قد فتحه من الساحل الشامى ويتركوا دمياط ، لكنهم رفضوا هذه العروض . راجع ابن الاثير : الكامل (مجموعة الحروب الصليبية) ج ٢ قسم ١ ص ١٢٢ . وكذلك ابن واصل ج ١ لوحة ٢٠٨ أ — ٢٠٨ ب ؛ المختصر ج ٣ ص ١٣٦ ؛ تتمة المختصر ج ٢ ص ١٤٢ ؛ حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٨ .

(٢) Bordeaux, 244.

المصرية (١) ، مما لا يتفق والحقيقة التاريخية .

لقد أصبح الفرنج فى موقف لا يحسدون عليه . فلم يقتصر الأمر على الضربات التى أخذ المسلمون فى كيلها لهم ، والهجمات التى كانوا يشنوها على معسكراتهم ، وحرب الكر والفر التى سببت لهم مضايقات كثيرة ؛ بل بدأت المؤونة تنفد بسبب جشع التجار المتعهدين ، وأخذت العواصف العنيفة تتعاقب على الوجه البحرى ، حتى لقد تحطمت ٢٤٠ سفينة من سفن الصليبيين الراسية على الشاطىء بقرب دمياط حيث دفعتها الرياح بعيدا ، ففدحت الخسارة فى الأرواح والعتاد . وقد حدث كل هذا قبل وصول كونت بواتييه مع بقية الجيش (٢) .

فلما وصل الكونت فى ٢٤ أكتوبر ١٢٤٩ م — وكان ذلك بعد أن هدأت العاصفة ـ دعا ملك فرنسا الأشراف والبارونات للتشاور ولاختيار الطريق الذى يسلكونه بعد مغادرتهم دمياط ، أيتجهون نحو الاسكندرية أم يسيرون قدما إلى القاهرة (٣) ؟ فكان من رأى بطرس كونت بريتانى ومعه غالبية البارونات ومعظم قواد الجيش أنه يجب المسير إلى الاسكندرية (٤)

(١) Matt. Paris, II, 343.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 100. Cf. Davis, Invasion of Egypt, 28–9.

(٣) تعرف القاهرة عند كتاب الفرنج فى ذاك العصر باسم بابيلون " Babiloine " أو "Babylonie" . راجع : Joinville (ed. Wailly), 104 , 120; Epistola Ludovici (ed. Bongars), I, 1196; Rothelin, 592,597.

(٤) يعتقد شارل اومن أن النية كانت متجهة إلى احتلال الاسكندرية عن طريق البحر المتوسط ، إذ لا يعقل أن يحلم الفرنج بعبور قنوات الدلتا بل وعرض الدلتا كلها . راجع : Oman, Art of War, I, 342, n. 3.

والاستيلاء عليها أولا ، ثم يهاجمون بعد ذلك القـــاهرة (١) . وكانت حجتهم معقولة وصحيحة من الناحية الحربية ؛ وتتلخص فى أنه يوجد هناك مرفأ يكون وكر لأسطولهم، ولأن الجيش هناك يمكن تموينه بسهولة . كما أنه يصبح فى وسع أسطولهم أن ينقل الميرة من بلادهم إلى الاسكندرية بسهولة. ولكن روبرت كونت ارتوا لم يوافق على هذه الخطة ، واستهجنها قائلا إنه لن يسير إلى الاسكندرية إلا إذا استولى الفرنج أولا على القاهرة التى كانت مقر الحكومة فى مصر ، وان الاستيلاء عليها يستتبع حتما الاستيلاء على مصر كلها . ثم عزز رأيه بقوله إن من يريد أن يقتل الأفعى يجب أن يبدأ برأسها . فوافقه الملك على ذلك وأعرض عن الخطة الأولى ، وتقرر بذلك مسير الجيش الصليبى جنوبا نحو القاهرة بمحاذاة الفرع الشرقى للنيل (٢) . ولعله من المؤكد أن الفكرة الأولى الخاصة بالتوجه إلى الاسكندرية أولا كانت الأفضل والأسلم عاقبة (٣) ؛ إذ أن الاستيلاء عليها بعد امتلاكهم دمياط سيتيح لهم الفرصة لقطع تجارة مصر بالعالم الخارجى ، وحينئذ قد تجد القاهرة نفسها مضطرة إلى طلب إيقاف القتال وعقد الصلح حرصا على مصالحها (٤) . كما أن السير من الاسكندرية إلى القاهرة أسهل بكثير من السير من دمياط إليها ، ولو أن هذا كان يتطلب حصارا ثانيا مرهقا قبل نزول القوات إلى الاسكندرية (٥) .

---

(١) الغالب عن طريق دمنهور فالجيزة ، وهو خط السير الذى اتخذه بونابرت فى حملته على مصر سنة ١٧٩٨ م .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 100. Cf. Davis, Invasion of Egypt, 29; Grousset, Crois., III, 448 — 9; Wallon, I, 305 — 6.

(٣) Davis, op. cit., loc. cit.

(٤) Cf. Grousset, op. cit. loc. cit; Bordeaux, 245.

(٥) Oman, Art of War, I, 342.

وأخيرا فى يوم السبت ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩ م[1] / ١٢ شعبان ٦٤٧ هـ ، بعد بعد انتهاء موسم الفيضان ووصول كونت بواتييه ، غادر الصليبيون دمياط بحدهم وحديدهم متقدمين نحو عاصمة الديار المصرية وفقا للنصيحة التى أشار بها كونت ارتوا ، تاركين المدينة فى حراسة قوية [2]. واتخذوا نفس الطريق الوعر الذى سار فيه أسلافهم منذ ثلاثين سنة مضت ، فكان هذا من أهم الأسباب فى فشل هذه الحملة .

---

(١) الأصول المعاصرة للحملة مختلفة فى تحديد تاريخ مسير الفرنج من دمياط . فقد جاء أنهم غادروها فى ٢٠ نوفمبر حسبما ذكر كل من لويس التاسع وروتلان ، أنظر :
Epistola Ludovici (ed. Bongars) ,I, 1196; Rothelin, 597. و٢٧ نوفمبر وفقا لرواية هرقل . أنظر Eracles, 437, ، و ٢٨ من نفس الشهر حسبما ذكر جوانفيل . أنظر Joinville (ed. Wailly), 100. . بينما أجمع المؤرخون المرقيون أن الفرنج ساروا من دمياط بعد أن وصلتهم أخبار موت الصالح أيوب ، أى بعد ٢٠ نوفمبر لأن وفاة الصالح كانت فى ١٤ شعبان الذى يوافق ٢٢ نوفمبر . أنظر ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٤ أ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ورقة ٣٧٥ ؛ العينى : عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٦ ؛ خطط المقريزى ، ج ١ ص ٢٢٠ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٤٦ . ويؤيد الرأى الأخير بعض المؤرخين المحدثين راجع Stevenson, 326; Davis, Invasion of Egypt, 33; Wiet, op. cit., IV, 380. — ولعل هذا التضارب حول ميعاد مغادرة القوات الصليبية لدمياط يرجع الى قيامها على اكثر من دفعة وفى أوقات متفاوتة . ولكن مما لاشك فيه أن طلائع الفرنج غادرت المدينة قبل موت الصالح أيوب على عكس ما روته المراجع المرقية ؛ إذ ذكر الملك لويس فى خطابه الى الشعب الفرنسى أنه بلغهم نبأ وفاة الصالح وهم فى الطريق الى المنصورة بعد تركهم دمياط ، فكان هذا مما شجعهم على مواصلة الزحف السريع صوب القاهرة حتى يستفيدوا من هذه الفرصة . أنظر :
Epistola Ludovici, I, 1196.

(٢) Cf. Matt. Paris, II, 353.

الفصل الرابع

موقعة المنصورة

موت الصالح أيوب — تقدم الفرنج جنوبا — الفرنج أمام بحر أشموم — عبور الفرنج القناة — معارك يوم الثلاثاء (٨ فبراير ١٢٥٠م) — هجوم ليلى على المعسكر الفرنسى (٨ — ٩ فبراير) — معركة يوم الجمعة الشهيرة (١١ فبراير) — تفشى الوباء فى المعسكر الفرنسى — وصول المعظم توران شاه — ظهور المجاعة بين الصليبيين — مفاوضات فاشلة من أجل الصلح .

غادر الفرنج دمياط وقد اشتدت وطأة المرض على الملك الصالح أيوب . وفى ليلة الإثنين ١٤ شعبان ٦٤٧هـ[1]/٢٢ نوفمبر ١٢٤٩م — أى بعد مسير الفرنج بيومين — مات السلطان ، فكانت الطامة الكبرى .

---

(١) ذكرت بعض المصادر العربية المعاصرة أنه توفى ليلة النصف من شعبان ٦٤٧ هـ .أنظر أبو شامة : تراجم رجال القرنين ص ١٨٣ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٤١ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ لوحة ٥١٤ و ٥١٥ ؛ Répertoire Chronologique d'Épigraphie Arabe, t.XI, fasc. 2, 197, 198. ويؤيد ذلك جانب كبير من مؤرخى المسلمين المتأخرين . أنظر الذهبى : دول الاسلام ج ٢ ص ١١٦ ؛ العينى : عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٢ ؛ اليافعى : مرآة الجنان ج ٤ ص ١١٦ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٤ ، وتاريخ الخلفاء ص ١٨٧ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ج ٥ ص ٢٣٧ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ مجلد ٧ ص ١٧٧ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٤ ، والمنهل الصافى ج ١ ورقة ٤٠٧ ب ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام لوحة ٧٧ ب ، والجوهر الثمين ورقة ١٠٣ ؛ القرمانى : أخبار الدول ورقة ٦٥ ب ؛ با مخرمة : قلادة النحر ج ٣ قسم ١ لوحة ٩٠٠ ؛ ابن الجزرى : ملخص تاريخ الاسلام ورقة ٧٩٨ ؛ ابن شاكر : عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة ١٧ — هذا وجاء أنه توفى ليلة الأحد ١٤ شعبان فى المراجع التالية : ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٩ أ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٠ ؛ الانس الجليل ج ٢ ص ٣٦٣ ؛ الإسحاقى ص ١٢٤ ؛ المختصر ج ٣ ص ١٨٨ ؛ مسالك الأبصار ج ٢٧ قسم ٣ لوحة ٢٦٨ ؛ والاثنين منتصفه فى المراجع التالية : السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٩ ؛ نهاية الأرب: ج ٢٧ لوحة ٨٨ ؛ اللوانى : تحفة الأحباب قسم ١ لوحة ٧٩ ؛ Zambaur, 97 . ولما كان شهر شعبان من ٢٩ يوما ، ومستهله يوم الثلاثاء حسب تقدير فستنفلد ، وجميع المراجع — من معاصرة وغير معاصرة — متفقة حول موت الصالح فى ليلة النصف منه وان اختلفت فى تحديد اليوم ، فتكون هذه الوفاة إذن فى ليلة الاثنين — وليس الأحد — ١٤ شعبان ٦٤٧ هـ الموافق ٢٢ نوفمبر ١٢٤٩ م . ومما يثبت صحة تقدير فستنفلد وبالتالى أن ١٤ شعبان من هذه السنة يقع يوم الاثنين لا الأحد ، ما ذكره ابن واصل (مفرج الكروب ج ٢ لوحة ٣٦٢ أ) وكذلك المقريزى (الخطط ج ١ =

مات الملك الصالح والصليبيون قد غادروا دمياط وأعــدوا العدة للمعركة الحاسمة التى تفتح لهم الطريق إلى القاهرة . فنى هذا الوقت العصيب الذى أشرف فيه الأعداء على تملك الديار المصرية ، برزت زوجة الملك الصــالح شجر الدر ـ وليس شجرة الدر كما هو مألوف فى بعض المراجع العربية(١) ـ فى الميدان وأتت من ضروب السياسـة والدهاء ما يعجز عنـه فحول الحاكمين . لقد فطنت هـذه السلطانة إلى النتائج السيئة التى سيؤدى إليها حتما إذاعة موت زوجها بين صفوف الأعداء والأصدقاء على السواء . ومما لا غرو فيه أن ذلك كان سيضعف الروح المعنوية بين الجند والمماليك وقد يـؤدى إلى تشتيت شملهم . لذلك عزمت شجر الدر على إبقاء خبر وفاة السلطان سراً خفيا لا يعرفه إلا الأمير فخر الدين يوسف

= ص ٢٢٠) من أنه فى يوم الخميس ١٧ شعبان ٦٤٧ هـ تم تحليف العسكر بالقاهرة للمعظم ابن الصالح أيوب ، وفى يوم الاثنين ٢١ منه ورد الأمر الى القاهرة بدعاء الخطباء للمعظم . أنظر ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٦٣ ب ؛ خطط المقريزى جـ ١ ص ٢٢٠ ؛ السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٤٥ ؛ وفى يوم الخميس ٢٤ منه نزل الفرنج على فارسكور . أنظر ابن واصـل جـ ٢ لوحة ٣٦٤ ب ؛ خطط المقريزى جـ ١ ص ٢٢٠ .

(١) اختلف المؤرخون العرب فى صحة اسمهـا ، فمن قائل انهـا « شجر الدر » أنظر ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٦١ أ و ٣٧٢ أ ؛ أبو الفرج : تاريخ مختصر الدول (طبعة بيروت) ص ٤٥٣ ؛ الصفدى : الوافى بالوفيات جـ ٣ قسم ١ لوحة ١٤٩ ؛ مسالك الابصار جـ ٢٧ قسم ٣ لوحة ٢٦٩ ؛ نهاية الارب جـ ٢٧ لوحة ٩٥ ؛ أخبار الدول ورقة ٦٥ ب ؛ عيون التـواريخ جـ ٢٠ لوحة ١٨ ؛ نزهة الانام لوحة ٨٢ أ ؛ المنهل الصــافى جـ ١ ورقة ٣ ب و جـ ٢ ورقة ١٧٥ أ ؛ مرآة الجنــان جـ ٤ ص ١٣٧ ؛ السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٤٢ و و ٣٤٣ و ٣٦١ — ومن قائل انهــا « شجرة الدر » أنظر خطط المقريزى جـ ١ ص ٢٢٠ و جـ ٢ ص ٢٣٧ ؛ حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٣٤ ؛ فوات الوفيات جـ ١ ص ٩٨ ؛ المختصر جـ ٣ ص ١٨٨ ؛ تتمة المختصر جـ ٢ ص ١٨١ ؛ شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٦٧ ؛ البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٧٧ . ولو أننا نميل إلى الرأى الأول الذى يبدو أنه الأصح لسببين : أولهما أن جميع المراجع التى ذكرت =

ابن الشيخ والطواشى جمال الدين محسن[١] اللذين كانا موضع ثقتها [٢] . وقد نجحت فى هذا نجاحا يدل على بعد نظرها وحسن تدبيرها .

بعد ذلك وضعت جثة السلطان فى تابوت ، ونقلتها خفية من المنصورة فى سفينة صغيرة على النيل إلى القلعة القائمة فى جزيرة الروضة حيث كانت توجد ثكنات المماليك البحرية [٣] . ومما يدعو إلى الأسف أنه لا يوجد فى مراجع

= اسم شجر الدر بالتاء غير معاصرة لها، ثانيا أن ابن واصل مؤرخ الحملة كان معاصرا لها وقد عرفها واتصل ببلاطها وذكر اسمها فى مخطوطه بدون التاء ، ويؤيده فى ذلك جانب كبير من مؤرخى المسلمين المتأخرين . أما باقى المصادر المعاصرة فلم تذكر اسمها ، إنما اكتفت بذكر كنيتها « أم خليل » . أنظر ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ لوحة ٥١٤ و٥٢٠ و٥٢١ ؛ أبو شامة : تراجم رجال القرنين ص ١٩٦ . أما ابن خلكان فمن الغريب أنه لم يذكر أسمها فى كتابه وفيات الاعيان بالرغم من أنه كان معاصراً لحوادث هذه الفترة وترجم لبعض شخصياتها . راجع أيضا عبد الله عنان : الملكة شجرة الدر ـ الكاتب المصرى ـ عدد ٧ أبريل ١٩٤٦ م ص ٤٤٤ — ٤٤٥ حاشية ١ .

(١) يدعى جمال الدين محسن الصالحى نسبة إلى الملك الصالح نجم الدين، وكان أقرب الناس إلى السلطان الراحل ، وإليه كان القيام بأمر المماليك البحرية . أنظر ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦١ أ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٠ و ٢٢٢ .

(٢) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦١ أ . راجع أيضا عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٥ ؛ المنهل الصافى ج ٢ ورقة ١٧٥ ب ؛ ابن بهادر : فتوح النصر ورقة ١٥٦ ؛ مسالك الابصار ج ٢٧ مجلد ٣ لوحة ٢٦٩ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٠ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٤٢ — ٣٤٣ ؛ المختصر ج ٣ ص ١٨٨ ؛ تتمة المختصر ج ٢ ص ١٨١ . — وإن إخفاء موت الصالح يذكرنا بما حدث فى حملة جان دى برين على مصر فى عهد الملك العادل وابنه الكامل ؛ إذ عندما مات العادل وهو بمرج الصفر والفرنج على حصار دمياط ، كتم ابنه المعظم شرف الدين عيسى صاحب دمشق موته خوفا من الفرنج حتى لا يفت ذلك فى عضد الجيش . أنظر البداية والنهاية ج ١٣ ص ٧٩ .

(٣) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٢ أ ؛ مرآة الزمان ج ٨ لوحة ٥١٥ ؛ راجع أيضا عقد =

الحملة ما يشفى غلة الباحث فى الحكمة فى اتخاذ هذه الخطوة . ويرجح أن السلطانة نقلت جثمانه من المنصورة حيث يقيم العسكر المصرى ، حتى لا تتسرب الأخبار إليهم بموته فيفت ذلك فى عضدهم خاصة والفرنج على الأبواب . فآثرت إبعاد الجثة عن المعسكر ، بينما ظل الأطباء ملازمين لدهليز السلطان ليظن الناس أنه مريض (١) .

وقد استمر كل شيء فى سيره الطبيعى كأن لم يحدث حدث . لحسام الدين نائب السلطنة بالقاهرة كان يتلقى الأوامر والمكاتبات — كالمعتاد — من المعسكر بالمنصورة ، وكان الذى يملى هذه الأوامر شجر الدر . أما التوقيع (٢) فباسم السلطان الراحل ، إذ كان هذا التوقيع ضروريا لجعل تلك الأوامر سارية المفعول . وكان يقلد توقيع الصالح ايوب أحد خدمه ويدعى صواب السهيلى (٣) ، ولا يشك من رآها أنها خط السلطان (٤) . وفى رواية أخرى أن شجر الدر نفسها هى التى كانت تقلد العلامة السلطانية على الأوامر لبراعتها فى الكتابة (٥) .

= الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٥ ؛ الاستحاق ص ١٢٤ ؛ السخاوى : تحفة الاحباب ورقة ٧١ — ٧٢ .

(١) ابن واصل نفس الجزء واللوحة .

(٢) كانت صورة هذا التوقيع حسبما ذكر ابن واصل (مفرج الكروب ج ٢ لوحة ٣٦٢ أ — ٣٦٢ ب) « أيوب بن محمد بن أبى بكر بن أيوب » .

(٣) لعله ينتسب إلى سهيل وهى قرية بالاندلس . أنظر مادة السهيلى فى لب اللباب للسيوطى .

(٤) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٢ ا — ٣٦٢ ب ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٠ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٤٤ ؛ المختصر ج ٣ ص ١٨٨ ؛ تتمة المختصر ج ٢ ص ١٨١ ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٦ ؛ كنز الدرر ج ٧ ورقة ٣٧٥ .

(٥) مرآة الزمان ج ٨ لوحة ٥١٥ ؛ نهاية الأرب ج ٢٧ لوحة ٨٩ ؛ ابن شاكر : عيون التواريخ لوحة ١٨ ؛ المنهل الصافى ج٢ ورقة ١٧٥ ب ؛ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٢ و ٣٧٣ ؛ الذهبى : دول الاسلام ص ١١٦ .

مهما يكن من شيء ، فإن الأعمال الرسمية ظلت تجرى باسم نجم الدين كما لو كان حيا . وكانت مائدته يمد سماطها (١) ، كما كان الأمراء يدخلون إلى السماط ويأكلون وينصرفون كل يوم كالمعتاد (٢) . وإذا ما سأل فرد عن السلطان تحتج شجر الدر عن تغيبه بأنه مريض ولا يمكنه مقابلة أحد (٣) . وقد يكون البعض قد ارتاب فى الحقيقة ، ولكن أحدا لم يجرؤ على إبداء أية ملاحظة أو التفوه بكلمة (٤) . خوفا من الفرنج الذين طرقوا البلاد واستولوا على جـــزء

(١) مرآة الزمان جـ ٨ لوحة ٥١٤ ؛ عقد الجمان جـ ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٦ ؛ عيون التواريخ لوحة ١٨ ؛ السخاوى : تحفه الأحباب ورقة ٧٢ . — والسماط هو المائدة السلطانية ، أو ما يبسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلوس الآكلين . انظر : محيط المحيط وكذلك Dozy, Supp. Dict. Arabe. ؛ هذا وقد جاء فى خطط المقريزى وصف الأسمطة السلطانية زمن الأيوبيين والمماليك . انظر الخطط جـ ٢ ص ٢١٠ — ٢١١ .

(٢) نهاية الأرب جـ ٢٧ لوحة ٨٨ — ٨٩ .

(٣) مرآة الزمان جـ ٨ لوحة ٥١٤ ؛ عقد الجمان جـ ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٦ ، عيون التواريخ ورقة ١٨ ؛ السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٤٦ ؛ النجوم الزهرة جـ ٦ ص ٣٧٤ ؛

(٤) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٦٣ ا . أنظر أيضا عقد الجمان جـ ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٦ ؛ المختصر جـ ٣ ص ١٨٩ ؛ تتمة المختصر جـ ٢ ص ١٨١ . — وهناك عدة قرائن نستدل بها على معرفة الناس بموت الصالح أيوب بالرغم من هذا التكتم الشديد ، منها أن ابن واصل ذكر فى مؤلفه مفرج الكروب أنه لم تجز عليه الحيلة وأدرك موت السلطان من أمور معينة منها أن الصالح ماكان يثق الأمير فخر الدين الثقة التى تجعله يفوض إليه الأمور بعده وهو يعرف همته وتعاليها ، ثم تصرف فخر الدين المطلق فى شئون الحكم وتقريبه أولئك الذين كان قد أبعدهم الصالح أيوب . (ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٦٢ ب — ٣٦٣ ا) أنظر أيضا (عقد الجمان جـ ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٦ ؛ ذيل مرآة الزمان جـ ١٥ ورقة ٥٤ ا) . كذلك لما علم الناس باستقدام الملك المعظم من حصن كيفا إلى القاهرة خامرهم الريب فى موت السلطان . انظر (مسالك الأبصار جـ ٢٧ قسم ٣ لوحة ٢٦٩ ؛ المختصر جـ ٣ ص ١٨٩ ؛ تتمة المختصر جـ ٢ ص ١٨١ — ١٨٢) . وغير خفى أن الدعاء للمعظم بعد الدعاء لأبيه ، ونقش =

منهـــا (١) .

وكان للسلطان الراحل ثلاثة أبناء من زوجة له تعرف ببنت العالمة ، أكبرهم الملك المغيث فتح الدين عمر وقد مات وهو فى اعتقال الملك الصالح عمـاد الدين اسماعيل بدمشق ، وأوسطهم الملك المعظم غياث الدين توران شاه ـ وهو الوحيد الذى ظل على قيد الحياة ـ ، وأصغرهم الملك القاهر وقد مات فى حياة أبيـه . كما أنجب نجم الدين ابنا رابعا وهو معتقل بالكرك عند الملك الناصر داود من زوجه الثانية شجر الدر يدعى خليلا ، وقد مات هو الآخر فى حياة أبيه صغيرا (٢) .

وكان المعظم توران شاه (٣) فى ذلك الوقت نائيا عن أبيـه فى حصن كيفا ،

= اسمه على سكة الدراهم والدنانير بعد اسم أبيه ، يعتبر قرينة واضحة على موت الصالح أيوب وإحساس المقربين إليه بذلك .

(١) ابن بهادر : فتوح النصر ورقة ١٥٦ .

(٢) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٦٠ ب — ٣٦١ ا ؛ الفيومى : نثر الجمان مجـلد ٢ ورقة ١٢٢ ب .

(٣) اختلفت أقوال المؤرخين فيما اذا كان الملك الصالح أيوب قد أوصى لابنه المعظم بالملك أم لا . فيقول البعض ان الصالح كان لا يحب ابنه هذا لما كان يعهده فيه من الطيش والغرور ؛ وانه أوصى قبل موته بتسليم مملكته الى الخليفة العباسى ليجرى حكمه فيها . راجع ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٦١ ا — ٣٦١ ب ؛ عقد الجمان جـ ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٥ و٣١٤ ؛ مسالك الابصار جـ ٢٧ مجلد ٣ لوحة ٢٦٩ ؛ النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٢٨ . ويناقض هذا الرأى ما جاء فى كتاب النويرى (نهاية الأرب جـ ٢٧ لوحة ٨٩و٩١) من أن الملك الصالح كتب الى ابنه المعظم كتابا أسند فيه الملك اليه . وذكر النويرى أنه اطلع عـلى نص هذا الكتاب الذى حفظه لنا فى مؤلفه . ويؤيد النويرى فى ذلك كل من القرمانى (أخبار الدول ورقة ٦٥ ب) وابن دقماق (الجوهر الثمين ورقة ١٠٣ ب ، ونزهة الانام لوحة ٧٧ ب) والمقريزى (السـلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٣٩) والملك لويس فى رسـالته : Epistola Ludovici, I, 1196. والغالب أن الرواية الثانية هى الصواب لأنها تتفق وتحليف شجر الدر الامراء والاجناد للمعظم ، ونقش اسمه على سكة الدراهم والدنانير ، والدعاء له على المنابر وإرسال القصاد لاستدعائه من الحصن .

فاتفقت شجر الدر مع الامراء على مبايعته بالسلطنة فى غيبته (١) . فجمعت الأمراء والأجناد فى المعسكر بالمنصورة وقالت لهم إن السلطان الصالح أيوب يأمرهم بأن يحلفوا له ثم من بعده لابنه المعظم المقيم بحصن كيفا ، كما كتبت إلى الأمير حسام الدين نائب السلطنة بالقاهرة فى ذلك . وهكذا حلف العسكر للملك الصالح نجم الدين ولابنه المعظم بولاية العهد من بعده (٢) . وأصبح يخطب للمعظم بعد أبيه على المنابر (٣) ، كما نقش اسمه على سكة الدراهم والدنانير بعد اسم ابيه (٤) . تم كل ذلك ولم يكن قد أعلن موت السلطان (٥) . بعد ذلك بعث الأمراء فى طلب المعظم من الحصن ، وأسرعت الرسل واحدا إثر الآخر تستعجل حضوره ، فى الوقت الذى كانت فيه البلاد مهددة من الفرنج المعتدين وفى أمس الحاجة الى رجل محنك اعتاد الحكم وله بعض الخبرة بشئون الحرب ليدبر أمور المملكة ويخرج بها سالمة من هذه المحنة (٦) .

وبالرغم من الخيانة التى اتهم بها الأمير فخر الدين عند ارتداده عن دمياط دون قتال ، فإنه كان محبوبا من الناس . ولهذا فقد عهد إليه بقيادة الجيوش وتدبير شئون المملكة الى أن يصل الملك المعظم من الحصن (٧) . ولمتسائل أن

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٤.

(٢) ابن واصل ج٢ لوحة ٣٦١ ب . راجع أيضا عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٥.

(٣) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٢ ا .

(٤) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٣ ا ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٦ .

(٥) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٣٣ .

(٦) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٣ ا — ٣٦٣ ب ؛ أبو الفرج : تاريخ مختصر الدول ص ٤٥٣ (طبعة بيروت) . Joinville (ed. Wailly), 158 .

(٧) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦١ ب . أنظر أيضا عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٥ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٤٣ ؛ كتاب فى التاريخ لمؤلف مجهول (محفوظ بدار الكتب المصرية برقم ٦٢١١ ح تاريخ) ورقة ١٤ .

يقول : اذا كان فخر الدين طامعا فى الملك حتى أنه أخلى دمياط مدفوعا بهذا السبب — حسبما أسلفنا — فما هو موقفه من موت الصالح ؟ وهل ظل مكتوف اليدين ، أم جدد محاولاته للوصول الى كرسى السلطنة ؟ لقد عمل هذا القائد المصرى على استغلال هذه الفرصة ، فأصبح فعلا صاحب الأمر والنهى بعد موت سيده ، وتصرف فى الأمور تصرفا مطلقا ، وشرع فى إطلاق المساجين ، وأحسن إلى الرعية ، وأبطل بعض المكوس ، وأنفق فى العسكر ، وخلع على خواص الأمراء ، وقرب إليه أولئك الذين كان قد أبعدهم الصالح ايوب مثل ابن مطروح والبهاء زهير . كما « صار له موكب عظيم بالمنصورة ، والأمراء كلهم فى خدمته ، ويترجلون له كلهم عند النزول ويحضرون لسماطه» [(١)] ، حتى لقد خشى حسام الدين نائب السلطنة بالقاهرة أن يستأثر فخر الدين بالملك ويستبد بهلنفسه، فسير قاصدا من قبله الى المعظم يحثه على سرعة القدوم إلى مصر قبل أن تخرج البلاد من يده . كذلك بعثت شجر الدر وباقى الأمراء القصاد لإحضار المعظم، وما أمكن فخر الدين إلا الموافقة على ذلك حتى لا تحوم حوله الشبهات ، خاصة وأنه كان يستبعد وصول توران شاه من الحصن لعلمه أن الاعداء كانوا متربصين له فى الطريق(٢) . وقد تنكر بعض الأمراء الصالحية عقب موت الصالح لفخر الدين وعزموا على قتله ، ولكى يخمد هذه الفتنة استدعاهم إليه وأعلمهم أنه لا طمع له فى الملك وأنه إنما يحفظه للمعظم إلى أن يصل [(٣)] . وواضح أن فى ذلك إشارة من طرف خفى إلى طمعه فى الملك ، وإلا لما كان هناك أى مبرر لثورة بعض

(١) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٤ ا ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٤٤ — ٣٤٥ .

(٢) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٣ ا — ٣٦٣ ب ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٦ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٤٥ — ٣٤٦ .

(٣) مرآة الزمان ج ٨ لوحة ٥١٥ ؛ نهاية الأرب ج ٢٧ لوحة ٨٩ .

الأمراء عليه ، وأن يستدعيهم ليطمأنهم بأنه لا يعمل للوصول إلى العرش وإنما لحفظه إلى أن يحضر ابن سيده .

وهكذا نرى أن سلوك فخر الدين وتصرفاته بعد موت الصالح أيوب كانت تدل على أنه كان يسعى سعيا حثيثا إلى الملك ؛ لكن القضاء لم يمهله طويلا ، إذ استشهد قبل وصول المعظم بقليل ، بينما لو واتته الظروف وقدر له أن يعيش لكان ربما تسلطن ولصار اليه ملك البلاد [1] . كما أن تصرفات فخر الدين هذه تؤيد ما أوضحناه فى الفصل السابق حول أسباب فراره بالعسكر من البر الغربى لدمياط إلى البر الشرقى فاشموم طناح ، مما أدى إلى وقوع دمياط فريسة سهلة فى أيدى العدو الدخيل .

ففى هذه الفترة المضطربة من تاريخ البلاد التى أعقبت موت الصالح أيوب ترك الفرنج دمياط وتقدموا جنوبا نحو القاهرة ، والأسطول الصليبى فى نهر النيل يحاذيهم [2] . وقد اعتقدوا — بعد أن استسلمت لهم دمياط دون قتال — أنهم سوف لا يلاقون أية صعوبة فى الاستيلاء على عاصمة الديار المصرية ، ساخرين من فكرة المقاومة التى قد يبديها المصريون خلال الطريق .

أما الطريق الذى سلكه الصليبيون فكان عبارة عن منطقة مثلثة الشكل فى الشمال الشرقى من بحيرة المنزلة التى كانت تعرف وقتذاك ببحيرة تنيس ، ويطلق عليها المؤرخون الشرقيون « جزيرة دمياط » ، وهى تسمية مجازية لأنه يحدها من الشمال الغربى فرع دمياط ، ومن الجنوب الشرقى بحر أشموم ، ومن

---

(١) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٦٣ ب — ٣٦٤ ا ؛ الذهبى : تاريخ الاسلام (مخطوط بدار الكتب برقم ١٤٥٢ تاريخ) فى حوادث سنة ٦٤٧ هـ تحت اسم « يوسف بن حسن الرقام » .

(٢) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٦٤ ا — ٣٦٤ ب .

الشرق بحيرة المنزلة . وهذه المنطقة مليئة بالعقبات والعراقيل ، إذ تعترضها الترع والمجارى المائية الكثيرة السريعة الجريان المتفرعة عن الفرع الشرقى للنيل ، والتى تجعل المرور فيها صعبا خطيرا (١) ، حتى لقد اضطر الفرنج إلى التوقف أثناء مسيرهم لسد إحدى هذه القنوات بالقرب من دمياط لتسهيل مرور القوات الصليبية (٢).

استأنف الفرنج مسيرهم حتى وصلوا إلى قرية فارسكور (٣) يوم الخميس ٢٤ شعبان ٦٤٧ هـ (٤) / ٢ ديسمبر ١٢٤٩ م ، دون أن تواجههم مقاومة جدية من جانب القوات الإسلامية .

---

(١) أنظر ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٦٤ ب وكذلك : Grousset, Crois., III, 451; Schefer, Ar. Or. Lat., II, 95-6.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 100.

(٣) يسميها ابن مماتى (قوانين الدواوين ص١٦٦) فارسكور، ويطلق عليها ياقوت (معجم البلدان مجلد ٦ ص٣٢٧) الفارسكر ؛ وكانت فى زمنه قرية قرب دمياط من كورة الدقهلية . وكانت مساحتها حسبما جاء فى ابن دقاق (الانتصار جـ ٥ ص ٧٤) ٣١٧٥ فدانا . وكانت أيام على مبارك (الخطط التوفيقية جـ ١٤ ص ٦٤—٦٦) من مراكز مديرية الدقهلية .

(٤) تختلف الرواية الاسلامية حول تاريخ نزول الفرنج فارسكور . فقد ذكر ابن واصل (مفرج الكروب جـ ٢ لوحة ٣٦٤ ب) وكذلك المقريزى (الخطط جـ ١ ص ٢٢٠) انهم وصلوها فى ٢٤ شعبان ، بينما ذكر المقريزى نفسه فى كتابه (السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٤٦) انهم رحلوا عنها فى ٢٤ شعبان . وقال ابن ايبك (درر التيجان ورقة ٥٦٧) انهم وصلوا القرية فى ١٧ من ذى القعدة ٦٤٧ هـ . وقد أخذنا برواية ابن واصل لأنه عاصر هذه الأحداث . ولعل الفرنج وصلوا فارسكور فى ٢٤ شعبان وتركوها فى نفس اليوم كما يتضح مما ذكره المقريزى فى كتابيه الخطط والسلوك . اما الرواية الثالثة فغير معقولة ، لأن الصليبيين كانوا قبالة بحر اشموم — (حسبما أجمعت الأصول العربية المعاصرة — فى ١٣ رمضان ٦٤٧ هـ .

وعندما علم المصريون بزحف الفرنج تملكهم الفزع ، حتى أنه فى اليـــوم التالى لوصولهم فارسكور (الجمعة ٢٥ شعبان / ٣ ديسمبر) [١] ورد إلى القاهرة من المعسكر بالمنصورة كتـــاب من الأمير فخر الدين جاء فى أوله تلك الآية الكريمة : « انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » [٢] . وفيه يحض الناس على الجهـــاد ضد الفرنج والتطوع فى الحرب المقدسة لقتال أولئك الغزاة الذين قصدوا الديار المصرية ودنهم عن البلاد [٣] . وقد قرىء هذا الكتاب على الناس فوق منبر الجامع بالقاهرة ـ ويرجح أنه الجامع الأزهر [٤] ـ حيث اشتد الكرب وعم الارتباك لتغلب الفرنج [٥] .

---

(١) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٤ ب . راجع أيضا السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٤٦ .

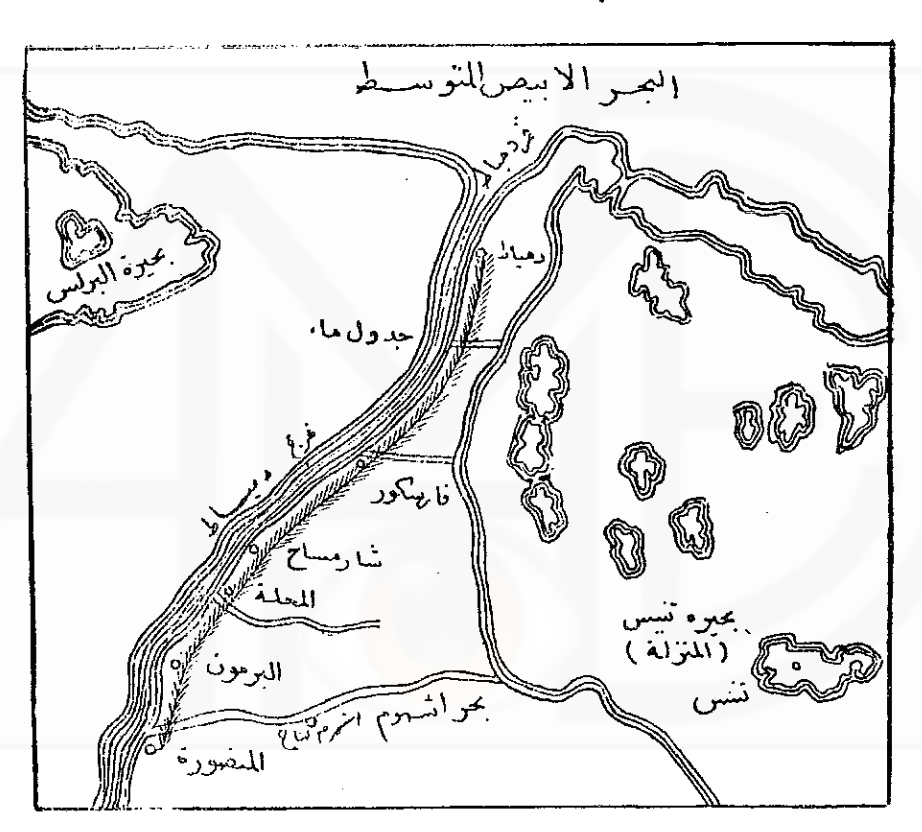
(٢) قرآن كريم ـ سورة التوبة ـ الآية ٤١ . ـ ومما يجدر ذكره أن المراجع الشرقية لم تذكر سوى مقدمة الكتاب التى جاءت فيها الآية الكريمة ، ولم تعن بايراده كاملا مكتفية بالاشارة إلى فحواه .

(٣) يرجح ابن واصل (مفرج الكروب ج ٢ لوحة ٣٦٤ ب) أن هذا الكتاب كان من إنشاء البهاء زهير .

(٤) لايوجد فى ابن واصل (نفس المصدر والجزء واللوحة) أو المقريزى (الخطط ج ١ ص ٢٢٠ ، والسلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٤٦) أو القلقشندى (صبح الاعشى ج ٣ ص ٣٦٤) ما يساعد على تعيين الجامع المقصود هنا ، ونص المصدر الاول كالآتى : « فقرىء هذا الكتاب على الناس بالمنبر بالجامع بالصلاة بالقاهرة » . ولعل المقصود به الجامع الأزهر ، فقد ذكر الاسحاقى صراحة (لطائف أخبار الاول ص ١٢٤) ان هذا الكتاب قرىء على منبر الجامع الأزهر . ويميل إلى هذا الرأى الاستـــاذ بلوشيه (Blochet, 525.) إذ ترجم هذه العبارة إلى « la grande mosqué du Caire. » .

(٥) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٤ ب . راجع أيضا السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧ ؛ كنز الدرر ج ٧ ورقة ٣٧٥ ؛ عقد الجمـــان ج ٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٦ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٠ .

خريطة رقم ٣



خط سير الصليبيين من دمياط إلى بحر أشموم

ففى هذا الوقت الدقيق الذى كانت تجتازه البلاد ، ظلت جيوش الصليبيين تواصل السير ، مسرعة تارة ومتباطئة أخرى ، حتى التحمت مع المسلمين فى معركة حامية يوم الأربعاء أول رمضان ٦٤٧ هـ [١]/ ٨ ديسمبر ١٢٤٩م . اذ اشتبكت جماعة الفرسان الداوية التى كانت تؤلف المقدمة، مع القوات الإسلامية فى قتال شديد فيما بين فارسكور وشارمساح [٢] ، انتهى بانتصار الصليبيين [٣] بعد أن استشهد من المسلمين أحد كبار الأمراء وجماعة من الأجناد (٤) .

وبعد هذه الموقعة نزل الفرنج على شارمساح فى نفس هذا اليوم . وفى يوم الثلاثاء ٧ رمضان/ ١٤ ديسمبر ، وصلوا البرمون (٥) وأصبحوا على مقربة من

---

(١) تعارضت أقوال المؤرخين حول تاريخ هذه الوقعة . فقد جاء فى المراجع التالية (ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٤ ب ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٦ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٤٧ ؛ المختصر ج ٣ ص ١٨٩) أنها كانت أول رمضان الموافق ٨ ديسمبر . ويؤيدهم روتلان فى ذلك Rothelin, 597. ، بينما جعل جوانفيل تاريخ الوقعة فى عيد القديس نيقولا الذى يوافق ٦ ديسمبر. أنظر: Joinville (ed. Wailly), 102. راجع أيضا : Stevenson, 327, n. 1; Rothelin, 579, n. B. وكذلك جدول تواريخ الحملة بآخر الكتاب .

(٢) ذكر ياقوت (معجم البلدان ج ٥ ص ٢١٢) أنها قرية كبيرة كالمدينة من كورة الدقهلية ، بينها وبين دمياط خمسة فراسخ. راجع أيضا ابن مماتى: قوانين الدواوين ص ١٥٣ . وكذلك: Blochet, 524, n. 2. وجاء فى ابن دقماق(الانتصار ج ٥ ص ٧٣) أن مساحتها تبلغ ١٢٩٤ فدانا .

(٣) Joinville (ed. Wailly), 102; Rothelin, 597.

(٤) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٤ ب . راجع أيضا السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٤٧ ؛ المختصر ج ٣ ص ١٨٩ ؛ تتمة المختصر ج ٢ ص ١٨٢ .

(٥) تسمى أيضا البرمونين والبيرمون، وهى قرية من أعمال مديرية الدقهلية بمركز فارسكور على الجانب الشرقى للنيل الى الجنوب من فارسكور . أنظر قوانين الدواوين ص ٨٩؛ الخطط =

عساكر المسلمين التى تقيم جنوبى بحر أشموم ، فكان هذا مما سبب فى زيادة الاضطراب بين المصريين (١). وأخيرا فى يوم الثلاثاء ٢١ ديسمبر (٢) / ١٤ رمضان، بلغوا طرف جزيرة دمياط ، ونزلوا قبالة جيش المسلمين شمالى بحر أشموم ولا يفصل بين المعسكرين غير هذا البحر . والواقع أن هذه كانت أول عقبة جدية صادفت الحملة منذ قيامها ، ومن ثم ألقت هنالك رحلها ، واضطرت إلى المرابطة كما اضطرت إلى ذلك حملة جان دى برين من قبل (٣) .

أما ذلك الحاجز الطبيعى الذى قام فى وجوه المغيرين ، فهو ترعة صغيرة تسمى بحر اشموم (٤) تقطع على الحملة الطريق بين دمياط والقاهرة . إذ ينقسم

= التوفيقية ج ١٠ ص ٦. وكذلك كتاب: Grousset, Crois., III, 452-3, n. 4.
ومساحة هذه القرية حسبما ذكر ابن دقماق (الانتصار ج ٥ ص ٧١) تبلغ ٩٠ فدانا .

(١) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٤ ب ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٤٧ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢١ .

(٢) ١٣ رمضان / ٢٠ ديسمبر وفقا لما ورد فى : ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٤ ب ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٤٧ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢١ ، ٢١ ديسمبر وفقا لرواية كل من لويس وروتلان . أنظر : Epistola Ludovici, I, 1196; Rothelin. 597. و ٢٢ منه حسبما جاء فى تاريخ هرقل أنظر : Eracles, 437. — والغالب أن رواية الملك الفرنسى ، قائد هذه الحملة ، هى الصواب ، أو لعل القوات الصليبية وصلت قبالة بحر أشموم على أكثر من دفعة فى فترات مختلفة .

(٣) Lane - Poole, Hist. of Egypt, 233; Oman, Art of War, I, 342.

(٤) يطلق عليها جوانفيل قناة ركسى « Rexi » . Joinville (ed. Wailly), 106 . ويعلل ديفيز هذه التسمية بقوله إن جوانفيل ربما أخذها من اسم مدينة لا زالت قائمة هناك تدعى الدراكسة أنظر : Davis, Invasion of Egypt, 32. أما كتشن فيفسر « ركسى » بفرع رشيد Kitchin, I, 343, n. 1. ، وهو تفسير غير معقول لأن الحملة =

فرع دمياط شمالى المنصورة إلى فرعين ، يتجه أحدهما إلى دمياط، وينحرف الآخر فى اتجاه شمالى شرقى حيث يمر بمدينة اشموم طناح إلى أن يصب فى بحيرة تنيس (بحيرة المنزلة الآن)، وهذا الفرع هو المعروف ببحر اشموم [١]. وقد تغير مجرى بحر اشموم منذ ذلك الحين تغيرا كبيرا ، فهو الآن يتفرع عن الفرع الشرقى للنيل فى نقطة قريبة جدا من المنصورة ، بينما كان موضع التقائه حينذاك يبعد عن تلك المدينة إلى الشمال نحو أربعة أو خمسة أميال . وعلى الرقعة الواقعة فى هذه المسافة كانت ترابط القوات المصرية التى وقفت متأهبة للقاء الغزاة المعتدين . وهناك وقعت بينهما معركتان كبيرتان كان من أثرهما التعجيل بخاتمة هذه الحملة [٢] .

أما المنصورة [٣] فهى المدينة التى بناها الملك الكامل سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م على الجانب الأيمن لفرع دمياط عند مفترق النيلين إلى دمياط واشموم طناح ، بناها لصد الفرنج عندما حاصروا دمياط سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م واستولوا

توجهت الى دمياط فرع الدلتا الشرقى . والغالب أن هذه التسمية مشتقة من الأصل اللاتينى « Rex » أى ملك ، وأنه يعنى بها القناة الملكية . وقد أطلق عليها كل من لويس وروتلان وهرقل ومتى الباريزى اسم «بحيرة تنيس» : "Thenis, Fluvius Thaneos, Thanniz" أنظر : Eracles, 437; Rothelin, 597; Epistola Ludovici, I, 1196. ولعلها نسبة الى بحيرة تنيس التى تصب فيها هذه الترعة. وهى تعرف عند كتاب المسلمين جميعا ببحر اشموم نسبة الى مدينة اشموم طناح الواقعة عليها .

(١) أنظر القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ٣٠٨ . وكذلك :
Oman, Art of War, I, 324; Grousset, Crois., III, 451.

(٢) Epistola Ludovici (ed. Bongars), I, 1196; cf. Davis, Invasion of Egypt, 32 ; Lane-Poole, Hist. of Egypt , 233.

(٣) تسمى الرواية المسيحية مدينة المنصورة بعدة أسماء هى : Massoria, Massore , Massourre أنظر : ; Epistola Ludovici, I, 1196, 1197 Joinville (ed. Wailly) , 120, 128; Rothelin, 599, 609.

عليها (١) . وقد سميت المنصورة تيمنا بانتصـــار الكامل على الصليبيين (٢) . ولا زالت مدينة المنصورة القديمة فى موقعها التى وجدها فيه الفرنسيون عندما احتلوا مصر فى ختام القرن الثامن عشر الميلادى، غير أنها اتسعت بعدئذ اتساعا عظيما خصوصا من ناحية الشرق (٣) .

وعندما وصل الصليبيون أمام بحر اشموم ، أقاموا معسكرهم على الضفـــة الشمالية للقناة (٤) . وأصبحت هذه القناة حاجزا بين معسكرهم ومعسكر المسلمين الذى كان يوجد على الضفة الجنوبية على تل مرتفع يعرف باسم جـديلة (٥) ، مرابطا فى وجه الأعداء لمنعهم من عبور القناة والتقدم نحو الجنوب (٦) . وبدأ كل من الفريقين يستعد للمعركة الحاسمة .

وكان أول ما اهتم له الفرنج هو تأمين أنفسهم فى مركزهم الجــــديد . فقد

---

(١) راجع ابن واصل جـ ١ لوحة ١٨٧ ا؛ الانتصار جـ ٥ ص ٧١ ؛ معجم البلدان جـ ٨ ص١٧٨ ؛ الخطط التوفيقية جـ ١٥ ص١٨. وكذلك Reinaud & Guyard, Géographie d' Aboulféda, t. II, 2e. partie, 146; Maspéro & Wiet, Materiaux pour servir à la géographie de l'Egypte, XXXVI, 198 sqq.

(٢) أنظر معجم البلدان جـ ٨ ص ١٧٨ .

(٣) Davis, Invasion of Egypt, 33. Cf. Ency. of Islam, Art. Al – Mansura.

(٤) Epistola Ludovici (ed. Bongars), I, 1196; Joinville (ed. Wailly), 104, 106.

(٥) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٦٤ ب ؛ عقد الجمان جـ ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٧ ؛ كنز الدرر جـ ٧ ورقة ٣٧٦ . ــ وذكر ابن مماتى (قوانين الدواوين ص ١٢٤) أن جـديلة هذه من أعمال المرتاحية ، وهى عبارة عن تل مطل على الشاطىء الجنوبى لبحر اشموم على بعد ثلاثة كيلو مترات شمال شرقى المنصورة ونحو كيـلو متر إلى الشرق من فرع دمياط . أنظر: Grousset, Crois., III, 461, n. 1; Oman, I, 347; Blochet, 526, n. 2.

(٦) Joinville (ed. Wailly), 106.

بدأوا يحصنون معسكرهم ، فحفروا حوله الخنادق وأقاموا المتاريس [1] وابتنوا سورا وستروه بالستائر . فلما تم لهم ذلك نصبوا المنجنيق [2] وقاذفات الأحجار وراحوا يرمون بها المسلمين عبر القناة . ونزلت شوانيهم بإزائهم فى نهر النيل والشوانى الإسلامية بإزاء المنصورة [3] . وسرعان ما بدأت المناوشات بين الجيشين . ففى نفس اليوم الذى وصل فيه الفرنج قبالة بحر اشموم أى فى ٢١ ديسمبر ـ وهذا يتفق مع بداية فصل الشتاء ـ بعث الأمير فخر الدين اتابك العسكر بجانب من قواته شمال هذه القناة حيث يقيم الفرنج ـ عن طريق ممرات سرية ـ لمباغتتهم فى معسكرهم . وبالرغم من عدم استعداد الصليبيين الكافى فقد تمكنوا من صد هذا الهجوم المفاجىء ، وغرق عدد كبير من المصريين فى النهر عند محاولتهم الفرار (٤) . ولعل للعوامل الجوية أثرها فى النصر الذى أحرزه

---

(١) المتاريس جمع متراس وهو ما تترس به ، أى ما تستر من حائط ونحوه من العدو . انظر القلقشندى : صبح الاعشى ج ٢ ص ١٣٦ . وكذلك مادة ترس فى محيط المحيط .

(٢) المنجنيق آلة حربية تستخدم لرمى الحجارة ، وهى من خشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف ، وفيه تجعل كفة المنجنيق التى يوضع فيها الحجر ، يجذب حتى ترفع أسافله على أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الكفة فيخرج الحجر منه ، فما أصاب شيئا الا أهلكه . ومما يلتحق بالمنجنيق الزيارات وهى اللوالب والحبال التى يجذب بها المنجنيق حتى ينحط أعلاه ليرمى به الحجر . أنظر القلقشندى : صبح الاعشى ج ٢ ص ١٣٦ — ١٣٧ . وآلة المنجنيق هذه مختلفة الاصناف متباينة التراكيب ، فمنها الفرنجى ومنها الفارسى أو التركى ومنها العربى وهو أفضلها من حيث الصناعة والإتقان . وهناك آلة مصغرة من المنجنيق تسمى اللعب ، وهى تستخدم للرماية أيضا . أنظر ابن منكلى : الاحكام الملوكية لوحة ٢٣ — ٢٥ . وكذلك :

Cahen, Un Traité d' Armurerie Composé pour Saladin, 16–8.

(٣) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٥ ا . راجع أيضا السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٤٧ ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٧ ؛ كنز الدرر ج ٧ ورقة ٣٧٦ .

(٤) Rothelin, 598; Jean Sarrasin (ed. F. Michel), 266.

الفرنج فى هذا اليوم ، إذ كان الفصل شتاء والجو ملائما لحركاتهم الحربية ؛ لأن أشد ما كان يضايقهم عند اقتتالهم مع المسلمين هو شمس الشرق المحـــرقة التى كانت تسبب لهم متاعب كثيرة .

ويشير جوانفيل إلى هجوم آخر شنه المسلمون على الصليبيين يوم عيد الميلاد الموافق السبت ٢٥ ديسمبر ١٢٤٩م / ١٨ رمضان ٦٤٧ هـ . فقـد أمر القائد المصرى جماعة من جنده بمهاجمة الفرنج فى برهم . وبينما كان جوانفيل يتنـاول الطعـام مع أحـد رفاقه ويدعى بطرس دفالون Pierre d'Avalon ، اندفع المسلمون صوب المعسكر الفرنجى باذلين سيوفهم فيمن التقوا بهم من الفرنج الذين كانوا يتجولون فى الجهات المجاورة . فأسرع بطرس دفالون خارج المعسكر لرد المسلمين ، لكنه سقط على الأرض وكاد أن يهلك لولا أن خف جوانفيل لإنقاذه . ثم تعقب المصريون جوانفيل ومن لحقه من جمـــاعة الفرنج الداوية لنجدته حتى أبواب المعسكر الصليبى ، وقفلوا بعد ذلك راجعين .

وإزاء هـذه الهجمات المتكررة من جانب المسلمين ، أمر الملك لويس بحفر الخنادق على طول الطريق من فرع دمياط الى بحر أشموم . وأصبحت المياه تحيط بالمعسكر الفرنجى من جميع الجهات ـ فالقناة تقع الى جنوبه وفرع دمياط فى الغرب والخنادق تحيط به من ناحية الشمال الشرقى(١) .

وبذلك أصبح من الصعب على الجند الإسلامية شن الغارات على المعسـكر الصليبى بعد هذه التدابير التى اتخذها الصليبيون ، فاكتفوا بتوجيه ضربات متفرقة إلى الفرنج عبر بحر أشموم . وكان المسيحيون يجـدون من حرافشة المســلمين

(١) Joinville (ed. Wailly), 108. Cf. Grousset, Crois., III, 453-4.

وعامتهم (١) أذى كثيرا . فكانوا يتخطفون منهم ، ويجهزون على كل من تصل أيديهم اليه ، فإذا شعر بهم الفرنج ألقوا بأنفسهم فى الماء وسبحوا الى أن يصلوا إلى الجانب الذى فيه المسلمون . وكان المسلمون يتحيلون فى اختطاف الفرنج وأسرهم بكافة الطرق التى تدعو إلى الدهشة . وقد روى بعض المؤرخين المسلمين أن إنسانا منهم قور بطيخة خضراء وحملها على رأسه وغطس فى الماء حتى حاذى الفرنج ، فظنه بعضهم بطيخة سائبة فى الماء ، ولما نزل لأخذها خطفه ذلك الشخص وأتى به أسيرا إلى معسكر المسلمين (٢). وقد يكون فى هذه الرواية شيء من المبالغة، إلا أنها تنبىء عن تفنن المسلمين فى مناوشة الفرنج وأسرهم .

وفى حوالى تلك الأثناء أخبر جواسيس الفرنج الملك لويس أن الأمير فخر الدين قد اعتزم مهاجمة المعسكر المسيحى فى يوم عيد القديس سبستيان St. Sébastien الذى يوافق الخميس ٢٠ يناير ١٢٥٠ م . حينئذ عمل الملك الفرنسى على مضاعفة الاحتياطات ، فكان على روبرت كونت ارتوا حراسة آلات القتال، بينما يقوم شارل صاحب انجو والملك لويس نفسه بحراسة المعسكر من الناحية الجنوبية ، أما الفونس كونت بواتييه وبارونات شامبانيا فكان عليهم الدفاع عن المعسكر من ناحية دمياط (٣) .

وفى يوم ٢٠ يناير / ١٤ شوال تحقق ما نقله الجواسيس إلى القديس لويس. إذ أصدر الأمير فخر الدين (٤) الأمر إلى قواته بالعبور إلى البقعة الكائنة

---

(١) هم أتباع المعسكرات الذين لا ينتمون لفرقة معينة أو لقائد خاص . أنظر المقريزى (السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٤٨ حاشية ٢) وكذلك على مبارك (الخطط التوفيقية ج ١٠ ص ٧٢) .

(٢) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٥ ا — ٣٦٥ ب ؛ كنز الدرر ج ٧ ورقة ٣٧٦ ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٧ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٤٨ .

(٣) Joinville (ed. Wailly), 110. Cf. Grousset, Crois., III, 454.

(٤) يطلق عليه جوانفيل اسم (Scecedin) أنظر Joinville (ed. Wailly), 108. أما الملك لويس فيسميه «Farchardino» أنظر: Epistola Ludovici (ed. Bongars), I, 1196.

بين فرع دمياط والضفة الشمالية لبحر أشموم حيث يوجد المعسكر المسيحى .
واصطفت القوات الإسلامية على طول الطريق من أحـد النهرين إلى الآخر .
وسرعان ما نشب القتال بين الطرفين ، فهاجم كونت انجو هذه القوات بشجاعة وألحق بها الهزيمة ، وقد غرق الكثير من المسلمين فى كلا النهرين . كذلك هاجم الكونت جاى دى فوريز Guy de Forez وفرسانه جند المسلمين،لكنهم أوقعوه على الأرض وكسرت إحدى ساقيه ، فحمله اثنان من رجاله إلى المعسكر المسيحى.
ومن الشمال أخذ الفونس كونت بواتييه وفرسان شامبانيا فى مطاردة القوات الإسلامية التى اندفعت نحوهم مطبقة عليهم . وتختلف المصادر من شرقية وغربية فى تقدير نتيجة القتال. فيذكر كتاب الفرنج أن الصليبيين خرجوامن هذه المعركة ظافرين دون أن تلحق بهم أية خسارة بعد أن أجهزوا على عـدد من العساكر الإسلامية [1] . بينما روت الأصول الشرقية أن المسلمين قتلوا من الفرنج ٤٠ فارسا وفتكوا بعدد كبير من خيلهم ، كما أسروا ٦٧ صليبيا منهم ثلاثة من أكابر الداوية ، وقد اقتيدوا جميعا إلى القاهرة [2] . وما ذكره ابن ايبك يوفق بين هذين الرأيين المتناقضين ، إذ يقول إنه قتل فى هـذه المعركة من الجانبين عالم عظيم [3] . والغالب أن هذا هو الصواب . وواضح من هـذا أن الكتاب اللاتين قد انحازوا إلى بنى جلدتهم ، فى الوقت الذى وقفت فيه المصادر الإسلامية مع الجانب المصرى ، بينما التزم المؤرخ ابن ايبك جانب الحياد .

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 110; Rothelin, 600–1.

(٢) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٦٥ ب . راجع أيضا خطط المقريزى جـ ١ ص ٢٢١؛ السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٤٨ .

(٣) كنز الدرر جـ ٧ ورقة ٣٧٧.

هكذا كانت هذه الفترة منذ وصول الفرنج قبالة بحر أشموم — قتالا مستمرا بين الفريقين يكاد لا ينقطع . فالصليبيون يلقون الحجارة على رؤوس المصريين عبر القناة لعلهم يزحزحونهم عن مواقعهم ، والعساكر الإسلامية يردون عليهم بالمثل . وهكذا حمى وطيس القتال والتراشق بينهما ليل نهار حتى فدحت الخسارة من الجانبين فى الأرواح والعتاد (١) .

حينئذ رأى الملك الفرنسى أنه لا يستطيع الغلبة على المصريين إلا إذا التحم معهم فى معركة يشترك فيها الجيشان وجها لوجه ، ولا سبيل إلى هذا وبحر أشموم يفصل بينه وبينهم . ففكر فى بناء جسر على هذا البحر ليعبر عليه جنوده إلى الضفة الأخرى حيث يوجد المعسكر المصرى . وفعلا بدأ الفرنج فى تشييد هذا الجسر بنشاط زائد . وكانت مهمتهم شاقة تحت هذا السيل من القذائف والأحجار التى أخذ يمطرهم بها المصريون . ويذكر جوانفيل أنه كان لدى المسلمين ست عشرة آلة من الآلات التى تقذف الأحجار والنفوط (٢) . حينئذ أمر الملك لويس بوضع آلاتهم التى يبلغ عددها ثمانى عشرة على الضفة المقابلة للمعسكر المصرى لكى يحمى رجاله الذين يعملون فى بناء الجسر . وأمر كذلك بإقامة حاجز مرتفع فى أعلاه برجان من الخشب يقف عليهما حملة القسى للدفاع عن العمال أثناء قيامهم ببناء الجسر . فلما انتهوا من تشييد البرجين ، بدأوا فى عمل الجسر وقد ملأهم الحماس . ولكن سرعان ما أدركوا أن المصريين يبزونهم فى فن الهندسة ، فبمجرد أن تم

---

(١) Cf. Davis, Invasion of Egypt, 34.

(٢) النفوط جمع نفط وهى تتكون من مواد ملتهبة تستخدم للاحراق . والنفط قد يرمى باليد ، ومنه ما يرمى عن المنجنيق ، وهناك من النفط ما يستخدم لحرق المراكب ، وهذا النوع لا يؤثر فيه الماء . راجع . Cahen, 20-2 وكذلك صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٨ .

تشييد الجسر إذ بهم يرونه — من جانب العدو — يتداعى وينهار . فإنه حينما أبصر المصريون هذا الجسر يمد على القناة ، بادروا بحفر خنادق عميقة ملاصقة لطرفه الذى فى ناحيتهم ، ومن ثم كانت مياه النيل تأتى متدفقة فلا تجد منفذا لها غير هذه الحفائر فتندفع فيها وتملأها . فأدرك الفرنج أنه يكاد يكون من المتعذر عليهم إقامة هذا الجسر لعبور القناة إلى الضفة المواجهة . ويقول جوانفيل : « فكانوا يفسدون علينا فى يوم واحد ما كنا ننجزه فى أسابيع ثلاثة » (١) .

ومما زاد الطين بلة أنه ظهر فى ميدان القتال فى تلك الفترة سلاح أشد فتكا من كل آلات الحرب حينذاك، ولم يكن للفرنج عهد به من قبل . ذلك السلاح هو النار الإغريقية (٢) التى أزعجت الصليبيين ، والتى حطم بها المصريون كل

(١) Joinville (ed. Wailly), 108. Cf. also Rothelin, 600; Epistola Ludovici (ed. Bongars), I, 1196.

(٢) سميت هكذا لأن مخترعها مهندس إغريقى يدعى كالينكس Callinicus من مواطنى مدينة هليوبوليس بسورية ، اخترعها فى عهد الامبراطور قسطنطين الرابع بوجوناتوس (٦٦٨–٦٨٥م) Constantine IV,Pogonatus الذى حوصرت القسطنطينية إبان حكمه ست سنوات على يد المسلمين ، فلم ينقذها منهم غير هذا السلاح . وكذلك فى عهد ليو الا يسورى (٧١٧ — ٧٤٠م) ، إذ هاجم المسلمون القسطنطينية ولم يجلوا عنها الا بعد حصار دام ثلاث سنوات ، فكان أهم ما حررها من حصارهم هذه النار الاغريقية . وقد وصفت الأميرة آن كومنين — ابنة الامبراطور الكسيس كومنين (١٠٨١ — ١١١٨م) الذى شهد عصره الحرب الصليبية الأولى — هذه النار الاغريقية فى كتابها عن تاريخ حياة أبيها ، فصورت ما تحدثه من أضرار جسيمة ، ثم أشارت الى بعض عناصرها فقالت إنها مزيج من النفط والزيت والكبريت يجمد بنوع من الصمغ القابل للاشتعال . وكان هذا المزيج يوضع فى أنابيب من النحاس لها فم توقد منه ، وفى مؤخرتها قوس يدفعها حين توتره إلى الامام . وكانت تلك الأنابيب النحاسية توضع بكميات كبيرة فى اسطوانة هائلة مستديرة ، وتلقى فى مدافع المنجنيق ، ثم تقذف على العدو فتصليه نارا حامية .

أنظر فى ذلك : Anna Comnena, Alexiad, Book XIII, 329; Oman, Art of War, II, 46-50, Davis: Invasion of Egypt, 35-6; Joinville (Johnes' trans.), 405-7, n. 1.

ماأعده الغزاة للهجوم الحاسم. ويصف جوانفيل طبيعة هذه النار متعجبا فيقول: « فى غسق الليل جاء المسلمون بآلة عجيبة ووضعوها تجاه البرجين اللذين كنا ساهرين على حراستها ، أنا والسيد جوتييه دى كورى Gautier d' Écurey ، ثم قذفونا منها بشيء ملأ قلوبنا بالدهشه والرعب . نارا اتخذت هذه الصورة ، إذ اندفعت على هيئة دائرة كبيرة أو كبرميل من الخمر ، وذيولها من خلفها كحراب طويلة هائلة ، لها دوى مزعج كدوى الصاعقة المنقضة من السماء ، ولها صوت يهزم كالرعد القاصف ، وهى أشبة ماتكون بتنين هائل طائر فى الجو . وكانت هذه النار تلقى ضوءا متوهجا حتى أن الرؤية كانت واضحة فى المعسكر كما لو كان نهارا من جراء النار المنبعثة من هذة الكتلة الهائلة من اللهيب » . ولقد استولى الذعر على الفرنج أمام هذا السلاح الجديد . وليس أروع من وصف جوانفيل لهذا الذعر حين يقول : « وقال السيد جوتييه دى كورى : أيها السادة ، نحن فى خطر دائم لم نتعرض لمثله من قبل ، لأن العدو لو صوب النار نحو أبراجنا وبقينا نحن فى أماكننا لهلكنا . ولو أننا غادرنا مراكزنا التى استولينا عليها للحقنا العار . فلا منفذ لنا من هذا الخطر إلا الله . فنصيحتى إليكم أن نخر سجدا — كلما صوبوا هذه النار إلينا — لنبتهل إلى المولى عز وجل أن يحفظنا منها » (١) . ولم يكن الملك لويس نفسه أقل جزعا من رجاله ، يقول جوانفيل: « وكان الملك القديس كلما سمع أن الأعداء قد رمونا بالنيران الإغريقية ، وقف على سريره ورفع يديه إلى السماء مبتهلا إلى الله وعيناه مبللتان بالدموع وهو يقول : « أيها الاله الطيب احفظ لى شعبى » (٢) . ويذكر نفس المؤرخ أنهم ألقوا عليهم هذه النار الإغريقية ثلاث مرات فى تلك الليلة ، وأن الملك

(١) Joinville (ed. Wailly), 112.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 114.

كان أشد ما يكون قلقا على فرسانه ورجاله كلما رماهم المصريون بها ، كما كان يبعث بأحد رجاله للتأكد من أنهما لم تحدث خسارة فى الأرواح .

وبعد ذلك وضع المسلمون قاذفة النار تجاه الصليبيين فى النهـار التالى لكى يحطموا البرجين ـ وكانت هذه هى المرة الأولى التى يستخدم فيها المصريون هذه النار فى وضح النهار ـ ورموا بها الفرنج ، فاندلعت النيران فى البرجين الخشبيين والتهمتها . فصمم الملك على بناء برجين آخرين . ولما لم يكن لديه الخشب الكافى لذلك فقد اضطر إلى جلبه من السفن الصليبية بعد تداوله مع البارونات والقواد فى هذا الشأن . وقد تم تشييد هذين البرجين تحت وابل من قذائف الأحجار التى كانت تنصب عليهم . وسرعان ما ساط المصريون النار الإغريقية على الصليبيين والمعدات الحربية ، واندلعت ألسنة اللهيب فى البرجين ، وللمرة الثانية يحترقان فيصبحان أثراً بعد عين [١] .

حينئذ لم يبق للصليبيين حيلة ، وتملكهم اليأس ، وفترت روحهم المعنوية ، إذ ذهبت محاولاتهم فى عبور القناة ومواصلة الزحف أدراج الرياح . فاستدعى الملك البارونات والنبلاء وراحوا يقلبون الأمر على وجوهه ، ويتداولون فيما

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 106, 108, 112, 114, 116; Epistola Ludovici (ed. Bongars), I, 1196; Rothelin, 599 - 601.

وذكر ابن واصل (مفرج الكروب ج ٢ لوحة ٢٦٥ ب) أن المسلمين انتصروا على الفرنج انتصاراً مبيناً يوم الخميس ٢١ شوال ٦٤٧ هـ / ٢٧ يناير ١٢٥٠ م ، وأحرقوا لهم مراكب عظيمة فى البحر . ولعله يقصد بذلك البرجين الخشبيين اللذين ابتناهما ملك فرنسا حينذاك على الضفة الشمالية لبحر اشموم . أنظر أيضا المقريزى : السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٤٨ حاشية ٦ .

ينبغى اتخاذه فى هذا السايل المظلم (١) .

وبينما كان الملك الفرنسى مجتمعاً بقواده ورجال جيشه أتاه جماعة يرجح أنهم من الأعراب ، ودلوه على مخاضة فى بحر أشموم يستطيع الفرسان عبورها على خيولهم . يؤيد هذا ما جاء فى الأصول المعاصرة للحملة . إذ ذكر ابن واصل أن بعض المسلمين دلوا الفرنج على مخـــاضة فى سلمون (٢) ، ويرى العينى (٣) فى مخطوطه هذا الرأى . كما أشار كل من المقريزى (٤) والإسحاق (٥) أن بعض من لا دين له ممن يظهر الإسلام دل الفرنج عليها . بينما ذكر الملك لويس فى خطابه إلى الشعب الفرنسى حول أسره وإطلاق سراحه (٦) أن الذى أخبرهم عنها مسلم هارب من الجيش المصرى ، ويوافقه روتلان (٧) على ذلك . أما رواية القائد جوانفيل (٨) فتختلف عن هذا قليلا ، إذ ذكر أن السيد همبرت دى بوجو (٩)

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 116. Cf. Davis, op. cit., 38.

(٢) ابن واصل ج ٢ لوحة ٢٦٦ أ . — أما سلمون فهى قرية من مديرية الدقهلية بمركز دكرنس على الشاطىء الشرقى للبحر الصغير جنــوبى دكرنس . راجع أيضا الخطط التوفيقية ج ١٢ ص ٤٤ .

(٣) عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٧ .

(٤) خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢١ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٤٩ .

(٥) الاسحاق : لطائف أخبار الأول ص ١٢٤ .

(٦) Epistola Ludovici (ed. Bongars), I, 1196.

(٧) " des Sarrazinz traiteurs qui estoient venu en nostre ost, de l'ost aus mescreanz " Rothelin, 602.

(٨) Joinville (ed. Wailly), 118. Cf. also Campbell, 428 ; Lamb, 295; Bréhier, 223.

(٩) فيما يتعلق بهمبرت دى وجو راجع : Rothelin, 596, n. b.

Imbert de Beaujeu صرح أثناء المجلس الذى عقده الملك الفرنسى أن أعرابيا عرض عليه مقابل مبلغ من المال أن يريهم مخاضة فى بحر أشموم ، ماؤها ضحل غير عميق وعبورها سهل للفرسان . ولكن هذا البدوى أصر على أن يدفع إليه المال مقدما ، فقبل الفرنج على الفور هذا العرض . وإذا كانت المصادر السالف الإشارة إليها قد ذكرت أن الذى دل الفرنج على المخاضة اعرابى مسلم ، فهناك رأى آخر يخالف ذلك ، وهو رأى له وزنه وقيمته . إذ أوضح العينى فى كتابه « عقد الجمان » أن الذى دل الصليبيين عليها قوم من سلمون ليسوا بمسلمين [1] .

على أى حال ، بعد أن قضى الجيش الصليبى زهاء شهرين قبالة المنصورة وبحر أشموم يفصل بينهما ، أدرك الملك لويس التاسع أنه يجب ألا يترك أية وسيلة لعبوره مهما كان هناك من أخطار ، ومهما بلغ عمق المخاضة التى كان عليه أن يعبرها هو وفرسانه فى مواجهة المصريين مع علمه باستحالة حصوله على مساعدة من مشاته ؛ لذلك عزم على محاولة عبورها فى صبيحة اليوم التالى (٨ فبراير)[2] .

فرح الصليبيون بهذا الكشف ، وعقد الملك الفرنسى مجلسا من البارونات وكبار رجال الحملة فى يوم الاثنين ٧ فبراير ١٢٥٠ م/ ٣ من ذى القعدة ٦٤٧ هـ ؛ وبعد المداولة وتبادل الرأى اتفقوا على خطة الهجوم للمعركة المنتظرة التى كانت تهدف إلى الاستيلاء على المنصورة . وتتلخص هذه الخطة فى النقاط التالية : كان على لويس نفسه ومعه إخوته الثلاثة والجانب الرئيسى من الفرسان السير

---

(١) منتخبات من عقد الجمان للعينى فى مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية الشرقيين ج ٢ قسم ١ ص ٢٠٨ .

(٢) Oman, Art of War, I, 345.

إلى المخاضة وعبورها فى فجر اليوم التالى (٨ فبراير) إلى الضفة الجنوبية حيث يوجد المعسكر المصرى . بينما تقرر أن يقوم بحراسة المعسكر المسيحى على الضفة الشمالية لبحر أشموم جانب من الجيش ـ يتألف من المشاة ورماة السهام وبارونات سورية وفرسانهم ـ تحت قيادة دوق برجنديا . وكان على هذه الفرقة عندما يتم عبور الملك وفرسانه ويستولى على المعسكر المصرى ، استكمال بناء الجسر لتعبر الرجالة عليه وتلحق بقائدها . وبذلك يكون المشاة على اتصال بالفرسان داخل المنصورة [١] .

وليست لدينا فكرة واضحة عن ترتيب الفرسان الذين سيعبرون المخاضة . ولكننا على أى حال نعرف أن الداوية بقيادة رئيسهم وليم دى سوناك كانوا فى الطليعة تصحبهم فرقة روبرت كونت ارتوا والفرقة الإنجليزية الصغيرة التى جمعها من انجلترا وليم طويل السيف الحاكم الاسمى لمقاطعة سالسبرى ، وكان معهم أيضاً فرقة الخيالة الملكية من حملة القسى [٢] . تأتى بعد ذلك المجموعة الثانية من القوات والتى تتألف من فرسان شامبانيا ومن بينهم جوانفيل الذى لم يترك لنا لسوء الحظ قائمة بمن صحبوه ، ويحتمل أنه كان على رأس هذه المجموعة شارل كونت انجو [٣] . ويتكون القسم الثالث من الملك وفرسانه ومعه الفونس

---

(١) Epistola Ludovici (ed. Bongars), I, 1196; Joinville (ed. Wailly), 118.

(٢) Rothelin, 604 - 5. Cf. Oman, Art of War, I, 345 - 6; Campbell, 428; Grousset, Crois., III, 458; Wiegler, 258; King, Knights Hospitallers, 244-5.

(٣) استنتج هذا من أن انجو أنقذ جوانفيل من أيدى الاعداء قبل وصول الملك لويس وفرقته ، الذين يكونون مؤخرة الجيش ، إلى ساحة القتال . أنظر : Joinville (ed. Wailly), 124; Oman, I, 346, n. I.

كونت بواتييه وأمير الأراضى الواطئة (١) . وكان على رجال المقدمة ـ أى القسم الأول من القوات ـ عبور المخاضة إلى الجانب الاسلامى وتطهير الشاطىء الجنوبى لبحر أشموم من الأعداء ، ثم التوقف عن القيام بأى عمل هجومى والانتظار إلى أن تعبر القوة الرئيسية من الفرسان تحت قيادة الملك لويس. وحينئذ يمكن لهذه القوات متجمعة الانقضاض على جيش المسلمين وتوجيه ضربة واحدة تنتهى باستيلائهم على المنصورة ومواصلة الزحف صوب العاصمة (٢) . هكذا كانت الخطة محكمة متصلة الأطراف ، وسنرى فى الصفحات التالية مدى ما لاقته من نجاح ، وإلى أى حد قام الصليبيون بتنفيذها .

ففى فجر الثلاثاء ٨ فبراير ١٢٥٠ م (٣) / ٤ من ذى القعدة ٦٤٧ هـ ، توجه الجيش الصليبى إلى المخاضة يتقدمه الدليل. وكانت عملية العبور شاقة وبطيئة لأن المخاضة كانت أكثر عمقاً وأشد خطرا مما توقع الصليبيون . ولقد اضطرت جيادهم إلى الخوض سباحة ، كما لاقوا هم أنفسهم صعوبة فى الوصول إلى الضفة

(١) Oman, I, 346. Cf. King, 245.

(٢) Lamb, 297; Campbell, 428.

(٣) اختلف كتاب المسلمين والفرنج حول تحديد تاريخ هذه الوقعة . فقد ذكر كل من لويس وجوانفيل وهرقل أنها كانت يوم الثلاثاء ٨ فبراير ١٢٥٠ م الذى يوافق ٤ من ذى القعدة ٦٤٧ هـ . أنظر : Epistola Ludovici (ed. Bongars), I, 1196; Joinville (ed. Wailly), 118; Eracles, 437. ، ويؤيدهم فى ذلك من مؤرخى المسلمين ابن دقماق الذى ذكر أنها كانت يوم الثلاثاء ٤ من ذى القعدة أنظر: نزهة الانام لوحة ٧٨ أ ؛ بينما قال المقريزى فى خططه (جـ ١ ص ٢٢١) والنويرى فى نهاية الأرب (جـ ٢٧ لوحة ٨٩) انها كانت يوم الثلاثاء ٤ أو ٥ منه . وأجمعت باقى المراجع العربية أنها وقعت يوم الثلاثاء ٥ منه أنظر : ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٦٦ أ ؛ عقد الجمان جـ ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٧ ؛ مسالك الابصار جـ ٢٧ قسم ٣ لوحة ٢٧٠ ؛ السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٤٩ ؛ المختصر جـ ٣ =

الجنوبية نظراً لارتفاع الشاطىء وكثرة أوحاله ، وغرق عدد كبير منهم فى الماء عند محاولتهم العبور (١). وعندما تم لهم ذلك ، شنت مقدمة الجيش التى تتألف من الداوية ومن كونت ارتسوا وفرسانه وكونت سالسبرى وفرسانه ، هجوما خاطفا على المصريين فى معسكرهم مكبدة إياهم خسائر فادحة فىالأرواح ، وشتتت شملهم لأنهم لم يكونوا مستعدين للقتال ، إذ لم يخطر على بالهم أن يهاجموا من هذه الناحية . ثم هاجم المسيحيون المساكن الكائنة فى ضواحىالمدينة ، وانقضوا على العسكر الاسلامى عاملين فيهم سيوفهم ، وأجهزوا على الكثيرين منهم حتى لقد اضطرت فلولهم إلى الفرار داخل المنصورة للاحتماء بها من ضربات الأعداء[٢] . ويذكر مؤرخو الغرب المعاصرون للحملة أن الصليبيين لم يرفقوا بأحد ، ولم يرعوا حرمة النساء أو الشيوخ والأطفال ، وكانوا يقتلون كل من

= ص١٨٩ ؛ تتمة المختصر ج٢ ص ١٨٢ . ــ وهكذا نرى أن مراجع الحملة كلها متفقة على أن الموقعة كانت يوم الثلاثاء ، ولكنها اختلفت فى تحديد التاريخ وفيما لذا كان الرابع من ذى القعدة أو الخامس منه (٨ أو ٩ فبراير) . ولما كان أول ذى القعدة يقع يوم السبت حسب تقدير فستنفلد ، فيكون رابعه وليس خامسه موافقا يوم الثلاثاء . وعلى هذا تكون المعركة قد وقعت يوم الثلاثاء ٤ من ذى القعدة ٦٤٧ هـ / ٨ فبراير ١٢٥٠م .

(١) Epistola Ludovici (ed. Bongars), I, 1196; Joinville (ed. Wailly), 118. Cf. Oman, I, 346; Grousset, Crois., III, 459.
وهاك نص ما ذكره روتلان : " Les rives estoient durement hautes, et d'une part et d'autre plainnes de barbier et de betumes et de limon, et l'iaue plus perilleuse et plus parfonde que li Sarrazin ne leur avoit, dist. " Rothelin, 603.

(٢) Cf. Poème Anglo-Normand (ed. F. Michel), 328—9; Epistola Ludovici (ed. Bongars), I, 1196.

يصادفونه فى طريقهم دون رحمة أو هوادة (١) .

وكان الأمير فخر الدين قائد القوات المصرية - عندما باغت الصليبيون المعسكر الاسلامى - فى الحمام يغتسل ، فعندما بلغه ذلك خرج مشدوها واعتلى جواده دون أن يلبس درعه ، وانطلق يلم شعث المسلمين الذين ولوا الأدبار أمام هذا الهجوم المفاجىء من المماليك ورجال الحلقة والأمراء . والتحم مع العدو مقتحما صفوفه فى شجاعة فائقة ، فلقيه جماعة من الفرنج الداوية ، فشنوا عليه هجوما شديدا ، وفر من كان معه تاركينه يدافع عن نفسه بمفرده فى ساحة الوغى ، فأتته طعنة فى جنبه وأخذته السيوف من كل جانب ، فسقط مثخنا بالجراح ومات متأثرا بما أصابه (٢) . وتفرق المسلمون يمنة ويسرة ، وكادت أن تلحق بهم هزيمة نكراء (٣) . وهكذا مات الأمير فخر الدين شهيداً فى ساحة القتال بعد أن محى عن جبينه وصمة العار التى لحقت به منذ أن تخلى عن دمياط .

---

(١) Epistola Ludovici, op. cit., loc. cit.; Poème Anglo-Normand, 328-329. — وقد وصف روتلان قسوة الصليبيين وغلظتهم فقال : "nullui homes, fames, enfanz, viex, et josnes, granz et petiz : hauz et bas, riches et pourez; ney avoit mestier crier ne braire, ne crier merci, que tous ne fussent mis à la mort." Rothelin, 603-4.

وهاك أيضا نص ما جاء فى القصيدة الانجلو نورماندية فى هذا الشأن :

De treis mil Sarazins e sinqe centz e plus, à mun quider,
Ke furent illoqe ateinz ne pout nul eschaper;
Fust monté ou à peé, ne fust si fort e fer
Ke ne perdist la teste, sanuz plus losenger.

(٢) ولد الأمير فخر الدين بدمشق سنة ٥٨٢ هـ ومات بمصر فى ٦٤٧ هـ عن ٦٦ سنة . أنظر نهاية الارب ج ٢٧ لوحة ٨٩ .

(٣) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٦ أ ؛ مرآة الزمان ج ٨ لوحة ٥١٦ . وكذلك كتاب : Rothelin, 604.

وعندما نزلت الهزيمة بالعسكر المصرى ، انطلقت إحدى حمام الزاجل تحمل إلى القاهرة أخبار الكارثة . فلما وصلتها فزع الناس ، حتى أن أبواب العاصمة ظلت مفتوحة لدخول المنهزمين من الجند والعامة وغيرهم(١) .

وهكذا نرى أن الجزء الأول من الخطة التي وضعها الصليبيون نفذ بدقة تامة؛ إذ عبرت المقدمة القناة إلى الضفة الجنوبية وتمكنت من تشتيت شمل القوات المصرية ، بل ومن قتل قائدها ، بينما هربت فلولها فى هلع واضطراب داخل مدينة المنصورة نفسها . وكان على الصليبيين بعد ذلك الانتظار إلى حين عبور القوة الرئيسية بقيادة الملك لويس . لكن روبرت كونت ارتوا لم يمتثل للأوامر الملكية ،ويظهر أنه أراد الانفراد بظفر ذلك اليوم دون بقية الجيوش الفرنجية، ورغب فى الزحف على المنصورة دون تمهل (٢) . وقد عارض بقية الصليبيين هذه الخطة العجولة التى تدل على التهور وعدم التبصر ، وأنذروا الكونت من العواقب الوخيمة التى سوف تنجم عنها . كما نصح رئيس جماعة الرهبان الداوية كونت ارتوا بالانتظار ريثما يصل الملك ويتكامل عددهم . لكن ذلك الأمير الفرنسى العنيد رماه بالجبن والخيانة ،وبأنه يسعى فقط وراء إحراز الكسب دون بذل أو تضحية . وهنا تدخل الفارس الانجليزى وليم طويل السيف فى النقاش مشيرا بما نصح به رئيس الداوية ، فكان هذا مما زاد النزاع حدة . وقد اتهمه كونت ارتوا بالجبن هو الآخر ، موجها إليه عبارات جارحة . وأخذ

---

(١) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٦ ب ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢١ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٥١ . أنظر أيضا : Davis, Invasion of Egypt, 41.

(٢) Cf. Guizot, 67.

كل منهم فى تعيير زميله بأقذع الألفاظ وكونت ارتوا ما زال عند رأيه (١) . وأنهى رئيس الداوية المناقشة بأن حذره من مغبة تهوره وبأنه سيودى بالمقدمة مورد التهلكة قائلا له : « نحن لا نخشى شيئا وسوف لا نتخلف ، بل سنذهب معكم . ولكن اعلم جيداً بأننا لن نعود من هذه المعركة » (٢) . والواقع أن هذا الرد المفحم كان ينطوى على مغزى كبير لخبرة الداوية بشئون الحرب ووسائل المسلمين فى القتال ، إذ اشتركوا ضدهم فى حروب كثيرة قبل ذلك (٣) . وقد انفرد روتلان بذكر واقعة لم ترد فى الأصول الأخرى ، تتلخص فى أن الملك الفرنسى أوفد وقتئذ من قبله عشرة فرسان أسدوا النصح إلى كونت ارتوا بالانتظار ريثما يتم عبور الجيش (٤). لكنه لم يعر هذا الأمر الملكى أى التفات، ولم ينتصح بما قاله له زملاؤه من رجال المقدمة، ولم ينتظر وصول باقى القوات، إنما اندفع بفرسانه إلى المنصورة وفى إثره باقى الصليبيين (٥) .

لقد أدى عصيان كونت ارتوا لأوامر الملك إلى تحول العمليات الحربية التى بدأت بداية طيبة فى صباح ذلك اليوم والتى كانت فى صالح الفرنج ، إلى كارثة دامية . إذ بدأت المعركة الثانية دون أى نظام ، بل ودون قيادة موحدة أو

---

(١) Anonymous, Poème Anglo-Normand, 330—3; Rothelin, 604 — 5; Matt. Paris, II, 368—72.

(٢) Rothelin, 605.

(٣) Cf. Lane-Poole, Hist. of Egypt, 235.

(٤) Rothelin, 605.

(٥) ويروى جوانفيل قصة غريبة انفرد بها ، مؤداها أن فارسا أصما يدعى السيد فوكو دى ميرل Foucaud de Merle كان ممسكا بقواد خيل روبرت كونت ارتوا ، ويصيح بأعلى صوته أن يتقدموا دون توقف ، هذا بينما كان رئيس الداوية يرجوه بالتريث. راجع :
Joinville, (ed. Wailly), 120. Cf. Oman, I, 346, n. 4; Guizot, 67.

خطة موضوعة . كما كان الانشقاق باديا بين رجال المقدمة ، هذا فى الوقت الذى لم يعبر فيه بعد الجانب الرئيسى من الجيش المسيحى بحر أشموم[1].

لقد كانت الظروف وقتئذ تتطلب الحكمة والتمهل خاصة وأن رجال المقدمة كانوا قلة ضئيلة ، فإن الجيش المصرى سوف لا يتوانى والأمر هكذا عن لم شعثه وتنظيم قواته ، وبذلك يمكنه التغلب على الفرنج (٢) . لكن كونت ارتوا ترك هذه الاعتبارات جانبا ، واقتحم هو ومقدمة الجيش أحد أبواب المنصورة ، وانطلقوا وراء المصريين الذين فروا مذعورين فى أنحاء المدينة وحواليها . وهكذا ظل كونت ارتوا فى تقدمه حتى وصل إلى باب قصر السلطان بها [3] . وبينما الكل

(١) Grousset, Crois., III, 459.

(٢) Rothelin, 604. Cf. Grousset, Crois., III, 461-2.

(٣) ذكر ابن واصل (مفرج الكروب جـ ٢ لوحة ٣٦٦ ا) ان الملك الفرنسى هو الذى وصل الى قصر السلطان ؛ وتؤيده فى ذلك المراجع التالية (عقد الجمان جـ ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٧ ؛ كنز الدرر جـ ٧ ورقة ٣٧٧ ؛ السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٥٠ ؛ خطط المقريزى جـ ١ ص ٢٢١ و جـ ٢ ص ٢٣٧) . والواقع أن لويس التاسع لم يكن قد عبر بحر اشموم بعد ، وحتى بعد عبور القناة فإنه لم يصل مطلقا الى القصر السلطانى بالمدينة ، انما كان القتال الذى اشترك فيه منذ عبوره القناة الى حين تراجعه الى دمياط محصورا فى المنطقة الكائنة جنوبى بحر اشموم التى تعرف باسم جديلة حيث كانت توجد آلات المسلمين ومعسكرهم . وغير هذا فإن بعض المراجع الشرقية المتأخرة لم تنص على أن الملك لويس وصل الى القصر ، انما روت أن بعض الفرنج وصلوا الى الدهليز السلطانى ، أنظر (السلامى : مختصر التواريخ ورقة ١٦٥ ا ؛ با مخرمة: قلادة النحر جـ ٣ قسم ١ لوحة ٩٠٠ ؛ ابن الجزرى : ملخص تاريخ الاسلام ورقه ٧٩٩). وعلى هذا يمكن القول ان المقصود هنا بلاشك هو كونت ارتوا الذى تقدم فعلا هو ورجال المقدمة داخل المنصورة وانتشروا فى أزقتها حيث انتهى الأمر بهلاكهم عن آخرهم تقريبا . ولعل السبب فى تسمية كونت ارتوا هنا باسم ملك الفرنسيين ، أنه لما وقع صريعا أخذ أحد قواد المسلمين رداءه ورفعه أمام جنوده قائلا لهم « ان عدوكم الملك الفرنسى قد مات » . راجع عن ذلك: Joinville (ed. Wailly), 144.

على ذلك كان الجيش المصرى قد استرد شجاعته واستجمع قواه خارج المدينة ، وكان من حسن حظه أن وجد له رئيسا فى شخصية ركن الدين بيبرس البندقدارى (١) قائد المماليك البحرية ، الذى غدا بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ سلطانا على مصر . فباغت جيش المماليك البحرية رجال المقدمة ، وطارد فلولهم فى كل مكان وتعقبهم فى الأزقة والشوارع ، فلما لاذوا بالبيوت يريدون الاحتماء بها انهال عليهم بالضرب سكانها ، وأخذوا يرمونهم بالقذائف والأحجار والطوب من الأسطح والنوافذ ، ويرشقونهم بالسهام والرماح ، وأخذتهم السيوف من كل جانب (٢) . كما أن خيولهم الضخمة لم تتمكن من الجولان بين الأزقة والدروب ، فكان هذا مما زاد موقفهم دقة وخطورة (٣) . وقد وصف ابن ايبك هذه المذبحة نقلا عن شاهد عيان لها فقال : « ... قال بعض من حضر هذه الوقعة : والله كنت اسمع زعقات الترك كالرعد القاصف ، ونظرت إلى لمعان سيوفهم وبريقها كالبرق الخاطف . فلله درهم ، لقد أحيوا فى ذلك اليوم الاسلام من جديد بكل أسد من الترك قلبه أقوى من الحديد . فلم تكن إلا ساعة وإذا بالفرنج قد ولوا على أعقابهم منهزمين ، وأسود الترك لأكتاف خنازير الفرنج ملتزمين » (٤) .

---

(١) فيما يتعلق بسيرة ركن الدين بيبرس راجع اليونينى : ذيل مرآة الزمان ج ١٢ ورقة ٩٧ ب — ١٠٠ ب ؛ الفيومى : نثر الجمان مجلد ٢ ورقة ١٩٦ ب — ١٩٧ ا ؛ المنهل الصافى ج ١ ورقة ٣٦٠ ب — ٣٦٦ ب ؛ ابن شاكر : فوات الوفيات ج ١ ص ٨٥ — ٩٠ .

(٢) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٦ ا ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢١ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٥٠ ؛ قلادة النحر ج ٣ قسم ١ لوحة ٩٢٧ . راجع أيضا Epistola Ludovici (ed. Bongars), I, 1197; Joinville (ed. Wailly), 120; Rothelin, 605.

(٣) أبو الفرج : تاريخ مختصر الدول (طبعة بيروت) ص ٤٥٣ .

(٤) ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ورقة ٢٧٧ — ٢٧٨ .

وقد انتهت المعركة أخيرا بالقضاء على فرقة الفرسان التى كانت تؤلف مقدمة الجيش قضاء مبرما تقريبا (١)، بعد أن أظهر الفريقان فى القتال بسالة رائعة (٢). وكان فى مقـــدمة الضحايا كونت ارتوا شقيق الملك الفرنسى وثلاثمائة من فرسانه (٣)، ووليم طويل السيف وغالبية رجاله (٤) . كما مات تقريبـا جميع الفرسان الداوية الذين اشتركوا فى المعركة (٥) ؛ إذ فقدوا وفقا لرواية روتلان

---

(١) ذكرت الرواية الاسلامية أن عدد قتلى الفرنج بلغ ١٥٠٠ فارس . راجـــع : ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٦ ا ؛ تراجم رجال القرنين ص ١٨٣ ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٧ ؛ لطائف أخبار الاول ص ١٢٤ . ويرى شـــارل اومن أن هذا الرقم قريب جدا من الواقع . أنظر : Oman, Art of War, I, 348.

(٢) Cf. Anonymous, Poème Anglo-Normand, 333-53.

(٣) Cf. Epistola Ludovici (ed. Bongars), I, 1197; Eracles, 438; Matt. Paris, II, 372-3. وقد تضاربت الآراء حول كيفية موت روبرت كونت ارتوا، فقد جاء فى كتاب متى الباريزى وكذلك فى القصيدة الانجلو نورماندية أنه غرق فى النهر عند محاولته الفرار من وجه القوات المصرية . أنظر : Matt. Paris, II, 372; Poème Anglo-Normand (ed. F. Michel), 335. ، بينما قال جوانفيل انه قتـــل وهو يدافع عن نفسه ضد المصريين . أنظر Joinville (ed. Wailly), 120. والغـــالب أن هذا هو الصواب ؛ لأن كلا من متى الباريزى وناظم القصيدة الانجلو نورماندية كان من أصل انجليزى ، وكان بين الانجليز والفرنسيين وقتذاك عداء مستحكم . فمن الطبيعى أن يتهما كونت ارتوا بالجبن ومحاولة الفرار من وجه القوات المصرية .

(٤) Poème Anglo-Normand, 352-3; Matt. Paris, II, 372-3.

(٥) لا تتحدث المصادر التاريخية المعاصرة إلا عن الداوية ؛ ولكن يؤكد بعض المؤرخين المحدثين أن الاسبتارية اشتركوا إلى جانب الداوية فى قتال هذا اليـــوم ؛ إذ كان من عادة الصليبيين فى حروبهم مع المسلمين أن يجعلوا جماعات الفرسان الرهبانية فى الطليعة دائما . راجع : =

٢٨٥ من فرسانهم ، ولم يسلم منهم سوى أربعـــة أو خمسة ، ليقصوا على بقية رجال الجيش مأساة المنصـــورة (١) . بينما لم يفقد من المسلمين سوى ثلاثين نفسا (٢) . ولعل أبلغ وصف لهذه الملحمة ما ذكره الأستاذ جروسيه من أن المنصورة أضحت قبرا لمقدمة الجيش الصليبي(٣). وبعد هذه الهزيمة سرحت بطاقة في أجنحة حمامة من حمام الزاجل إلى القاهرة تزف أخبار النصر الذى أحرزه المصريون ، فزينت البلاد واستبشر الناس وقويت الروح المعنوية عندهم (٤) .

وبينما كانت هذه المعركة تجرى حوادثها داخل مدينة المنصورة وبين أزقتها وشوارعها ، نشب قتال آخر فى البقعة الكائنة بين بحر أشموم والمنصورة حيث كان يوجد المعسكر المصرى ، اشترك فيه جوانفيل وفرقته — وكانوا قد عبروا القناة عن طريق الخاضة — ضد عساكر المسلمين الذين هاجموهم ورموهم بالسهام والرماح وفتكوا بعدد منهم . وقد جرح جوانفيل وسقط جواده الذى كان يعتليه

= Delaville Le Roulx, Hospitaliers, 195-6, n. 2; King, Knights Hospitallers, 246. — والراجح أن هذا هو الصحيح ، فقد ذكر روتلان أن الداوية والاسبتارية اشتركا فى إسداء النصح إلى كونت ارتوا قبل اندفاعه نحو المنصورة ، مما يجعلنا نقطع بأن جماعة الاسبتارية كانت تؤلف إحدى فرق المقدمه التى عبرت المخاضة ، وأنها ساهمت بالتالى فى المعركة . راجع عن ذلك : Michaud, Bib. des Crois., I, 386.

(١) Rothelin, 605-6. — وذكر كل من اومن وكامبل أن وليم دى سوناك رئيس الداوية كان من بين القتلى . أنظر : Oman, Art of War, I, 348; Campbell, 429. والصحيح أنه فقد إحدى عينيه فى هـــذه الموقعة ، وفقد الأخرى فى وقعة المنصورة الثانية (١١ فبراير ١٢٥٠م) حيث مات متأثرا بجراحه فى نفس هذا اليوم . أنظر Joinville (ed. Wailly), 148; cf. Bréhier, 224.

(٢) تراجم رجال القرنين ١٨٣ .

(٣) Grousset, Crois., III, 465.

(٤) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٦ ب .

على الأرض من كثرة السهام التى رشقه بها الأعداء . حينئذ توجه جوانفيل إلى أحد المنازل المهجورة للاحتماء بداخله من ضربات المصريين، حيث لحق به جماعة من الصليبيين . لكن المسلمين عادوا فأطبقوا عليهم وهاجموهم من جميع الجهات وأصابوا عددا منهم بجراح بالغة ، وأضحت حياة الباقين معرضة للهلاك . فذهب أحدهم ، وهو من رجال جوانفيل ويدعى إراردى سفيرى Érard de Siverey، فى طلب العون من كونت انجو الذى كان يتجول فى الحقول المجاورة . وعندما أبصر المصريون كونت انجو ورجاله مقبلين نحوهم لنجدة الفرنج المحاصرين داخل المنزل المهدم ، تركوهم ولاذوا بالفرار (١) .

بعد ذلك وصل الملك الفرنسى لويس التاسع والجانب الرئيسى من الجيش إلى ميدان القتال جنوبى بحر أشموم ، ولم يكن على علم بما منيت به الطليعة من هزيمة منكرة . وتوقف هو وجيشه على تل مرتفع استعداداً للاستيلاء على جديلة التى كانت عليها آلات المسلمين ، وكان غرضه من ذلك استكمال بناء الجسر من الناحية الجنوبية لتعبر الرجالة إليه (٢) . ويصف جوانفيل روعة الملك الفرنسى حينذاك عندما ساط الأضواء عليه ، معتبرا إياه نموذجا كاملا لفارس العصور الوسطى (٣). فنراه يقول: «ولم أر أروع من هذا الفارس، فقد

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 120, 122, 124. Cf. Oman, I, 349.
ومما ينبغى ذكره أن جوانفيل هو المؤرخ المعاصر الوحيد الذى أشار إلى هذه المعركة التى اشترك فيها بنفسه .

(٢) Oman, I, 348.

(٣) يقول المؤرخ ج . ج . كولتون إن مذكرات جوانفيل عن القديس لويس تكشف عن نظام الفروسية فى المجتمع الغربى الوسيط ، وعن الصفات الواجب توافرها فى الفارس . ويوضح أن جوانفيل جعل من سيده الملك الفرنسى نموذجا لفارس القرون الوسطى . أنظر كولتون (ج . ج .) : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة — ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم يوسف ، ط . ثانية (الإسكندرية ١٩٦٧) ص ١٣٨ — ١٤٢ .

كان يعلو جميع رجاله هامة ، لاتعلو رؤوسهم عن كتفيه ، وعلى رأسه خوذة مذهبة ، ممسكا بيده سيفا جرمانيا (١) . وفى هذه البقعة التى توقف فيها الملك ورجاله نشب قتال بين الفريقين أبديا فيه مهارة فائقة . وقد ذكر جوانفيل أن العراك لم يكن بقوس أو برمح ، إنما تقاتل العدوان وجها لوجه حيث اشتبكت الأجساد واختلطت السيوف ببعضها (٢) . وقد أظهر الصليبيون بادىء ذى بدىء تفوقا على المماليك فى فن القتال بالسيف، إلا أن المسلمين تمكنوا آخر الأمر من التغلب عليهم نظرا لكثرتهم العددية (٣) .

بعد هذه المعركة التى استشهد فيها من الفريقين عالم كبير، أشار أحد الصليبيين ويدعى جون دى فاليرى على الملك لويس وفرقته الذين كانوا على مسافة من الشاطىء الجنوبى لبحر أشموم بالارتداد إلى هذه الضفة الجنوبية ليكونوا على مقربة من معسكرهم بقيادة دوق برجنديا الذى يرابط على الضفة المواجهة ، وذلك للحصول على مساعدته وحتى يمكنهم إرواء ظمأهم . وبعد أن تبادل الملك الرأى مع فرسانه وباروناته ، أصدر أوامره بالتحرك شمالا نحو القناة . وبينما هم فى طريقهم إليها ، بلغ الملك أن أخاه كونت ارتوا فى خطر داهم، وأنه يدافع

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 126. — كان الالمان يستخدمون سيوفا طويلة ، وقد وصف المؤرخ الفرنسى غليوم جويار Guill. Guiart — الذى عاش فى القرن ١٣ وأوائل القرن ١٤م — هذه السيوف فى كتابه عن حياة فيليب أغسطس جد لويس التاسع فقال :

" A grans espées d'Allemagne
Leur tranchent souvent les poins outre "

أما الفرنسيون فقد كانوا — على العكس من ذلك — يستخدمون السيوف القصيرة ، التى وصفها غليوم جويار أيضا :

" Li François espées reportent,
Courtes et roides, dont ils taillent. "

أنظر عن ذلك : Joinville (Johnes' trans.), 513, n. 1.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 126. Cf. Rothelin, 606; Epistola Ludovici (ed. Bongars), I, 1197.

(٣) Rothelin, 606 – 7.

عن نفسه بمفرده داخل مدينة المنصورة [١] ، فاضطر حينئذ إلى تغيير اتجاهه . وهكذا بدأ الجيش الملكى فى المسير متخذا طريقه جنوبا صوب المنصورة يتقدمه جوانفيل وخمسة آخرون لنجدة كونت ارتوا . وما كادوا يبدأون فى المسير حتى شن عليهم الترك — وكانوا يقدرون بأكثر من ألف مقاتل — هجوما كبيرا ، واحتلوا مركزا متوسطا بين الجانب الرئيسى من الجيش تحت قيادة الملك وبين جوانفيل ومن معه . وإزاء هذا الهجوم الشديد توقف الملك عن مواصلة السير نحو المنصورة لنجدة أخيه ، واضطر إلى التراجع ثانية صوب الضفة الجنوبية لبحر أشموم هو والقوة الرئيسية ، والعساكر الإسلامية فى إثرهم مكبدة إياهم خسائر جسيمة فى الأنفس . وقد غرق عدد كبير من الفرنج عند عبورهم بحر أشموم إلى الضفة الأخرى هربا من المصريين [٢] .

ويصور لنا روتلان الحزن الشديد الذى كان يختلج فى نفوس الصليبيين شمالى بحر أشموم ، عند مشاهدتهم إخوانهم على الجانب الآخر وهم يقعون صرعى تحت ضربات المصريين ، ويموتون غرقى فى النهر عند محاولتهم الفرار [٣] .

أما جوانفيل ومن معه فقد توجهوا إلى قنطرة صغيرة مقامة على جدول ماء مواز لبحر أشموم [٤] ، وقاموا على حراستها لمنع المسلمين من الهجوم على الفرقة

---

(١) لم يكن الملك قد عرف بعد بموت أخيه فى ساحة الوغى .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 126, 128.

(٣) " Tuit et petit et grant, braioient, et plouroient et vioient a haute voiz, batoient leurs piès et lor testes, tordoient lor poings, enrachoient lor cheveux, et gratiguoient lor visages, et disoient : Las ! las ! las ! li roi et ses freres et toutes leur compagnie sont tous perdus ! " Rothelin, 607.

(٤) Cf. Grousset, Crois., III, 470, n. 2.

الملكية والاطباق عليها من ناحيتين ؛ وقد انضم اليهم جماعة من الصليبيين الذين ساهموا فى معارك صباح هذا اليوم . وأخذ الجميع فى الدفاع عن القنطرة ضد هجمات المسلمين المتواصلة .

لقد كانت القوات الصليبية فى مركز حرج وهى تعانى من هجمات فرسان المماليك ومشاتهم الشديدة المتكررة . ومما زاد فى خطورة الموقف أن المشاة وحملة القسى المسيحيين كانوا يوجدون على الضفة الشمالية لبحر اشموم مع دوق برجنديا ، وكان عبورهم وقتئذ ضروريا لمساعدة إخوانهم على الضفةالأخرى(١). وبعد مجهود كبير أقام الصليبيون جسرا من السفن عبر عليه رماة السهام والمشاة لنجدة لويس وجيشه ، وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب (٢) . وما أن أبصر المصريون حملة القسى الصليبيين يصوبون سهامهم إليهم حتى لاذوا بالفرار تاركين خيامهم وأثقالهم للفرنج . حينئذ ترك جوانفيل ورجاله القنطرة التى كانوا يحرسونها ، وتوجهوا إلى حيث يوجد الملك . وكان التعب قد أخذ من الصليبيين كل مأخذ ، حتى أن بعض الأعراب استغلوا هذه الفرصة ، واقتحموا المعسكر الإسلامى الذى استولى عليه الفرنج حيث حملوا معهم ما أمكنهم حمله . ثم هربوا دون أن يصيبهم أى ضرر (٣) . وفى تلك الأثناء بلغ الملك عن طريق جان دى

---

(١) Epistola Ludovici (ed. Bongars), I, 1197. Cf. Grousset, Crois., III, 471; Lane-Poole, Hist. of Egypt, 236.

(٢) Rothelin, 607 .

(٣) Joinville (ed. Wailly), 134, 136. Cf. Grousset, Crois., III, 472; Kitchin, I, 344.

رونيه (١) Jean de Ronay نائب رئيس الاسبتارية الخبر الأليم بوفاة شقيقه كونت ارتوا فى المنصورة وهو يقاتل المصريين ، فبدا عليه التأثر لفقده حتى غلبه البـــكاء (٢).

تلك هى المظاهر الرئيسية لموقعة المنصورة الأولى ٤ من ذى القعدة / ٨ فبراير . وهى تظهر ضرورة التعاون المشترك بين المشاة والفرسان فى الجيوش المسيحية عند مواجهة فرسان الشرق . ولقد كان الملك لويس وفرسانه على شفا هاوية لحاجته إلى معونة مشاته ورماة سهامه ، ذلك لأن جميع حملة القسى من الفرسان كانوا قد قتلوا مع كونت ارتوا داخل المنصورة . ولم ينقذ الملك وفرقته إلا وصول المشاة بعد أن أفلحوا فى عبور القناة واللحاق بهم. ومن المحتمل أنه لولا تلك المساعدة لهلكوا عن آخرهم (٣) .

وقد لاحظ كتاب المسلمين بجلاء أكثر من كتاب الفرنج أن وصول المشاة الفرنسيين المتأخر حول القتال إلى معركة متعـــادلة ، وأن المشاة لو بكروا بالظهور فى ميدان القتال لأحرز القديس لويس نصراً حاسمـا فى ذلك اليوم . حقاً إن جوانفيل ذكر عبور فرقة رماة السهام والمشاة ، لكنه وجـــه اهتماما أكبر ـــ شأنه فى ذلك شأن معظم المؤرخين الغربيين المعاصرين للحمـــلة —

---

(١) يطلق عليه جوانفيل هنرى دى رونيه حاكم الاسبتارية "Henry de Ronay, Prévot de l'Hôpital" ، أنظر : Joinville (ed. Wailly), 134 ونعرف من هذه التسمية الخاطئة أنه يعنى جان دى رونيه نائب الرئيس الذى كان يقوم بالاشراف على شئون الجماعة فى فترة أسر الرئيس أنظر : Delaville Le Roulx, 196, n. 1.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 128, 130, 132, 134. أنظر أيضا الملحق الثالث الخاص بخطاب لويس إلى الشعب الفرنسى .

(٣) Oman, Art of War, I, 351.

بما أبداه الملك الفرنسى من بسالة أثناء القتال(١) . وقد أوضح ابن واصل أنه لو بقى ارتوا إلى جانب المعدات بدلا من التقدم داخل المنصورة لانتهى اليوم فى صالح الفرنسيين ، إذ قال : « وكان من سعادة المسلمين تفرق الافرنج فى الأزقة (أزقة المنصورة) »(٢) . وأنه لو اشترك جميع المشاة المسيحيين فى القتال لحاقت الهزيمة بالإسلام ، وبنص قوله « وأما رجالة الفرنج فكانوا قد جاءوا على الجسر المنصوب على بحر أشموم ليعدوا منه، ولو تراخى الأمر وعدت الرجالة إلى المسلمين وتكاملوا فيه لأعضل الداء ، فإن الرجالة كانوا جمعا عظيما وكانوا حموا فارسهم »(٣) .

وهكذا انجلت معارك يوم الثلاثاء داخل المنصورة وفى ضواحيها ، والتى استمرت منذ الصباح الباكر حتى المساء ، باستيلاء الصليبيين على المعسكر المصرى جنوبى بحر أشموم(٤) . وكان هذا هو الكسب الوحيد الذى أحرزوه فى هذا اليوم بعد أن دفعوا الثمن غاليا ، وبعد أن فقدوا زهرة فرسانهم وخيرة رجالهم فى شوارع المدينة وفى أزقتها ودروبها بين قتيل وأسير وجريح ، نتيجة تهور كونت ارتوا وعصيانه للأوامر الملكية(٥) . وعلى هذا يمكننا القول ان

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 126, 130, 134. Cf. Oman, op. cit. loc. cit.; Osborn, The Middle Ages, 115–6.

(٢) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٦ ا .

(٣) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٦ ا — ٣٦٦ ب . راجع أيضا خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢١ .

(٤) Epistola Ludovici (ed. Bongars), I, 1197; Joinville (ed. Wailly), 134.

(٥) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٦ ب . و Joinville (ed. Wailly), 134. راجع أيضا : Campbell, 429; Lamb, 304–5; Stevenson, 327; Grousset, Crois., III, 472; Oman, I, 350; Bray, 175; Lane-Poole, Hist. of Egypt, 236.

هذا اليوم العصيب الذى انتهى بالنسبة للفرنج فى جو مشبع بالأسى والأحزان(١)، كان بلا شك فى صالح المصريين على الرغم من فقـــدانهم معســـكرهم شمالى المنصورة(٢) . ولقد صدق المؤرخ ابن واصل عندما قال إن هذه الواقعة كانت « أول النصر ومفتاح الظفر »(٣) .

لم يكن لدى الملك لويس التاسع الوقت الكافى للبكاء على موتاه ، إنما كانت الظروف تحتم عليه أن يعد العدة لما قد يجد فى الأيام المقبلة ، التى بات من المتوقع أن تكون أياما حاسمة فى تاريخ هذه الحملة .

ولقد كان الجيش الإسلامى هو البادىء بالهجوم فى هذه المرة . ففى ليـــل ٨ — ٩ فبراير / ٤ — ٥ من ذى القعدة — بينما كان الصليبيون مقيمين فى البقعة التى يوجد عليها المعسكر الإسلامى جنوبى بحر أشموم — هاجم المسلمون الجند المكلفين بحراسة معدات القتال التى غنمها الفرنج من المصريين فى موقعة الثلاثاء، ودفعوهم حتى أبواب المعسكر الذى يوجد به جوانفيل . فأرسل فى طلب العون من الملك لويس لأنه لم يكن بوسعه هو ورجاله تحمل ملابس الحـــرب الثقيلة نظرا للجراح التى أصيبوا بها فى اليوم السابق . فأوفد الملك فرقة على رأسها الفارس جوشيه صاحب الكرك Gaucher de Châtillon ؛ وقد تمكنت من دفع مشاة المسلمين إلى الوراء ، حيث اصطف خيالتهم للقتال فى مواجهـــة المعسكر المسيحى . حينئذ ترجل ثمانية من قواد المسلمين وأقاموا حاجزا من الأحجار

---

(١) Cf. Kitchin, I, 344; Guizot, 69.

(٢) Cf. Wiet, Hist. de la Nation Egyptienne, IV, 389; King, 247.

(٣) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٦ ب . راجع أيضا السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٥١ .

للاحتماء خلفه من رماة السهام و حملة الأقواس ، ثم أطلقوا آلاتهم على المسيحيين دون توقف ، فأصابوا عددا كبيرا منهم ومن جيادهم . وقد رأى جوانفيل ورجاله — بعد تبادل الآراء — أنه من الضرورى إزالة هذا السد الحائل بينهم وبين القوات الإسلامية. لكن أحد الصليبيين من رجال الدين التابعين لجوانفيل ويدعى جان دى فوسى Jean de Voisey لم ينتظر طويلا ، بل خرج بمفرده من المعسكر وتوجه صوب هؤلاء القواد الثمانية ، وقد اكتسى بصديرية مدرعة ووضع على رأسه خوذة حديدية ، وأمسك برمح أخفى طرفه تحت ساعده حتى لا يراه المسلمون . وعندما اقترب من القواد الذين لم يعيروه اهتماما لأنه كان بمفرده ، أخرج الرمح من تحت يده وصوبه نحوهم ، فتراجعوا القهقرى . وصار فى أثرهم قرابة خمسين من رجالة الصليبيين ، ولم يجد فرسان المماليك الجرأة على الخوض فى معركة معهم . وأخيرا أمسك أحد الفرنج برمحه من الوسط وصوبه إلى صدر أحد المسلمين فاستقر بين ضلوعه . وعندما أبصر رفاقه ذلك تراجعوا من حيث أتوا ، بينما أزال رجال جوانفيل الحاجز الذى كان المسلمون قد أقاموه فى وجوههم . ويذكر جوانفيل — الذى انفرد بذكر هذه الموقعة — أن جان دى فوسى هذا ذاع صيته من ذلك الحين فى المعسكر المسيحى ، واعتاد الصليبيون أن يشيروا إليه قائلين : « هذا كاهن جوانفيل الذى ألحق الهزيمة بالقواد الثمانية » [(١)] .

فى صباح اليوم التالى لموقعة الثلاثاء (الأربعاء ٩ فبراير / ٥ ذو القعدة) أخذ القائد المصرى الجديد الذى خلف فخر الدين ، درع كونت ارتوا ورداءه ،

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 140, 142, 144. Cf. Grousset, Crois., III, 473.

ورفعها أمام جنوده ، ولكى يثير الحماس فى نفوسهم قال لهم إن هذا هو درع الملك ورداءه وان الملك عدوهم قد مات . ثم عقد المسلمون بعد ذلك مجلسا تقرر فيه القيام بهجوم شامل كبير للقضاء على الجيش الصليبى فى يوم الجمعة المقبل (١١ فبراير ١٢٥٠ م / ٧ ذو القعدة ٦٤٧ هـ) . لكن الصليبيين عرفوا بأمر هذا الهجوم من عيونهم الذين كانوا يبثونهم فى معسكر المصريين فيأتون إليهم بأخبارهم أولا بأول (١). وبادر كل من الفريقين إلى تنظيم قواته وإعداد العدة لهذا الهجوم المنتظر .

أما الملك الفرنسى فنسق جيشه فى إحدى عشرة فرقة ، انتظمت عشر منها على طول الضفة الجنوبية لبحر أشموم فى مواجهة المعسكر المصرى ، بينما كانت الفرقة الحادية عشرة توجد على الضفة المقابلة . كما أمر الملك فرسانه وجنوده أن يقاتلوا وهم مترجلين ، حتى يمكنهم صد ضربات المماليك وهجمات فرسانهم المتكررة (٢). أو لعله اضطر إلى ذلك لأنه لم يكن لديه العدد الكافى من الفرسان، إذ فقد فى معركة الثلاثاء ما يقرب من النصف . وكان موقف الصليبيين هنالك يكتنفه الدقة والخطورة ، فقد كانت تحوطهم من خلفهم وعلى جانبيهم أنهار وترع ضيقة سريعة الجريان ، وكان أمامهم المصريون بجحافلهم الجرارة ، فلم يكن لهم من سبيل إلى الاتصال بمعسكرهم فى الضفة الشمالية لبحر أشموم إلا جسر خشبى صغير . ثم إن جيشهم ولو أن جناحه الأيسر كانت تحميه بعض الشىء فرقة حملة القسى تحت قيادة السيد هنرى دى كون Henry de Cône المرابطة على الضفة الشمالية مع قوات دوق برجنديا . إلا أن الجناح الأيمن كان مكشوفا أمام القوات

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 144.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 144. Cf. Bordeaux, 262 ; Guizot, 70.

المصرية التى كانت تهدده بكثرتها وتفوقها فى العدة والعدد (١) . وهذا يفسر لنا السبب فى أن الخسائر التى نزلت بالفرق الصليبية التى توجد فى الجناح الأيمن كانت أكثر من تلك التى أصابت الجناح الأيسر ، الذى كان يحميه من الضفة المقابلة حملة القسى ورماة السهام .

وفى الجانب الآخر ، وضع مقدم الجيش المصرى – ولعله بيبرس البندقدارى بطل موقعة المنصورة الأولى – خطة الهجوم التى تدل على مهارته فى تدبير الخدع والحيل والتكتيكات الحربية . إذ قسم جيشه إلى ثلاثة أقسام ، ولكن على نظام آخر يخالف نظام الفرنج . ففى المقدمة انتظم تجاه الصليبيين ما يقرب من أربعة آلاف من فرسان المماليك بكامل عدتهم وسلاحهم . ومن خلفهم عسكر مشاة المماليك النظاميين . وفى المؤخرة اصطفت جيوش أخرى هائلة لمساعدة الفرسان والمشاة إذا اقتضت الضرورة ذلك ، ولما انتهى القائد المصرى من تنظيم جيوشه وترتيب صفوفها وأماكنها، تقدم بمفرده على ظهر جواده وسرح البصر فى صفوف الأعداء وفرقهم، فكان يأمر بزيادة جنده حيث يرى جندهم أكثر عددا ، وإبقائها كما هى فى الأماكن التى يراهم فيها أقل قوة . ولكى تصبح الخطة سديدة محكمة ، أصدر أوامره كذلك إلى الأعراب وكانوا قرابة ثلاثة آلاف بعبور بحر أشموم وشن الغارات على المعسكر المسيحى شمالى هذا النهر ، اعتقادا منه أن الملك الفرنسى سوف يبعث بجانب من قواته إلى الضفة الشمالية لمساعدة الفرقة المعسكرة هناك ضد هجمات الأعراب ، وبذلك يضعف الجيش الصليبى المعسكر على الضفة الجنوبية ويزداد أمل المسلمين فى إحراز الغلبة عليه . أو لعل القائد المصرى قد بعث بهؤلاء الأعراب إلى بحر أشموم لعلمه أن فرقة المشاة ورماة السهام الموجودة هنالك قد

(١) Davis, Invasion of Egypt, 42.

تسبب لجيوشه بعض المضايقات ـ الأمر الذى حدث فعلا فى أثناء الموقعة ـ فأراد عرقلة نشاطها أو الحد منه ، ولو أن مصادر الحملة لم تذكر أن هؤلاء البدو أحدثوا أى ضرر . وهكذا ظل القائد المصرى منهمكا فى الاستعدادات والترتيبات للموقعة المرتقبة منذ صبيحة يوم الجمعة حتى وقت الظهيرة (١) .

وهناك ناحية على جانب من الأهمية يجدر الإشارة اليها قبل التكلم عن الموقعة وآثارها . وهى أن المراجع العربية بلا استثناء ، من معاصرة وغير معاصرة ، أغفلت هذه الموقعة ولم تشر إليها ـ رغم أهميتها ـ بكلمة واحدة ، وأن معلوماتنا عنها مستقاة من الأصول الغربية مثل كتابات جوانفيل وروتلان خطاب لويس التاسع . وحتى شارل اومان ـ وهو من هو فى بحثه فى فن القتال والتكتيكات الحربية فى العصور الوسطى ـ مر على هذه المعركة فى مؤلفه مر الكرام . ولم يشر إليها إلا عرضا وفى بضعة أسطر ليوضح أنه بعد أن كان الفرنج هم البادئون بالهجوم فى وقعة المنصورة الأولى ، تغيرت الظروف وأصبحوا فى موقف الدفاع عن أنفسهم ضد الهجوم المصرى فى المعركة الثانية (٢) . ولا نجد تفسيرا مقبولا يوضح إغفال الكتاب المسلمين لهذه الموقعة الحاسمة ، خاصة وأن نتائجها النهائية كانت فى صالحهم وليست فى صالح اعدائهم .

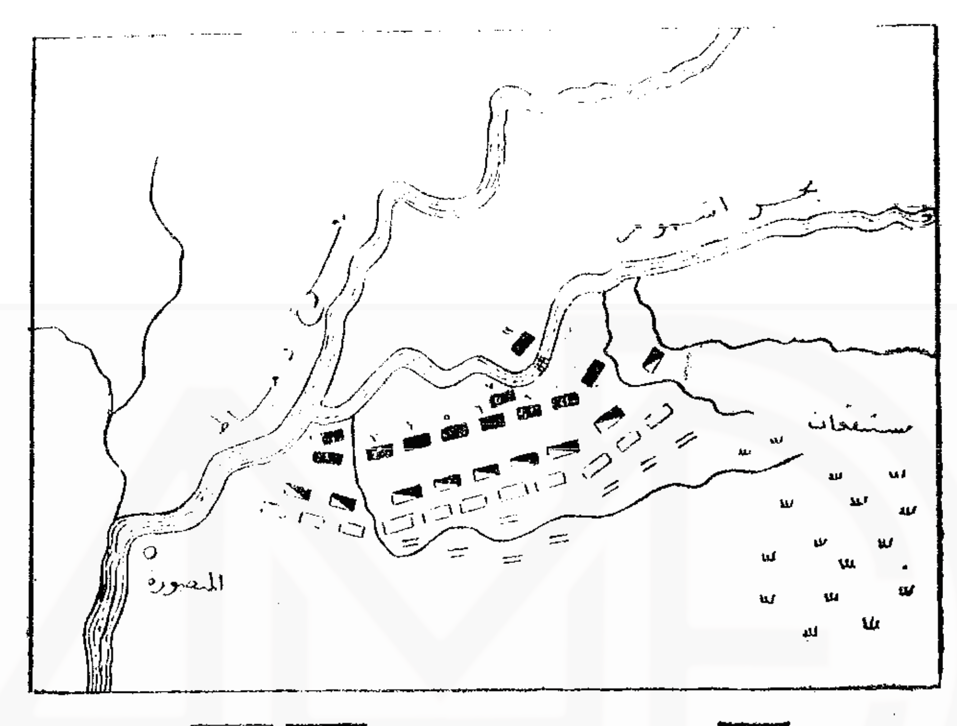
على أى حال ما أن انتصف نهار يوم الجمعة حتى بدأت المعركة ، فاندفع فرسان المسلمين ومشاتهم بأعدادهم الهائلة وآلاتهم الحربية صوب الفرق الصليبية من جميع

---

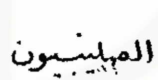
(١) Joinville (ed. Wailly), 146. — من المفيد الاطلاع على ما جاء فى مخطوط مرضى بن على بن مرضى الطرسوسى الذى نشره وترجمه إلى الفرنسية الاستاذ كلود كاهن ، فى كيفية ترتيب الجيوش الاسلامية عند اقتتالها مع الصليبيين . راجع : Cahen (ed. & tr.) Un traité d'armurerie composé pour Saladin, 23–4.

(٢) Cf. Oman, Art of War, I, 350.

خريطة رقم ٤



الفرسان　المشاة　الاحتياطي



الصليبيون　　　　المسلمون

معركة يوم الجمعة الموافق ١١ فبراير ١٢٥٠ م

(رسم تخطيطي)

١ — فرقة شارل كونت انجو

٢ — الفرقة الملكية

٣ — فرقة جي دبلين

٤ — فرقة جوتييه صاحب الكرك

٥ — فرقة غليوم دي سوناك

٦ — فرقة جي دي موفوزان

٧ — فرقة جوانفيل

٨ — فرقة غليوم أمير الأراضي الواطئة

٩ — فرقة الفونس كونت بواتييه

١٠ — فرقة جوسران دي برانسيون

١١ — فرقة هنري دي كون

الجهات، وتنقلت فرسانهم في ساحة الميدان بنظام دقيق. وكانت أول فرقة اشتبك معها المسلمون هى فرقة شارل كونت انجو الموجودة بالقرب من فرع دمياط ، فاندفع مشاتهم نحو الكونت ورموه بالنار الاغريقية ، ثم انقض فرسانهم عليه وأنزلوا بفرقته هزيمة شديدة. وكان الكونت واقفا على قدميه معرضا نفسه للهلاك، لولا أن أسرع لإنقاذه أخوه الملك لويس ورد المصريين عنه . والواقع أن هـذه الفرقة أصيبت بضربة قاسية .

أما فرقة البارونات الأجانب بقيادة جى الأول دبلين Gui d'Ibelin وأخيه بدوين الثانى دبلين Baudouin d'Ibelin ، وفرقة جوشيه صاحب الكرك التى تليها ، فقد أظهرتا شجاعة رائعة فى القتال حتى لقـد أخفق المماليك فى اختراق صفوفها أو دفعها عن مراكزها التى كانت تحتلها .

واصطفت إلى جانبها فرقة رابعة بقيادة السيد غليوم دى سوناك Guill. de Sonnac رئيس الداوية ، وكان قد دخـل المعركة بمن بقى من رجاله على قيد الحياة بعد موقعة الثلاثاء . ولما كان مدركا ضعفها، فقد أقام أمام معسكره حاجزا من المتاريس يتكون من بعض ما غنمه ورجاله من المصريين من العدد وما جمعوه من كتل الخشب . لكن هذا لم يجد فتيـلا ، فقـد أحرقه المسلمون بنارهم الاغريقية ، وأطبقوا على رجال الفرقة فى شدة ، وسرعان ما قضوا عليهم. وكان قائدها غليوم دى سوناك قد فقد إحدى عينيه فى معركة يوم الثلاثاء ، ثم فقد فى هذه المعركة عينه الأخرى ، وفى النهاية سقط قتيلا متـأثرا بجراحه (١) . ويمكن القول بأن هذه الفرقة لم تقم لها بعد ذلك قائمة .

---

(١) كان غليوم دى سوناك رئيسا لجماعة الفرسان الداوية من ١٢ مايو ١٢٤٩ م إلى أن توفى فى هذه الوقعة . أنظر عن ذلك: Grousset, Crois., III, 432, n. 2.

أما فرقة جى دى موفوزان Gui de Mauvoisin ، فقد أخفقت القوات الإسلامية فى التغلب عليها واقتحام صفوفها ، على الرغم من أنهم رموا قائدها بالنار الإغريقية التى أخمدت بعد صعوبة كبيرة .

ويليها فرقة جوانفيل ، ويظهر أنها لم تشترك فى القتال اشتراكا جديا ، ولم يهاجمها المصريون لأنها لم تكن فى مواجهتهم مباشرة ، إذ كانت خلف فرقة أمير الأراضى الواطئة وفرقة جى دى موفوزان .

وقد شن فرسان المسلمين ومشاتهم على فرقة وليم أمير الأراضى الواطئة التى تلى كتيبة دى موفوزان مباشرة ، هجوما شديدا ، وكادوا أن يلحقوا بها الهزيمة لولا أن أمر جوانفيل رجاله بإطلاق آلاتهم على المصريين فولوا مدبرين ، وسار فى اثرهم جنود أمير الأراضى الواطئة وأجهزوا على الكثيرين منهم كما استولوا على عدد كبير من معداتهم .

تلى ذلك فرقة أخرى بقيادة الكونت الفونس دى بواتييه أحد أشقاء الملك الفرنسى ، وقد فتك بها المصريون أيضا . وهذه الفرقة تتكون من المشاة إلا الكونت فقد كان ممتطيا جواده ، وقد أبيدت عن آخرها وأسر رئيسها ، ولكنه تمكن بعد صعوبة من الفرار ، وعاد سالما إلى المعسكر الفرنسى .

أما الفرقة التالية لفرقة الكونت دى بواتييه ، فكان على رأسها السيد جوسران دى برانسيون Josserand de Brancion ، وهى تتكون من المشاة . وقد نفذت القوات المصرية بين صفوفها من كل جانب وأوشكت أن تبيدها عن آخرها لولا أن أدركها الكونت هنرى دى كون بجماعة كبيرة من جنوده حملة القسى ، الذين أخذوا فى تصويب قسيهم على المصريين من الضفة الأخرى لبحر أشموم، فأنقذوا بعض رجالها، ولو أن جوسران دى برانسيون نفسه سقط

قتيلا هو وجانب من جنده (١) .

وتعتبر معركة يوم الجمعة هذه ـ وفقا لرواية بارونات سورية الذين ساهموا بنصيب فيها ـ من أشد المعارك وأعنفها فى تاريخ الحركة الصليبية (٢) . وفيها أظهر الملك الفرنسى شجاعة واضحة حتى لقد لقبه روتلان بالملك الجسور والملك الكامل (٣) . وقد تغلبت القوات الإسلامية فى هذه المعركة على أربع فرق صليبية من الفرق الإحدى عشرة التى كان يتكون منها الجيش المسيحى ، كما أنزلت بالاسبتارية ضربة قاسية حيث قتل نائب رئيسهم جان دى رونيه (٤) ، ولكنها لم تتمكن من فتح ثغرة لها فى الجيش والنفاذ بين صفوفه .

وبالرغم من الانتصار الظاهرى الذى أحرزه الصليبيون فى موقعتى الثلاثاء والجمعة ـ إذ تمكنوا فى الأولى من الاستيلاء على المعسكر المصرى جنوبى بحر أشموم ، وأفلحوا فى الثانية فى الاحتفاظ بمراكزهم وصد هجمات القوات الاسلامية التى أطبقت على فرقهم من جميع الجهات (٥) ـ بالرغم من هذا الانتصار الذى أحرزوه ، فإنه كان يحمل بين طياته بواعث الهزيمة. فهم لم يظفروا بحلمهم المنشود فى الاستيلاء على المنصورة والتقدم جنوبا صوب العاصمة ، كما فقدوا عددا لا يستهان به من فرسانهم ومشاتهم ، وحطم المسلمون معظم معداتهم

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 146, 148, 150, 152; Rothelin, 608-9.

(٢) Rothelin, 608. Cf. Epistola Ludovici (ed. Bongars), I, 1197.

(٣) " … et qu'il sembloit bien à sa chière que il n'eust en son cuer paour ne doutance ne esmoi. " Rothelin, 608.

(٤) Cf. Delaville Le Roulx, Hospitaliers, 196.

(٥) Epistola Ludovici (ed. Bongars), I, 1197. Cf. Delaville Le Roulx, 196.

وعتادهم ، مما أضعف قوتهم وساهم إلى حد كبير فى التعجيل بالنهاية الأليمة التى منيت بها هذه الحملة الصليبية (١) .

بعد هاتين المركتين توقف المسلمون عن القتال تاركين الصليبيين فى أخطر المواقف وأحرجها . وقد أصبحت محاولة الفرنج بعد ذلك معاودة الهجوم على المصريين تكاد أن تكون مستحيلة ، فى حين أن بقاءهم فى أماكنهم معناه الهلاك المحقق . ومما يدعو إلى الدهشة أنهم لم يحركوا ساكنا ، بل أضاعوا الوقت فى الكسل والجمود كما أضاعوه من قبل فى قبرص ودمياط وفى الطريق من دمياط إلى بحر أشموم . فكان كل يوم يمر عليهم وهم فى هذه الحالة يزيد مركزهم سوءا وخطورة (٢) . وما هى إلا أيام بعد معارك اليومين المذكورين حتى تفشى فى معسكرهم الوباء (٣). ولم يجدوا وسيلة للتخلص من جثث موتاهم إلا أن يلقوها فى النيل والقناة . غير أن هذه الجثث بدأت تطفو على وجه الماء ، وقد بلغ من كثرتها أنها غطت سطحه . ويصف لنا المؤرخون الغربيون كيف تراكمت على سطح المياه طبقة من الجثث لهؤلاء الفرنج التى تكدست على الجسر الخشبى الذى شيده الصليبيون على بحر أشموم . حينئذ يئس الفرنج ، ولم يسع الملك إلا أن يستخدم عددا كبيرا من رجاله لينتشلوا هؤلاء الموتى من النهر ، وليدفنوا جثثهم فى باطن الأرض .

وقد بلغ من شدة هذا الوباء الذى تفشى فى المعسكر أن أصيب به معظم رجال الجيش ، حتى أن الملك لويس نفسه لم يسلم من هذا المرض الذى أدناه من

---

(١) Cf. Kitchin, I, 344.

(٢) Cf. Davis, Invasion of Egypt, 44–5.

(٣) Epistola Ludovici (ed. Bongars), I, 1197; Joinville (ed. Wailly), 158.

الموت [١] . ويصف جوانفيل حالهم حينذاك فيقول : « وقد يبس لحم سيقاننا حتى لم يعد يظهر منها سوى عظام بارزة ، وظهر على جلد أرجلنا بقع سوداء وفى لون التراب . وكان كل من يقع منا فريسة لهذا الوباء تتعفن لثة أسنانه . ولم يسلم أحد ممن أصيب به ، بل ماتوا جميعا . وإذا أصيب أى فرد بنزيف فى أنفه دل ذلك على دنو أجله » [٢] . وكان يموت كل يوم ما بين ٢٠ و ٣٠ محارب ، وصار كل فرد يترقب هذا المصير الرهيب بين لحظة وأخرى ، ولم يكن يوجد فى المعسكر المسيحى من لا يبكى موت زميل أو قريب له (٣) . وحتى الخيل - كما يقول كتاب المسلمين - قد لحقها الداء ومات معظمها (٤) .

كنا قد ذكرنا أنه بعد موت السلطان الصالح نجم الدين، أرسلت شجر الدر والأمراء القصاد إلى ابنه المعظم بحصن كيفا يستحثونه على سرعة الوصول إلى

---

(١) مونروند : الحروب المقدسة فى المشرق ج ٢ ص ٣١٩ .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 158, 160. Cf. Grousset, Crois., III, 477–8.

(٣) "Chascunz atandoit la mort tout prestement que nuz qui la fust n'en cuidoit eschaper. A painnes trouvast ou nului en si grant ost qui ne plorast ou doulousast aucun souen ami qui fust morz i a painnes trouvast on taute ne pavellon ne loge que il n'i eust ou mort ou malade ". Rothelin, 609 .

(٤) راجع النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٤ ؛ مرآة الجنان ج ٤ ص ١١٧ ؛ عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة ٢٢ ؛ الأحكام الملوكية لوحة ٦١ ؛ الحرمة ؛ قلادة النحر ج ٣ قسم ١ لوحة ٩٠٠ ؛ ابن الجزرى . مختصر تاريخ الإسلام ورقة ٨٠١ .

الديار المصرية . فلما وصل الرسل خرج [١] معهم متنكرا فى زى النجابين [٢] ، خشية من غائلة الملوك المجاورين له [٣] . واصطحب جماعة قليلة من رجاله وخواصه ، تاركا بالحصن ابنه الملك الموحد عبد الله ، وكان وقتئذ طفلا صغيرا ، وأقام عنده من يقوم بتدبير أمره . ومر المعظم فى طريقه بدمشق حيث عيد بها عيد الفطر ، ثم واصل رحلته حتى بلغ الصالحية يوم الأحد ١٦ من ذى القعدة ٦٤٧ هـ / ٢٠ فبراير ١٢٥٠ م ، وكان فى استقباله الأمير حسام الدين نائب السلطنة بالقاهرة وجمال الدين بن واصل صاحب مفرج الكروب . وعندئذ نودى به سلطانا على مصر ، وأعلن رسميا وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب (٤) ، وما كان أحد قبل هذا اليوم يجرؤ على النطق بذلك . وفى يوم الجمعة ٢١ من ذى القعدة / ٢٥ فبراير — أى فى اليوم الرابع عشر بعد موقعة الجبة الشهيرة —

---

(١) كان قيام توران شاه من حصن كيفا يوم السبت ١١ رمضان ٦٤٧ هـ / ١٨ ديسمبر ١٢٤٩ م . أنظر ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٤ ا ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٤٦ و ٣٥١ . هذا وقد ذكر المقريزى فى خططه (ج ١ ص ٢٣٦) أنه سار من الحصن فى منتصف رمضان . ونحن نميل الى الأخذ برواية ابن واصل خاصة وأن المقريزى نفسه يتفق معه فى ذلك إذا اعتمدنا على ما أورده فى كتابه السلوك .

(٢) نجب فى أصل اللغة تدل على قشر الشجر وإزالة لحائها ؛ والنجاب صيغة مبالغة من أصل الفعل ، وهو الشخص الذى يقوم بهذا العمل ، وربما كانت هذه صيغة نسب على غير قياس بمعنى جامع لحاء الشجر كلبان وتمار . راجع مادة نجب فى محيط المحيط .

(٣) كان يخشى أن يظفر به بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل أو الحلبيون . وفعلا عندما علموا بخروجه من حصن كيفا قاصدا مصر ، أرصدوا له جماعة ليقبضوا عليه ، فلم يظفروا به . راجع ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٤ ا ؛ وكذلك السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٤٦ .

(٤) فيما يتعلق بتاريخ إعلان وفاة الصالح أيوب أنظر جدول تواريخ الحملة بآخر الكتاب .

وصل توران شاه إلى مدينة المنصورة (١).

وان قدوم هذا السلطان الجديد فى الوقت الذى رجحت فيه كفة النصر نحو الجانب الإسلامى ، بينما كان الجيش المسيحى يعانى الأمرين من نقصان فى العدد إلى تفشى الأوبئة والأمراض فى معسكره ، قد أنعش الأمل فى نفوس المصريين وضاعف من شجاعتهم وحماسهم ، وجعلهم يتيمنون بمقدمه ويلتفون حوله للجهاد ضد العدو ودفعه عن البلاد (٢).

وقد دبر توران شاه بمجرد وصوله خطة يسدد بها الضربة القاضية إلى الجيش الصليبى، إذ لجأ إلى نفس الحيلة التى سبق أن لجأ إليها المصريون فى عهد جده الملك الكامل محمد عند ما نزلت فى نفس المكان جيوش جان دى برين الملك الاسمى لبيت المقدس (٣) . لقد كان الاتصال حتى ذلك الوقت بين دمياط والمعسكر الفرنجى جنوبى بحر أشموم غير مقطوع ، إذ كانت السفن الصليبية تجلب المؤن والإمدادات من دمياط إلى المعسكر عن طريق النيل (فرع دمياط) (٤) . ومن ثم أمر توران شاه بصنع عدة مراكب حملت مفصلة على الجمال عند سمنود

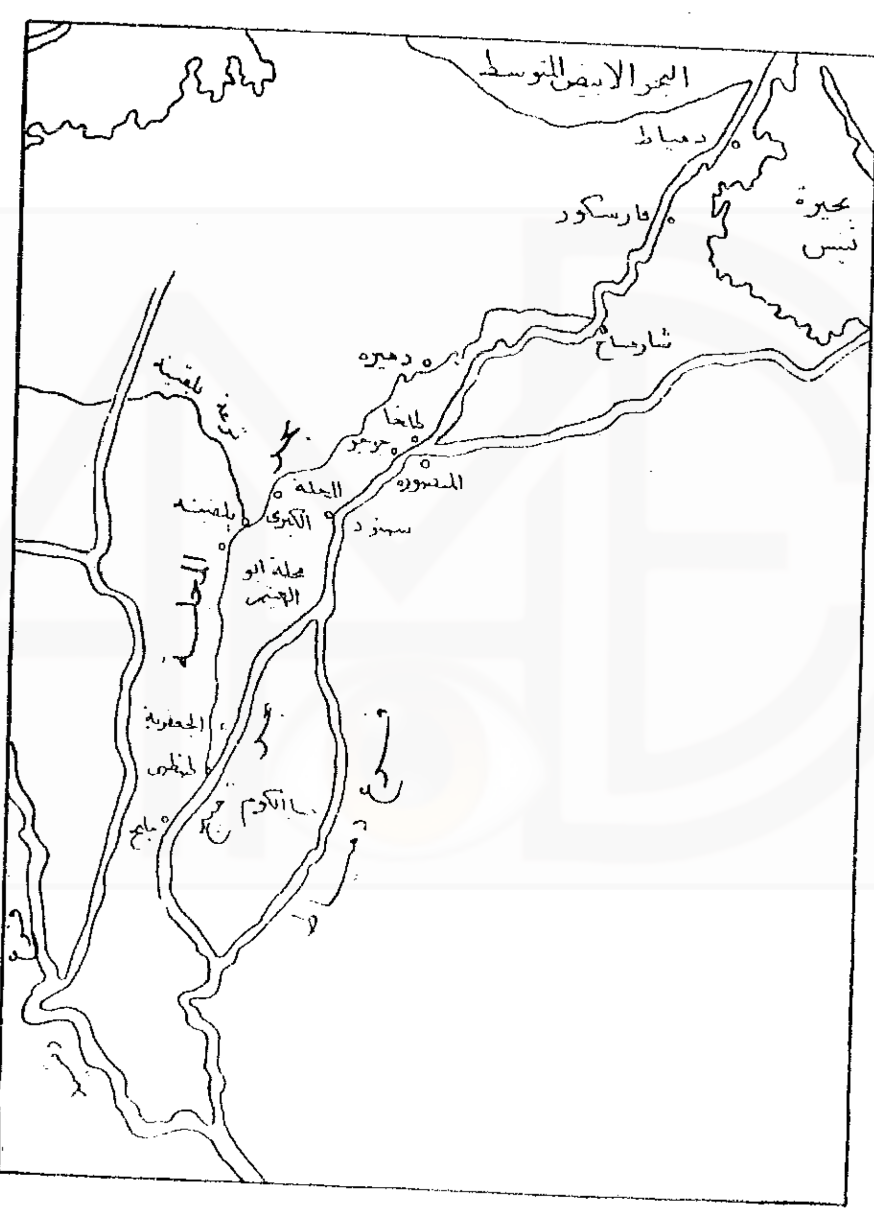
(١) ابن واصل ج ٢ لوحة ١٣٦٤ و ١٣٦٥ — ب و ٣٦٦ ب — ٣٦٧ ب ؛ تراجم رجال القرنين ص ١٨٣ ؛ مرآة الزمان ج ٨ لوحة ٥١٤ . راجع أيضا عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٧ — ٣٠٨ ؛ نهاية الأرب ج ٢٧ لوحة ٩٣ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٥١ — ٣٥٢ .

(٢) Epistola Ludovici (ed. Bongars), I, 1197; cf. Grousset, Crois., III, 477; Marcel, 154. أنظر أيضا النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٤ .

(٣) أنظر ابن الاثير : الكامل (مجموعة الحروب الصليبية) ج ٢ قسم ١ ص ١٢٣ ؛ ابن واصل ج ١ لوحة ٢٠٨ ا وكذلك : Reinaud, Extr. des hist. Ar., 460.

(٤) Epistola Ludovici, I, 1197; cf. Davis, Invasion of Egypt, 46.

خريطة رقم ٥



بحـــر المحـــلة

ونقلت عن طريق البر إلى بحر المحلة (١) حيث أعيد تركيبها وشحنت بالمحاربين وأنزلت فى هذا البحر « وفيه ماء من زيادة النيل واقف لكنه متصل بالنيل » (٢)، خلف المعسكر الفرنسى حتى يمكن عرقلة الفاتحين بأسطولهم . ولقد نجح المصريون فى ذلك أيما نجاح ، حتى أنه ليمكن القول بأن الفضل فيما نزل بالصليبيين المقيمين جنوبى بحر أشموم من كوارث من الآن فصاعدا ، إنما يرجع أولا وقبل كل شىء إلى أثر هذه الخطة التى لجأ اليها المعظم توران شاه .

لقد حالت هذه السفن الاسلامية بين مراكب الفرنج الآتية من الشمال وبين الوصول إلى معسكرهم عند المنصورة . فقد كمنت فى مخبأ مستتر متربصة للقافلة التى تحمل مؤن الصليبيين عبر النهر . وحدث أن عددا من مراكب المؤونة المسيحية كانت آتية من دمياط ، فلما اقتربت من فم بحر المحلة ، باغتتها المراكب المصرية الكامنة فى هذا البحر ، بينما أطبق عليها أسطول المصريين من جهة المنصورة . وقد انهزم اسطول الفرنج فى هذه المعركة وأخذ المسلمون اثنتين وخمسين سفينة واستولوا على كل ما فيها من الأزواد ، كما ذهب قرابة ألف مسيحى بين قتيل وأسير ، واقتيد الأسرى على الجمال إلى القاهرة (٣) .

---

(١) يخرج بحر المحلة من فرع مليج عند قرية ضيا الكوم بالقرب من طنطى الواقعة فى منتصف الطريق بين مليج والجعفرية . ويمر بقرية الهيثم التى يسميها الادريسى محلة ابى الهيثم ، ثم بباقية حيث تتفرع الترعة المعروفة بهذا الاسم ، فالمحلة الكبرى الى أن يتصل بالنيل عند قرية شرمساح . أنظر الادريسى : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس ص ١٥٨ ؛ ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٢١٨ Omar Tousson, Mémoire sur l'hist. du Nil, I, 263-4; Lane-Poole, Egypt, 238, n. 1.

راجع أيضا الخريطة رقم ٥ الخاصة ببحر المحلة .

(٢) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٨ ا .

(٣) ابن واصل نفس الجزء واللوحة . راجع أيضا كنز الدرر ج ٧ ورقة ٣٧٩ ؛ فتوح النصر ورقة ١٥٩ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٥٣—٣٥٤ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢١ =

واشتد القتال بين الفريقين ، ففى يوم الاثنين مستهل ذى الحجة ٦٤٧ هـ / ٧ مارس ١٢٥٠ م ، نشبت معركة بحرية ثانية بين الاسطولين الاسلامى والصليبى استولى فيها الفرنج على سبع حراريق من سفن المسلمين التى كانت موجودة فى بحر المحلة ، وقد تمكن من كان فيها من الهرب والنجاة بأنفسهم (١).

وفى يوم الثلاثاء ٩ من ذى الحجة / ١٥ مارس اشتبكت السفن المصرية والمسيحية فى معركة بحرية أخرى عند مسجد النصر (٢)، انتهت بأخذ المسلمين اثنتين وثلاثين من سفن الأعداء من بينها سبع شوان (٣) .

= ٢٢٢ . ويلاحظ أن المراجع العربية ، التى انفردت بذكر هذه الواقعة دون المراجع الاوروبية ، لم تحدد تاريخها . ولكن مما لا شك فيه أنها وقعت فى يوم ما فى الفترة ما بين ٢١ من ذى القعدة ومستهل ذى الحجه ٦٤٧ هـ / ٢٥ فبراير — ٧ مارس ١٢٥٠ م ، أى فى الفترة ما بين وصول المعظم المنصورة والمعركة البحرية الثانية التى كانت فى أول ذى الحجة ٦٤٧ هـ .

(١) ابن واصل نفس الجزء واللوحة . راجع أيضا خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٢ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٥٤ .

(٢) لم تذكر مراجع الحملة عن هذا المسجد الذى زالت معالمه الآن سوى اسمه . وقد رجعت الى خطط كل من المقريزى وعلى مبارك ، لكننى لم أجد فيهما ما يساعد على تحديد مكانه . ومع ذلك نستطيع أن نرجح أن مسجد النصر كان يوجد إما على الضفة الشرقية أو الضفة الغربية لفرع دمياط فى حدود المنطقة الواقعة بين المنصورة وشارمساح حيث نشبت المعارك البحرية بين الفريقين . ولعل الدراسات والأبحاث الاثرية فى المستقبل تميط اللثام عن تاريخ هذا المسجد وموقعه .

(٣) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٨ ب . راجع أيضا كنز الدرر ج ٧ ورقة ٣٧٩ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٢ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٥٤ — ولم تتناول المصادر الغربية تاريخ هذه المعارك البحرية بالتفصيل ، فاكتفى جوانفيل بأن قال لمن المسلمين اقضوا على سفنهم وأسروا نحوا من ثمانين سفينة بعد أن قتلوا رجالها . أنظر : Joinville =

ويصف جوانفيل حال الصليبيين حينذاك فيقول إن كل سفينة كانت تذهب لإحضار الميره من دمياط كانت لا تعود أبداً ، وأنهم لم يكونوا يتصورون أن يحدث هذا حتى أفلتت إحدى سفن أمير الأراضى الواطئة من رقابة الأسطول المصرى ووصلت إليهم وأخبرتهم بتلك الحيلة التى دبرها المصريون لمنع الأزواد من الوصول إليهم (١) .

لقد نفدت المؤونة وكانت النتيجة لذلك أن هددت المجاعة المعسكر المسيحى جنوبى بحر أشموم ، وصار الصليبيون محصورين « لا يستطيعون المقام ولا الذهاب واستضرى عليهم المسلمون وطمعوا فيهم (٢) » كما ارتفعت أسعار الحاجيات ارتفاعا فاحشا ، حتى أنهم باتوا يأكلون بنهم زائد لحوم الجياد والحمير والبغال وغيرها من الحيوانات التى كانت توجد معهم(٣) .

وفت ذلك كله فى عضد الفرنج ، فطلب الملك الفرنسى فتح باب المفاوضات مع السلطان وأرسل يطلب الصلح ، وهو يعلم جيداً الشدائد التى يقاسيها الصليبيون . وكان يمثل الملك الفارس جوفروا دى سارجين Geoffroy de Sargines ، وينوب عن السلطان الأمير زين الدين أمير جاندار وقاضى القضاة بدر الدين السنجارى . وقد عرض رسول الملك لويس شروطاً لم تكن

= 160 (ed. Wailly.) ؛ بينما ذكر الملك لويس فى خطابه أن المصريين استولوا على قافلتين كانتا تجلبان اليهم المؤن من دمياط . أنظر ,Epistola Ludovici (ed Bongars), I. 1197.

(١) Joinville (ed. Wailly). 160.

(٢) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٨ ا .

(٣) ابن واصل نفس الجزء واللوحة ؛ كنز الدرر ج ٧ ورقة ٣٧٩ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٥٠ . أنظر كذلك Rothelin, 610; Joinville (ed. Wailly) , 160.

معقولة وهو فى مثل موقفه ولا مناسبة للظروف المحيطة بجيشه . فقد اشترط فى نظير تسليمه دمياط للمصريين ومغادرته لمصر أن يتنازل لهم السلطان عن بيت المقدس وبعض المدن الأخرى الساحلية فى فلسطين (١). وانفرد جوانفيل بقوله إن رسل السلطان وافقوا على تلك المقترحات ، وطلبوا من الفرنج ضمانة للإنسحاب من دمياط ، فعرضوا عليهم أن يحجزوا أحد أشقاء الملك لويس كرهينة لديهم ، لكنهم رفضوا أى رهينة غير الملك لويس نفسه ، وقد قالوا ذلك لمندوبه جوفروا دى سارجين الذى رفض عروضهم رفضا باتا (٢). ولكن ذكر المؤرخون العرب أن عروض الملك الفرنسى قوبلت بالرفض من جانب المسلمين (٣) ومن الطبيعى أن يرفض المسلمون مقترحات المسيحيين لأنهم كانوا يعلمون حق العلم ما يكتنف الجيش من الضائقات ، إذ نقص عدده وتحطمت عدته ونفذت مؤونته (٤) . وهكذا انقطعت المفاوضات دون الوصول إلى نتيجة مرضية .

---

(١) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٨ ب ؛ Joinville (ed. Wailly), 164.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 164,166. — ومما يذكر فى هذه المناسبة انه منذ ثلاثين سنة قبل هذه الحملة عندما حصل الاتفاق بين الملك الكامل محمد والفرنج ، بعث الكامل ابنه الصالح أيوب وعمره يومئذ خمس عشرة سنة الى الفرنج كرهينة ، كما حضر من الفرنج ملك عكا ونائب البابا ، وكان ذلك فى ٧ رجب ٦١٨ هـ / ٢٧ أغسطس ١٢٢١ . راجع ابن واصل ج ١ لوحة ٢٠٩ ب ؛ المختصر ج ٣ ص ١٣٦ ؛ تتمة المختصر ج ٢ ص ١٤٣ ؛ الأنس الجليل ج ١ ص ٣٥٧ .

(٣) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٨ ب . راجع كذلك عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٨ ؛ مسالك الأبصار ج ٢٧ مجلد ٣ لوحة ٢٧٠ ؛ العبر ج ٥ ص ٣٦٠ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٢ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٥٤ ؛ المختصر ج ٣ ص ١٨٩ ؛ تتمة المختصر ج ٢ ص ١٨٢ .

(٤) Cf. Davis, Invasion of Egypt, 47; Grousset, Crois., III, 479.

تلك كانت حال المسيحيين فى الوقت الذى رفض فيــه المسلمون شـروطهم للصلح ومغادرة البلاد — وباء ينخر فى عظامهم ، ومجـاعة تفتك بهم أحيـاء ، ونقص متزايد فى أعدادهم وعددهم ، وعدو واقف لهم بالمرصاد . كل ذلك خلق فيهم اضطرابا نفسيا وأفقدهم الكثير من الروح المعنوية ، وهى أهم سـلاح للمحـارب ، مما سبب تثبيطا لهممهم ترتب عليه ما سنراه بعد فى الفصل التالى .

الفصل الخامس

انحلال الحملة

التراجع إلى دمياط — كارثة فارسكور — خيانة مارسيل واستسلام الفرنج — أسر الملك لويس وباقى رجال الجيش — الأسرى فى الاعتقال — المعاهدة بين المعظم ولويس — ثورة المماليك ونهاية الدولة الأيوبية — شجر الدر ملكة على مصر — تجديد المعاهدة بين لويس والأمراء البحرية — الملكة مرجريت فى دمياط — تسليم المدينة إلى المصريين — رحيل الفرنج — أسباب فشل الحملة .

كان الفرنج فى موقف لا يحسدون عليه ، وأخـذت حالتهم تزداد سوءا كلما تقدمت بهم الأيام نتيجة لنفاد القـوت وتفشى الوباء فى معسكرهم ، مما أقعـدهم عن الهجوم. ولو غالبوا كل تلك الكوارث وعزموا على معاودة الجهاد لتحطمت عزيمتهم أمام جيش قوى بوسعه القضاء عليهم [١] . ومما زاد فى خطورة موقفهم أنهم أخفقوا فى مفاوضات الصلح ، إذ رفض المصريون شروطهم التى تقدموا بها. فلم يكن أمامهم إلا أحد أمرين : إما أن يبقوا فى مراكزهم التى هم فيها جنـوبى بحر أشموم وفى هذا هـلاكهم ، وإما أن يعودوا أدراجهم من حيث أتوا علهم ينجون بأنفسهم مما نزل بهم . ولقد آثر الملك لويس فى نهاية الأمر الحل الثانى ، واستقر رأيه على العودة إلى دمياط عساه يستطيع إنقاذ ما يمكن إنقاذه [٢] .

وكان أول ما فعله الملك الفرنسى أن أصدر الأمر إلى الفـرنج الموجـودين جنوبى بحر أشموم بالانتقال إلى المعسكر القائم على الضفة المقابلة . وحينئذ يمكن للقوات الصليبية جميعها التراجع إلى دميـاط فى السفن عن طريق النيـل وفى البر بمحاذاة الشاطىء . غير أنه فى أثناء تنفيذ هذا الأمر قامت القـــوات المصرية بهجوم شديد على المسيحيين فزادت مهمة الإنسحاب صعوبة . وقد بذل الصليبيون قصارى جهدهم لنقل العتـــاد والجيش . وبينما كانوا يعملون على نقل مؤخرة الجيش من الضفة الجنوبية إلى الضفة المقابلة ، قام المسلمون بمهاجمتها ، ولكن شارل كونت انجو وفرسانه تمكنوا من إنقـاذها [٣] .

---

(١) Cf. Lane-Poole, Hist. of Egypt, 238; Grousset. Crois., III, 429.

(٢) راجع ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٩ أ ؛ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٤ ؛ مرآة الجنان ج ٤ ص ١٧٧ . وكذلك : Joinville (ed. Wailly), 166; Davis, Invasion of Egypt, 48-9.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 162. Cf. Davis Invasion of Egypt, 47; Grousset, Crois., III, 478–9.

وبعد أن تم الإنسحاب إلى الضفة الشمالية لبحر أشموم ، أعد الفرنج العدة للتراجع العام إلى مدينة دمياط والاعتصام بها ضد المسلمين ، كما فعلت حملة جان دى برين على مصر منذ ثلاثين سنة قبل ذلك التاريخ عندما أرادت الارتداد من المنصورة إلى دمياط [١] . ففى يوم الجمعة ٢٦ من ذى الحجة ٦٤٧ هـ / أول أبريل ١٢٥٠ م ، أحرقوا أخشابهم وأشعلوا النار فى أسلحتهم وعتادهم حتى لا تقع فى أيدى المصريين فينتفعون بها ويستخدمونها ضدهم . ثم جمعوا مرضاهم وجرحاهم على الشاطىء لنقلهم إلى دمياط فى السفن الباقية لهم بعد المعارك البحرية التى اشتبكوا فيها مع القوات المصرية [٢] . وفى مساء الثلاثاء ٥ ابريل ١٢٥٠ م / مستهل المحرم ٦٤٨ هـ [٣]

---

(١) أنظر ابن الاثير : الكامل فى التاريخ (مجموعة الحروب الصليبية) جـ ٢ ص ١٢٣ ؛ ابن واصل جـ ١ لوحة ٢٠٩ أ .

(٢) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٦٨ ب — ٣٦٩ ا . راجع أيضا السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٥٤ ؛ خطط المقريزى جـ ١ ص ٢٢٢ .

(٣) اختلفت مراجع الحملة حول تاريخ انسحاب الفرنج الى دمياط . فقد ذكر كل من لويس التاسع وهرقل وجوانفيل أن التراجع بدأ مساء الثلاثاء ٥ ابريل ١٢٥٠ م الموافق أول المحرم ٦٤٨ هـ . أنظر : Epistola Ludovici (ed. Bongars), 1, 1197 ; Joinvil/ (ed. Wailly), 166; Eracles, 438. ويوافقهم فى ذلك من كتاب المسلمين النويرى (نهاية الأرب جـ ٢٧ لوحة ٩٤) ؛ بينما ذكرت باقى المراجع الاسلامية أنه كان فى ٣ محرم : أنظر : ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٦٩ ا ؛ عقد الجمان جـ ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٢ ؛ مسالك الأبصار جـ ٢٧ قسم ٣ لوحة ٢٧١ ؛ خطط المقريزى جـ ١ ص ٢٢٢ ؛ السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٥٥ ؛ المختصر جـ ٣ ص ١٨٩ ؛ تتمة المختصر جـ ٢ ص ١٨٢ .— ولو أننا نميل الى تأييد رواية الفرنج الذين اشتركوا فى عملية الانسحاب خاصة وأن أحد كتاب العرب ، وهو النويرى ، يتفق معها فى ذلك . كما أن ابا شامة ذكر أن الهزيمة =

بدأ الإنسحاب العام ، حيث تحرك الصليبيون من مشاة وفرسان متجهين نحو الشمال إلى قاعدتهم فى دمياط ، فسار القادرون منهم بمحاذاة الشاطىء الأيمن للفرع الشرقى للنيل ، بينما انحدرت سفنهم قبالتهم فى النيل تقل المرضى والجرحى (١) ، وقد تركوا وراءهم أكواما مكدسة من الخيام والأسلحة والأطعمة غنيمة باردة للقوات المصرية (٢).

ولقد كان من الممكن — باتفاق المؤرخين من غربيين وشرقيين — أن ينجو الملك الفرنسى بنفسه وقتئذ ، إذ نصحه رجاله أن يبحر فى سفينة عن طريق النيل ، أو أن يتخذ الطريق البرى على ظهر أحد الجياد . ولكنه لم يرد أن يتخلى عن رعاياه فى تلك المحنة التى هم فيها(٣) .

وفى انسحاب الفرنج ارتكبوا خطأ كبيرا يدل على إهمالهم وتهاونهم . فقد أصدر الملك أمره إلى بعض رجاله ومن بينهم مهندس يدعى جوسلين دى كورنوه Jocelin de Cornaut بتحطيم الجسر الذى عبروا به بحر أشموم عند التراجع حتى لا يتسنى للمسلمين متابعتهم، لكنهم ولوا فى عجلة وذعر فنسوا أن يتلفوه. وهكذا قدم الفرنج بأنفسهم للمصريين ممرا يجتازونه فى أعقابهم ، ويقضون على

= التى منى بها الفرنج فى فارسكور واعتقال الملك الفرنسى ، كانا يوم الأربعاء ٢ محرم ٦٤٨ هـ / ٦ ابريل ١٢٥٠ م ، وهو اليوم التالى لانسحاب الفرنج من المنصورة ، مما يتفق وما ذكره كتاب الفرنج . أنظر تراجم رجال القرنين ص ١٨٤ .

(١) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٦٩ ا — ب ؛ Joinville (ed. Wailly) ' 166.

(٢) كنز الدرر جـ ٧ ورقة ٣٨٢ ؛ ابن شاكر : عيون التواريخ جـ ٢٠ لوحة ٢٢ .

(٣) Rothelin, 612; Joinville (ed. Wailly), 168. Cf. Grousset, Crois, III, 480; Michelet, n.p.568; Davis, Invasion of Egypt, 54.

أنظر كذلك النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٦٥ .

البقية الباقية منهم (١) .

فما أن أبصرت القوات تحت قيادة بيبرس البندقدارى الفرنج يتحركون شمالا حتى عبرت الجسر إلى الضفة الشمالية ابحر أشموم ، واندفعت داخل المعسكر المسيحى هناك ، وأعملت الذبح فى المرضى الذين تركهم المسيحيون على الشاطىء ولم يتمكنوا من نقلهم معهم (٢) . ثم سارت القوات الاسلامية فى أعقاب الجيش المنسحب مكبدة إياه خسائر فادحة فى الأرواح. وهكذا استمر القتال بين الفريقين وطالت المطاردة طوال ليل الثلاثاء إلى صباح الأربعاء حتى وصلا قرية فارسكور . وهناك كانت خاتمة المطاف والكارثة الأخيرة . فى هذه القرية وقعت ملحمه دموية منى فيها الصليبيون بضربة قاسية (٣) ، إذ أعمل فيهم المصريون سيوفهم ، كما أخذوا يرشقونهم بالسهام والنشاب والدبابيس (٤) . وقد خسر الفرنج خلال هذا الارتداد خسارة كبيرة فى الأرواح ، فقد بلغت

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 166. Cf. Grousset, Crois., III, 480; Davis, Invasion of Egypt, 49. أنظر أيضا عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة ٢٧ ؛ قلادة النحر ج ٣ قسم ١ لوحة ٩٠٠ ؛ الاحكام الملوكية لوحة ٦١ ؛ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٤ ؛ شذرات الذهب ج ٥ ص ٢٣٩ ؛ مرآة الجنان ج ٤ ص ١١٧ .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 166.

(٣) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٩ ب ؛ تراجم رجال القرنين ص ١٨٤ Rothelin, 612-6; Epistola Ludovici (ed. Bongars), I, 1197.

(٤) النشاب هو ما يرمى به عن القسى الفارسية . راجع القلقشندى : صبح الاعشى ج ٢ ص ١٣٥ . وقد وصف ابن منكلى النشاب بأنه « الأصل الأكبر والموت الأحمر » أنظر الاحكام الملوكية لوحة ٨-٩ . — اما الدبوس فهو آلة من حديد ذات اضلاع ينتفع بها فى قتال لابسى البيضة ونحوها . راجع القلقشندى نفس المرجع والجزء والصفحة ، وكذلك : Cahen, Un traité d' armurerie, 15-6.

عدة القتلى منهم - حسبما ذكر المؤرخون العرب - سبعة آلاف فى قول المقل وثلاثين الفا فى قول المكثر . كما أسر من الفرسان والمشاة والصناع ما يناهز مائة الف ، عدا ما غنمه المسلمون من الذخيرة والخيل والعتاد (١) . ولا شك أن فى هذا العدد مبالغة كبيرة لا يقبلها العقل ؛ ولكن كيفما كان الأمر فإن خسارة الفرنج كانت عظيمة تربو أضعاف ما خسره المصريون(٢) . فلم يستشهد من المماليك البحرية - وفقا للرواية الاسلامية - أكثر من مائة نفس (٣) ، بعد أن أبلوا بلاء حسنا فى القتال ، حتى لقد وصفهم المؤرخ ابن واصل بأنهم « كانوا داوية الإسلام » (٤) ، نسبة إلى داوية الفرنج الذين اشتهروا ببسالتهم وتفانيهم فى القتال .

وإزاء هذه الكارثة التى حلت بالجيش الصليبى، والتى كادت أن تقضى عليه ، تخلف الملك الفرنسى عن فرقته بعد أن هلك معظم رجالها ، وانضم إلى فرقة السيد جوشيه صاحب الكرك الذى كان يقود مؤخرة الجيش الهارب . وكان الملك ممتطيا جوادا صغيرا ، ولم يكن معه من رجاله سوى الفارس جوفروا

---

(١) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٦٩ ب ؛ تراجم رجال القرنين ص ١٨٤ ؛ خطط المقريزى جـ ١ ص ٢٢٢ ؛ السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٥٥-٣٥٦ ؛ عقد الجمان جـ ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٢ .

(٢) أنظر حبشى : حملة القديس لويس ص ٩٦ . وكذلك Davis, Invasion of Egypt, 50.

(٣) راجع النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٦٦ ؛ مرآة الجنان جـ ٤ ص ١١٧ ؛ شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٣٩ ؛ قلادة النحر جـ ٣ قسم ١ لوحة ٩٠١ ؛ الاحكام الملوكية لوحة ٦٢ (نقلا عن سعد الدين بن حمويه) .

(٤) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٦٩ب . راجع أيضا عقد الجمان جـ ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٢ ؛ السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٥٦ .

دى سارجين الذى تبعه إلى قرية هناك تدعى منية أبى عبد الله [١]، حيث دافع عنه دفاع الأبطال ضد المصريين الذين حاولوا أسره « كما يصد الخادم الأمين عن كأس سيده أسراب الذباب » (٢) . إلا أنه بعد قتال شديد اتضح للفرنج أنه من المستحيل مواصلة الحرب بعد ذلك ، إذ بلغ الاعياء بالملك مبلغا شديدا. فحمله من كان معه من الصليبيين إلى منزل بهذه الجهة للاستجمام، وأحاطوا بالمنزل للدفاع عنه ضد ضربات المصريين . وعندما شاهد الملك ما نزل بعسا كره من المحن ـ بعد أن ثاب إلى رشده ، إذ كان قبل ذلك مباشرة فى شبه غيبوبة ـ أرسل أحد الفرسان الصليبيين وهو من بارونات سورية ويدعى فيليب دى منتفرت Philippe de Montfort حاكم صور ، إلى أقرب قائد مصرى فى طلب الصلح وإيقاف القتال ، مقابل إخلاء دمياط والموافقة على رغبات المصريين وعروضهم التى يتقدمون بها . ولكن حدث فى الوقت الذى كان فيه الفريقان على وشك الاتفاق أن نزلت بالجيش الصليبى كارثة قررت مصيره ووضعت حدا للمحادثات الجارية بين الجانبين . فقد تقدم جندى عادى فى الجيش المسيحى يدعى

---

(١) منية أبى عبد الله قرية لا تزال موجودة إلى اليوم على الشاطىء الشرقى لفرع دمياط فيما بين شار مساح وفارسكور ، وهى التى تعرف اليوم باسم ميت الخولى عبد الله احدى قرى مركز فارسكور بمديرية الدقهلية . أنظر ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ١٨١ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٦٥ حاشية ١ ، وكذلك : Grousset, Crois ,III, 482, n. 1. وليس صحيحا ما ذكره الاستاذ هنرى بوردو من أن هذه البلدة زالت معالمها الآن أنظر Bordeaux, St. Louis,268 . أما جوانفيل فيطلق على القرية التى أسر فيها لويس التاسع اسم « كاسيل » « Casel » أنظر : Joinville, (ed. Wailly) ,168. ، ومما لا شك فيه أنه يعنى منية أبى عبد الله التى أجمعت المراجع العربية على أن الملك الفرنسى أسر فيها .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 168.

مارسيل (١) Marcel إلى البارونات والقواد والأجناد قائلا لهم إنه موفد من قبل الملك لويس الذى طلب منهم أن يستسلموا للجيش المصرى دون قيد أو شرط حتى لا يعرضوا حياته للخطر . فرفع جميع رجال الجيش راية الاستسلام يوم الاربعاء ٦ ابريل ١٢٥٠ م / ٢ محرم ٦٤٨ هـ ، ورغبة منهم فى إنقاذ حياة مايكهم ؛ أو لعل البلايا المتلاحقة التى ألمت بهم يومذاك هى التى جعلتهم يقبلون هذا النداء دون ترو أو مناقشة . وبذا قضت خيانة هذا الجندى المسيحى على المباحثات الدائرة بين الطرفين ، إذ رفض القائد المصرى الاستمرار فى المفاوضات مع رسول الملك عندما رأى الفرنج يلقون سلاحهم (٢) .

وفى الحال أحدق المسلمون بلويس ومن كان معه من الفرسان ، فطلب منهم الأمان . فحضر اليه الطواشى جمال الدين محسن الصالحى (٣) وأمنه على حياته . لكن الفرنج الذين معه - وكان عددهم يربوا على الخمسمائة (٤) - لم يرضوا بذلك، فاحاط بهم المسلمون واشتدوا فى قتالهم حتى أبادوهم عن آخرهم تقريبا، ثم ألقوا القبض على لويس واقتادوه أسيرا (٥) .

---

(١) يعتقد الاستاذ جروسيه أن مارسيل هذا أحد عيون المصريين الذين كانوا يرسلونهم للتجسس على الفرنج، أنظر .Grousset, Crois., III, 483 ، وهذا الرأى بعيد الاحتمال خاصة وأن جوانفيل - وهو المؤرخ الغربى المعاصر للحملة - ذكر أنه جندى فى الجيش الصليبى .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 168, 170. Cf. Grousset, Crois., III, 482-3; Maimbourg, Crois., 344; Bordeaux, 267-70.

(٣) فى رواية أخرى أن الطواشى رشيد الدين والامير سيف الدين القيمرى هما اللذان أسرا لويس وأمناه على حياته ، وليس جمال الدين محسن الصالحى . راجع : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٥ ؛ عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة ٢٣ ؛ قلادة النحر ج ٣ قسم ١ لوحة ٩٠١ .

(٤) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٥ ؛ شذرات الذهب ج ٥ ص ٣٣٩ .

(٥) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٩ ب ; Epistola Ludovici (ed. Bongars), I, 1197.

لوحة رقم ٤



وقوع لويس التاسع فى أسر المصريين
قبل نقله إلى دار ابن لقمان بالمنصورة

منقولة من كتاب الدكتور جمال الدين الشيال :
مجمل تاريخ دمياط ، ص ٣٨

وأما أولئك الفرنج الذين تراجعوا فى السفن عن طريق النيل ، فلم يكن مصيرهم أحسن من زملائهم الذين هربوا عن طريق البر . فقد كانت السفن والقوات الاسلامية متربصة لهم حتى أنه لم تفلت سفينة مسيحية واحدة من رقابتهم اليقظة ؛ إذ أخذت السفن الاسلامية تمطرهم وابلا من السهام والرماح كما رمتهم بالنار الاغريقية . ولم ينج أحد ممن كان فى سفن الصليبيين ، ووقعوا جميعا بين قتيل وأسير [١] ، ما عدا تلك التى كان على ظهرها القاصد الرسولى للحملة التى تمكنت من الإفلات من بين سفن المصريين ووصلت سالمة إلى دمياط لتقص على من بها ما نزل بالجيش المسيحى من كوارث [٢] .

بعد ذلك نقل المسلمون أسراهم إلى المنصورة ، فأنزلوا الملك لويس فى حراقة ، وأحدقت به السفن الاسلامية من الشوانى والحراريق والغربان [٣] التى كانت تقدر بمائتى قطعة وهى تدق الطبول وتنفخ

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٥ ؛ مرآة الجنان ج ٤ ص ١١٧ ؛ عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة ٢٢ ؛ قلادة النحر ج ٣ قسم ١ لوحة ٩٠٠ ـ ٩٠١ أنظر كذلك : Joinville (ed. Wailly), 166, 170-6; Epistola Ludovici (ed. Bongars), I, 1198.

ومما ينبغى الاشارة اليه فى صدد الكلام عن وقوع الأسطول الاسلامى على سفن الفرنج ، أن بعض المراجع الشرقية روت قصة غريبة مؤداها أنه كان يوجد فى معسكر المسلمين شيخ يدعى عز الدين بن عبد السلام سخر الله له الريح فوجهها ضد سفن الصليبيين الهاربة إلى دمياط فحطمتها جميعا وغرق من كان فيها . راجع حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٤ ؛ السبكى : طبقات الشافعية ج ٥ ص ٨٤ ؛ مرعى بن يوسف : نزهة الناظرين ورقة ٢٢٨ . وكذلك Bray, 200. وفيما يتعلق بسيرة ابن عبد السلام هذا راجع طبقات الشافعية ج ٥ ص ٨٠ ـ ٨٣ .

(٢) Rothelin, 616

(٣) الغربان أو الأغربة جمع غراب ، وهى من أقدم أنواع السفن الحربية ، كانت معروفة عند أهل قرطاجنة والرومان وغيرهم ، ولم تزل معروفة حتى أيام الدولة العثمانية . والغالب كما يتضح من تسميتها أنها كانت على شكل الغراب . أنظر ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٤٠ ؛ عبادة : سفن الاسطول الاسلامى ص ٧ .

(لوحة رقم ٥)



لويس التاسع وشقيقاه ، الفونس بواتييه وشارل كونت انجو
في أسر المصريين

عن لوحة محفورة على الخشب بإسم: "Grand Voyage de Hiérusalem " طبع باريس سنة ١٥٢٢ م، نقلا عن : Lacroix, Vie Militaire, 134.

فى الأبواق ابتهاجا بهذا النصر ، بينما قيد باقى الأسرى بالحبال واقتادهم الغلمان بأيديهم وهم فى نشوة وابتهاج . وكانت القوات المصرية المظفرة تسير بمحاذاة الشاطىء الشرقى لفرع دمياط ، وفى الجانب الغربى كان العربان وأهل البدو وعامة الناس يترا كضون على الخيول فى فرح بالغ. وهكذا واصل موكب الأسرى السير حتى بلغ مدينة المنصورة [١].

وفى الحال اعتقل الملك الفرنسى وأخويه كونت انجو وكونت بواتييه فى دار القاضى فخر الدين بن لقمان . وهنالك قيدوا بالسلاسل ووضع الملك تحت حراسة الطواشى صبيح المعظمى الشديدة [٢] . وهذه الدار لا تزال معروفة بالمنصورة وما زالت بقاياها موجودة إلى اليوم ، وهى بجوار جامع الشيخ

---

(١) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٦٩ ب . أنظر أيضا Joinville (ed. Wailly), 180. واجع كذلك : عيون التواريخ جـ ٢٠ لوحة ٢٣ ؛ قلادة النحر جـ ٣ قسم ١ لوحة ٩٠١ ؛ النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٦٥ ؛ مرآة الجنان جـ ٤ ص ١١٧ ؛ الذهبى : دول الاسلام جـ ٢ ص ١١٧ ؛ شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٣٩ ؛ الأحكام الملوكية لوحة ٦٢ .

(٢) ابن واصل نفس الجزء واللوحة . أنظر كذلك : السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٥٦ ؛ خطط المقريزى جـ ١ ص ٢٢٢ ؛ لطائف أخبار الأول ص ١٢٥ ؛ المنهل الصافى جـ ١ ورقة ٣٥٨ ب ؛ نهاية الأرب جـ ٢٧ لوحة ٩٤ . — وقد ذكر ابن ايبك (كنز الدرر جـ ٧ ورقة ٣٨٠) أن لويس اعتقل فى خيمة كبيرة بالمنصورة ضربت خصيصا لذلك ؛ ولعله اعتقل أولا فى هذه الخيمة ثم نقل بعد ذلك إلى دار ابن لقمان أنظر لوحة رقم ؛ ص ٢٠٥ من هذا الكتاب. أما صاحب النجوم الزاهرة (جـ ٦ ص ٣٦٦) فقد ذكر أن الملك الفرنسى ومن معه سجنوا بدار ابن لقمان التى بالقاهرة . وهذه رواية ضعيفة لا يعتمد عليها إذ لم يشر إلى ذلك أحد من المؤرخين ، كما أجمعت مصادر الرسالة على أن الفرنج سجنوا بدار ابن لقمان بالمنصورة . ولعل أصدق دليل فى هذا الموضوع ما رواه شاهد عيان هو جوانفيل من أنهم سجنوا جميعا بالمنصورة إلى أن أطلق سراحهم . أنظر : Joinville, op. cit. loc. cit.

المواف (١) القائم فى وسط المدينة . والحجرة التى اعتقل فيها الملك تقع فى الطابق الأرضى من الدار، وهى مظلمة ، صغيرة الحجم ، لا يزيد اتساعها عن أربعة أمتار مربعة ، وجدرانها مبنية من اللبن الأسود وغير مبيضة ، ويصلها بالشارع باب واحد (٢) .

وقدم أكرم السلطان توران شاه أسيره الملك لويس ، وأقام عنده من يقوم بخدمته ، كما رتب له كل ما يحتاج إليه من مأكل ومشرب (٣) . ولقد أشاد جوفروا دى بلييه - الذى رافق الملك فى حملته على مصر وكتب عنها - بما كانت تنطوى عليه نفس السلطان من نبل وكرم أخلاق فى معاملته لأسيره الملك الفرنسى (٤) . ففى ذات مرة بعث توران شاه إلى لويس وإلى كبار الفرنج الذين فى أسره خلعا نفيسة ، كما دعاه إلى حفلة كبيرة أقامها بعد ذلك . ولكن الملك لويس رفض قبول الخلعة وحضور المأدبة خشية أن تمتهن كرامته على مرأى من الجميع (٥) .

---

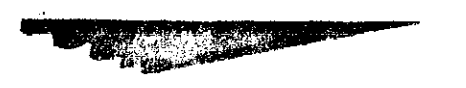
(١) ذكر على مبارك (الخطط التوفيقية ج ١٥ ص ٩٠) أنه يعرف بمسجد سيدى عبدالله الموافى ،له ثلاثة أبواب ، وبه أربعون عمودا من الحجر ومنارة بديعة ،وبداخله مقام الشيخ الموافى. ويقال انهذا المسجد من بناء صلاح الدين الأيوبى فى ٥٨٣ ه ، ثم جدد سنة ٩٩٨ ه .

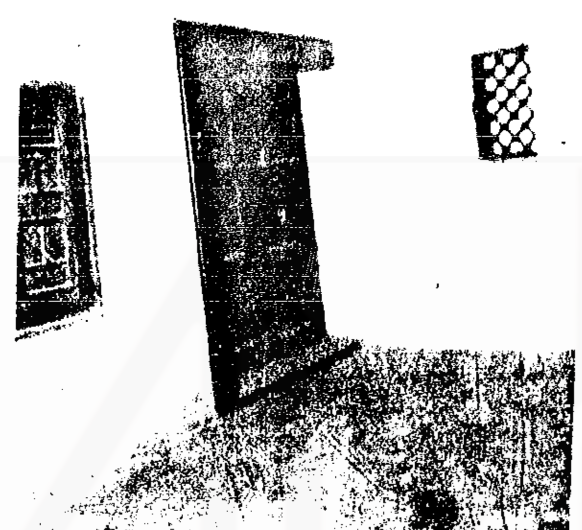
(٢) Cf. Rèshad, Note sur la prison de Louis IX à Mansourah, 78-89; Davis, Invasion of Egypt, 51; Reinaud, Extr. des hist. Ar., n.p. 463.

(٣) عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة ٢٥ ؛ كنز الدرر ج ٧ ورقة ٣٨٢ . أنظر أيضا : Gibbon, Crusades, 75; Davis, Invasion of Egypt, 54.

(٤) Beaulieu, Vita et Sancta conservatio piae memoriae Ludovici noni, cf. Michaud, Crois., VI, 209.

(٥) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٦ ؛ مرآة الجنان ج ٤ ص ١١٧ ؛ شذرات الذهب ج٥ ص ٢٣٩ — ٢٤٠ ؛ قلادة النحر ج ٣ قسم ١ لوحة ٩٠١ . أنظر التفاصيل فى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر — ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .





لوحة رقم ٦ ←

الحجرة التي اعتقل فيهـا
ملك الفرنسيين بدار ابن لقمان



لوحة رقم ٧ ←

باب الحجرة التي سجن فيها لويس التاسع

غير أنه إذا كان الملك الفرنسي وبعض النبلاء وكبار الفرنج قد عوملوا بشيء من الاحترام والتساهل ، فإن شيئا من ذلك لم يبسط لبقية الأسرى من عامة الصليبيين الذين كابدوا صنوفا شتى من التعذيب .

فقد روت المراجع الشرقية أن الملك المعظم رسم لرجل يدعى سيف الدين يوسف بن الطورى ـ أحد من وصل صحبته من الشرق ـ أن يتولى قتل الأسرى الذين وقعوا فى أيدى المصريين . فكان يخرج منهم كل ليلة ما بين الثلاثمائة والاربعمائة رجل ويقتلهم ثم يلقى بجثثهم فى النيل . وغير ذلك فإن السلطان قد استبقى فى أول الأمر الصناع وأصحاب الحرف من أسرى الفرنج بقصد الانتفاع بهم ، ولكنه سرعان ما عدل عن رأيه وأعمل السيف فى رقابهم جميعا دون تفرقة أو تمييز [١] .

وربما تبدو هذه المعاملة التى لقيها الأسرى الفرنج بالغة القسوة . ولكن الواقع أن الحروب فى العصور الوسطى بوجه عام والحروب الدينية بوجه خاص كانت تشوبها الوحشية وانعدام الرحمة . فلو قدر للصليبيين مثلا النصر فى هذه الحملة لأذاقوا المسلمين الأمرين ولعاملوهم نفس المعاملة [٢] . وكلنا يعرف ما عاناه المصلحون والهراطقة الدينيون فى أوروبا على أيدى هؤلاء الصليبيين أنفسهم من صنوف الاضطهاد والتنكيل خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر للميلاد . فقد امتازت هذه الفترة بظهور محاكم التفتيش الدينية خلال بابوية كل من جريجورى التاسع وانوسنت الرابع ، تلك المحاكم التى كانت تنزل بمن

(١) السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٥٦ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٢ ؛ نهاية الأرب ج ٢٧ لوحة ٩٤ . راجع أيضا : زيادة : حملة لويس التاسع — ص ٢١٠ .

Grousset, Crois , III, 483; Davis, Invasion of Egypt, 54-5.

(٢) Cf. Davis, Invasion of Egypt, 55.

تحوم حوله شبهة الهرطقة أو الخروج على تعاليم الكنيسة شتى صنوف التعذيب[١]. كما يذخر تاريخ الحركة الصليبية نفسها بما اقترفه هؤلاء الفرنج من أعمال الوحشية. ففي ٥٠٩ هـ / ١١١٥ - ١١١٦ م أغار الفرنج على الفرما حيث أعملوا فيها النهب والتدمير كما هدموا المساجد ثم أشعلوا فيها النيران[٢]. وحدث أيضا عندما استولى الصليبيون على دمياط في عهد الملك الكامل سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م، أن طلب أهلها منهم الأمان وأن يخرجوا من المدينة بأهلهم وأموالهم، فحلف لهم الفرنج على ذلك. فلما فتحوا لهم الأبواب، دخلوا وغدروا بأهلها ووضعوا فيهم السيف، «وباتوا في الجامع يفجرون بالنساء ويفتضون البنات وأخذوا المنبر والمصحف»[٣]. وإن نسينا فلا ينبغي أن ننسى ما فعله جند بطرس الأول لوسنيان ملك قبرص اللاتيني في حملته على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ م / ٧٦٧ هـ، إذا عندما نزلوا على الشاطىء هاجموا الأهالي الآمنين العزل الذين كانوا هناك دون رحمة أو هوادة حتى أن القليل منهم من استطاع الوصول إلى المدينة سالما. كما تعرضت الاسكندرية نفسها في أيام احتلالهم لها للنهب والتخريب بشكل لم تشهده منذ أيام الفراعنة[٤].

وعلى الرغم من هذه القسوة في معاملة المسلمين لأسراهم من الفرنج، كانت

---

(١) Cf. Turberville, 145–154; Coulton, The Inquisition, 5–99; Bell, A Short History of the Papacy, 171.

(٢) خطط المقريزي ج ١ ص ٢١٢.

(٣) شذرات الذهب ج ٥ ص ٦٦. راجع أيضا ابن الأثير: الكامل (مجموعة الحروب الصليبية) ص ١١٩؛ البداية والنهاية ج ١٣ ص ٨٣ — ٨٤؛ المختصر ج ٣ ص ١٢٨ و١٢٩؛ تتمة المختصر ج ٢ ص ١٣٧.

(٤) Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages, 353–5, 361–2, 365–7.

ثمة مظاهر للشفقة تبدو من حين إلى حين ، ومن ذلك ما حدث لجوانفيل عندما وقع أسيراً فى قبضة المصريين خلال تراجع الفرنج إلى دمياط . فقد كان على ظهر سفينته متخذاً طريقه فى الفرع الشرقى للنيل إلى مدينة دمياط ؛ ولكن حدث أن هبت عاصفة دفعت السفينة إلى فم ترعة المحلة حيث كانت توجد السفن المصرية. حينئذ أسرعت صوبها أربعة من مراكب المسلمين تقل ألف مقاتل ، وألقت إحداها مراسيها بقربها ، فأيقن جوانفيل أنه قد أصبح فى عداد الأموات . ولكن أحد المسلمين الذين كانوا على ظهر السفينة سبح إلى حيث يوجد جوانفيل وصاح به أن يقفز فى النهر لكى ينجو بنفسه . وقد ألقى المصريون إليه من سفينتهم حبلا فربط نفسه فيه ، ولكنه كان من الضعف بحيث لم يقو على السباحة وشارف على الغرق ، لولا أن ذلك المسلم النبيل أخذه بيده حتى وصل إلى السفينة المصرية. ويقول جوانفيل إن هذا الرجل كان سبباً فى إنقاذه أكثر من مرة من القتل المحقق ، إذ كان يحول دون قتله مدعيا بأنه ابن عم الامبراطور فريدريك الثانى. ولقد أفادته علاقته بالامبراطور ، لأن مسلمى مصر والشام كانوا يكنون لفريدريك إحتراما وإعجابا عميقين . وكذلك عندما أخذه المسلمون إلى الضباط الموجودين بالسفينة ، عاملوه هم أيضا بالحسنى وضمدوا له جراحه . وهكذا نجا جوانفيل من الموت بفضل هذا المصرى الكريم وحسن معاملة ضباط الاسطول له [1] .

لم تمض بضعة أيام على وقوع الفرنج فى الأسر ، حتى طلب السلطان المعظم توران شاه فتح باب المفاوضات مع الملك الفرنسى . وقد أصر السلطان على أن

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 170–8. Cf. Davis, Invasion of Egypt, 56-7.
أنظر تفاصيل هذه الواقعة فى كتاب الدكتور محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ــ القاهرة ١٩٦١ ــ ص ١٩١-١٩٢.

لوحة رقم ٨



رسل مصر يملون شروط الصلح على أسراهم الصليبيين

عن صورة فى مخطوط Credo de Joinville من نهاية القرن الثالث عشر،
وهى منقولة من كتاب : Lacroix, Chevalerie et Crois., p. 189.

يسلم له لويس التاسع بعض المعاقل في الأراضي المقدسة ، أو تلك التي تتبع جماعة الفرسان الداوية أو الاسبتارية . ولكن الملك الفرنسي رفض هذه الطلبات مبينا أنه ليس من حقه أن يتنازل للمصريين عن بلاد ليست ملكا له . وقد استعملوا مع الملك – لكي يحملوه على إجابة رغباتهم – كل وسائل التهديد ، ولكنه لم يتزعزع قائلا لهم إنه طالما كان أسيرهم فلهم أن يفعلوا به ما يشاءون (١) .

كذلك ذهب رسل السلطان للتفاوض مع عامة الصليبيين الذين كانوا في أسرهم علهم يحصلوا منهم على ماأخفقوا في الحصول عليه من الملك الفرنسي . فعرضوا عليهم نفس المطالب التي تقدموا بها للملك ، وهددوهم بأن يسيموهم العذاب إن لم يرضخوا لهم . لكن هؤلاء الصليبيين لم تلن لهم قناة أمام هذه التهديدات وأجابوهم بمثل ما أجابهم به مليكهم (٢) .

وهكذا ظلت المفاوضات دائرة بين الملك من جهة وبين رسل السلطان من جهة أخرى . ولما وجد توران شاه أنه لا فائدة ترجى من التهديد ، تنازل عن المطلب الخاص باعطائه بعض ممتلكات اللاتين بالأراضي المقدسة ، وطلب بدلا من ذلك أن يدفع له لويس مبلغا معينا من المال ، وأن يرد إليه مدينة دمياط في مقابل إطلاق سراحه هو وباقي الصليبيين الذين في الأسر . وقد وافق الملك الفرنسي على هذه المقترحات ، وأبرمت معاهدة الصلح بين الطرفين لمدة عشر سنوات وفقا للشروط الآتية :–

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 184, 186; Rothelin, 616–7.

وللمزيد من التفاصيل عن بربرية الفرنج وتحضر العرب في عصر التوسع الصليبي ، أنظر جوزيف نسيم يوسف : الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي (الاسكندرية ١٩٦٧) ص ١٥ — ٢٠ .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 182.

راجع تحليل الدكتور زيادة في كتابه « حملة لويس التاسع على مصر » ص ٢٠٥ وما بعدها.

أولا — أن يسلم الملك الفرنسي مدينة دمياط إلى المسلمين فدية عن نفسه ، مبينا أن مقامه من الشهرة بحيث لا يصح أن تقدر فديته بمال [1] .

ثانيا — أن يدفع الملك لويس مبلغ ثمانمائة الف بيزنط [2] فدية عن باقى الأسرى الصليبيين [3] ، وعوضا عن الخسائر والمصاريف التى تكبدها المصريون منذ استيلاء المسيحيين على دمياط فى ذى القعدة ٦٤٧ هـ / يونيو ١٢٤٩ م .

ثالثا — أن يطلق لويس سراح جميع المسلمين الذين أسرهم الفرنج خلال هذه الحملة ، واولئك الذين أسرهم المسيحيون فى الأراضى المقدسة منذ الهدنة التى عقدت بين الامبراطور فريدريك الثانى والملك الكامل محمد جد المعظم توران شاه .

رابعا — أن يعمل المسيحيون على حفظ الأمن وإقرار السلام فى جميع البلاد التى يحتلونها فى فلسطين .

هذا فيما يتعلق بالفرنج ، أما سلطان مصر فقد تعهد من جانبه بمراعاة الشروط التالية :—

أولا — إطلاق سراح جميع من وقع فى قبضة المسلمين من الفرنج منذ وصولهم إلى الشاطىء المصرى .

ثانيا — إخلاء سبيل جميع المسيحيين الذين أسرهم المسلمون منذ الهدنة التى

(١) Joinville (ed. Wailly), 186; Cf. Davis, Invasion of Egypt, 58; Grousset, Crois., III, 484.

(٢) البيزنط Bezant فى الأصل عبارة عن عملة ذهبية بيزنطية ، وقد سميت هكذا نسبة الى بيزنطة (أى القسطنطينية عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية). وكان البيزنط متداولا بكثرة فى أوروبا خلال العصور الوسطى حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى تقريبا . ومتوسط قيمته حوالى تسعة شلنات انكليزية ، وعلى هذا الأساس تقدير الفدية بحوالى ٣٦٠٫٠٠٠ جنيه مصرى . راجع فى ذلك : Ency. Brit., Art. Bezant; Grande Ency., Art. Besant ; Kitchin, I, 345, n. 1.

(٣) يقدرهم روتلان بحوالى ١٢٫٠٠٠ أسير . أنظر : Rothelin, 621.

عقدت بين الامبراطور والسلطان السالفين .

ثالثا — أن يقوم السلطان بحراسة عتاد الصليبيين وأثقالهم الموجـودة بدمياط بعد رحيلهم عنها إلى أن تسنح الفرصة لنقلها إلى البلاد المسيحية .

رابعا — أن يمنح جميع المرضى من المسيحيين وغيرهم ممن سيبقون فى دمياط لبيع ما يمتلكون أمانا مماثلا ، على أن يرحلوا إما عن طريق البر أو عن طريق البحر متى شاءوا دون أن تقام فى وجوههم عقبات أو عراقيل .

وقد أقسم الطرفان بالمحافظة على هذه الهدنة وعدم الإخلال بها (١) .

ومما ينبغى الإشارة إليه فى هذا المقام أن المراجع الإسلامية جميعا لم تتعرض البتة لهذه المعاهدة التى عقدت بين المعظم توران شاه ولويس التاسع على الرغم من أهميتها التاريخية . وقد اعتمدنا فى ذلك على ما جاء فى الأصول الغربيـة المعاصرة من أمثال الكتابات التى خلفها لنا لويس التاسع وجوانفيل وروتلان. ولعل المؤرخين المسلمين المعاصرين خشوا أن يتعرضوا لها وقتـذاك فى تآليفهم لدقة موقفهم فى وقت كانت فيه السلطة فى مصـر قد انتقلت من الأيوبيين إلى المماليك باغتيال المعظم توران شاه ، الأمر الذى قد يضعهم موضع الريبة والشك من الحكام الجدد . لذا جاءت كتبهم خلوا من أية إشارة إلى المعاهدة المذكورة .

على أى حال ، بعد أن تم الاتفاق على هذا النحو ، رحل الملك المعظم والقوات المصرية من المنصورة إلى فارسكور فى الطريق إلى دمياط لتنفيذ نصوص المعاهدة . وبمجرد وصوله إلى فارسكور ضرب له بها دهليز السلطنة ، وأقيم إلى جانبه برج

---

(١) Epistola Ludovici, (ed. Bongars), I, 1198; Joinville (ed. Wailly), 186; Rothelin, 616 - 8.

حول المفاوضات بين الطرفين ، انظر سعيد عاشور : الحركة الصليبية — جـ ٢ — ص ١٠٧٤ — ١٠٧٥ .

من خشب كان يصعد إليه ليشرف على العسكر والقرية كلها [١] . كذلك نقل الملك لويس وكبار الأسرى من الفرنج فى أربع سفن ، كان على ظهر إحداها جوانفيل وبطرس كونت بريتانى ووليم أمير الأراضى الواطئة ويوحنا كونت سواسون وأميردى بوجو، وبلدوين دبلين وشقيقه جى دبلين . وعندما وصلت هذه السفن فارسكور ، ألقى بحارتها المرساة ورسوا بالقرب من الشاطىء قبالة الدهليز السلطانى فى يوم الخميس ١٨ أبريل ١٢٥٠م/٢٤ محرم ٦٤٨هـ . وسرعان ما نصبت خيمة كبيرة بالقرب من سرادق السلطان نزل بها الملك الفرنسى [٢] .

كان النصر الذى أحرزه توران شاه باهرا مجيدا. فما أن نزل بدهليزه فى فارسكور بعد أن تم له إخضاع الجيش المغير حتى بعث بالبشرى إلى بلاد الشام . فكتب بخط يده كتابا للأمير جمال الدين بن يغمور نائبه بدمشق يخبره فيه بانتصاره على الفرنج ، ونص الكتاب :

« الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، وما النصر إلا من عند الله ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم [٣] ، وأما بنعمة ربك فحدث [٤] ، وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها [٥] . نبشر المجلس السامى الجمالى ، بل نبشر المسلمين كافة ، بما من الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين . فإنه كان قد استفحل أمره واستحكم شره ، ويئس العباد من البلاد ،

---

(١) ابن واصل جـ٢ لوحة ٣٧٠ ا . Epistola Ludovici, op. cit. loc. cit. ; Joinville (ed. Wailly), 188.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 188. Cf. Davis, Invasion of Egypt, 59.

(٣) قرآن كريم — سورة الروم — الآيتان الرابعة والخامسة .

(٤) قرآن كريم — سورة الضحى — الآية الحادية عشرة .

(٥) قرآن كريم — سورة النحل — الآية الثامنة عشرة .

والأهل والأولاد ، فنودوا لا تيأسوا من روح الله[١] . ولما كان يوم الثلاثاء[٢] مستهل السنة المباركة ، تمم الله على الإسلام بركتها ، فتحنا الخزائن وبذلنا الأموال وفرقنا السلاح وجمعنا العربان والمطوعة وخلقا لا يعلمهم إلا الله ، فجاءوا من كل فج عميق ومكان سحيق . فلما رأى العدو ذلك ، أرسل يطلب الصلح على ما وقع الاتفاق بينهم وبين الملك الكامل فأبينا . فلما كان ليلة الأربعاء تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم ، وقصدوا دمياط هاربين ، فسرنا فى آثارهم طالبين . وما زال السيف يعمل فى ادبارهم عامة الليل ، وقد حل بهم الخزى والويل . فلما أصبحنا يوم الأربعاء ، قتلنا منهم ثلاثين ألفا ، غير من ألقى نفسه فى اللجج ، وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج . والتجأ الفرنسيس إلى المنية[٣] ،

(١) قرآن كريم — سورة يوسف — الآية السابعة والثمانون .

(٢) اختلفت الرواية الاسلامية فى تحديد اليوم . فقد ذكر المقريزى أنه يوم الاثنين مستهل السنة المباركة ، أنظر : الخطط ج ١ ص ٢٢٢ ، والسلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٥٧ . وجاء أنه يوم الأربعاء مستهل السنة فى : مرآة الزمان ج ٨ لوحة ٥١٧ ؛ نهاية الأرب ج ٢٧ لوحة ٩٤ ؛ نزهة الأنام لوحة ١٨٠ ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٢ ؛ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٧ . ولكن بالرجوع الى كتابى فستنفلد والتوفيقات الإلهامية ، يتضح أن أول المحرم ٦٤٨ هـ يوافق الثلاثاء وليس الاثنين أو الأربعاء حسبما ذكرت المراجع العربية . ويؤيد تقدير كل من فستنفلد والتوفيقات ، وبالتالى خطأ الروايات السابقة ، ماذكره المؤرخ المعاصر أبو شامة (تراجم رجال القرنين ص ١٨٤) من أن هزيمة الفرنج بفارسكور كانت يوم الأربعاء ٢ محرم ٦٤٨ هـ ، وما قاله العينى فى مناسبة أخرى (عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٣) من أنه فى يوم الأربعاء ١٦ محرم ٦٤٨ هـ وصلت غفارة لويس التاسع إلى دمشق من قبل المعظم إلى نائبه ابن يغمور ، وما أورده ابن واصل فى مناسبة ثالثة (مفرج الكروب ج ٢ لوحة ٣٧٢ ا) من أنه غادر القاهرة فى يوم الاثنين ٢٨ محرم ٦٤٨ هـ لمشاهدة استرداد المصريين دمياط من الفرنج . فكل هذه الأدلة لا تدع مجالا للشك فى أن مستهل المحرم ٦٤٨ هـ يوافق يوم الثلاثاء .

(٣) يريد منية أبى عبد الله .

وطلب الأمان فأمناه وأخذناه وأكرمناه ، وتسلمنا دمياط (١) بعون الله وقوته وجلاله وعظمته . (٢) »

وأرسل السلطان مع هذا الكتاب غفارة (٣) الملك لويس التي سقطت منه في أثناء فراره ، وكانت مصنوعة من الصوف ، قرمزية اللون ، محلاة بالفراء الجميل. فلبسها الأمير جمال الدين بن يغمور في حفل شاهده المؤرخ أبو شامة صاحب كتاب الروضتين والذيل عليه . ونظم الشاعر الدمشقى نجم الدين محمد بن اسرائيل (٤) في هذه المناسبة مقطعات ثلاثا إرتجالا ، كل مقطعة من بيتين . الأولى في مدح السلطان توران شاه وهي :

إن غفارة الفرنسيس التي جاءت فهي حقا لسيد الأمراء

---

(١) الفقرة الأخيرة من الكتاب تدل على أن المصريين تسلموا دمياط فعلا ، وهذا غير صحيح لأن الفرنج لم يردوها إليهم إلا بعد مقتل السلطان توران شاه واتفاقهم مع الأمراء البحرية . ولعل المعظم أشار في كتابه إلى تسلمه دمياط بناء على المعاهدة التي عقدها مع الملك الفرنسى التي تعهد له فيها بتسليم المدينة له .

(٢) السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٥٦ — ٣٥٧ . راجع أيضا : عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٢ — ٣١٣ ؛ نهاية الأرب ج ٢٧ لوحة ٩٤ ؛ كنز الدرر ج ٧ ورقة ٣٨١ — ٣٨٢ ؛ نزهة الأنام لوحة ١٨٠ ا — ٨٠ ب ؛ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٧ . — وقد نقل ديفز هذا الكتاب إلى الانجليزية ، أنظر: Davis, Invasion of Egypt, 52-3.
كما ترجمه رينو إلى الفرنسية . أنظر : Reinaud, Extr. des hist Ar., 464.

(٣) الغفارة زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة ، والجمع غفائر ، راجع مادة غفر في لسان العرب ومحيط المحيط ، وكذلك صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٥.

(٤) هو الشاعر محمد بن سوار بن اسرائيل بن الخضر بن اسرائيل بن الحسن بن على بن الحسين نجم الدين أبو المعالى الشيباني . ولد بدمشق سنة ٦٠٣ هـ وتوفى بها سنة ٦٧٧ هـ عن ٧٥ عاما . راجع فوات الوفيات ج ٢ ص ٢١٦ ؛ النجوم الزاهرة في حوادث عام ٦٧٧ هـ.

كبياض القرطاس فى اللون لكن صبغتها سيوفنا بالدماء

والثانية مخاطبة للأمير ابن يغمور :

يا واحد العصر الذى لم يزل يحوز فى نيل المعالى المدا
لا زلت فى عز وفى رفعة تلبس أسلاب ملوك العدا

والثالثة كتبها الشاعر مقدمة كتاب بعث به الأمير إلى السلطان :

أسيد املاك الزمان بأسرهم تنجزت من نصر الاله وعوده
فلا زال مولانا يبيح حمى العدى ويلبس أثواب الملوك عبيده (١)

ففى هذا الوقت الذى اطمأنت فيه خواطر المصريين إلى الوضع الحربى الجديد ، وفى هذا الوقت الذى حسب فيه الأسرى الفرنج أن حياتهم أصبحت فى أمان ، بينما استعد الملك الفرنسى لتسليم دمياط إلى المصريين ومغادرة البلاد هو وفلول قواته ، انفجر بركان ثورة مفاجئة — ولو أنها لم تكن غير متوقعة — انتهت بقتل السلطان المعظم توران شاه والقضاء على الدولة الأيوبية بمصر . فانقلب بذلك كل شىء ، وتبدل سير الأمور .

ذلك أنه بدت من المعظم منذ وصوله من حصن كيفا أمور نفرت منه القلوب وكانت سببا فى هلاكه . لقد تيمن الناس فى مصر بمقدم هذا السلطان الجديد فى وقت رجحت فيه كفة النصر نحو الجانب الاسلامى ؛ لكنه ازداد غرورا وصلفا وتناسى ما أبلاه مماليك أبيه وأمرائهم من صد الفرنج والوقوف أمامهم منذ

---

(١) تراجم رجال القرنين ص ١٨٤ . راجع أيضا : عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٣ ؛ نهاية الأرب ج ٢٧ لوحة ٩٤ ؛ نزهة الأنام لوحة ٨٠ ب ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٢ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٥٧ — ٣٥٨ ؛ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٨ . — ومما يؤسف له ان كتاب المسلمين لم يحفظوا لنا نص الكتاب الذى بعث به ابن يغمور الى المعظم توران شاه .

موت أبيه الصالح أيوب حتى مقدمه ، مما أدى إلى تحاملهم عليه (١) . ثم بدأ يسيء التصرف إليهم ، فقبض على عدد كبير منهم وأخرجهم من وظائفهم وجردهم من مظاهر السلطة ليسبغها على ندمائه الذين استقدمهم معه من الحصن والذين استأثروا بإعزازه وعنايته دونهم . ومن أمثلة ذلك أنه عزل الأمير حسام الدين ابن ابى على نائب السلطنة بالقاهرة وتركه مطروح الجانب ، وهو الذى بعث إليه رسولا خاصا يستحثه للوصول إلى مصر وتولى الحكم . كما أعرض عن كثير من كبار الأمراء مثل سيف الدين القيمرى (٢) وعز الدين القيمرى وفخر الدين ابن ابى ذكرى وغيرهم ، وهم الذين كان أبوه يعتمد عليهم ويثق فيهم . وجعل الطواشى شمس الخواص مسرور — وهو خادمه — استادار (٣) السلطان ، وأقام صبيحا — وكان عبدا حبشيا فحلا — أمير جاندار — (٤) ، وجعل إليه أموره كلها وأنعم عليه بأموال وإقطاعات كثيرة ، وأمر أن تصاغ له عصا من ذهب . واعتمد أيضا على وزيره النصرانى المسمى حشيش (٥) الذى أسلم على

---

(١) راجع ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ لوحة ٥١٩ ؛ ابن شاكر : عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة ٢٨ ، وفوات الوفيات ج ١ ص ٩٧ .

(٢) القيمرى نسبة الى قيمر قلعة بين الموصل وخلاط . راجع لب اللباب للسيوطى .

(٣) هو الذى يشرف على بيوت السلطان وحاجياتها من الطعام والشراب والحاشية والندمان . وله مطلق التصرف فى استدعاء ما يحتاجه كل من فى بيت السلطان من النفقات والكساوى ، وما يجرى مجرى ذلك المماليك وغيرهم . أنظر صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠ .

(٤) هو الذى يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم الى الديوان ، ويقدم البريد مع الدوادار وكاتب السر ، ويطوف بالزفة حول السلطان فى سفره . وإذا أراد السلطان تعزيز أحد أو قتله ، كان ذلك على يد صاحب هذه الوظيفة أيضا ، والتى تعرف باسم إمرة جاندار . راجع القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠ .

(٥) هو معين الدين هبة الله بن أبى الزهر حشيش كاتب المعظم توران شاه بحصن كيفا . أنظر : نهاية الأرب ج ٢٧ لوحة ٤٩٣ كنز الدرر ج ٧ ورقة ٣٧٨ .

يديه ، ولقبه معين الدين ليفوض إليه ما كان مفوضا إلى معين الدين بن الشيخ ـ اخى الامير فخر الدين ـ ويقيمه مقامه . وعزم على عزل قاضى القضاة بدر الدين السنجارى ، وكان والده الملك الصالح أيوب يرجع إليه فى الرأى والمشورة، وأراد أن يولى مكانه قاضى حصن كيفا وكان قد حضر معه هو الآخر(١) .

وبدلا من اعترافه بالجميل الذى أسداه إليه أولئك الأمراء البحرية ، راح يبدى فى كل أعماله إنعدام الثقة نحوهم ، وهم الذين بلغ من إخلاصهم له أن نادوا به سلطاناً على مصر وهو ما يزال غائبا فى بلاد نائية ، وأخـذ يهددهم ويتوعدهم . من ذلك أنه أخذ فى إحدى المرات ـ وهو على مائدة العشاء وقد لعبت الخمر برأسه ـ يضرب بسيفه رؤوس الشموع صائحا فى كل ضربة : « هكذا أفعل بالبحرية ، وهكذا سأطيح برقابهم . » فنفرت بهذه الأعمال قلوب أكثر الأمراء والأجناد (٢) .

وكان المعظم قد وعد الأمير فارس الدين أقطاى ـ الذى توجه إليه وأحضره من الحصن موفدا من قبل شجر الدر والأمراء ـ بأن يجعله حاكما للاسكندرية(٣)،

---

(١) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٧٠ ا ـ ب Joinville (ed. Wailly), 158,190. راجع أيضا : نهاية الأرب ج ٢٧ لوحة ٩٥ ؛ كنز الدرر ج ٧ ورقة ٣٨٣ ؛ الجوهر الثمين ورقة ١٠٤ ؛ عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة ٢٨ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ ؛ العبر ج ٥ ص ٣٦٠ ـ ٣٦١ .

(٢) مرآة الزمان ج ٨ لوحة ٥٢٠ . راجع أيضا : عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٤ ؛ كنز الدرر ج ٧ ورقة ٣٨٣ ؛ عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة ٢٩ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٥٩ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٣ ؛ فوات الوفيات ج ١ ص ٩٧ (نقلا عن سعد الدين بن حمويه).

(٣) انفرد ابن شاكر (عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة ٢٨) بقوله ان المعظم وعد أقطاى بأن يؤمره على الاسكندرية ، بينما اكتفت المراجع العربية الأخرى بأن ذكرت أنه وعده بإمرة لم يف له بها .

ولكنه أخذ يماطل فى ايفاء هذا الوعد [1] . ويقال إن أقطاى ذكره بوعده له على لسان بعض خواصه فقال: «اعطيه إن شاء الله جب مليح يليق به»[2]. كما بلغ أقطاى ايضا أن المعظم عزم على إرساله بالبشرى بالانتصار على الفرنج إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وقد أوصاه ان يقبض عليه ويقتله بمجرد وصوله إليه [3]. وبذلك خلق له فى شخص هذا الرجل عدوا رهيبا، إذ تنكر اقطاى لتوران شاه وكتم الشر فى نفسه إلى أن سنحت له الفرصة للانتقام منه .

هذا فضلا عن أن ندماءه الذين قدموا معه من الحصن قد أثاروا ضغينته على شجر الدر والأمراء، إذ مافتئوا يرددون على مسمعه أنه ليس ملكا الا بالاسم، وأما السلطة الحقيقية فهى فى أيدى هؤلاء الأمراء وعلى رأسهم زوج أبيه شجر الدر . وراحوا يحثونه على المسارعة بالاتفاق مع ملك فرنسا على أن يسلم دمياط ويغادر أرض مصر، وبذلك يتخلص من نير الاعداء ويخلو له الجو، فيمكنه إذ ذاك الاستغناء عن خدمات الأمراء البحرية الذين كان لهم الفضل الأول فى إحراز النصر على الفرنج، والانتفاع بخدمات ندمائه الذين حضروا معه من حصن كيفا . وفعلا اتفق المعظم مع الملك لويس وأبرم معه المعاهدة السالف ذكرها دون الرجوع إلى أمراء أبيه أو حتى إحاطتهم علما بما تم . فكان من نتيجة ذلك أن انفتحت هوة من العداء بينه وبينهم، وازدادت هذه الهوة مع الأيام عمقا واتساعا [4] .

(١) مرآة الزمان جـ٨ لوحة ٥٢٠ ؛ عقد الجمان جـ ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٤ ؛ نهاية الأرب جـ ٢٧ لوحة ٩٥ ؛ خطط المقريزى جـ ١ ص٢٢٢ ؛ السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٥٨؛ النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٧١ ؛ فوات الوفيات جـ ١ ص ٩٧ .

(٢) كنز الدرر جـ ٧ ورقة ٣٨٣ .

(٣) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٧٠ ب ــ ٣٧١ .

(٤) أبو الفرج : تاريخ مختصر الدول (طبعة بيروت) ص ٤٥٤ ــ ٤٥٥ . حول مقتل المعظم وقيام سلطنة المماليك، أنظر سعيد عاشور: الحركة الصليبية ــ جـ ٢ ــ ص ١٠٧٥ ومابعدها.

وكان من ثمار ذلك الدس أيضا أن نشب الشقاق بينه وبين شجر الدر، فلم يتورع فى إساءة معاملتها وهى صاحبة الفضل عليه فى تسليمه المملكة، أو على الاقل فى الاحتفاظ بها إلى أن وصل من البلاد الشرقية. وأخذ يهددها طالبا منها ان ترد إليه جميع الأموال التى فى حوزتها وما تحت يدها من الجواهر. وإذ أحست شجر الدر بالخطر المحدق بحريتها وحياتها — وكانت وقتئذ مقيمة بالقاهرة — تملكها الذعر والتجأت الى أمراء البحرية الذين كانوا منحازين إليها، والذين كانوا يكنون لها الحب والولاء لحمايتها من بطش السلطان. وقد كان توران شاه الى جانب كل تلك النواحى القبيحة فى طبعه وسلوكه، متخلفا لا يصلح للملك، سكيرا ماجنا، منهكا على الفسق والشراب، منغمسا فى الملذات مع غلمانه وحظايا أبيه، محتجبا عن الناس، مختل العقل سيىء التدبير، فيه خفة وطيش. وقد بلغ من تغلب هذه الصفات عليه أنه أصبح يضرب به المثل، فصار الإنسان إذا فعل أمرا لا يتكلف له يقال له قد فعله بالمعظمى[(١)] نسبة للمعظم توران شاه. ومن ثم عقدت شجر الدر والأمراء النية فيما بينهم على التخلص منه قبل تسليم دمياط والاستئثار بسلطته[(٢)]. فقد كانوا يدركون جيدا أنه لو تم له استرجاع دمياط وغادر الفرنج البلاد، لكان فى ذلك هلاكهم[(٣)].

---

(١) ابن بهادر: فتوح النصر ورقة ١٦١.

(٢) راجع: مرآة الزمان جـ٨ لوحة ٥٢٠؛ عقد الجمان جـ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٤؛ كنز الدرر جـ٧ ورقة ٣٨٣؛ عيون التواريخ جـ ٢٠ لوحة ٢٨- ٢٩؛ خطط المقريزي جـ١ ص٢٢٢- ٢٢٣؛ فوات الوفيات جـ١ ص٩٧ (نقلا عن سعد الدين بن حمويه)؛ النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٧٠- ٣٧١ و٣٧٣؛ الذهبي: تاريخ الإسلام (محفوظ بدار الكتب المصرية) في حوادث سنة ٦٤٨هـ تحت اسم تورانشاه بن أيوب (عن سعد الدين بن حمويه)

(٣) Cf. Wiet, Preeis de l'Hist. de l'Egypte ٢٢٧

ففي يوم الاثنين ٢٨ محرم ٦٤٨ هـ [١] / ٢ مايو ١٢٥٠ م ، مد الملك المعظم توران شاه السماط في سرادقه المقام على ضفة النيل في فارسكور ، وتناول الطعام مع بعض أمرائه ورجاله . وعندما فرغوا من الأكل قام المعظم من مجلسه ودخل خيمته . فاقتحم الخيمة فجأة أحد الأمراء - ويقال إنه بيبرس البندقداري الذي كان أحد جمدارية أبيه - وجرد سيفه وضرب به السلطان [٢] ، فالتقاه الأخير بيده فقطع بعض أصابعه . ثم رمى بيبرس السيف من يده وانصرف ، ورجع المعظم إلى مجلسه واجتمع حوله أصحابه وبعض مماليك أبيه فلما سألوه عمن

---

(١) اختلف الكتاب المسلمون حول تاريخ مقتل المعظم . فجاء أنه قتل يوم الاثنين ٢٧ محرم ٦٤٨هـ في : مرآة الزمان جـ ٨ لوحة ٥٢٠ ؛ نهاية الأرب جـ ٢٧ لوحة ٩٥ ؛ مختصر التواريخ ورقة ٦٥ ب ؛ النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٧١ و ٣٧٢ ؛ البداية والنهاية جـ ١٣ قسم ٧ ص ١٨٠ ، ويوم الاثنين ٢٨ منه وفقا لرواية (مرآة الزمان جـ ٨ لوحة ٥١٨ ؛ البغدادي : عيون أخبار الاعيان جـ ٢ لوحة ٤٢٥ ؛ ابن شاكر : عيون التواريخ جـ ٢٠ لوحة ٢٥ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٣٣ ؛ الذهبي : دول الاسلام جـ ٢ ص ١١٧ .) ويؤيد هذه الرواية من مؤرخي الغرب المعاصرين للحملة هرقل ، إذ ذكر أن السلطان اغتيل في ٢ مايو ١٢٥٠ م . أنظر : Eracles, 438. ، وفي الاثنين ٢٩ محرم حسبما ذكر (ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٧١ أ ؛ خطط المقريزي جـ ١ ص ٢٢٣ و جـ ٢ ص ٢٢٦ ؛ المختصر جـ ٣ ص ١٩٠ ؛ تتمة المختصر جـ ٢ ص ١٨٣ ؛ مسالك الابصار جـ ٢٧ قسم ٣ لوحة ٢٧١) . ولكن لما كان أول المحرم ٦٤٨هـ يوافق يوم الثلاثاء حسب تقدير فستنفلد ، ومراجع الحملة مجمعة على أن الحادث كان يوم الاثنين — ولو انها اختلفت في تحديد التاريخ — فيقع مقتل المعظم إذن يوم الاثنين ٢٨ محرم ٦٤٨ هـ الموافق ٢ مايو ١٢٥٠م .

(٢) ذكر ابن كثير (البداية والنهاية جـ ١٣ مجلد ٧ ص ١٧٧) أن الذي ضرب السلطان بالسيف هو الأمير عز الدين ايبك التركماني ، وليس بيبرس البندقداري كما جاء في باقي المصادر العربية .

جرحه ، أجاب بأنه أحد البحرية ، وكان ركن الدين واقفا بينهم فقال : « ربما فعل هذا بعض الحشيشية » . فأجاب السلطان : « ما فعل بى هذا إلا البحرية . قسما بالله لأفنينهم عن بكرة أبيهم » [١] .

ثم صعد السلطان بعد ذلك إلى البرج وضمد جرحه. ولكن سرعان ما اجتمع مماليك أبيه وقد أخذ منهم الخوف مأخذه لما سمعوه ينبئهم إلى أنهم قصدوا قتله ، فانضم هذا إلى ما كان فى نفوسهم من إطراحه لهم وإيثاره أقرانه عليهم ، وأحاطوا بالبرج ونادوه لكى ينزل إليهم . فراح يتوسل إليهم [٢] فى العفو عنه ، عارضا عليهم أن يتنازل عن عرشه نظير أن يبقوا على حياته ويتركوه يعود إلى حصن كيفا . ولكنهم ـ خوفا على أنفسهم ـ لم يلينوا أمام توسلاته ، ورموا البرج بالنار الإغريقية ، فاندلعت فيه ألسنة اللهب . وعندئذ فزع السلطان وألقى بنفسه من البرج ، وتعلق بأذيال فارس الدين اقطاى مستجيرا به ، فلم يجره إذ لم ينس كيف غدر به ونكث بعهده له . فجرى المعظم نحو النيل ورمى بنفسه فيه علّه ينجو من أعدائه ، لكنهم لحقوا به فى الماء وهو يسبح حتى وصل الماء إلى حلقه ، وأدركه اقطاى وضربه بالسيف فأصاب منه مقتلا [٣] . وكان ذلك

---

(١) جاء فى كتابى ابن دقماق (الجوهر الثمين ورقة ١٠٥ ونزهة الأنام لوحة ١٨١) أن المعظم تعرف على بيبرس بعد أن ضربه بالسيف وقال له : « قد عرفتك يا ملعون ، أين تروح؟ » فاجتمع بيبرس برفاقه حيث اتفق رأيهم على ضرورة الاجهاز عليه .

(٢) ذكر أبو شامه أن السيف بن الشهاب جلدك والى القاهرة وقتذاك أخبره أن المعظم أخذ يستغيث من أعلى البرج برسول خليفة بغداد الذى كان موجودا بينهم . وعندما توسط الرسول لدى الأمراء هددوه بالقتل فسكت . راجع تراجم رجال القرنين ص ١٨٥ .

(٣) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٧١ أ — ب ؛ تراجم رجال القرنين ص ١٨٥ ؛ مرآة الزمان جـ ٨ لوحة ٥٢٠ . أنظر كذلك : Epistola Ludovici (ed. Bongars), I, 1198.
وقد أشارت مراجع الحملة كلها تقريبا الى قصة مقتل المعظم .

بجانب السفينة التى كان فيها جوانفيل والذى رأى بنفسه كل ما حدث وسجله فى مذكراته عن تاريخ لويس التاسع ، مما يجعل لروايته فى هذا الموضـــوع قيمة خاصة [1] . وهكذا مات توران شاه جريحا حريقا غريقا ولم يتجاوز من العمر ثلاثين سنة ، وتركت جثته ملقاة على ضفة النهر ثلاثة أيام دون أن يجسر أحد على دفنها حتى شفع فيه رسول خليفة بغداد عز الدين البادرانى [2] ، فحمل إلى الجانب الآخر من النهر ودفن [3] .

وبموت توران شاه ينتهى حكم الأسرة الأيوبية فى مصر [4] . وإذا كان هذا الحكم قد انقضى فى فترة من المجد والفخار لمصر لإلحاقها الهزيمة بالفرنج الغزاة ، فإن

(١) Joinville (ed. Wailly), 190, 192.

(٢) نسبة إلى بادران قرية بأصبهان . أنظر مادة البادرانى فى لب اللباب للسيوطى .

(٣) ابن واصل نفس الجزء واللوحة ؛ تراجم رجال القرنين نفس الصفحة ؛ مرآة الزمان نفس الجزء واللوحة ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٥ . أنظر أيضا سعيد عاشور : الحركة الصليبية ـ ج ٢ ـ ص ١٠٧٥ ـ ١٠٧٨ .

(٤) هناك نظريات عديدة حـــول نهاية الدولة الايوبية وبداية دولة المماليك بمصر ، وأهمها الرأى القائل بأن المعظم هو آخر ملوك بنى ايوب . أنظر : نهاية الأرب ج ٢٧ لوحة ٩٥ ؛ ابو حامد : دول الاسلام الشريفة البهية ورقة ١٩ ؛ خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٣٦ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٦١ ؛ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٤ ـ وهناك فئة من المؤرخين تذكر أن شجر الدر هى آخر ملكة فى الدولة الأيوبية باعتبارها زوجة الملك الصالح ايوب . أنظر الاسحاقى : لطائف أخبار الاول ص ١٢٦ ؛ ابن أبى السرور : النزهة الزهية (مخطوط بدار الكتب برقم ٢٢٦٦ تاريخ) . ولكن الحقيقة أن رابطتها بالصالح أيوب انتهت أولا بموته وثانيا بتولية ابنه توران شاه بعده ، وأنها أصبحت ملكة على مصر ليس باعتبارها من أفراد الأسرة الأيوبية ، ولكن باعتبارها من فئة المماليك . وعلى هذا الاساس تكون شجر الدر أول سلاطين المماليك بمصر . هذا وتوجد فئة ثالثة من المؤرخين المسلمين ترى أن الملك الصبى الأشرف موسى هو آخر ملوك الدولة الأيوبية بمصر . أنظر القرمانى : أخبار الدول ورقة ٦٥ ب ؛ مرعى بن يوسف : نزهة الناظرين ورقة ٢٢٩ ؛ الشرقاوى : =

دولة المماليك قد بدأت حكمها منغمسا فى الدماء والنار والماء باغتيال آخر ملوك بنى أيوب فى مصر (١) .

بعد مقتل المعظم مباشرة ، اجتمع الأمراء والمماليك البحرية وأعيان الدولة عند الدهليز السلطانى ، وأجمعوا - بعد تبادل الآراء - على تنصيب شجر الدر فى الملك لغزير عقلها ، ولعلمهم أنها كانت تشارك زوجها الراحـــل فى تدبير أمر المملكة (٢) ، فكان هذا حدثا فذا فى تاريخ العالم الاسلامى كله . وعهدوا إلى الأمير عز الدين أيبك (٣) التركمانى الصالحى بأتابكية العسكر (٤) ، فكان لها بمثابة الشريك فى الحكم . وحلفت لها العساكر باعتبارها ملكة وله باعتباره قائدا عليهم . وذهب أحد الأمراء - ويدعى عز الدين ايبك الرومى - إلى القـاهرة حيث أنهى إلى شجر الدر ، وكانت موجودة بالقلعة وقتئذ ، ما استقر عليه رأيهم فوافقتهم على ذلك مبدية رضائها وارتياحها . وصارت الأمور كلهـا مرجوعة إليها ، وخرجت المراسيم والتواقيع باسمهـا وصورتها عليها « والدة خليـل » .

= تحفة الناظرين هامش ص١١٧ . والواقع أن هذا الملك كان أداة طيعة فى أيدى المماليك ، إذ ذكر صاحب النجوم الزاهرة (ج ٦ ص ٣٦٤) أنه « لاعبرة بولاية الأشرف فى سلطنة المعز ايبك » كما قال ابن حبيب فى مخطوطه (جهينة الأخبار ورقة ١٤٥) اما الأشرف فقد « ولى باللفظ . . . ولم يكن له فى ملك مصر غير الاسم » .

(١) Cf. Wiet, Hist. de la Nation Égyptienne, IV, 382.

(٢) أنظر السخاوى : تحفة الاحباب وبغية الطلاب ورقة ٧١ .

(٣) فيما يتعلق بسيرة عز الدين ايبك راجع : ذيل مرآة الزمان ج ١٧ ورقة ١٥٠ — ١٥١ ؛ كنز الدرر ج ٨ ورقة ١٣ ؛ المنهل الصافى ج ١ ورقة ٢ ب — ٤ ب .

(٤) كان منصب مقدم العساكر قد عرض حسبما ذكر ابن واصل (مفرج الكروب ج ٢ لوحة ٣٧٢ . .) ، أولا على حسام الدين بن أبى على ، ثم على الطواشى شهاب الدين رشيد ، فامتنعا .

وخطب لها على منابر مصر والقاهرة ، ونقش اسمها على السكة ومثاله: «المستعصمية الصالحية ، ملكة المسلمين ، والدة الملك المنصور خليل» (١) . ويظهر أن السلطانة اتخذت لنفسها اللقب الأول لتشير إلى ولائها للمستعصم بالله الخليفة العباسى ببغداد حينئذ (٦٤٠ - ٦٥٦ ﻫ / ١٢٤٢ - ١٢٥٨ م) . أما اللقب الثانى فكناية عن اسم زوجها الراحل ، وأما خليل فكان ابنها من الصالح أيوب الذى مات صغيرا فى حياة أبيه (٢) . وقد دلت شجر الدر بإقدامها على هذه الخطوة على دهائها وسعة حيلتها .

ويروى جوانفيل قصة غريبة، انفرد بها دون غيره من مؤرخى الحملة، ويزعم أنها حدثت فى اجتماع الأمراء المسلمين بعد اغتيالهم سلطانهم مباشرة . فيقول إنهم اقترحوا فى هذا الاجتماع أن يهبوا عرش السلطنة المصرية للملك لويس التاسع ، وإن هذا الاقتراح لم يحل دون الموافقة عليه الا وثوق هؤلاء الأمراء من أن الملك الفرنسى لن يقبل ذلك العرض لأنه لن يرضى أن يرتد عن دينه ، وأنه إذا جعلوه سلطانا عليهم فإما أن يرغمهم على اعتناق المسيحية وإما أن يقضى عليهم . يقول جوانفيل فى هذا الصدد : « سألنى الملك ذات يوم عما إذا كان من رأيى ، إذا عرضت عليه مملكة مصر أن يقبلها ، فأجبت أنه لو قبلها لارتكب خطأ كبيرا بعدما رآهم يقتلون ولى نعمتهم . وقال لى الملك إنهم لو عرضوها

---

(١) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٧٢ أ — ب . راجع أيضا العبر ج ٥ ص ٣٦١ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٦١ — ٣٦٢ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٣ و ج ٢ ص ٢٣٧ ؛ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٣ ؛ المختصر ج ٣ ص ١٩٠ ؛ تتمة المختصر ج ٢ ص ١٨٣ ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٦ — ٣١٧ ؛ نهاية الارب ج ٢٧ لوحة ٩٥ — ٩٦ ؛ الجوهر الثمين ورقه ١٠٥ — ١٠٦ ؛ السخاوى : تحفة الاحباب ورقة ٧٢ — ٧٣ .

(٢) Cf. Davis, Invasion of Egypt, 74-5.

عليه لقبلها دون تردد »[١] .

ولم يذكر جوانفيل فى كتابه متى سأله الملك ذلك السؤال . ويعلق ادوين جون ديفز على هذه القصة بقوله إنه من الجائز أن يكون الملك الفرنسى قد رواها لجوانفيل بعد مرور زمن طويل من انتهاء الحملة الصليبية على مصـــر . ويختتم حديثه بقوله إنه مما لا شك فيه أن المصريين ماكانوا ليقبلوا لحكمهم إلا رجلا مصريا [٢] . وجدير بالذكر أنه مع مافى رواية جوانفيـل من مبالغة لايقبلها العقل ، الا أنها تكشف فى الوقت ذاته عن الدافع الحقيقى لحملة لويس التاسع على مصر .

بعد أن استقرت الأمور على الوضع الذى ذكرناه عقب هـــذه الثورة الانقلابيـة الخطيرة فى تاريخ مصر الوسيط ، اندفع قرابة ٣٠ من المسلمين وهم شاهرين سيوفهم إلى السفينة التى كان عليها جوانفيل وبعض النبـــلاء ، فأسرع جوانفيل إلى السيد بلدوين دبلين — وكان يفهم العربية — وسأله عما يقولون . فأجاب أنهم جاءوا ليقتلوهم جميعا ، مما أدى إلى حـدوث الهرج بين الصليبيين . فأخـذ كل منهم يفضى باعترافه الأخير إلى زميله الذى إلى جواره . أما المماليك فقد القوا بالفرنج إلى جوف السفينـة بعضهم فوق بعض . وقد اختلطت — كما يقول جوانفيل — رؤوسهم بأقدامهم ، وظلوا طوال الليل على هذه الحال ، فهو يقول : « كانت قدماى فى وجه بطرس كونت بريتانى ، وكانت قدماه فى وجهى ، وهكذا »[٣] .

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 200 . راجع أيضا زيادة : حملة لويس التاسع ص ٢١٨—٢١٩ .

(٢) Davis, op. cit., 66.

(٣) Joinville (ed. wailly), 192-4. Cf. Epistola Ludovici (ed. Bongars), I, 1198.

ففى تلك الفترة التى كانت فيها حياة الأسرى معرضـــة للخطر ، بدأت المفاوضات من جديد بين المصريين والفرنج . وكان يمثل شجر الدر والأمراء البحرية الأمير حسام الدين بن أبى على لما كانوا يعرفونه عنه من رجحان عقله ، وحسن تقديره للأمور ، واعتماد مولاهم الملك الصالح عليه (١) . وناب عن الفرنج وليم أمير الأراضى الواطئة وجان كونت سواسون وبلدوين دبلين وشقيقه جى دبلين (٢) . وبعد فترة من المباحثات أبرم الفريقان معاهدة الصلح التى كانت تشبه المعاهدة السابقة بين المعظم ولويس فى بعض نصوصها (٣) . فتم الاتفاق على أن يرد الملك الفرنسى مدينة دمياط إلى المصريين (٤) ، وأن يطلق سراح المسلمين الذين فى أسره (٥) ، وعلى الا يقصـــد سواحل الاسلام مرة أخرى (٦) ، وأن يدفع مبلغ ثمانمائة ألف دينار (٧) نظير إخلاء سبيل الأسرى

---

(١) ابن واصـــل ج ٢ لوحة ٣٧٢ ب ـ ٣٧٣ ا . راجع أيضـــا السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٦٢ ؛ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٨ ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٧ .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 194.

(٣) Cf. Campbell, 431.

(٤) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٧٢ ب ؛ أبوالفرج : تاريخ مختصر الدول (طبعة بيروت) ص ٤٥٥ . Joinville, op. cit. loc. cit راجع أيضا السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٦٣ ؛ حسن المحاضرة ج٢ ص ٣٤ ؛ النجوم الزاهرة نفس الجزء والصفحة (نقلا عن سعد الدين) ؛ عقد الجمان نفس الجزء واللوحة ؛ الجوهر الثمين ورقة ١٠٦ ؛ عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة ٢٥ ؛ دول الاسلام للذهبى ج ٢ ص ١١٧ ؛ ابن الجزرى : ملخص تاريخ الاسلام ورقه ٨٠٣ .

(٥) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٥ ؛ الشرقاوى : تحفة النـــاظرين هامش ص ١١٦ ؛ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٩ (نقلا عن تاريخ سعد الدين) .

(٦) العمرى : رسالة فى أمر مشاهير ممالك الفرنج ص٢ ؛ العبر ج ٣ ص ٣٧٣ .

(٧) الدينار فى العهد الاسلامى كان من الذهب . أنظر المقـــريزى : النقود القديمة =

المسيحيين من جهة ، وعوضا عما أحدثوه بدمياط من النهب خلال إقامتهم بها من جهة أخرى ، وكان على الملك أن يدفع نصف الفدية قبل إطلاق سراحه والنصف الآخر بعد مغادرته مصر ووصوله إلى عكا (١) . أما المسلمون فقد تعهدوا من جانبهم برعاية مرضى الفرنج الذين بدمياط ، والمحافظة على معدات الصليبيين وأثقالهم بالمدينة إلى أن تحين الفرصة لأخذها (٢) . وقد حددت هذه المعاهدة بعشر سنوات (٣) .

ومما يجدر ذكره فى هذا المقام أن كتاب المسلمين لم يشيروا إلى البند الأخير من المعاهدة مما يدفعنا إلى الشك فى صحته ، خاصة وأن الفرنج كانوا فى موقف لا يسمح لهم باملاء شروطهم على المصريين بل فى موقف يملى فيه عليهم . ولعل جوانفيل الذى أورد هذا النص قد التبس عليه الأمر بين هذه المعاهدة وبين المعاهده السابقة التى كان قد عقدها لويس التاسع مع الملك الراحل المعظم توران شاه ، خصوصا إذا عرفنا أنه لم يدون مذكراته عن القديس لويس إلا بعد مضى سنوات عديدة من انتهاء الحملة على مصر .

بعد ذلك أقسم الطرفان بصيغة معينة على الشروط التى انتهوا إليها (٤) . وقد

= والاسلامية ص ١١ و ١٤ — ١٥ ؛ ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٧٦ حاشية ١٢ . ومتوسط تقدير الدينار حسبما جاء فى كتاب عمر طوسون (مالية مصر ص ٥ — ٦) ٦٠ قرشا ، وبذلك تقدر هذه الفدية بحوالى ٤٨٠٠٠٠ من الجنيهات الذهبية المصرية .

(١) Epistola Ludovici (ed. Bongars), I, 1198.

أنظر كذلك السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٦٣ ؛ حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٥ ؛ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٩ (نقلا عن تاريخ سعد الدين) .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 196.

(٣) Cf. Iorga, 169; Delaville Le Roulx, 196; Stevenson, 329.

(٤) ابن دقماق : الجوهر الثمين ورقة ١٠٦ ؛ ونزهة الأنام لوحة ١٨٢ . راجع أيضا الملحق الخاص بخطاب لويس حول أسره وإطلاق سراحه

انفرد جوانفيل بذكر صيغة اليمين الذى أداه كل من الأمراء المصريين والملك الفرنسى . فقد أقسم الأمراء بأنهم إذا أخلوا بتعهداتهم يكون مثلهم مثل الحاج الذى يحلق رأسه بعد أن يحرم بالحج ، ومثل المطلق الذى يراجع إمرأته قبل أن تنكح رجلا غيره ، ومثل المسلم الذى يأكل لحم الخنزير (١) . وقد وافق لويس على هذا القسم إذ أخبره السيد نيقولا صاحب عكا الذى اشترك فى الحملة والذى كان يعرف العربية، بأن هذا أقصى عهد يؤخذ على مسلم . بعد ذلك جاء دور الملك لويس ليؤدى قسمه أمام الأمراء المصريين ، وقد وضعوا له صيغة بأنفسهم مؤداها أنه إذا نكث عهده، فإنه يعتبر ملعونا كمسيحى أنكر الله والمعمودية والخلاص والإيمان . وقد وافق الملك على هذا القسم . أما الجزء الثانى منه ، فإنه يتعين على الملك إذا أخل بتعهداته أن يبصق على الصليب وأن يطأه بقدميه تحقيرا للإله . ولكن لويس رفض أن يؤدى اليمين على هذه الصورة . وحينئذ بعث إليه الأمراء السيد نيقولا قائلا له إن الأمراء عازمون إن لم يقسم القسم كما وضعوه له ، أن يقتلوه هو وجميع الأسرى الذين فى حوزتهم . ولكن الملك أصر مع ذلك على الرفض ، وأجاب السيد نيقولا قائلا إنه ما زال أسيرهم وبوسعهم أن يفعلوا به ما يطيب لهم .

وقد حدث أن كان فى معية الملك إذ ذاك بطريرك بيت المقدس ويدعى

---

(١) هذه الثلاث من المحرمات فى الاسلام . فالاسلام يحرم على المحرم بالحج أن يحلق رأسه إذ يقول «ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله» (قرآن كريم — سورة البقرة)، كما يحرم أيضا أن يراجع المطلق امرأته بعد تطليقها ثلاثا إذ يقول « فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » وذلك بعد قوله « الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح بإحسان » (سورة البقرة) ، كما يحرم أيضا الخنزير بنص القرآن إذ يقول : « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير» (سورة البقرة) .

روبرت الأورشليمى ، وهو شيخ فى الثمانين من عمره ، وكان قد جاء ببراءة من السلطان الراحل المعظم توران شاه بشأن العمل على عقد المعاهدة وبحث مسألة إطلاق سراح الملك الفرنسى . ولكن هذا الأمر أصبح لاغيا بعد أن قتل الذى أصدره ، وبذلك بقى البطريرك أسيرا لدى الأمراء . فعندما رفض لويس التاسع أداء القسم ، اتهم أحدهم البطريرك بأنه هو الذى أوعز اليه بالامتناع عن أدائه ، ثم اقترح أن يقتل أمام الملك جزاء على فعلته هذه . إلا أن باقى الأمراء لم يوافقوا على ذلك ، ولكنهم ربطوا جسد البطريرك فى سارية أحد خيام المعسكر ، وأوثقوا يديه خلف ظهره ، وأخذوا يشدون عليهما فى قوة حتى تورمتا وانبثق الدم من بين أظافره . وحينئذ راح يتوسل إلى الملك بأن يؤدى القسم الذى طلبوه منه وبأنه هو المسئول عن هذه الخطيئة . ثم يقول جوانفيل — الذى ذكر هذه الرواية — إن المسلمين قد وافقوا فى النهاية على اليمين الذى أداه لويس التاسع[1] . والغالب كما يتضح من رواية جوانفيل أن الملك لويس قد أدى القسم كما وضعه له المصريون تحت الضغط الذى كان عليه والظروف المحيطة به وبجيشه .

نتوقف هنيهة عن متابعة حوادث الحملة لنرى ماذا جد فى دمياط بعد تحرك الفرنج منها وتقدمهم جنوبا صوب المنصورة فى نوفمبر ١٢٤٩ م . عندما غادر لويس وجيشه دمياط ، تركوا بها البحارة الجنوية والبيازنة الذين كانوا مع الجيش الصليبى للدفاع عنها ولحراسة شواطئها ضد هجمات المصريين . كذلك بقيت مرجريت دى بروفانس زوجة الملك لويس هناك ، إذ كانت تعانى آلام الوضع . وقد حدث خلال إقامة الملكة والحامية الصليبية بدمياط ماحدث من معارك بين المصريين والفرنج، ثم تراجع الفرنج فى آخر الأمر صوب دمياط والقضاء على

(١) Joinville (ed. Wailly), 196-8. Cf. Davis, Invasion of Egypt, 66-8; Wallon, I, 380-1.

أنظر أيضا زيادة : حملة لويس التاسع ص ٢١٩ — ٢٢٢ .

غاليتهم فى فارسكور وأسر الملك وباقى رجال الجيش . وقد وصل نبأ أسر لويس إلى زوجته قبل الوضع بثلاثة أيام ، فتملكها الذعر واليأس . وعندما وضعت طفلها أسمته « يوحنا الحزين » (١) نظراً للظروف القاسية التى ولد فيها .

وحدث فى نفس اليوم الذى وضعت فيه الملكة أن أخبرها الجنوية والبيازنة الذين بدمياط أنهم عازمون على ترك المدينة والنجاة بأنفسهم حتى لا يصيبهم ما أصاب الجيش الملكى . وكان بقاء دمياط فى قبضة الصليبيين هو الضمان الوحيد الذى يمكن بواسطته الحصول على حرية الملك ورجاله . لذا فإن تهديد أولئك البحارة بترك المدينة معناه ليس فقط مجرد ضياعها من أيدى المسيحيين بل وضياع كل أمل فى سبيل إطلاق حرية الأسرى وعلى رأسهم الملك لويس نفسه . فاستدعت الملكة قواد الأسطول — وكان ذلك فى اليوم التالى لوضعها — وأخذت تثير فى نفوسهم الشعور بالواجب المقدس الملقى على عاتقهم بالمحافظة على المدينة ، راجية منهم أن يبقوا بها حتى لا يعرضوا الملك الأسير وجيشه للهلاك . فأجابوها بأنهم أوشكوا أن يموتوا جوعا ، وأنه ليس عندهم ما يسدوا به رمقهم. فابتاعت لهم حينئذ كل ما هم فى حاجة إليه من المؤن والأزواد الموجودة بدمياط ، وأدخلتهم تحت نفقة الملك الخاصة . وسرعان ما عدلوا عن رأيهم وقرروا البقاء إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا. وهكذا لم تحافظ الملكة مرجريت على مدينة دمياط فحسب ، إنما أنقذت الجيش الأسير من خطر محدق به ، ضاربة أسمى مثل للصبر والثبات.(٢) وقبيل تسليم المدينة إلى المصريين وفقا لشروط المعاهدة

---

(١) توفى يوحنا الحزين وهو على حصار تونس سنة ١٢٧٠ م وله من العمر ٢٠ سنة. راجع:
Joinville (Johnes' trans.), 459, n. 1.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 216-8. Cf. Campbell, 430-1; Grousset, Crois., III, 490-1; Kitchin, I, 315.

المبرمة بين لويس والأمراء البحرية ، أبحرت الملكة مرجريت وجميع من كان بدمياط من الفرنج — باستثناء المرضى والجرحى — إلى عكا حيث لبثوا هناك فى انتظار وصول الملك مع باقى القوات(١) .

تلك هى قصة الملكة فى دمياط ، أما زوجها الأسير فبعد أن أبرم المعاهدة مع الأمراء البحرية ، وبعد أن حلف الفريقان بالمحافظة عليها ، أبحر هو وكبار الأسرى من الفرنج من فارسكور حيث أرسوا قبالة الطرف الشرقى لجسر دمياط فى مساء الخميس ٥ مايو ١٢٥٠ م / أول صفر ٦٤٨ هـ . وهنالك ضربت خيمة كبيرة للملك الفرنسى بالقرب من الجسر نزل بها .(٢)

وفى صباح يوم السبت ٧ مايو ١٢٥٠ م / ٣ صفر ٦٤٨ هـ أرسل الملك لويس السيد جوفروا دى سارجين الى دمياط لتسليمها للمصريين . وفى نفس هذا اليوم دخلت العساكر المصرية ثانية إلى المدينة ، ورفعت العلم المصرى على سورها وأبراجها ، « وأعلن فيها بكلمة الاسلام وشهادة الحق » (٣) بعد أن ظلت فى أيدى الفرنج زهاء عام كامل . وما أن دخل المصريون المدينة حتى راحوا يذبحون المرضى من الفرنج ، كما أشعلوا النار فى كل ما وجدوه بها من المهمات والأزواد.(٤)

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 200-2, 218. راجع كذلك النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٨ ؛ عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة ٢٥ .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 200. Cf. Grousset, III, 491.
أنظر كذلك النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٩ ؛ مرآة الجنان ج ؛ ص ١١٨ ؛ دول الاسلام ج ٢ ص ١١٧ ؛ عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة ٢٥ .

(٣) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٧٣ ب ؛ السلوك ج١ قسم ٢ ص ٣٦٣ ؛ خطط المقريزى ج١ ص ٢٢٣ ؛ عقد الجمان ج١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٧ . راجع ايضا : Joinville (ed. Wailly), 200 .

(٤) Joinville (ed. Wailly), 200-2. Cf. Grousset, Crois., III, 491; Davis, Invasion of Egypt, 68.

وتنحى الأصول الغربية باللائمة على المصريين لأنهم نكثوا عهدهم بالمحافظة على معدات الفرنج ومرضاهم فى دمياط وفقا لشروط المعاهدة المبرمة بينهما (١) . حقا إن أحد كتاب المسلمين وهو ابن تغرى بردى ذكر أن المصريين عندما دخلوا دمياط « نهبو وقتلوا من بقى من الفرنج حتى ضربتهم الأمراء وأخرجوهم »(٢). ولكن مرجعا من المراجع الشرقية لم يذكر أن المسلمين أقسموا للفرنج برعاية مرضاهم والمحافظة على أثقالهم التى تركوها بالمدينة .

والآن وقد وجد الأمراء أنهم وضعوا أيديهم على دمياط ، بدأوا من جديد يتداولون فى مسألة الإجهاز على الملك الفرنسى والأسرى الافرنج حتى يتخلصوا من شرهم. فقال الأمير حسام الدين لهم : « ها هى دمياط فى ايدينا ، وهذا الملك الفرنسى فى اسرنا ، وهو من ألد اعدائنا ، ومن مصلحتنا الا نفك أسره بعد أن اطلع على دخائلنا وشاهد قتلنا لسلطاننا ». ولكن اعترض على ذلك المعز أيبك وبعض المماليك الصالحية قائلين إنهم فى أول دولتهم ، وإنهم لايرون الغدر ونكث العهود ما داموا قد اتفقوا معه على إطلاق سراحه (٣) . هذا ولو ان بعض المؤرخين يقررون أنه لم يحل بين المصريين وبين التخلص من الملك الفرنسى ورجاله إلا طمعهم فى الفدية الفادحة التى وعد الملك بدفعها وفقا لشروط

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 202; Epistola Ludovici, ed. Bongars, I, 1198.

(٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٩.

(٣) راجع النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٨ — ٣٦٩ ؛ مرآة الجنان ج ٤ ص ١١٨ ؛ دول الاسلام ج٢ ص١١٨ ؛ شذرات الذهب ج ٥ ص ٢٤٠ ؛ عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة ٢٥ ؛ قلادة النحر ج ٣ قسم ١ لوحة ١٠٩ ؛ الاحكام الملوكية لوحة ٦٣ .

راجع ايضا : Joinville (ed. Wailly), 202-4.

المعاهدة (١). بينما يرى فريق ثالث أن المصريين أبقوا على حياة اسراهم تحت تأثير السلطانة شجر الدر بدافع من النخوة والشهامة (٢).

كيفما كان الأمر، ففى مساء السبت أخلى الأمراء سبيل الملك لويس وعدد كبير من البارونات وكبار الفرنج وفرسانهم من بينهم كونت أنجو(٣). ولكنهم حجزوا عندهم الفونس كونت بواتييه رهينة الى أن يدفع الملك الفدية كاملة حسب الاتفاق. وقد استغرق دفع النقود فترة طويلة، وكان تقديرها بالوزنات، وكل وزنة كانت تبلغ عشرة آلاف قطعة من الذهب. وقد وجد الفرنج الذين يقومون بمهمة إعداد النقود ودفعها للمصريين، أنه مازال باقيا عليهم ثلاثين الف قطعة ذهبية ناقصة من مبلغ الفدية. فأسدى جوانفيل ـ الذى انفرد بذكر هذه الرواية فى كتابه ـ النصح للملك بأن يأخذ هـذا المبلغ من الداوية. ولكن قائد هؤلاء الفرسان ويدعى اتين دتريكورت Étienne d'Otricourt ـ إذ كان رئيس الجماعة قد مات أثى موقعة المنصورة الثانية ـ رفض هذا الاقتراح متعللا بأنه ليس من حقه التصرف فى أموال ليست ملكا خاصا له، ومهددا بأنه إذا اخذ الملك هذا المبلغ منهم عنوة، فسوف يأخذون لأنفسهم تعويضا عما لديه من مال فى عكا. حينئذ استأذن جوانفيل من الملك بالذهاب الى السفينة الرئيسية للداوية التى

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٩. راجع ايضا: Grousset, Crois., III, 492; Kitchin, I, 345.

(٢) الملوانى: تحفة الاحباب قسم ١ ورقة ٨٠؛ القرمانى: اخبار الدول ورقة ٦٥ ب. ابن دقاق: الجوهر الثمين ورقة ١٠٦. انظر ايضا: Lane-Poole, the Story of Cairo, 2 1.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 204; Epistola Ludovici (ed. Bongars), I, 1198. راجع أيضا ابن واصل ج٢ لوحة ٣٧٣ ب؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٦٣؛ النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٦٩؛ مرآة الجنان ج ٤ ص ١١٨؛ عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة ٢٥؛ قلادة النحر ج ٣ قسم ١ لوحة ٩٠١.

توجد بها الخزينة لأخذ المبلغ المطلوب . وعندما وصل هناك طلب منهم إعطائه النقود ، ولما رفضوا هددهم بفتح الخزينة عنـــوة . وبعد مناقشات عنيفة بينه وبينهم ، أخذ المبلغ اللازم وعاد به إلى الملك . وهكذا دفعت الفدية إلى آخرها واطلق سراح كونت بواتييه(١) .

بعد ذلك انتقـل الملك ومن بقى من قواته ممن أطلق المسلمون سراحهم من البر الشرقى إلى البر الغربى لدمياط والذى يعرف بالجزة. وكان يحيط بلويس قوة كبيرة من القوات المصرية يقدرها جوانفيل بألفين من المشاة. وكانت توجد سفينة جنوية راسية بالقرب من الشاطىء . وعندما أبصر من بها الملك الفرنسى ، ألقوا لوحا خشبيا على ضفة النهر عبر عليـه الملك إلى السفينة ، ثم تبعه بعض كبار الصليبيين من بينهم شقيقه شارل كونت انجو وجوفرا دى سارجين وجوانفيل (٢) . وانتقل باقى الفرنج إلى السفن الأخرى الراسية عند الشاطىء (٣) .

وفى يوم الأحد ٨ مايو ١٢٥٠ م / ٤ صفر ٦٤٨ هـ ، أقلعت السفن المسيحية من ميناء دمياط قاصدة عكا ، تقل فلول القوات الصليبية ، بعد أن أضنتها الهزائم واستبدت بها الكوارث ، حتى لم تبق إلا أقلية هزيلة محطمة (٤) .

---

(١) Joinville (ed. Wailly) , 206 - 212.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 204—206. Cf. Davis, Invasion of Egypt, 69-70 .

(٣) Joinville (ed. Wailly), 212 .

(٤) Joinville, op. cit. loc. cit. ; Rothelin, 619 -20; Röhricht, p. 881. راجع أيضا ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٧٣ ب ؛ أبو الفرج : تاريخ مختصر الدول (طبعة بيروت) ص ٣٥٥ ؛ مسالك الأبصار جـ ٢٧ قسم ٣ لوحة ٢٧٢ - ٢٧٣ ؛ السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٦٣ .

هكذا باءت حملة القديس لويس التاسع الصليبية على مصر بالإخفاق التام دون أن تحقق الغرض الأصلى الذى قامت من أجله . ويمكن إرجاع فشلها إلى عدة أسباب متفاوتة التأثير أدت بها إلى هذه النهاية .

لقد كان السبب الرئيسى فى انهزام لويس التاسع هو جهله بجغرافية البلاد المصرية وطبوغرافية الطريق الذى اتخذه الوصول إلى القاهرة بعد احتلاله لمدينة دمياط (١) . فقد ارتكب نفس الخطأ الذى وقعت فيه حملة جان دى برين منذ ثلاثين سنة قبل الحملة الصليبية السابعة ، إذ استخدم نفس الطريق المائى الوعر الذى استخدمه جان برين من قبله (٢) ، نعنى الطريق من دمياط إلى القاهرة مارا بالمنصورة فبنها . وكان هذا الطريق يعترضه قنوات وترع عديدة تتفرع عن الفرع الشرقى للنيل هى أشبه بشبكة الصائد وتصلح لأن تكون أفخاخا للإيقاع بالجيش الفاتح ؛ وغير ذلك فإنه يمر بعدد من مراكز الدفاع القوية التى يمكن للقوات المصرية استغلالها ضد الفرنج . ولا نغالى عندما نقول إن غزو مصر عن هذا الطريق كان مصيره الإخفاق إذا ما أبدى المدافعون شجاعة وذكاء عاديين (٣) .

وإن المصير الذى آلت إليه حملة لويس التاسع ومن قبلها حملة جان دى برين لهو دليل كاف على صحة ما نقول . فلم يستول قائد الحملة الصليبية الخامسة على

---

(١) ابن واصل ج ١ لوحة ٢٠٨ ب . راجع أيضا: Lane-Poole, Hist. of Egypt, 232; Petit-Dutaillis, 318; Oman, I, 267-9; Knox, Court of a Saint, 164.

(٢) أنظر الدكتور على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٢٥٩ ، وكذلك Tout, Empire & Papacy, 458; Previté-Orton, 134.

(٣) Cf. Oman, Art of War, I, 267; Groussel, Crois., III, 541; Tout, Empire & Papacy, 458; Knox, The Court of a Saint, 164; Kitchin, I, 342.

دمياط إلا بعد حصار دام زهاء ١٧ شهرا . وعندما تقدم داخل الدلتـا كانت قواته قد أنهكت بعد هذا الحصار الطويل ، وقد توقفت أمام بحر أشموم حيث كان يعسكر قبالته من الناحية الأخرى جيش الملك الكامل . وقام الفرنج بعـدة محاولات فاشلة لعبوره ، وأحسوا بخيبة الأمل عنـدما تبينوا أن الأرض التى كانت تفصل بينهم وبين قاعدتهم فى دمياط قد غمرتها مياه الفيضان ، إذ كان النيل فى ازدياد واستغل المصريون هذه الفرصة وقطعوا السدود ، فأسرع الفرنج بالتراجع صوب دمياط ، لكن المياه كانت تحيط بهم من كل جانب ، وتعقبهم المسلمون بشدة . ولكى ينج الصليبيون بأنفسهم من المجاعة أو الغرق ، اضطروا إلى طلب فتح باب المفاوضات ، وقد سمح لهم السلطان بالرحيـل بعد أن أخلوا دمياط (أغسطس ١٢٢١م) .

أما مصير حملة لويس التاسع فكان أسوأ من تلك بكثير عندما اتبـع نفس الطريق فى ١٢٤٩م / ٦٤٧ هـ . وإنه لا يسعنا بعد ما كان من أمر حملة جان دى برين ، إلا أن نعجب لاختياره نفس الطريق . ولقد بدأ بداية أكثر توفيقا من سلفه ، لأنه استولى على دمياط بعد مناوشات بسيطة مع القوات المصرية . ولكنه عندما بدأ زحفه أخيرا فى نوفمبر ١٢٤٩ م ، بعدما أضاع بدمياط قرابة ستة أشهر ، واجهته نفس العقبة التى تسببت فى إخفاق حملة جان دى برين ، وهى قناة أشموم التى كان من المستحيل عبورها ، والتى كانت القوات المصرية تقوم بالدفاع عنها من الناحية الأخرى . وقد حاول لويس مرارا إقامة جسر لعبور قواته ، إلا أن المصريين كانوا يحطمونه بنيرانهم الإغريقية مرة بعد أخرى . وأخيرا أفلح الملك الفرنسى فى عبور القناة هو ورجاله وأقاموا لأنفسهم مركزا جنوبى بحر اشموم . لكن هذا النجاح كلفهم غاليا بعد ما لاقوه من الصعاب والمخاطر فى سبيل عبور هذه القناة ، حتى أنه لم يكن بوسعهم التقدم أكثر من ذلك . وقد لبثوا بالقرب

من المنصورة بضعة أشهر غير قادرين على التقدم أو راغبين فى التراجع ، إلى أن تفشت المجاعة والوباء بينهم فى آخر الأمر فاضطرتهم إلى الارتداد . ولكنهم لاقوا الأمرين من ضربات المصريين الذين قطعوا عليهم طريق العودة . وأخيرا أحيط بالملك الفرنسى واقتيد أسيرا ، وبعد ذلك سرعان ما ألقى فلول جيشه المحطم سلاحا مستسلما . وقد قتل المصريون جانبا كبيرا من أسراهم ، ولم يكن بوسع الباقين عرض شروط كما فعل جان دى برين فى ١٢٢١م ، إنما اضطروا إلى قبول ما فرضه عليهم المصريون . ومما يجب الاشارة إليه تعليقا على خطة الملك لويس الحربية فى اختياره هذا الطريق، أنه حتى ولو كان قد نجح فى عبور بحر اشموم بمجرد وصوله إليه ، فانه كان عليه بعد ذلك عبور عدة أفرع وقنوات أخرى تخرج من النيل قبل وصوله إلى القاهرة . ولا يمكن تفسير حماقة الصليبيين فى اختيارهم هذا الطريق غير العملى سوى جهلهم بطبيعة البلاد الجغرافية فى تلك الأيام التى خلت من الخرائط (١) .

وقد أشار المؤرخ الانجليزى شارل أومان إلى الطرق التى كان يمكن لحملة لويس اتخاذها للوصول إلى القاهرة . فيقول إنه للوصول إلى العاصمة لم يكن هناك إلا طريقين عمليين حتى يمكن للقوات الصليبية تفادى قنوات الدلتا ومجاريها العديدة . وأحد الطريقين هو الرسو فى الاسكندرية مع الاحتفاظ بخط سير إلى غربى فرع النيل الغربى (فرع رشيد) ، كما فعل نابليون بونابرت فى حملته على مصر عام ١٧٩٨ م ، ويمر هذا الطريق بدمنهور والجيزة . وتنحصر مساوئه فى أن المرحلتين أو الثلاث مراحل الأولى فيه تقع فى صحراء ، وتنتهى بالغزاة عند

---

(١) Oman, Art of War, I, 267-8. Cf. Lane-Poole, Hist. of Egypt, 222-3; Knox, The Court of a Saint, 164.

الجيزة قبالة القاهرة والنيل ما زال فاصلا بينهم وبين هدفهم ، وقد يكون فى عبور الفرنج بعد هذا المسير الطويل بعض الصعاب فى مواجهة القوات المصرية على الضفة الشرقية (١) . ولكن مما لاشك فيه أنه لو توجه الصليبيون إلى الاسكندرية بدلا من دمياط واتخذوا هذا الطريق لما انتهت الحملة بهذه النهاية المؤلمة ؛ إذ كان أسهل وأسلم عاقبة من طريق دمياط — القاهرة على الرغم مما كان يعترضه من عقبات (٢) . كما أنه كان بوسع الفرنج بعد استيلائهم على دمياط أن يتفادوا هذا الخطأ الذى وقعوا فيه فى محاولتهم الثانية ، فينزلوا على الاسكندرية بدلا من التوجه جنوبا من دمياط صوب العاصمة ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك(٣).

أما الطريق الثانى فيبدأ بالقرب من الفرما القديمة التى كانت تسمى بلوزيم Pelusium ، ويمر بالصالحية وبلبيس فى الطريق إلى القاهرة مع السير إلى شرقى الفرع الشرقى للنيل ، وهو يؤدى بالفاتحين إلى القاهرة مباشرة ، كما أنه يخلو من القنوات والترع . وقد تعرضت مصر مرارا للغزو من هذا الطريق الذى سار فيه قمبيز والاسكندر الأكبر وعمرو بن العاص وآمورى الأول ملك بيت المقدس وغيرهم (٤) . ولكن هذا الطريق كان يتطلب قاعدة للهجوم ، كأن يتحكم الفرنج فى سورية مثلا ، وهذا الأمر لم يتوفر للفرنج فى ١٢٤٩م . كما أنه لم يكن هناك ميناء يمكن الاستيلاء عليها واستخدامها كقاعدة للإمداد(٥)، إذا انتهى أمر الفرما بأن خربها شاور وزير العاضد آخر خلفاء الفاطميين بمصر

---

(١) Oman, I, 266. Cf. Knox, 163.

(٢) Cf. Davis, Invasion of Egypt, 29.

(٣) أنظر الشيال : مجمل تاريخ دمياط ص ٢٩ .

(٤) Cf. Oman, I, 266; Lane-Poole, op. cit., 223.

(٥) Oman, I, 266.

فى منتصف القرن السادس الهجرى لما قاسته من غارات الفرنج مرة بعد أخرى[١].
ولكن رغما عن ذلك فقد كان لهذا الطريق مزاياه ، لأن الرسو هناك كان ممكنا لأسطول بحرى كبير ، إذ أن الساحل شرقى الفرما على الرغم من قلة غوره عند الشاطىء كان يخلو من أية عقبة حقيقية تعترض تقدم سفنا خفيفة كسفن القرن الثالث عشر الميلادى . وإن نظرة فاحصة إلى خرائط الدلتا فى المنطقة الواقعة شرقى الفرما ومستنقعاتها ، يبدو فيها الشاطىء رمليا ذو عمق يسمح لرسو السفن الخفيفة بالقرب منه . ويبلغ من بعد هذه المنطقة عن مراكز الحرب المصرية أنه لم يكن هناك ما يخشاه الصليبيون من أية مقاومة داخلية . ولكن إذا ما رسا الجيش كان عليه أن يودع أسطوله ويخاطر بهجوم مباشر على القاهرة عبر الصالحية .

لذا يمكننا القول بحق إن السبب الأكبر فى فشل هذه الغزوة يرجع إلى قلة المعلومات الجغرافية واختيار الطريق الوعر غير العملى؛ ولو ان القوات الصليبية اضطرت للقتال بعيداً عن مجرى ماء كبحر أشموم وفى خلاء الصالحية أو بلبيس مثلا ، لكانت هناك فرصة أكبر للنجاح . وإن استحال هذا الطريق فإن الطريق الآخر هو النزول فى الاسكندرية ومتابعة خط سير بونابرت فى ١٧٩٨ م[٢] .

وكما أخطأ لويس التاسع فى اختيار الطريق السليم الذى يسلكه إلى القاهرة ، كذلك لم يقدر بوصفه قائد الحملة أهمية العامل الزمنى فى الحروب ودخله فى تقرير مصير البلاد[٣] . إن الحروب تقوم عادة على السرعة والمباغتة ، لأن هذه

(١) خطط المقريزى ح ١ ص ٢١٢ .
(٢) Oman, I, 268—9.
(٣) Kitchin, I, 342.

السياسة هى أحسن ما يمكن اتباعها لبث الاضطراب فى معسكر العدو . ولكن حوادث الحملة أثبتت أن الصليبيين لم يراعوا على الإطلاق قيمة هذا العامل الهام ، وما يترتب على التباطىء والتأخير من أضرار بالغة .

فأول ما يسترعى انتباهنا أن الحملة أقامت بقبرص زهاء ثمانية أشهر قبل تحركها صوب مصر (سبتمبر ١٢٤٨ — مايو ١٢٤٩ م) . ومهما كانت الدوافع التى أدت إلى هذا التأخير الطويل ، فإنه كان خطة خاطئة [١] ، وبقدر ما أضر الفرنج أفاد أعداءهم المصريين . فلو واصل الصليبيون تقدمهم دون توقف فى الجزيرة لباغتوا الجيش المصرى قبل أن يتخذ للحرب أهبته ، ولوجدوا فصلا ملائما لعملياتهم الحربية . فقد كان سبتمبر — وهو الشهر الذى وصلت فيه الحملة قبرص — شهرا مناسبا لتقدم الجيش ، إذ كان الفصل خريفا ودرجة الحرارة معتدلة . لكنهم أضاعوا الأشهر بالجزيرة يتنازعون فيما بينهم ، كما نفدت أموالهم ومؤنهم ، وانغمسوا فى الملذات نتيجة الكسل ، وانتشرت الأمراض فى معسكرهم التى فتكت بعدد كبير منهم [٢] .

وحتى بعد استيلاء لويس التاسع على دمياط فى يونيو ١٢٤٩ م ، يحيرنا هو ورجاله بتصرفاتهم مرة أخرى ، فما كان منهم إلا أن قعدوا فى دمياط قعودهم فى قبرص [٣] . فقد أقاموا بها قرابة خمسة أشهر ونصف (٧ يونيو - ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩ م) . ولقد أدرك كثير من المؤرخين المحدثين ما ترتب على هذا التأخير من مضار ، فيقول كالثروب Calthrop إنه كان بمثابة ضربة قاضية أصابت

---

(١) Cf. Davis, Invasion of Egypt, 23 – 4; Guizot, St. Louis, 59-60.

(٢) Cf. Ludlow, 337; Grousset, Crois., III, 432; Bray, 119—21.

(٣) Cf. Davis, Invasion of Egypt, 28 .

الحملة (١) . كما ذكر ستيفنسن أن الفرنج لو واصلوا سيرهم وأسرعوا بالزحف نحو القاهرة دون التأخر بدمياط لربما أحرزوا نصرا حاسما له أهميته (٢) . لقد كان الواجب يملى على الملك الفرنسى أن يواصل زحفه بعد هذه البداية الموفقة للحملة باحتلاله دمياط فى يونيو ١٢٤٩ م ، منتهزاً فرصة الذعر الذى تملك المصريين . حقاً إن يونيو كان موسماً غير مناسب للغزو خاصة وأن درجة الحرارة كانت على أشدها ، ولكن لما كان الفرنسيون قد بدأوا حملتهم فعلا فقد كان عليهم أن يواصلوها . وكان فى تأخرهم ما أعطى الفرصة للسلطان لتنظيم دفاعه بعد أن وضح له الطريق الذى سوف يسلكه أعداؤه . ولقد عم الذعر القاهرة عندما علمت بسقوط دمياط ، ولكن تراخى الفرنج مكن المصريين من استعادة جأشهم وإعداد أفضل وسائل الدفاع (٣) ، بينما انغمس الصليبيون أنفسهم فى الفسق والفجور مما أدى إلى اختلال نظامهم وبث الفوضى فى صفوفهم كما حدث تماما خلال إقامتهم بقبرص (٤) . وأخيراً عندما قرر الصليبيون السير من دمياط جنوباً صوب العاصمة فى نوفمبر ١٢٤٩ م ، نراهم يتحركون فى بطء شديد ، إذ قطعوا المسافة من دمياط إلى بحر أشموم ـ والتى لاتزيد عن خمسين ميلا ـ فى ٣١

---

(١) Calthrop, 75. Cf. Lacroix, La Chevalerie et les Crois., 184; Henaut, Manu. d' hist. de l' Egypte, 176.

(٢) Stevenson, 326. Cf. King, Knights Hospitallers, 243; Tenison, Chivalry and the Wounded, 33.

(٣) Oman, I, 341-2. Cf. Le Bas, 186; Maimbourg, 337; Williams, XII, 60; Tenison, 33; Lacroix, op. cit., 184 .

(٤) Cf. Walsh, 147; Michelet, I, 566; Wiet, Hist. de la Nation Egyptienne, IV, 380; Lavisse & Rambaud, Hist. générale, II, 336; Campbell, 427; Ludlow, 341-2; Guizot, 65.

يوما (٢٠ نوفمبر — ٢١ ديسمبر ١٢٤٩ م) (١) تكبدوا فيها بعض المشاق والمخاطر (٢) ، بينما لو غادروا دمياط بعد احتلالهم لها مباشرة وقبل أن يفيق المصريون من هول الصدمة ويستعدوا للاقاتهم ، لقطعوا هذه المسافة فى فترة أقل من ذلك بكثير (٣) .

وعندما وصل الفرنج شمالى بحر أشموم والنهر يفصل بينهم وبين القوات المصرية على الضفة الجنوبية ، أضاعوا أيضاً قرابة شهر ونصف (٢١ ديسمبر ١٢٤٩ — ٧ فبراير ١٢٥٠ م) فقدوا خلالها عددا كبيرا من رجالهم وعددهم فى سبيل القيام بمحاولة خرقاء ، نعنى محاولتهم عبور هذا المجرى المائى أمام عدو قوى متأهب لمواجهتهم ونزالهم (٤) . وأخيراً أفلح لويس فى عبور القناة عن طريق مخاضة دله عليها بعض الأعراب، حيث اشتبك مع الأعداء فى معركتين كبيرتين، فقد فيهما عدداً لا يستهان به من جنده وخيله . وكانت الحكمة تملى عليه آنذاك أن يتراجع هو وفلول قواته من حيث أتوا فى الوقت الذى كان فيه هذا التراجع ممكناً . لكنهم لم يتحركوا بعد هاتين الموقعتين وأضاعوا الوقت كما أضاعوه من قبل فى قبرص ودمياط وفى الطريق من دمياط إلى بحر أشموم وقبالة بحر أشموم . فقد ظل الجيش المسيحى مقيما جنوبى هذا البحر ٥٥ يوما (١١ فبراير - ٥ أبريل ١٢٥٠ م) آملا فى معاودة العدوان بالهجوم على المنصورة ومواصلة الزحف صوب العاصمة . ولكن كان كل يوم يمر بالفرنج يزيد

(١) Rothelin, 597. Cf. Oman, I, 342; Stevenson, 326; Lavisse & Rambaud, op. cit., 336; Kitchin, I, 343; King, 244.

(٢) Lane-Poole, Hist. of Egypt, 233.

(٣) Cf. Kitchin, I, 343.

(٤) Cf. Kitchin, op. cit., loc. cit; Oman, I, 267.

مركزهم سوءا ؛ فقد تفشى فى معسكرهم الوباء والمجاعة مما فتك بعـــدد كبير منهم ، أما الباقون فقـــد بلغـــوا درجة من الضعف لم تمكنهم من مواصلة الكفاح [١] . وعندما قرروا التراجع آخر الأمر من المنصورة إلى قاعدتهم فى دمياط (٥ أبريل) كان ذلك متأخراً جداً ؛ إذ سار المماليك البحرية فى أثرهم مكبدين إياهم خسائر فادحة فى قرية فارسكور ، وقد اقتـــادوا الملك الفرنسى ورجاله أسرى ، ولم يخلوا سبيلهم إلا بعد أن دفعوا فدية كبيرة وبعد أن أخلوا دمياط مرغمين [٢] .

وعلى هذا يمكن الجزم أن العامل الزمنى لعب دورا هاما فى هذه الحملة ، فكلما طال الوقت كان ذلك فى خدمة المصريين وفى غير صالح الفرنج على طول الخط .

أما العامل الثالث الذى تسبب فى انهزام الصليبيين فهو العصيان وعدم الطاعة . فلم يكن الملك لويس قائد هذه الحملة صاحب السلطة المطلقة ، ومن ثم لم يكن قادرا على فرض إرادته على قواده ورجاله ، وإلزامهم باتباع أوامره [٣] . فكان رجال الحملة من جند وقواد على السواء يتصرفون حسبما يتراءى لهم ضاربين بأوامر قائدهم الأعلى عرض الحائط مما أضر بالقضية الصليبية . ويذخر تاريخ الحملة بالأمثلة التى تؤيد هذا . فعندما وصل الفرنج إلى قبرص ، كان الملك شديد الرغبة فى الزحف السريع إلى مصر دون التوقف بالجزيرة ، لكنه اضطر إلى الإقامة بها فترة طويلة نزولا عند رغبة قواد جيشه (٤) . وكذلك فى فترة إقامة الجيش

---

(١) Grousset, Crois., III, 477-8; Davis, Invasion of Egypt, 45, 47; Kitchin, I, 344.

(٢) Cf. Previté-Orton, 134; Oman, I, 268.

(٣) Cf. Davis, Invasion of Egypt, 23, Bary, 121, Michelet, I, 566.

(٤) Joinville (ed. Wailly) ,74. Cf. Davis, Invasion of Egypt, 23.

بدمياط ، انغمس رجال الحملة فى الملذات على مرأى من مليكهم حتى أنه أصبح عاجزا عن السيطرة عليهم ووضع حد لاستهتارهم (١). وعندما اغتصب روبرت كونت ارتوا من وليم كونت سالسبرى الغنيمة التى كان قد استولى عليها ، توجه الأخير إلى لويس متظلما من تصرفات شقيقه ، راجيا منه أن يعيد إليه ما اغتصبه روبرت منه ، لم يسع الملك الطيب أن يفعل شيئا حتى أن الفارس الانجليزى استشاط غضبا وترك المعسكر هو ورجاله إلى عكا قائلا للويس إنه ليس ملكا إلا بالاسم وإنه ليست له أى سلطة فعلية على رجال جيشه (٢) . ولعل أبلغ مثل على عصيان الأوامر الملكية ما فعله روبرت بعد عبوره بحر اشموم ؛ إذ اندفع نحو المنصورة غير مبال بأوامر أخيه . ولقد بذل الملك ما فى وسعه لمنعه من التقدم ، وأرسل إليه عشرة فرسان يأمرونه بالتوقف والانتظار. ولكن روبرت اختار أن يقوم بهجومه المتهور مخالفا أوامر قائده ، ذلك الهجوم الذى باء بالفشل وأودى بحياته هو ورجال المقدمة كلهم تقريبا (صباح ٨ فبراير ١٢٥٠ م) (٣) . وغير هذا وذاك فالحملة مليئة بالمعارك التى مات فيها كثير من الصليبيين نتيجة تمردهم وعصيانهم لأوامر مليكهم(٤) .

قد يفسر هذا العصيان بأنه لم يكن للفرنسيين جيشا قويا موحدا ، وأنهم كانوا ينظمون قواتهم على الطريقة الاقطاعية التى كانت متبعة فى العصور الوسطى ،

---

(١) Davis, Invasion of Egypt, 28; Michelet, I, 566.

(٢) Matt. Paris, II, 355. Cf. Archer & Kingsford, 396; Ludlow, 341–2.

(٣) Rothelin, 605. Cf. Oman, Art of War, I, 352; Grousset, Crois., III, 459.

(٤) راجع Joinville (ed. Wailly), 96.

وأن الملك ما زال هو الأول بين أقرانه « primus inter pares » ، ليس له عليهم سلطة حقيقيـة (١) . ولـكن كيفما كان الأمر فان قائد جيش إقطاعى كلويس التاسع لم يكن يعقل أو يتوقع أن تتحطم خططه وتتـكسر تعلياته من جراء عصيان كهذا . وفى الوقت الذى كان فيـه الملك الفرنسى لا يتمتع بأى نفوذ حقيقى على رجال جيشه ، نجد أن السلطة كلها كانت مركزة فى يد خصمه سلطان مصر . وكانت أهم صفة يتحلى بها الجند الإسلامى هى الطـاعة العمياء لأوامر قائدهم . فقد كان للسلطان هيبة بالغة فى نفوس مماليكه حتى أنهم كانوا يرتجفون رعبا عند المثول فى حضرته (٢) .

سجدت له حتى العيـون مهابة
أوما تراها حين يقبل تطرق
مـلأ القـلوب مخـافة ومحبـة
فالبأس يرهب والمكارم تعشق(٣)

---

(١) يذكر جوانفيل أنه فى المجتمع الذى عقده لويس التاسع بباريس قبـل سفره الى الشرق طلب منه الملك أن يؤدى له اليمين الاقطاعى أسوة بغيره من كبـار رجال المملـكة ، لـكن جوانفيل رفض اجابته الى طلبـه لأنه لم يكن من رجاله ، اذ كان من أتباع كونت شامبانيا . ولـكنه على أى حال أصبح من رجال الملك الفرنسى عندما أخذه هو وفرسانه تحت نفقته وتعهد بالصرف عليهم من ماله الخاص خلال وجود الحملة بقبرص . أنظر :
Joinville (ed. Wailly), 64-6, 76.

(٢) راجع ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٩ ب ؛ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٣١ .

(٣) هذان البيتان من قصيدة طويلة لبهاء زهير فى مـدح الصالح نجم الدين أيوب . أنظر ديوان بهاء الدين زهير (طبعة القاهرة) ص ١٣٤ ، وكذلك اليونينى : ذيل مرآة الزمان ج ١٥ ورقة ٥٢ ب.

وإن مميزات ملوك بنى أيوب هذه تظهر لنا مدى التباين بين قوتهم وبين ضعف لويس التاسع كقائد .

وهناك عامل هام يجب ألا نغفله كان له أثره فى هزيمة الحملة ، ألا وهو تفوق المصريين فى الناحية الحربية على الصليبيين . فقد كانت مصر فى العهد الأيوبى تحتفظ بجيش قائم منظم مدرب أحسن تدريب صناعته الحرب والقتال ، كما شهد بذلك أحد المحاربين الصليبيين وهو جوانفيل صاحب المذكرات الفريدة فى بابها عن حملة لويس على مصر (١) . ولولا بلاء مماليك الصالح أيوب البحرية وعلى رأسهم بيبرس البندقدارى فى وقعتى الثلاثاء والجمعة وركوبهم أقفية المنهزمين فى فارسكور ، وما أبدوه من مهارة وبسالة فى القتال ، ما تم النصر للمسلمين . وهذا الحال يختلف عندما ننظر إلى الجيش الصليبى ، فهو يضم إلى جانب الفرنسيين الذين كانوا يؤلفون غالبيته ، جماعات قليلة من الانجليز والإيطاليين والقبارصة والداوية والاسبتارية ؛ فكان هذا المزيج سببا فى اختلاف ميولهم وأغراضهم وعدم اتحاد كلمتهم . ومن أمثلة ذلك الانقسام الذى بدا واضحا بين الفرق التى كانت تتألف منها مقدمة الجيش المسيحى التى عبرت قناة أشموم عن طريق المخاضة صباح ٨ فبراير ١٢٥٠ م ، فلم يكن هناك أى انسجام بين الفرنسيين من ناحية وبين الانجليز وجماعات الرهبان العسكرية من ناحية أخرى . ويلاحظ أيضاً أن المسلمين كانوا أكثر براعة من خصومهم فى أمور القتال والتكتيكات الحربية مما ساعدهم على التغلب عليهم . وتعتبر موقعة المنصورة الثانية (١١ فبراير ١٢٥٠م) مثلا حيا على براعة المماليك فى إحكام الخطط الحربية وتنفيذها . كما كان المصريون موفقين أيضا فى تدبير الحيل والخدع الحربية التى لجأوا إليها لمضايقة أعدائهم ،

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 154-6.

والتى تتمثل أحسن تمثيل فى الخطة التى اختطها الملك المعظم توران شاة عقب وصوله إلى المنصورة بقطع الميرة عن الفرنج المقيمين جنوبى بحر اشموم مما أدى إلى تفشى المجاعة بينهم. كما استطاع المصريون بخططهم الموفقة أيضا أن يفسدوا على أعدائهم عملهم فى تشييد جسر على بحر اشموم للعبور إلى الضفة الجنوبية حيث يوجد المعسكر المصرى. أما الصليبيون فلم يراعوا النظام والدقة فى تنفيذ خططهم الحربية وإحكامها [1]. وآية ذلك موقعة المنصورة الأولى التى بدأت دون أى نظام ودون قيادة موحدة نتيجة عدم الطاعه والتهور والانقسام بين رجال المقدمة، مما أدى بهم مورد التهلكة فى شوارع المنصورة. وفوق هذا فقد كان الفرنج يحاربون فى أرض غريبة عنهم، ولم تكن معداتهم ولا لباسهم فى الحرب تتفق مع طبيعة البلاد التى يحاربون فيها. فقد كانوا يرزحون تحت خوذهم ودروعهم الثقيلة على طريقة الحرب فى العصور الوسطى التى كانت ترهقهم ولا تساعدهم على الحركة بسرعة خصوصا فى جو مصر الحار [2]. كما كانوا يستخدمون الجياد الثقيلة التى تحول بينهم وبين تنظيم صفوفهم بسرعة إذا ما اختل نظامهم(٣). وغير ذلك فقد كان لدى المصريين من معدات الحرب أكثر مما لدى الصليبيين (٤). كما كانوا يستعملون فى قتالهم مع أعدائهم القذائف المحرقة والنيران الاغريقية التى كانوا على علم بها قبل أن يعرفها الغربيون. ونحن لاننسى وصف جوانفيل لهذه النار التى ألقت الرعب فى قلوب الصليبيين وأوقعت الخبل فى صفوفهم(٥).

(١) Cf. Osborn, The Middle Ages, 116.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 128, 142. Cf. also Davis, Invasion of Egypt, 17.

(٣) Bray, 177, n. I.

(٤) Davis op. cit., 23.

(٥) Joinville (ed. Wailly), 112-6. Cf. Grousset, Crois., III, 457; Davis, Invasion of Egypt, 18, 23.

وهكذا كان لما يتمتع به المسلمون من وحدة الكلمة ووحـدة العمل ودقة النظام والحركات الحربية السديدة والقيادة الحكيمة ، وما كانوا يستخدمونه من الأسلحة التى لم يكن لأعدائهم عهد بها من قبل ، أثره فيما نزل بالصليبيين من هزائم .

وهناك عامل آخر وهو الانحلال والتدهور الخلقى الذى كان متفشيا فى نفوس الصليبيين مما أدى إلى إنهاك قواهم وضعف الروح المعنوية عندهم ؛ فقد انغمسوا فى الملذات وحياة الفجور بدلا من السعى فى تنظيم صفوفهم وإعداد خططهم وإحكامها . وإن سلوك الفرنج وتصرفاتهم الشاذة فى قبرص ودمياط وفى شتى مراحل الحملة لأبلغ دليل على ما نقول (١) . كما أن هناك حادثة رواها جوانفيل فى مذكراته تدل على مدى استهتار الفرنج وخلاعتهم . فقد حدث فى مساء موقعة الثلاثاء ٨ فبراير ١٢٥٠ م أن وورى التراب أحد فرسان جوانفيل ويدعى هيج دى لندريكورت Hugues de Landricourt . وبينما هو فى رقدته الأخيرة داخل تابوته ، أخذ ستة من فرسان جوانفيل يتحادثون بصوت مرتفع حتى أنهم أزعجوا القس الذى كان يقوم بتلاوة الصلاة الجنائزية ، فذهب إليهم جوانفيل راجيا منهم أن يخلدوا إلى الهدوء والسكينة احتراما لروح زميلهم المتوفى . ولكنهم أخـذوا يتضاحكون ويتغامزون فيما بينهم قائلين إنهم إنما يبحثون عن زوج آخر لأرملته (٢) . وهكذا نرى أنه فى الوقت الذى كان فيه الفرنج منصرفين إلى اللهو والمرح ، كان المصريون منهمكين فى تنظيم جيوشهم وإعدادها لمواجهة العدو والحيلولة بينه وبين التوغل فى الأراضى المصرية (٣) .

(١) Joinville (ed. Wailly), 94.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 162-4.

(٣) راجع ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٦ ا و ٣٥٧ ا و ٣٦٤ ب و ٣٦٨ ا .

وعلى الرغم من اتسام هذه الحملة الصليبية بالطابع الدينى ، فاننا نلاحظ فتور هذه الروح بين كثير من المقاتلين ، وتدخل المصالح المادية فى الحركة الصليبية . وإن موقف البحارة الجنوية والبيازنة وجماعة الرهبان الداوية لدليل كاف على ذلك . فقد غلبت على الجنوية والبيازنة الذين بقوا فى دمياط لحراستها - عندما تقدم الجيش الفرنسى جنوبا صوب العاصمة - الصفة التجارية ، ورأوا ألا يعرضوا أنفسهم للخطر عندما علموا بوقوع لويس التاسع ورجاله فى أسر المصريين . فنراهم يقررون ترك دمياط والنجاة بأنفسهم ، ولم يعدلوا عن رأيهم إلا بعد أن ابتاعت لهم الملكة مرجريت كل ما هم فى حاجة إليه وأدخلتهم تحت نفقة الملك الخاصة ، فقد كانت حرفتهم التجارة وهمهم الأول والأخير هو الكسب المادى(١). أما الداوية - الذى من مبادئهم الفقر والطاعة - فقد أظهروا جشعهم وأنانيتهم عندما رفضوا إقراض لويس التاسع المال اللازم لاتمام دفع الفدية للمصريين ؛ ولم يحصل الملك على المبلغ المطلوب إلا بعد مناقشات حامية بينه وبينهم اشترك فيها جوانفيل(٢) . وهكذا يمكن القول إنه لم يكن لكثير من الصليبيين رغبة صادقة فى الجهاد ، وإن إخلاص المسلمين لهذا الاعتقاد كان يفوق إخلاص المسيحيين له.

وغير ذلك فقد امتازت هذه الحملة بالتهور وقصر النظر والاهمال الشديد من جانب الفرنج . فلولا تهور كونت ارتوا واندفاعه داخل المنصورة بعد عبوره قناة أشموم (٨ فبراير) لما حدثت تلك الهزيمة المنكرة التى قضت على مقدمة الجيش المسيحى (٣) . أما قصر النظر وعدم التقدير الصحيح لخواتيم الأمور ،

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 218.

(٢) Joinville (ed. Wailly), 206–10.

(٣) Cf. Oman, I, 351-2; Lamb, 304-5; Calthrop, 76; Osborn, 116 ; Grousset, Crois., III, 459; Delaville Le Roulx, Hospitaliers, 195; Tout, Empire & Papacy, 458.

فيبدو جليا فى القرار الذى اتخذه مجلس الحرب الصليبى الذى عقد بدمياط ، بالتوجه جنوبا صوب العاصمة بدلا من التوجه إلى الاسكندرية ، ذلك القرار الذى كان حلقة جديدة فى سلسلة الأخطاء التى انتهت بفشل الحملة(١) . أما إهمال الفرنج وتهاونهم فيتضح فى نسيانهم تحطيم الجسر الموجود على بحر أشموم عند تراجعهم من المنصورة إلى قاعدتهم فى دمياط فى الخامس من أبريل ١٢٥٠ م ، مما ترتب عليه أسوأ النتائج بالنسبة للصليبيين الهاربين(٢) .

وإلى جانب هذا كله ، فقد كان الشقاق والغيرة وتفرق الكلمة وعدم التعاون متوفرا فى الجانب المسيحى . يتضح ذلك فى اختلاف الصليبيين حول تقسيم الغنيمة التى وجدوها بدمياط ، وفى النزاع الذى قام بين روبرت كونت ارتوا ووليم كونت سالسبرى ، وفى العداء التقليدى بين الداوية والاسبتارية ، وفى الاختلاف بين رجال مقدمة الجيش المسيحى التى عبرت بحر أشموم عن طريق المخاضة . كل هذا سبب انقسامهم وكان له أكبر الأثر فى تخاذلهم ، فى الوقت الذى كان فيه الجانب الاسلامى متحد الكلمة متفق الرأى كالبنيان المرصوص يشد بعضه أزر بعض .

وأخيرا فقد كان من حسن حظ مصر أن هيأ القدر لها فى فترة الحملة ملك وملكة قاما بدور مجيد فى صد العدوان الصليبى عنها ، هما الصالح أيوب وزوجه شجر الدر . فنحن لا ننسى موقف الصالح ايوب عندما علم بعزم الفرنج على

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 100. Cf. Davis, Invasion of Egypt, 29. أنظر كذلك الدكتور الشيال : مجمل تاريخ دمياط ص ٣٢ .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 166. راجع أيضا ابن شاكر : عيون التواريخ جـ ٢٠ لوحة ٢٢ ؛ ابن الجزرى : ملخص تاريخ الاسلام ، ورقة ٨٠١ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٦٤ ؛ الذهبى : دول الاسلام جـ ٢ ص ١١٦ .

قصد مصر وإعداده العدة فى دمياط لملاقاتهم . ثم عزيمته الصادقة ـ رغم العلل والأوصاب التى به ـ عندما نزل بالمنصورة واستعد بها لملاقاة الأعداء ، فأبى إلا أن يساهم بنفسه فى قتالهم(١) . ولقد تمكنت شجر الدر بعد موت زوجها الصالح نجم الدين من إنقاذ مصر من الفرنج فى فترة غيبة المعظم فى الحصن إلى أن قدم ، حتى لقد نسب إليها ابن ايبك فضل إحراز النصر على الغزاة (٢) ، فأثبتت بذلك أنها إمرأة حازمة مدبرة خليقة بالملك . وليس أدل على ذلك من أن المماليك نادوا بها سلطانة على البلاد بعد مقتل توران شاه ، فكانت أول إمرأة بل المرأة الوحيدة التى حكمت مصر فى التاريخ الاسلامى .

هذه هى الأسباب التى أدت إلى فشل حملة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر فى منتصف القرن السابع الهجرى .

---

(١) راجع النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٣٧ .

(٢) ابن ايبك : درر التيجان ورقة ٥٦٨ .



خاتمة

ابتهاج المسلمين بالنصر على الفرنج — حزن أوروبا المسيحية — هدم دمياط — لويس فى عكا — محاولات فاشلة للقيام بحملة صليبية جديدة — لويس التاسع بين الأيوبيين فى الشام والمماليك فى مصر — عودة لويس إلى فرنسا — حملته الصليبية على تونس وموته — فتور الروح الصليبية — تقلص ظل اللاتين بالشام — الحملات الصليبية المتأخرة — تطور النزاع على فلسطين.

هذه هى عاقبة الحملة الصليبية السابعة على مصر فى منتصف القرن السابع الهجرى (منتصف القرن الثالث عشر الميلادى) . فقد أخفقت فى غرضها الأصلى كحرب دينية إستعمارية قامت من أجل استرداد الأراضى المقدسة ، كما أنها أخفقت أيضا فى الاستيلاء على مصر التى استطاعت أن تردها على أعقابها خاسرة .

ولقد ضربت البشائر وأقيمت الأفراح فى مصر والقاهرة وفى كل أنحاء القطر وسائر الولايات الاسلامية ، ابتهاجا لذلك النصر الذى أحرزه الجيش المصرى على الصليبيين . وعادت العساكر المصرية من دمياط إلى القاهرة فى يوم ٩ صفر ٦٤٨ هـ / ١٢ مايو ١٢٥٠ م . وانتهزت السلطانة شجر الدر هذه الفرصة ، فخلعت على الأمراء والعساكر وأرباب الدولة، وأنفقت فيهم الهبات والأموال، وأنعمت عليهم بالرتب والمناصب العالية ، تقديرا لما أبدوه من ضروب البسالة فى سبيل طرد الغزاة ، وكان ذلك فى ١٣ صفر ٦٤٨ هـ / ١٧ مايو ١٢٥٠ م(١) .

وتبارى الشعراء - كالعادة - فى تمجيد هذا النصر والإشادة به . وكان أجمل ما قيل فى هذه المناسبة القصيدة الطريفة التى نظمها الشاعر المصرى المعاصر جمال الدين بن مطروح (٢) فى وداع الحملة ، واصفا فيها انتصار الجيش المصرى على

---

(١) ابن واصل جـ ٢ لوحة ٣٧٣ ب . راجع أيضا : عقد الجمان جـ ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٧ ؛ فتوح النصر ورقة ١٦٢ ؛ مسالك الابصار جـ ٢٧ قسم ٣ لوحة ٢٧٣ ؛ كنز الدرر جـ ٧ ورقة ٣٨٦ ؛ خطط المقريزى جـ ١ ص ٢٢٣ ؛ السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٦٦ ؛ المختصر جـ ٣ ص ١٩٠ .

(٢) ولد ابن مطروح سنة ٥٩٢ هـ/١١٩٦ م وتوفى سنة ٦٤٩ هـ وقيل ٦٥٠ هـ/١٢٥١ م عن ٥٨ سنة تقريبا ، وكان شاعرا مجيدا من كبار المتعممين . اتصل بخدمة الملك الصالح أيوب منذ أن كان نائبا عن أبيه الكامل بمصر . وعندما ملك الصالح مصر فى ٦٣٧ هـ ، رتبه ناظرا فى الخزانة . ولما استولى على دمشق سنة ٦٤٣ هـ استنابه بها فترة من الوقت ثم عزله عنها . وفى ٦٤٦ هـ سيره مع العسكر إلى حمص لاستنقاذها من الحلبيين . ولما بلغ نجم الدين =

أولئك الغزاة (١)، وهى :

قـل للفرنسيس إذا جئته　　　مقـال حق صادر عن نصيح
آجـرك الله على ما جرى　　　من قتل عبـاد يسوع المسيح
أتيت مصراً تبتغى ملكها　　　تحسب أن الزمر ياطبل ريح
فساقك الحـــين إلى أدهم　　　ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحـابك أوردتهم　　　بحسن تدبيرك بطن الضـريح
خمسون ألفاً لا يرى منهم　　　إلا قتيــــل أو أسير جـريح

= عزم الفرنج على قصد مصر ، بعث إلى العسكر فى العودة لحفظ البـلاد، فقفلوا راجعين وابن مطروح فى الخدمة والصالح معرض عنه لأمور نقمها عليه . وقد أقام منذ ذلك الحين خاملا إلى أن وافته منيته . ولابن مطروح ديوان شعر مطبوع فى مدح أمراء الاسرة الايوبية . راجع : وفيات الاعيان ج ٢ ص ٣٤١–٣٤٤ ؛ مرآة الزمان ج ٨ لوحة ٥٢٤–٥٢٥ ؛ المنهل الصافى ج ٣ ورقة ٤٠٧ ا–٤٠٩ ا ؛ ذيل مرآة الزمان ج ١٥ ورقـة ١٥٤ ؛ قلادة النحر ج ٣ قسم ١ لوحة ٨٧٨ ؛ البداية والنهاية ج ١٣ مجلد ٧ ص ١٨٢ .

(١) اختلفت الرواية الاسلامية فى المناسبة التى قال فيها ابن مطروح قصيـدته . فقد ذكر أبو المحاسن (المنهل الصافى ج ١ ورقة ٣٨٥ ب ، والنجوم الزاهـــرة ج ٦ ص ٣٦٩) وكذلك السيوطى (حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٥ ؛ تاريخ ابن اياس ج ١ ص ٨٧) . أنه قالها عندما بلغه رغبة لويس التاسع فى العودة ثانية الى دمياط . ويقول ابن واصل (مفرج الكروب ج ٢ لوحة ٣٦٩ ب) إنه نظمها بمناسبة هزيمة الملك الفرنسى وجيشه فى مصر واعتقـاله بدار ابن لقمان . ويؤيد ابن واصل فى ذلك كثير من المؤرخين ، أنظر (ديوان ابن مطروح ص ١٨١ ؛ تاريخ ابن الوردى ج ٢ ص ١٨٣ ؛ تاريخ ابى الفـداء ج ٣ ص ١٩٠ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٣ ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٧ ؛ كنز الدرر ج ٧ ورقة ٣٨٦ ؛ عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة ٢٣) . ونحن نميل إلى ترجيح الرواية الثانية باعتبارها أقوى وأقرب إلى الصواب .

وفقــك الله لا مثالها | لعــل عيسى منكم يستريح
إن كان باباكم بذا راضيا | فرب غش قد أتى من نصيح(١)
وقل لهم إن أضمروا عودة | لأخــذ ثأر أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على حالها | والقيد باق والطواشى صبيح(٢)

والبيت الأخــير إشارة صريحة إلى الدار التى اعتقل بها الملك لويس وأخويه بالمنصورة تحت حراسة الطواشى صبيح المعظمى الشديدة .

وقال شاعر آخر لم تذكر مراجع الحملة إسمه ، قصيــدة فى نفس المعنى ، نقتطف منها الأبيات التالية:

---

(١) ذكر ابن خلدون (العبر ج ٥ ص ٣٦١) بعد هذا البيت بيتين آخرين لم تشر إليهما المراجع الأخرى ، هما :

أوصيكم خيرا به انه | لطف من الله إليكم أتيــح
لو كان ذا رشد على زعمكم | ما كان يستحسن هـذا القبيح

(٢) وردت هذه القصيدة فى مراجع الحملة المربية كلها تقريبا ، ولـكن مع اختلاف طفيف فى بعض الألفاظ . وقد اعتمدنا هنا على رواية العينى (عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٧) . أنظر أيضا : ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٦٩ ب — ١٣٧٠ ؛ ديوان ابن مطـروح ص ١٨١ — ١٨٢ . — ومما يذكر فى هذه المناسبة انه عندما انتصر المصريون على قوات جان دى برين فى الحملة السابقة على مصر ، قال شاعر يدعى راجح الحلى قصيدة مطلعها :

هنيئا فان السعد أضحى مخــلدا | وقد أنجز الرحمن بالنصر موعــدا
حبانا إله الخلق فتحــا بدا لنا | مبينا وإنعــاما وعــزا مـؤيدا

ويختتمها بقوله :

أعباد عيسى إن عيسى وحزبه | وموسى جميعــا يخدمون محمدا

أنظر حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٨ — ٢٩ . — أما فيما يتعلق بالشاعر راجح الحـلى ، راجع الـكتبي : فوات الوفيات ج ١ ص ١٥٨ .

قــل للفرنسيس إن كلا | له من المسلمين شاكــر
لأنـــه محسن إلينـــا | بقـــوده نحونا العساكر

. . .

أركبهم أدهما خضــيا | ورابح الشر فهـــو خاسر
ورام بابا همو أمـــورا | فأخلفت ظنـــه المقادر
وأذهل القوم هول حرب | تشخص من خوفه النواظر
لم تعم أبصارهم ولكن | قد عميت منهم البصـــائر

. . .

فإن يعـــد طالبا لثأر | من أرض دمياط فليبادر
فذلك البحر تعرفـــوه | والسيف ماض والجيش حاضر
أعاده الله عن قـــريب | لمثلها إنـــه لقـــادر
بحيث لم يبق للنصارى | من بعـد كسر الصليب جابر
ويستريح المسيـــح منهم | من كل علج(١)وكل كافر (٢)

ومن الطريف أنه عندما نزل لويس التاسع وجيشه على تونس فى ١٢٧٠م / ٦٦٨ هـ — وهى الحملة الصليبية الثالثة والأخيرة التى قام بها هـذا الملك — قال شاب من أهلها اسمه احمد بن اسماعيل الزيات :

يا فرنسيس هـــذه أخت مصر | فتأهب لما إليـــه تصير
لك فيهـا دار ابن لقمان قبر | وطواشيك منكر ونكير (٣)

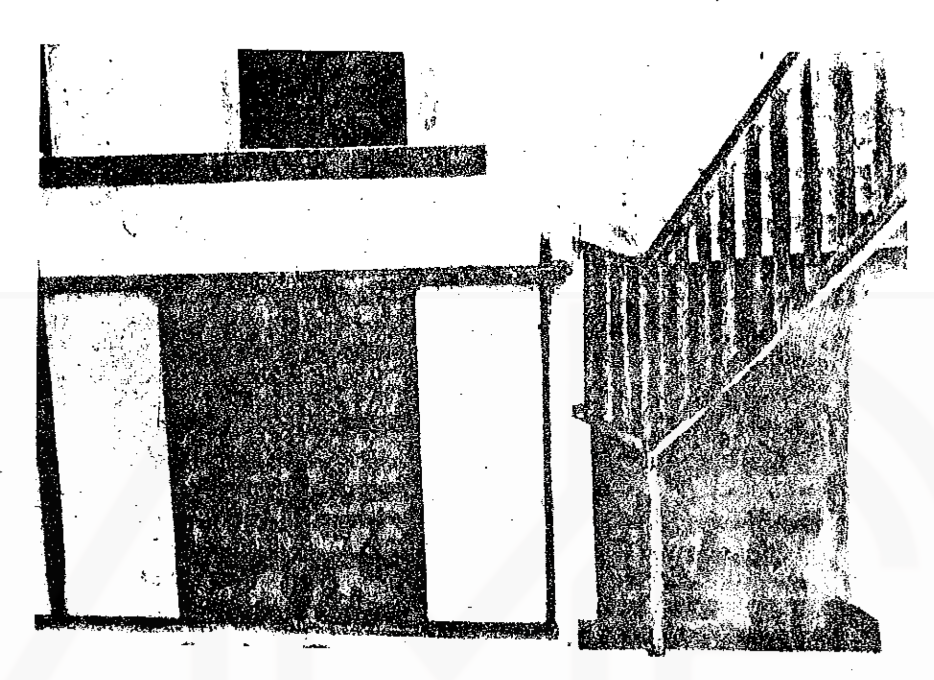
---

(١) المقصود بالعلج هنا الكافر . أنظر ماده علج فى محيط المحيط .

(٢) راجع الكتبى : فوات الوفيات جـ ١ ص ٨٤ ـ ٨٥ ، وعيون التواريخ جـ ٢٠ لوحة ٢٤ .

(١) ديوان ابن مطروح ص١٨٢؛السلوك جـ١ قسم ٢ ص ٣٦٥ . راجع أيضا : عقد الجمان

لوحة رقم ٩



صـــورة حديثة لدار ابن لقمان

حيث اسر لويس التاسع

ففى هذين البيتين تذكير لما لاقاه لويس فى مصر من هزائم وضائقات ، كما «كان هذا فألا حسنا ، فإنه مات وهو على محاصرة تونس . » (١)

وبينما كان المسلمون يقيمون الأفراح وينظمون القصائد ابتهـاجا بهـذا النصر، عم اليأس والجزع أوروبا الغربية لما منيت به الحملة من هزيمة منكرة(٢).

= ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٢١٨ ؛ المنهل الصافى ج ١ ورقه ٢٥٨ ب ـ ٢٥٩ ا ؛ الاحكام الملوكية لوحة ٦٣ .

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٢ .

(٢) Rothelin, 619-620.

فلم يقتصر الأمر على فشلها فى تحقيق رسالتها التى قامت من أجلها ، لكنها فقدت فى مصر عددا لا يستهان به من رجالها بين قتيل وأسير وجريح . وتروى بعض المراجع العربية أن النصارى ببعلبك عندما بلغهم ما نزل بالجيش المسيحى من الهزائم سودوا وجوه الصور فى كنيستهم حزنا على ذلك (١) . ويصف المؤرخ الغربى المعاصر للحملة متى الباريزى حالة فرنسا حينذاك ، فيقول إنه شملها الحزن من أقصاها إلى أقصاها ، وتحول كل شىء فى المملكة إلى أنين وبكاء ، « فالآباء والأمهات يندبون أبناءهم ، والصغار واليتامى يبكون آباءهم ، والأصدقاء ينوحون على أقاربهم وأصدقائهم »(٢) . ويستمر نفس المؤرخ فى وصف هذه الحالة فيقول إن عددا كبيرا من المسيحيين قد تزعزعت عقيدتهم وكانوا على وشك الارتداد عن دينهم لو لم يعمل رجال الدين على تهدئة خواطرهم وإقناعهم أن جميع الذين قتلوا فى هذه الحملة الصليبية أصبحوا فى مرتبة الشهداء(٣). ويقول الكاتب الفرنسى لافيس Lavisse إن هذه الهزيمة تعتبر بحق من أشد الهزائم التى نزلت بالفرنج حتى أنهم انصرفوا تماما عن فكرة الاشتراك فى حرب صليبية جديدة (٤) .

ومن الآثار التى ترتبت على هذه الحملة أيضاً تخريب مدينة دمياط التى قاست الأمرين من حملات الفرنج المتتابعة عليها فى عهد الدولة الأيوبية ، حتى أن الملك

---

(١) راجع أبو شامة : الروضتين (مجموعة الحروب الصليبية) جـ ٥ ص ١٩٨ ؛ البداية والنهاية جـ ١٣ مجلد ٧ ص ١٧٨ ؛ نهاية الأرب جـ ٢٧ لوحة ٩٤ ؛ نزهة الأنام لوحة ٨٠ ب .

(٢) Matt. Paris, II, 386-7.

(٣) Matt. Paris, II, 387. Cf. Bray, 225-7.

(٤) Lavisse, Hist. de France, III, II, 99.

المعز أيبك والمماليك البحرية اتفقوا على تخريبها فى شعبان ٦٤٨ هـ/نوفمبر ١٢٥٠م — أى بعد نحو ستة أشهر من مغادرة الفرنج أرض مصر — وابتنوا دمياط الجديدة إلى الداخل بعيدا عن شاطىء البحر ، حتى تخلص من شر اعتداء الصليبيين عليها [١] . لم يكتف المصريون بهذا ، فعندما اعتلى الملك الظاهر بيبرس عرش مصر ، نراه يلجأ إلى طريقة فعالة لحماية مدخل النيل عند دمياط من اعتداء الغزاة وهجماتهم . ففى السنة الثانية من حكمه وهى سنة ٦٥٩ هـ/ ١٢٦١ م ، « أخرج من مصر عدة من الحجارين لردم فم بحر دمياط ، فمضوا وقطعوا كثيرا من القرابيص [٢] وألقوها فى النيل الذى ينصب من شمال دمياط فى البحر الملح حتى ضاق وتعذر دخول المراكب فيه » [٣] . وهكذا نرى أن حملة لويس التاسع على مصر كانت شؤما على مدينة دمياط القديمة التى قال عنها المؤرخ المعاصر ابن واصل إنها « عقيلة الإسلام وثغر الديار المصرية » [٤] .

ليست هذه كل نتائج الحملة ، بل لقد ترتب عليها نتائج أخرى لا تقل عنها أهمية تتمثل فى الدور الذى قام به لويس التاسع خلال إقامته بالأراضى المقدسة

---

(١) عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٢١ ؛ مسالك الأبصار ج ٢٧ قسم ٣ لوحة ٢٧٥ ؛ كنز الدرر ج ٨ ورقة ١٦ ؛ خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٣ ؛ المختصر ج ٣ ص ١٩٢ ؛ تتمة المختصر ج ٢ ص ١٨٥ . أنظر أيضا : Matt. Paris, II, 458

(٢) رجعت الى « لسان العرب » مادة قربص وقربس وخربص ، وكذلك رجعت الى « محيط المحيط » لتحديد معنى هذه اللفظة ، فلم يتبين لى معناها جليا حسبما يوحى به السياق ، ولعل المقصود كتل من الحجر لسد فم النهر . وليس بعيدا أن يكونوا قد لجأوا الى الاستعانة ببعض خشب سرج الخيل لسده وخصوصا أن معنى القربوص حنو السرج وقيل خشبته .

(٣) خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

(٤) ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٧٣ ب .

بعـد رحيله عن مصر .

لقد أقلع الأسطول الصليبي بالملك الفرنسي ورجاله الذين أخلى المصـــريون سبيلهم إلى عكا وقد رجعوا من الغزو بالاخفاق التـام . فاستقبل حين وصـوله هناك إستقبالا حاراً من جميع طبقـــات الشعب ، دينيين ودنيويين ممن « كانوا يذرفون الدمع ابتهاجا بخلاصه وفلول قواته ، وحزنا على ما أحاق بالمسيحية من محن . » (١)

على أن وصول الملك الفرنسي إلى عكا (١٣ مايو ١٢٥٠ م) جعله فى مأزق حرج دقيق ، فهو بين واجب البقاء فى الأراضى المقدسة لرعاية الصـالح المسيحى العام ، وبين داعى العـــودة إلى فرنسا ؛ إذ أرسلت إليه الملكة الوالدة بلانش صاحبة قشتالة تستدعيه للرجوع إلى مملكته التى طمع الانجليز فى الوثوب عليهـا أثناء غيبته فى الشرق . حينئذ عقـد لويس مجلساً حربيـــاً من بارونات فرنسا ورجال الدين وجماعات الفرسان الداوية والاسبتـارية والتيـوتونية وبارونات مملكة بيت المقدس للتداول فيما يجب اتخـاذه . وقد اجتمع المجلس ثلاثة آحاد متتالية (من ١٩ يونيو إلى ٣ يوليو ١٢٥٠ م) وانقسم الأعضـــاء فريقين : فريق يتألف من غالبية الصليبيين يرى ضرورة العودة إلى فرنسا ، وفريق آخر على رأسه جوانفيل يرى أنه يجب البقاء بالشام لحماية الإمارات الفرنجية بهـا من غائلة المعتدين . وبعد تمحيص الآراء قرر الملك لويس البقـاء فى فلسطين إلى أن يفتك باقى الأسرى المسيحيين الذين لا يزالون فى قبضـة المصريين ، كما رأى أن بقاءه قد يعود بالنفع على المسيحيين فى الشرق اللاتينى خصوصا بعد الخلاف الذى

---

(١) Rothelin, 619-20.

نشب بين الأيوبيين فى الشام والمماليك فى مصر بعد قتل المعظم توران شاه (١) . لكنه على أى حال أنفذ أخويه كونت انجو وكونت بواتييه إلى فرنسا ، للدعوة إلى التئام القوى للقيام بحملة صليبية جديدة تمحو عار الهزيمة التى منى بها فى المنصورة وفارسكور (٢) .

ولم تكن أوروبا حينذاك فى حالة تمكنها من إيفاد قوات إلى الشرق للقيام بحرب صليبية جديدة تعوض ما خسره الفرنسيون فى مصر (٣) . فقد كان الصراع على أشده بين البابوية والامبراطورية ؛ إذ استمر الصدام بين البابا انوسنت الرابع وبين كونراد الرابع ابن فريدريك الثانى بعد موت الأخير فى ١٣ ديسمبر ١٢٥٠ م . ودعا البابا إلى حرب صليبية ليس لنجدة المسيحيين فى الشرق اللاتينى ، ولكن ضد الامبراطور الجديد وأعوانه . وقد شل هذا النزاع حركة العالم المسيحى فى أوروبا بعامة ، وفى كل من إيطاليا وألمانيا على وجه أخص (٤) . أما فى انجلترا فقد قيد مليكها هنرى الثالث اسمه فى سجل الحرب المقدسة متعهدا بحمل الصليب لنجدة الأرض المقدسة . ولكنه انتهز فرصة غياب لويس التاسع عن مملكته للوثوب عليها وضم بعض أقاليمها إلى بلاده . ودفع إلى

---

(١) Epistola Ludovici (ed. Bongars), I, 1199—1200; cf. Iorga, 169; Campbell, 431-2; Bréhier, 226; Delaville Le Roulx, Hospitaliers, 196.

(٢) Epistola Ludovici (ed. Bongars), I, 1200. Cf. Campbell, 432; Bréhier, 226; Stevenson, 329.

(٣) Cf. Ludlow, 357; Bréhier, 226; Stevenson, 331; Campbell, 432.

(٤) Matt. Paris, II, 483, 497-8. Cf. Bréhier, 226; Kitchin, I, 346; Campbell, 432.

البابوية مبلغاً كبيراً من المال ليصبح فى حل من العهد الذى أخذه على نفسه بحمل الصليب . لم يكتف هنرى بكل هذا ، بل فرض أيضا حراسة شديدة على الموانى والثغور الانجليزية لمنع رعاياه الذين حملوا الصليب من الابحار إلى الشرق (١) . كذلك كان المسيحيون فى اسبانيا فى قتـــال مستمر ضد المسلمين بها ، مما حال بينهم وبين المساهمة فى حرب صليبية خارج شبه الجزيرة (٢) .

أما فى فرنسا فقد صادفت المجهودات التى بذلت لجمع نجـــدات منها نجاحا ضئيلا . فقد قامت حركة شعبية كان يمكن أن تمد الملك الفرنسى بعدد كبير من المتطوعين لو أحسن تنظيمها وقيـــادتها وتوجيهها الوجهة الصحيحة . إذ ادعى أحد الرعاة أن المولى أناط إليه مهمة تحرير الأراضى المقدسة ، وأطلق على نفسه لقب « سيد هنغاريا » لأنه كان هنغـــارى المولد. وانتشرت حركته بسرعة فى انحـــاء فرنسا ، وقد عرفت فى التـــاريخ باسم « صليبيـــة الرعاة » « Crusade of the Pastoureaux » ، لأن الذين اشتركوا فيهـــا كانوا من المزارعين ورعاة الأغنام . لكن هذه الجموع الغفيرة غير النظامية أخذت تعيث فسادا فى البلاد التى مرت بها داخل فرنسا ، مما دفع الملكة النائبة بلانش صاحبة قشتالة إلى كبح جماحهم ووضع حد لأعمال العنف التى كانوا يقـــومون بها ، فتعقبتهم وشتتت شملهم وقبضت على الكثيرين منهم ، حتى أن القليلين هم الذين تمكنوا من الافلات والعودة إلى ديارهم سالمين (٣) .

وعبثا انتظر الملك لويس التاسع خلال وجـوده بعكا وصـول الامـدادات

---

(١) Matt. Paris, II, 330-1, 357. Cf. Campbell, 432–3; Ludlow, 357; Bréhier, 226–7.

(٢) مونروند : الحروب المقدسة ج ٢ ص ٣٣٤ . أنظر كذلك: Bertrand & Petrie, 195 - 6.

(٣) Matt. Paris, II, 451–2, 443-6. Cf. Campbell, 433–4; Bréhier, 227; Michelet, I, 571; Kitchin, I, 347; Previté - Orton, 436.

والنجدات التي بعث في طلبها من الغرب الكاثوليكي . فضلا عن أنه كان في حاجة ماسة إلى المال للصرف على قواته ، لأن الفدية التي دفعها للمصريين أرهقت موارده المالية . وقد أرسلت إليه الملكة بلانش مبالغ كبيرة ، لكن السفينة التي كان يوجد بها المال غرقت وهي في طريقها إلى عكا . أضف إلى ذلك أنه لم يبق مع الملك الفرنسي من القوات التي هاجم بها الديار المصرية سوى بضع مئات من الفرسان ، مما لا يكفي للقيام بأي عمل إيجابي حاسم (١) .

ولكن رغما عن ذلك فقد بقي لويس في الأراضي المقدسة مدة تقرب من أربع سنوات (مايو ١٢٥٠ - ابريل ١٢٥٤م) (٢) . وقد نعجب لطول هذه المدة التي يبدو أنه لم يكن هناك أي مبرر لها . لكن هذا العجب سرعان ما يزول إذا فحصنا حالة الشرق الأدنى السياسية في ذاك الحين ، بعد ثورة المماليك في مصر التي أدت إلى تغير نظام الحكم وانتقاله من سلالة بني أيوب إلى المماليك البحرية. فكان من جراء هذا نشوب الخلف بين هؤلاء المماليك وأمراء بني أيوب في الشام الذين لم يقبلوا عليهم ملكا من مماليك أسرتهم . وقد استغل الملك لويس التاسع هذا الخلف الناشب بينهما لصالح القضية الصليبية ؛ إذ كان كل من الفريقين يسعى إلى اكتساب وده واجتذابه إلى جانبه في صراعه ضد خصمه . وعلى ضوء هذه الحقيقة يجب أن ندرس هذا الصراع بين مصر والشام ، لنعرف أن لويس كان يطمع في اتساع هوة الخلاف بينهما حتى يخلو له الجو ويمكنه حينئذ تحقيق مطامعه

---

(١) Matt. Paris, II, 445; Joinville (ed. Wailly), 294. Cf. also : Campbell, 434.

(٢) حول السنوات الأربع التي أمضاها لويس التاسع في الأراضي المقدسة بعد هزيمته في مصر أنظر كتابي « لويس التاسع في الشرق الأوسط — قضية فلسطين في عصر الحروب الصليبية — القاهرة ١٩٥٩ . »

التى أخفق فى الحصول عليها عن طريق الحرب والقتال (١) .

لقد افتتحت السلطانة شجر الدر عصر المماليك فى مصر بتوليها الملك رسميا فى ٣ صفر ٦٤٨ هـ / ٧ مايو ١٢٥٠ م ، وذلك عقب ثورة المماليك البحرية واغتيال توران شاه آخر ملوك الدولة الأيوبية بمصر وابن زوجها الراحل الملك الصالح نجم الدين .

وأثار تغير نظام الحكم فى مصر استياء أمراء بنى أيوب فى الشام . فقد غضبوا من هذا الوضع الجديد بانتقال السلطة من سلالتهم إلى هؤلاء المماليك ، وفكروا فى وجوب إرجاع الأمور إلى نصابها ، ولو أدى هذا إلى نشوب الحرب وإراقة الدماء (٢) . وبدأت بوادر حركة التمرد هذه على إقامة شجر الدر فى ملك مصر حينما وصل رسول من مصر إلى دمشق لاستحلاف من بها من الأمراء فلم يجبه الأمراء إلى طلبه ولا الأمير جمال الدين بن يغمور نائب السلطنة بها (٣) ، وكان المعظم قد أقره على نيابة السلطنة بدمشق حين مروره بها فى طريقه من حصن كيفا إلى الديار المصرية . وكتب أولئك الأمراء إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد صاحب حلب يحثونه على سرعة المسير حتى يملك دمشق . وطبيعى أن يرحب الناصر بهذه الدعوة ، فيخرج من حلب بعساكره فى مستهل ربيع الثانى ٦٤٨ هـ / ٢ يوليو ١٢٥٠ م قاصدا دمشق ، التى زحف عليها ودخلها يوم الاثنين ١٠ ربيع الثانى ٦٤٨ هـ / ١١

(١) Epistola Ludovici (ed. Bongars), I, 1199; Matt. Paris, II, 460. Cf. Stevenson, 329.

(٢) راجع : العبر جـ ٥ ص ٣٧٤ ؛ خطط المقريزى جـ ٢ ص ٢٣٧ .

(٣) راجع فى ذلك : عقد الجمان جـ ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٨ ؛ مسالك الابصار جـ ٢٧ قسم ٣ لوحة ٢٧٣ ؛ السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٦٦ .

يوليو ١٢٥٠ م دون قتال بفضل الأمراء القيمرية الذين فتحوا له أبواب البلد ، وهؤلاء الأمراء هم أسرة كردية من المماليك الأيوبيين (١) . كذلك استغل باقى أمراء بنى أيوب بالشام فرصة الانقـــلاب الذى حدث بمصر ، فاستقل الملك المغيث عمر (٢) بحكم الكرك والشوبك وهما أيضا ولايتين من ولايات مصر ، كما استولى الملك السعيد (٣) على قلعة الصبيبة بالشام (٤) .

(١) أبو الفرج : تاريخ مختصر الدول (طبعة بيروت) ص ٤٥٦ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٦٦ — ٣٦٧ ؛ دول الاسلام للذهبى ج ٢ ص ١١٨ ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٩ ؛ مسالك الأبصار ج ٢٧ قسم ٣ لوحة ٢٧٤ ؛ كنز الدرر ج ٧ ورقة ٣٨٦ — ٣٨٧ .
راجع أيضا : Epistola Ludovici (ed. Bongars), I, 1199, Stevenson 329.

(٢) هـو الملك المغيث فتح الدين عمر بن العـــادل سيف الدين أبى بكر بن الـكامل بن العادل بن أيوب . وقد كان عند عماته بالقاهرة ، فلما توفى الملك الصالح أيوب اعتقله الأمير حسام الدين نائب السلطنة بالقاهرة فى قلعة الجبـل ؛ إذ بلغه أن الأميرفخر الدين ربمـا رتب المغيث فى الملك ليحكم باسمه نظرا لصغر سنه . ولما وصل المعظم توران شاه الى المنصورة قادما من حصن كيفا ، أرسل المغيث إلى الشوبك واعتقله بها خوفا منـه . فلما اغتيـــل المعظم ، أخرجـه الطواشى بدر الدين لؤلؤ الصوابى الصـــالحى — وكان نائب الصالح أيوب بالكرك والشوبك — وملكه البلدين وقام بتدبير دولتـــه . وقد بقى الملك المغيث بها حتى قبض عليه الملك الظاهر بيبرس وقتله فى ٦٧١ هـ ، وهو آخر من ملك الكرك من بنى أيوب . أنظر عقد الجمان ج١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٨ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٦٦ ؛ صبح الأعشى ج ٤ ص ١٧٦ ؛ مفرج الكروب ج ٢ لوحـــة ٣٧٤ ا — ب ؛ نهـاية الأرب ج ٢٧ لوحة ١٠٤ ؛ ابن أبى السرور : عيون الأخبار (أنظر المقصد السابع عشر فى ذكر الدولة الأيوبية) .

(٣) هو الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان بن العادل أبى بكر بن أيوب . أنظر السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٦٦ ؛ مسالك الأبصار ج ٢٧ قسم ٣ لوحة ٢٧٣ .

(٤) عقد الجمان نفس الجزء واللوحة ؛ مسالك الأبصار ج ٢٧ قسم ٣ لوحة ٢٧٣—٢٧٤ ؛ كنز الدرر ج ٧ ورقة ٣٨٦ ؛ السلوك نفس الجزء والصفحة .

من هنا يتضح لنا أن مهمة الملك لويس التاسع فى هـذه الفترة بالذات التى اشتد فيها النزاع بين بنى أيوب فى الشام والمماليك البحرية فى مصر وأصبحت الحرب بينهما على وشك الوقوع ،هى استغلال الفرصة وترقب الأمور عن كثب، واتخاذ خطة السياسة والدهاء ، والتلويح لكلا الفريقين بمناصرة الفريق الآخر ، عساه يعوض من وراء ذلك ما فاته فى حملته المشئومة على الديار المصرية . وقد أفادته الظروف إلى حد بعيد ، إذ أن وجـوده فى عكا على مقربة من مسرح النضال بين القوتين المتعاديتين ، جعل كليهما يسعى إلى خطب وده واكتسابه إلى جانبه فى صراعه ضد خصمه .

ولعل أبلغ ما يوضح ذلك ما عرضه الملك الناصر يوسف على لويس التاسع فى التحالف معه ضد المماليك البحرية على أن يسلمه نظير ذلك بيت المقدس. ولكن لويس رأى أنه من السياسة ألا يعطى الأمير الأيوبى ردا حاسما على مطالبه ، خاصة وأنه مازال فى مصر عـدد كبير من الأسرى الصليبيين الذين لم يطلق المصريون سراحهم بعد . فقد كان يخشى أنه إذا اتفق مع الناصر ضد المماليك أن ينتقم هؤلاء من الأسرى الصليبيين. لذا وقف من الناصر موقف الحياد فى الوقت الذى أخذ يهدد فيه المماليك بالتحالف مع أعدائهم بالشام عله يفتك الصليبيين الذين كانوا لايزالون فى أسرهم (١) . وقد كان لويس حكيما فى تصرفه هذا ، إذ استطاع أن يحصل على سراح كثير من الأسرى . فلقد وجـد المماليك أنه من صالحهم أن يجيبوه إلى مطالبه حتى لا يحملوه على مناصرة عدوهم . ففى شهر سبتمبر ١٢٥٠ م / جمادى الثانى ٦٤٨ ﻫ ، أخلى المصريون سبيل عدد كبير من

---

(١) Cf. Stevenson, 329; Iorga, 169–170; Delaville Le Roulx, Hospitaliers, 196-7.

الأسرى الفرنج من بينهم رئيس الاسبتارية غليوم دى شاتنوف ، وقد وصلوا عكا فى ١٧ أكتوبر ١٢٥٠ م [1] / رجب ٦٤٨ هـ .

نعود إلى موضوع الصراع بين الأيوبيين والمماليك فنقول إن استقلال بعض أمراء الأسرة الأيوبية بأملاك مصر فى الشام أدى إلى حدوث كثير من الفتن والاضطرابات فى مصر . فجدد الأمراء والمماليك الايمان والولاء لشجر الدر التى تزوجت من الأتابك عز الدين أيبك التركمانى الصالحى وتنازلت له عن عرش المملكة بعد نحو ثمانين يوما من ارتقائها إليه ، وبايعته العساكر بلقب الملك المعز ، وكان ذلك فى يوم السبت ٢٩ ربيع الثانى ٦٤٨ هـ/ ٣٠ يوليو ١٢٥٠م [2]. وقد دلت هذه الخطوة على بعد نظرها ، فكانت لا تجهل دقة مركزها الخاص ليس فقط باعتبارها أول ملكة حكمت مصر فى الإسلام، ولكن أيضا باعتبارها ملكة غريبة عن الأسرة الأيوبية . وقد عد حدثا فذا أن تحكم إمرأة بلدا إسلاميا ، حتى أن الخليفة العباسى المستعصم بالله أنكر أمر شجر الدر وبعث إلى

---

(١) Delaville Le Roulx, op. cit., 197. — وجاء فى تاريخ هرقل Eracles, 439. أن عدد الأسرى الذين أخلى المصريون سبيلهم يقدر بحوالى ٨٠٠ أسير ؛ أما روتلان Rothelin, 625. فيقسم هؤلاء الأسرى إلى : رئيس الاسبتارية وفرسانه البالغ عددهم ٢٥ و ١٥ من الداوية و ١٠ من الفرسان التيوتونية و ١٠٠ فارس صليبى و ٦٠٠ أسير مسيحى آخر من رجال ونساء . ويقول أيضا إن لويس افتك بعد ذلك من سلطان مصر حوالى ٩٠ فارسا مسيحيا و ٢٢٠٠ أسيرا آخر من رجال ونساء مقابل ٣٠٠ أسير مسلم كانوا فى قبضته . أنظر : روتلان نفس الصفحة .

(٢) راجع عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٩ — ٣٢٠ ؛ كنز الدرر ج ٨ ورقة ١٣ — ١٤ ؛ مسالك الأبصار ج ٢٧ قسم ٣ لوحة ٢٧٤ ؛ الوافى بالوفيات ج ٣ قسم ١ لوحة ١٤٦ ؛ المنهل الصافى ج ١ ورقة ٢ ب و ج ٢ ورقة ١٧٥ ب ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٦٧ — ٣٦٨ و ٣٦٩ .

أمراء مصر يقول لهم : « إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلا » [١] .

على أن تولية المعز أيبك الملك لم تضع حدا لخطر أمراء الدولة الأيوبية بالشام الذين كانوا يعدون العدة للزحف على الديار المصرية وردها إلى أملاك أسرتهم . فرأى المماليك البحرية أن يحاربوهم بنفس سلاحهم ، فاختاروا في يوم الأربعاء ٣ جمادى الأولى ٦٤٨ هـ / ٣ أغسطس ١٢٥٠ م - بعد ثلاثة أيام من مبايعتهم للمعز - صبيا صغيرا من بني أيوب « ليجتمع الكل على طاعته ويطيعه الملوك من أهله » (٢) ، ولقبوه بالملك الأشرف مظفر الدين موسى ، وكان إبنا للملك الناصر يوسف بن الكامل وحفيدا لآخر ملوك بني أيوب في اليمن. وخطب على المنابر للملكين الأشرف والمعز (٣) .

على أي حال لانحب أن ندخل في تفصيلات دقيقة تخرج بنا عن موضوع البحث ، ولكننا نوجز فنقول إن كل هذا لم يحل بين ملوك الشام من بني أيوب وبين قيام جيوشهم لقتال المماليك وانتزاع مصر منهم . فقد جهز الناصر يوسف جيشا كبيرا وانضم إليه ملوك أسرته، وخرجوا جميعا من دمشق يوم الأحد ١٥ رمضان ٦٤٨ هـ/١١ ديسمبر ١٢٥٠م قاصدين مصر حتى بلغوا العباسة من أعمال

---

(١) السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٦٨ ؛ حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٤ ؛ مرعى بن يوسف: نزهة الناظرين ورقة ٢٢٩ .

(٢) السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٦٩ .

(٣) السلوك نفس الجزء والصفحة ؛ حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٥ ؛ البداية والنهاية ج ١٣ مجلد ٧ ص ١٧٨ — ١٧٩ ؛ المنهل الصافي ج ١ ورقة ٢ ب — ٣ ا ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٢٠ ؛ الوافي بالوفيات ج ٣ قسم ١ ورقة ١٤٦ ؛ مسالك الأبصار ج ٢٧ قسم ٣ لوحة ٢٧٤ — ٢٧٥ ؛ كنز الدرر ج ٨ ورقة ١٤ .

مديرية الشرقية . وأعد الملك المعز من جهته جيشاً لدفع عساكر الأيوبيين . وسار هذا الجيش من القاهرة حتى بلغ الصالحية . ووقعت الموقعة بين الفريقين (الخميس ١٠ من ذى القعدة ٦٤٨ هـ / ٢ فبراير ١٢٥١ م) ، فانهزم المماليك فى أول الأمر ، ولكن حدث أن غدر بعض مماليك الناصر به وانضموا إلى مماليك مصر مما أدى إلى انتصار الجيش المصرى ودخول الملك المعز القاهرة منصورا يوم السبت ١٢ من ذى القعدة ٦٤٨ هـ / ٤ فبراير ١٢٥١ م ، بينما عاد الناصر يوسف إلى الشام منهزما هو ومن استطاع اللحاق به من رجاله [1] .

لم تضع هزيمة الناصر يوسف حداً للنزاع بين الملكين ، أو بين الأيوبيين والمماليك . فقد عاد الناصر بمن تبقى من قواته إلى الشام ليعد العدة لهجوم آخر على الديار المصرية بقصد الاستيلاء عليها . فكانت هذه فرصة جديدة أتيحت للويس التاسع عمل على استغلالها لصالح القضية الصليبية التى كرس حياته من أجلها . وقد كان المماليك فى هذه المرة أسبق إلى خطب ود الملك الفرنسى من خصومهم أمراء الشام ، إذ عرضوا عليه تسليمه بيت المقدس مقابل مناصرتهم ووقوفه إلى جانبهم فى نزاعهم ضد الناصر والأيوبيين بالشام . وليس أوضح من نص العينى فى هذا الصدد ، إذ قال « ومال الجيش المصرى بالفرنج ، ووعدوهم أن يسلموا إليهم بيت المقدس إن نصروهم على الشاميين ، وكان قد اشتدت الحرب بينهم » (٢) . أخذت الرسل تتردد بينهما إلى أن تم الاتفاق على أن يتوجه الفرنج

---

(١) فيما يتعلق بهذه الموقعة راجع : تراجم رجال القرنين ص ١٨٦ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٧٢ — ٣٧٨ ؛ المنهل الصافى ج ١ ورقة ١٢ — ٣ ب ؛ عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٢٢ — ٣٢٤ ؛ الوافى بالوفيات ج ٣ قسم ١ لوحة ١٤٧ — ١٤٨ ؛ مسالك الابصار ج ٢٧ قسم ٣ لوحة ٢٧٦ — ٢٧٧ ؛ كنز الدرر ج ٨ ورقة ١٦ — ١٨ .

(٢) عقد الجمان (مجموعة الحروب الصليبية) ج ٢ قسم ١ ص ٢١٥ . راجع أيضا :
Joinville (ed. Wailly), 254.

إلى يافا والمصريون إلى غزة فى منتصف مايو ١٢٥٢ م / ربيع الأول ٦٥٠ ﻫ ، ليرد المصريون إلى الصليبيين بيت المقدس التى كانت آنئذ تحت حكم الناصر يوسف . وقد تعهد المصريون أيضا باطلاق سراح باقى الأسرى المسيحيين الموجودين فى مصر ، وأن يبعثوا إلى الملك الفرنسى برءوس الفرنج المعلقة على أسوار القاهرة (١) . وقد عقدت الهدنة بين الطرفين فى أواخر مارس ١٢٥٢م/ المحرم ٦٥٠ ﻫ لمدة ١٥ سنة (٢) .

خاف الناصر يوسف سلطان دمشق وحلب مغبة هذا الاتفاق المبرم بين الفرنج والمماليك ، وأدرك أنه موجه ضده ، ففيه ضياع أملاكه بالشام وأولها بيت المقدس . لذلك بعث بجيش كبير قوامه أربعة آلاف مقاتل إلى غزة للاستيلاء عليها ومنع المصريين من الانضمام إلى حلفائهم الصليبيين . وقد حالت قوات الشام هذه دون اتصال المصريين بالفرنج وأفسدت عليهم خطتهم. ولكن كيفما كان الأمر فقد استفاد لويس التاسع من المعاهدة التى أبرمها مع مماليك مصر ، إذ أطلقوا عددا كبيرا من أسرى الفرنج ، كما بعثوا إليه برءوس جميع المسيحيين التى كانت معلقة حول أسوار العاصمة (٣) .

على أى حال ظل كل من المماليك والأيوبيين يترقب الآخر فترة من الزمن والرسل مترددة بينهما حتى قدم الشيخ نجم الدين أبو محمد عبدالله البغدادى رسولا

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 256, 282. Cf. also Ludlow, 358; Stevenson, 330; Iorga, 170.

(٢) Cf. Delaville Le Roulx, Hospitaliers, 197, n. z.; Ludlow, 358; Stevenson, 330.

(٣) Joinville (ed. Wailly), 282-4. Cf. also Ludlow, 358; Stevenson, 330.

من قبل الخليفة العباسى لإقرار الصلح بين الملكين : الناصر والمعز . فقد رأى الخليفة أن القتال دائر بين الجيوش المصرية والشامية، وما زال الفرنج فى الأراضى المقدسة يعملون على إذكاء جذوة الخلاف بين المسلمين فى مصر والشام ، مما يعود عليهم وحدهم بالنفع والفائدة . لذا أوفد المستعصم بالله رسولا من قبله لحسم النزاع بينهما . وقد تم الصلح فى صفر ٦٥١ هـ / ابريل ١٢٥٣ م على أن يتنازل الناصر للمعز عن غزة والقدس كما اعترف له بملك مصر . وأصبحت باقى البلاد الشامية للملك الناصر يوسف (١) . وانتهى بهذا الصلح الخطر الذى أثاره أمراء بنى أيوب فى الشام ، ورجع كل من الملكين إلى مقره ، وعادت الأمور إلى مجراها الطبيعى .

وهكذا باءت جهود لويس التاسع فى إثارة الفتنة بين الأيوبيين فى الشام والمماليك فى مصر بالفشل . والواقع أن ذلك الصلح كان ضربة قاسية أصابت آمال الملك الفرنسى ، إذ انهار ما كان يرجوه من وراء الشقاق الناشب بين القوتين من حيث إضعافهما معا واستفادة الصليبيين وحدهم من ذلك . وأدرك أن مهمته فى الأراضى المقدسة قد آذنت بالانتهاء ، كما أدرك أيضا أن هذا الصلح عاد بالضرر على معاقل اللاتين وممتلكاتهم فى الشام التى باتت مهددة بالخطر والضياع بعد أن خلا الجو للناصر يوسف باتفاقه مع من بيدهم السلطة فى مصر (٢) . لذا

---

(١) العينى : عقد الجمان (مجموعة الحروب الصليبية) ج ٢ قسم ١ ص ٢١٥ ؛ المنهل الصافى ج ١ ورقة ٣ ب ؛ الوافى بالوفيات ج ٣ قسم ١ لوحة ١٤٨ ؛ مسالك الابصار ج ٢٧ قسم ٣ لوحة ٢٧٩ ؛ كنز الدرر ج ٨ ورقة ٢٢ — ٢٣ . راجع أيضا :

Joinville (ed. Wailly), 294; Stevenson, 330; Delaville Le Roulx, 197 .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 294. Cf. also Stevenson 331; Delaville Le Roulx, 197.

نرى لويس التاسع يعمل على إصلاح وتقوية بعض المدن الساحلية والقلاع الداخلية خوفا من هجوم مفاجىء قد يشنه عليها المسلمون ، فكان مما حصنه عكا وقيصرية (قيسارية) ويافا وصيدا (١) .

وفى الوقت الذى كان فيه الملك الفرنسى فى صيدا يشرف بنفسه على العمليات الخاصة بتحصينها ، بلغة النبأ الأليم بوفاة والدته الملكة بلانش (٢) ، التى كانت تنوب عنه فى تدبير المملكة وحفظها سالمة من عواصف السياسة الأوروبية فى ذاك الحين . وأصبحت عودة لويس إلى فرنسا ضروره تحتمها الظروف ، فقد كانت البلاد مهددة من انجلترا الطامعة فيها ، كما سببت مطامع البابا انوسنت الرابع ونزاعه مع الامبراطورية بعض القلق فى فرنسا . وأخيرا فى ٢٤ ابريل ١٢٥٤م غادر لويس الأراضى المقدسة بعد أن ترك فيها لحمايتها حفنة من الفرسان على رأسهم السيد جوفروا دى سارجين الذى اشترك معه فى الحملة على مصر . وبعد رحلة بحرية شاقة وصل الملك وبصحبته زوجه الملكة مرجريت عاصمة ملكه مافى ٧ سبتمبر ١٢٥٤ م ، بعد غيابهما عنها زهاء ست سنوات (٣) .

عاد لويس إلى فرنسا مجروحا فى كرامته وعزته وكبريائه بعد هزيمة المصريين له فى المنصورة وفارسكور وتنكيلهم بفرسانه ومشاته . ولكنه مع ذلك لم يفقد

---

(١) Joinville (ed. Wailly), 284; Geoffroi de Beaulieu, 210; Cf. also Masson, Medieval France, 105; Bréhier, 227.

أنظر كذلك أبو الفرج : تاريخ مختصر الدول (طبعة بيروت) ص ٤٥٥ .

(٢) توفيت بلانش بباريس فى ٢٧ نوفمبر ١٢٥٢ م ، ولو أن النبأ لم يصل ابنها لويس إلا فى مستهل عام ١٢٥٣ م أنظر : Kitchin I, 347, n. Z; Masson, 105

(٣) Joinville (ed. Wailly), 336-66; Beaulieu, 210. Cf. also Campbell, 435; Ludlow, 359-60; Bréhier, 227; Stevenson, 331; Masson, 105-6; Kitchin, I, 347-8.; Delaville Le Roulx, 198 & 198 n. 2.

الأمل الذى ظل يراود خياله منذ صغره فى امتلاك المدينـة المقدسة وضمها إلى حظيرة اللاتين . فنراه فى سنة١٢٦٧ م ـ بعد ثلاثة عشر عاما من انتهاء حملته على مصر والشام ـ يحمل الصليب مرة أخرى . ويقـوم فى سنة ١٢٧٠ م / ٦٦٠ هـ ـ بعد ثلاث سنوات أمضاها فى الاستعداد ـ بحملته الصليبية الثالثة والأخيرة على تونس بقصد استمالة صاحبها محمد بن يحي الملقب بالمستنصر إلى المسيحية، ومواصلة الزحف على مصر خط الدفاع الأول عن الأراضى المقدسة وبلاد الشرق الأدنى آنذاك . وبالقضاء على هذا المعقل الأشب يمكنه استخلاص البيت المقـدس بسهولة من أيدى المسلمين . ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، إذ قضى لويس التاسع نحبه وهو على أبواب قرطاجنة دون أن يتأتى له أن يمحو عن جبينه عار هزيمته على ضفاف النيل وإخفاق محاولاته فى سورية (١) . وكان آخر ما هتف به وهو على فراش الموت ـ نقلا عن شاهد عيان يدعى غليوم دى شارتر ـ « هيا إلى أورشليم »(٢) .

لقد عجل موت هذا الملك باضمحلال الروح الصليبية وموتها فى وقت كانت تكابد فيه طور النزع الأخير (٣) . ويمكن الاستدلال على هذا الفتور الذى طرأ على الحركة الصليبية من قصيدة كتبها شاعر فرنسى معاصر لأحداث تلك الفترة يدعى رتبوف Rutebeuf (١٢٤٥ — ١٢٨٥م) ، يقول فيها إنه من الحماقة أن يخاطر الانسان فى حرب دينية خارج بلاده ، طالما كان بوسعه أن يتصـل بالله

---

(١) Cf. Joinville (ed Wailly), 404-60; Beaulieu, 210; Anonymous, Gesta alia S. Ludovici noni, ed. Michaud, Crois., VI, 203.
أنظر أيضا الـكتبى : فوات الوفيات جـ ١ ص ٨٤ ؛ أبو المحاسن : المنهل الصافى جـ ١ ورقة ١٣٥٨ا.

(٢) Guill. de Chartres, 212.

(٣) Archer & Kingsford, 403.

فى وطنه ويعيش فى نعمة وسلام . ويسخر الشاعر فى القصيدة من رجال الدين الذين جعلوا من الحروب الصليبية وسيلة لابتزاز الأموال . ويعلق الكاتب جوستاف ماسون، من علماء أواخر القرن التاسع عشر للميلاد ، على هذه القصيدة بأن الشاعر كان يعبر تعبيرا صادقا عن موقف ذوى التعقل فى ذاك العصر (١) .

وهكذا زال أمل الامارات اللاتينية بالشام فى أية مساعدة يقدمها لها أهل الغرب الكاثوليكى حتى يمكنها الدفاع عن نفسها وصد هجمات المسلمين . وما لبثت بعد ذلك بفتره وجيزة حتى تقلص ظلها ثم زالت فى نهاية الأمر . وكان لدولة المماليك البحرية الفضل الأول فى توجيه الضربة القاضية إلى حكم اللاتين بالساحل الشامى . فنرى السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨ — ٦٧٦ هـ/ ١٢٦٠ — ١٢٧٧ م) يغير على ممتلكاتهم فيما بين سنتى ٦٦٣ و ٦٦٦ هـ (١٢٦٥ — ١٢٦٨ م) ، والتى يتوجها انتصاره عليهم فى انطاكية (رمضان ٦٦٦ هـ / مايو ١٢٦٨ م) . وكان امتلاك هذا الحصن المنيع نذيرا بانهيار حكم الصليبيين وتلاشى دولتهم فى الشرق (٢) . وقد واصل الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى (٦٧٨ — ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩ — ١٢٩٠ م) سياسة بيبرس من حيث شنه الهجمات المتكررة على باقى ممتلكات اللاتين بالشام ، وأهمها

(١) Cf. Masson, Mediaeval France, 96-7.

أنظر أيضا جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الاولى ص ٩٨ — ٩٩ و ٣٠٥ و ٣٣٦ — ٣٣٧ .

(٢) راجع : فوات الوفيات ج ١ ص ٨٧ و ٨٩ ؛ صبح الأعشى ج ٤ ص ١٧٩ ؛ الأنس الجليل ج ٢ ص ٤٣٣ ؛ درر التيجان ورقة ٥٧٦ — ٥٧٧ ؛ نهاية الأرب ج ٢٨ لوحة ٩٤ — ٩٦ ؛ ابو الفداء : التبر المسبوك ورقة ٢٣ — ٣٥ ؛ السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٥٦٧ — ٥٦٨ .

استيلاؤه على طرابلس (ربيع الآخر ٦٨٨ هـ / أبريل ١٢٨٩ م)(١) . وأخيرا في يوم الجمعة ١٧ جمادى الأولى ٦٩٠ هـ / ١٨ مايو ١٢٩١ م ، استولى السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩ - ٦٩٣ هـ/١٢٩٠ - ١٢٩٣ م) على عكا آخر معاقل الصليبيين الهامة بالأراضى المقدسة ، ولم يبق بعدئذ لهم على الساحل الشامى سوى أمكنة فردية ضعيفة هي بيروت وصيدا وصور وحيفا طردهم المسلمون منها في نفس السنة(٢) . وبذلك تم القضاء على البقية الباقية من سلطة اللاتين في الأراضى المقدسة .

على أن سقوط عكا وباقى معاقل اللاتين بالشام فى أواخر القرن الثالث عشر للميلاد لا يعنى البتة انتهاء الصراع بين الغرب الاوروبى والشرق العربى الاسلامى. فلقد أثبتت أحدث البحوث التاريخية التى قام بها الدكتور عزيز سوريال عطية فى مؤلفه الكبير عن الحروب الصليبية فى أخريات العصور الوسطى ، أن هذه الحركة لم تمت ، بل ظلت قائمة إلى ما بعد سقوط عكا فى ١٢٩١ م نحو قرنين من الزمان ، وأنها لم تفقد صفاتها الحقيقية إلا بعد القرن الرابع عشر الميلادى(٣) .

---

(١) السلوك ج ١ قسم ٣ ص ٧٤٧ — ٧٤٨ ؛ التبر المسبوك ورقة ٢٨ — ٢٩ ؛ الأنس الجليل ج ٢ ص ٤٣٥ .

(٢) بيبرس المنصورى : زبدة الفكرة ج ١٠ لوحة ٢٨٢ — ٢٨٩ . راجع أيضا: الأنس الجليل ج ٢ ص ٤٣٥ — ٤٣٦ ؛ درر التيجان ورقة ٥٩٠ — ٥٩٢ ؛ كنز الدرر ج ٨ ورقة ٣٣٠ — ٣٣٥ ؛ التبر المسبوك ورقة ٣٠ ؛ البغدادى : عيون أخبار الأعيان ج ٢ لوحة ٤٣٦ ؛ السلامى : مختصر التواريخ ورقة ٦٩ ب ؛ با مخرمة : قلادة النحر ج ٣ قسم١ لوحة ٩٨٨ ؛ مرعى المقدسى : نزهة الناظرين ورقة ٢٣٩ — ٢٤٠ .

(٣) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 10, 480.; idem, Crusade, Commerce and Culture (Bloomington, 1662), 19,24 – 54, 156 – 61.

فقد قامت فى القرن الرابع عشر عدة حملات صليبية لعل أهمها حملة بطرس لوسنيان ملك قبرص اللاتينى على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ م، حينما غزاها جنوده وأعملوا فيها السلب والتدمير، ثم تركوها فى حالة يرثى لها بعد أن مضوا فى احتلالها قرابة أسبوع[1]. وكانت آخر هذه الحملات وأوسعها نطاقا هى صليبية نيكوبوليس الشهيرة سنة ١٣٩٦ م، التى قامت بها أوروبا بأسرها لا لإخراج العثمانيين من شبه جزيرة البلقان فحسب، بل للوصول إلى بيت المقدس فى قلب امبراطورية المماليك. وقد انتهت الحملة بهزيمة الصليبيين أمام قوات السلطان بايزيد الأول حتى أنه لم تقم لهم من بعد ذلك قائمة[2].

كان فشل هذه الحملة بمثابة ضربة قاضية أصابت مسيحيى أوروبا، مما جعل اليأس يتمكن من نفوسهم، ومما جعلهم ينصرفون عن فكرة الحروب الصليبية بمعناها القديم إلى مصالحهم الخاصة ومشاغلهم الداخلية[3]. وهكذا أصبحت فكرة غزو الأراضى المقدسة حلما من أحلام الماضى البعيد عملت المسيحية الغربية على تحقيقها عدة قرون متلاحقة، فكان نصيب هذه المحاولات الإخفاق والخذلان.

ولكن أرض الموعد هذه التى كانت هدف الحروب الصليبية ومسرحا لها فى العصور الوسطى، والتى أريقت بين جنباتها الدماء أنهارا، قدر لها ألا تعيش فى دعة وسلام. لقد ظلت بيت المقدس بأيدى المماليك الى أن استولى عليها أخيرا الأتراك العثمانيون فى القرن السادس عشر الميلادى. واستمرت فى قبضة العثمانيين حتى نهاية الحرب العظمى الأولى حينما دخلتها قوات غرب أوروبا. وهكذا نرى أن هذا الأمل القديم من أجل غزو البيت المقدس ظل مطويا فى زوايا النسيان

(١) Atiya, op. cit., 345–378, 480.

(٢) Atiya, Crusade of Nicopolis; Crusade in the Later Middle Ages, 435–462, 480.

(٣) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 481.

مدى خمسة قرون الى أن تمكنت القوات المتحالفة من دخولها فى ١٠ ديسمبر ١٩١٧ م [١] . ولم يكن هذا خاتمة النضال المرير فى سبيل امتلاك هذه البقعة المقدسة ، إذ تجدد النزاع من أجلها مرة أخرى بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية . ولكن بعد كان هذا النزاع فيما مضى نزاعا بين المسيحية الغربية والعالم الاسلامى ، أصبح اليوم نزاعا بين اسرائيل تناصرها القوى الاستعمارية فى العالم الغربى وبين دول الشرق العربى يشد أزرهم إيمانهم العميق بعدالة قضيتهم ووضوح حقهم. وإذا كان ذاك هو ماضى الأراضى المقدسة وهذا حاضرها ، فلا نعلم على وجه اليقين ماذا سيكون مصيرها فى المستقبل القريب أو البعيد ، وإن كانت الدلائل تؤذن بأنه سوف يكون مستقبلا حافلا بالتطورات الهامة والأحداث الجسام .

(١) Atiya, op. cit., 483.

أنظر أيضا كتابى « العرب والروم واللاتين » ص ١٠٧ — ١١٠ والحواشى؛ وكذلك مقالى «الصهيونية فى فلسطين امتداد طبيعى للاستعمار الصليبى » المنشور بمجلة العهد الجديد (العدد ١١٤٥ بتاريخ ١٦ مايو ١٩٦٧) .



الملاحق

الملحق الأول — الكتابان المتبادلان بين لويس التاسع والصالح نجم الدين أيوب قبل نزول الفرنج إلى البر الغربي لدمياط .

الملحق الثاني — ذكر وصول الفرنج إلى الديار المصرية وتملكهم ثغر دمياط .

الملحق الثالث — خطاب الملك لويس التاسع إلى الشعب الفرنسي عن أسره وإطلاق سراحه .

الملحق الرابع — جدول تواريخ الحملة .

الملحق الخامس — ثبت بأسماء مشاهير المسلمين والصليبيين المشتركين فى الحملة ومن عاصرهم من المسلمين فى مصر ممن ورد ذكرهم فى مصادر الكتاب ، مرتبة ترتيبا أبجديا .

الملحق الأول

الكتابان المتبادلان بين لويس التاسع والصالح نجم الدين أيوب قبل نزول الفرنج إلى البر الغربي لدمياط .

ابن أيبك : كنز الدرر وجامع الغرر — ٩ جـ - مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٤٦٤٣ تاريخ (جـ٧ ، ورق٣٦٥ - ٣٦٩).

لم تشر مصادر الحملة المعاصرة ، شرقية كانت أم غربية ، إلى الخطابين المتبادلين بين الملك الفرنسي وسلطان مصر قبل نزول الصليبيين إلى البر الغربي لدمياط . وقد وصلنا الكتابان عن طريق خمسة مصادر عربية متأخرة هي : مخطوط كنز الدرر لابن أيبك [١] ، ومخطوطة نزهة الأنام لابن دقماق [٢] ، وكتابا السلوك والخطط للمقريزى [٣] ، ولطائف أخبار الأول للإسحاقى [٤]، مما دفع فريقا من الكتاب والمؤرخين المحدثين إلى الشك فيهما من الناحية التاريخية ، وفيما إذا كان لويس التاسع قد بعث حقا بكتاب إلى نجم الدين ، أم أن هذا الكتاب من نسج الخيال وليس له أى أساس من الصحة ، خاصة وأنه كتب بأسلوب عربى سليم لا يعقل أن يصدر عن الكتبة أو المترجمين الذين كانوا بصحبة الجيش الفرنسى مهما بلغ إلمامهم باللغة العربية وإتقانهم لها .

ويرى الدكتور حسن حبشى أن كتاب الملك الفرنسى بصورته الراهنة وفى صيغته العربية هذه التى توجد بين أيدينا قد عملت فيه يد التحوير والتبديل والمحسنات البلاغية ما شاء لها ذوق أصحاب ديوان الرسائل (٥) . أما المستشرق الفرنسى جوزيف رينو (١٧٩٥ - ١٨٦٧ م) Joseph Reinaud - الذى اعتمد على رواية المقريزى فى هذا الصدد - فينفى صدور الرسالة عن لويس التاسع

---

(١) ابن أيبك : كنز الدرر ج ٧ ورق ٣٦٥ — ٣٦٩ . وبالرجوع إلى مخطوط (درر التيجان وغرر تواريخ الأزمان) لابن أيبك أيضا — وهو اختصار لكنز الدرر — لم نجد أية إشارة إلى هاتين الرسالتين .

(٢) ابن دقماق : نزهة الأنام (القطعة الثانية) لوحة ٧٦ أ — ٧٧ أ .

(٣) المقريزى: أ - السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٤-٣٣٥ ، ب - الخطط ج ١ ص ٢١٩

(٤) الإسحاقى: لطائف أخبار الأول ص١٢٣ — ١٢٤ .

(٥) حسن حبشى: حملة القديس لويس ص٣٩ .

قائلا إن المقريزى قد نسبها خطأ إليه [١] . ويعلل ذلك بقوله إن هذه الصيغة فى المراسلات كانت شائعة آنذاك ، وإنها تكاد تتشابه فى تركيبها وألفاظها (٢) . ولكنه رغما عن ذلك يرى أن هناك مكاتبات شبيهة بما جاء فى الكتب العربية قد تبودلت بين الملكين قبل أن يطأ الفرنج الشاطىء المصرى [٣] . ونحن لا نستبعد أن هذين الكتابين اللذين وصلا إلينا قد حرفا أو أدخل عليهما بعض التعديلات ، ولكن يغلب على الظن أنهما يحتويان على جوهر الخطابين الحقيقين، أو على الأقل على بعض العناصر الأصلية فيهما . فإن إصرار لويس فى خطابه على محاربة مصر ومطالبته الصالح أيوب بتسليم البلاد ، يتفق مع الفكرة التى أوضحناها فى مستهل الفصل الأول من أن الملك الفرنسى كان موقنا تمام اليقين بأنه لا يمكن غزو بيت المقدس إلا بعد الاستيلاء على مصر . وهذا ما يجعلنا نعتقد بأن لويس أنذر الصالح أيوب فى كتاب مشابه بعث به إليه قبل مهاجمته مصر. وكان من الطبيعى أيضا أن يرد السلطان على هذا التهديد بكتاب من إنشاء بهاء الدين زهير كاتب الإنشاء بالديار المصرية حينذاك ، يعلن فيه مقاومة المصريين إلى النهاية حسبما ذكرت المراجع العربية .

وقد اعتمدنا فيما يتعلق بهذين الكتابين على رواية ابن أيبك دون سائر

---

(١) Reinaud, Extr. des Hist. Arabes, 449–50.

(٢) Reinaud, op. cit. , n.p. 450. — وقد أورد أبو الفرج الملطى (تاريخ مختصر الدول (طبعة بيروت — ص ٣٩٠) خطابا أرسله فى ٥٥٩ هـ/١١٦٣ — ١١٦٤ م أحد ملوك الفرنج ويدعى الفونس ومقر ملكه طليطلة إلى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن متوعدا إياه ومعلنا الحرب ضده . وهو لا يتفق مع كتاب لويس فى معناه فحسب ، ولكن فى مبناه أيضا .

(٣) Reinaud, Extr. des Hist. Arabes, 449.

المراجع العربية الأخرى وذلك لعدة أسباب ، منها أنه أقــدم المؤرخين الذين أوردوا صيغة الكتابين وأقربهم إلى وقت الحملة ، لأنه من علماء الثلث الأول من القرن الثامن الهجرى [١] ، مما يجعل لروايته قيمة تاريخية خاصة . ومنها ، أن نص المكاتبة الوارد فى مخطوط ابن أيبك ، ولو انه يتفق فى معناه والنصوص التى وردت فى المراجع الأخرى ، إلا أنه يختلف عنها اختلافا كبيرا فى أسلوبه ، كما أنه أكثر إفاضة وإسهابا وتسلسلا ووضوحا . وزيادة على ذلك فإن مخطوط ابن أيبك لم ينشر بعد ، أما كتابا السلوك والخطط للمقريزى ولطائف أخبار الأول للإسحاقى فهى جميعا مطبوعة يسهل على القارىء الرجوع إليها للاطلاع على الرسالتين . وأما نص ابن دقاق فى مخطوطه نزهة الأنام فهو عبــارة عن صورة طبق الأصل لما ذكره المقريزى . ولهذه الأسباب مجتمعة آثرنا أن نورد نص ابن أيبك دون النصوص الأخرى .

نص كتاب لويس التاسع إلى الصالح أيوب [٢]

«بسم الله الفصيح صاحب الدين الصحيح عيسى بن مريم المسيح [٣] . أما بعد، فإنه لم يخف عليك ولا على كل ذى عقل ثاقب أنك أمين هذه الملة الحنيفية ، وأنا

---

(١) توفى ابن أيبك فى ٧٣٢هـ/١٣٣١م، بينما توفى ابن دقاق فى ٨٠٨هـ / ١٤٠٧ م ، والمقريزى فى ٨٤٥هـ/١٤٤٢م، والإسحاقى فى ١٠٦٠هـ/١٦٥٠م.

(٢) مما هو جدير بالذكر أن لويس التاسع أرسل كتابه إلى الصالح أيوب عندما أصبح قبالة البر الغربى لدمياط حسبما ذكر ابن أيبك (كنز الدرر ج ٧ ورقة ٣٦٥)، على عكس ما روته الكاتبة براى Bray, 124, n. 6. وكذلك مونروند (تاريخ الحروب المقدسة ج ٢ ص ٣٠٥) من أنه بعث به قبل مغادرته قبرص ميمما شطر مصر .

(٣) لم ترد هذه المقدمة فى المراجع الأخرى.

أمين هذه الملة النصرانية. وليس خفي عنك مافتحنا من بلاد الأندلس ؛ وأخذنا النساء والعذارى وفرقناهم على ملة النصارى [ورقة ٣٦٥] ، وجعلنا رجالهم أسارى ، ونساءهم عليهم حيـــارى . وقد علمت ما نحن فيه من حق الرعية لما فتحنا بلاد المهدية وعتونا على ثغر الاسكندرية ، فلا تلجىء العالم إلى العسف ولا تسومهم بسيماء الخسف؛ نقتل العباد، وندوس البلاد ، ونطهر الأرض من الفساد. فإن قابلتنا بالقتال فقد أوجبت على نفسك ورعيتك النكال ، ورميتهم في أسر الوبال ، ويكثر فيهم العويل ولا يرحم عزيز ولا ذليل ، ولا تجد إلى نصرتهم من سبيل . ونحن شرحنا لك ما فيه الكفاية ، وبذلنا لك غاية النصيحة والهداية ، أن تنقل إلى عندنا ما عندك من الرهبان ، وتحلف لنا بعظائم الإيمان أن تكون لنا نائبا على مر الأزمان . وتعجل لنا بما عنـــدك من مراكب وطرائد (١) وشوان ، ولا تكون فيك فترة ولا توان ، لتكون قلوبنا راضية عليك ، ولا تسوق حتفك إليك ، وتكون على نفسك وجيشك قد جنيت ، وتعود تقول يا ليت . وتضع الحرب أوزارها (٢) ، وتشعل نارها ، ويتعالى شرارها ، ويقتم فنارها ، ونأخذ منكم بثارها . فسيوفنا حـــداد ، ورماحنا مداد ، وقلوبنا شداد ، ويحكم بيننا وبينكم رب العباد . فإن كانت (البلاد) (٣) لك فهدية ألقيت بين يديك ، وإن كانت لنا فيدنا العليا عليك ، إذ استحققنا إمارة الملتين وحكم الشريعتين. وبيد الله تعالى السعادة وهو الموفق للإرادة. » [ورقة ٣٦٦]

---

(١) الطرائد جمع طريدة وهي سفن تستخدم لحمل الخيل للاسطول ، وأكثر ما يحمل فيها أربعون فرسا حسبما ذكر ابن مماتي (قوانين الدواوين ص ٣٣٩) . راجع أيضا : عبادة : سفن الاسطول الاسلامي ص ٦ .

(٢) لا تتفق هذه العبارة مع باقي الجملة وسياق الحديث ، ولعلها مدسوسة على الكتاب .

(٣) الزيادة عن المراجع الأخرى حتى يستقيم المعنى .

نص رد الصالح أيوب على كتاب الملك الفرنسى

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على القوم الظالمين ، من عند الذائد عن حرم المسلمين ، والقارىء كتاب رب العالمين ، المنزل على خير المرسلين ، محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه الأنصار والمهاجرين ، صلاة دائمة إلى يوم الدين.[١] أما بعد ، فقد وصل كتابك ، وفهمنا لفظك وخطابك . وها أنا قد أتيتك بالخيل والرجال ، والخزائن والأموال ، والعساكر والأثقال ، والقيود والأغلال (٢) ؛ فإن كانت لك فأنت الساعى وقد أمنت الناعى ، وإن كانت عليك فأنت الباغى لحتفك والجادع أنفك بظلفك. فإن رأيت أن لا تقيم بين الفئتين ضغنا ، فلذلك من الله علينا وعليكم منا ، وإن غير ذلك فقد قال الله تعالى: « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا »(٣) . ولما وصل إلينا كتابك أعطيناك جوابك ، ومن يهديه الله [ورقة ٣٦٧] فهو المهتدى ، ومن يضلل فلن يجد له وليا مرشدا . وفى كتابك تهددنا بجيوشك وأبطالك وخيلك ورجالك ، أو ما تعلم أنا نحن أرباب الحتوف وفضلات السيوف ، ما نزلنا على حصن إلا هدمناه ، ولا عدم منا فارس إلا جددناه ، ولا طغى علينا طاغ إلا دمرناه . فلو نظرت — أيها المغرور — حد قلوبنا ، وجد حروبنا ، لرأيت فرسانا أسنتهم لا تمل وسيوفهم لا تكل وقلوبهم لا تذل ، ولعضيت على يدك

---

(١) انفرد ابن أيبك بذكر المقدمة كاملة ، بينما اكتفت المراجع الأخرى بذكر الفقرة الأولى منها فقط .

(٢) هذا يتفق مع ما ذكرته المصادر المعاصرة للحملة عن استعداد الصالح أيوب لمواجهة الفرنج عند وصولهم الشاطىء المصرى . راجع ص ٨١ — ٨٣ من هذا الكتاب .

(٣) قرآن كريم — سورة فاطر — الآية ٧ .

بسن الندم ولآخرت تحريك قدم عن قدم، فلا تعجبك العساكر التي بين يديك، فهو يوم أوله لنا وآخره عليك. إذا أتاك كتابي هذا فلتكن منه بالمرصاد على أول سورة النحل وآخر سورة ص : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » ، « ولتعلمن نبأه بعد حين » . هنالك تتطاول نحوك الأعناق وتشخص صوبك العيون، ويشوبك الويل ، وتسوء بك الظنون ، « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون» [ورقة ٣٦٨] (١)

(١) قرآن كريم — سورة الشعراء — الآية ٢٢٧ . — هذا وقد جاء في المراجع الأخرى فقرة في آخر الكتاب لم يذكرها ابن أيبك وهي : « ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى، وهو أصدق القائلين : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » ، وإلى قول الحكماء : «إن الباغي له مصرع ، وبغيك يصرعك وإلى البلاء يقلبك ، والسلام.»

الملحق الثانى

ذكر وصول الفرنج إلى الديار المصرية وتملكهم ثغر دمياط .

ابن واصل: مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب - ٢ ج - مخطوط بمكتبة جامعة الاسكندرية برقم ٦٤ مخطوط - (ج ٢ ، لوحة ٣٥٦أ - ٣٥٧أ).

لهذا النص الخطى أهمية كبيرة ، فهو لمؤرخ عاصر أحداث الحملة وكان على مقربة من مسرح القتال بين المصريين والفرنج[١] . وهو فضلا عن ذلك النص الوحيد الذى يلقى ضوءا على مشكلة هامة كانت إلى عهد قريب جدا مثار كثير من الجدل والخلاف بين المؤرخين الذين كتبوا عن صليبية لويس التاسع على مصر أو تعرضوا لها فى مؤلفاتهم ، نعنى بذلك الدوافع الخفية لفرار فخر الدين والعسكر من البر الغربى لدمياط إلى البر الشرقى فأشموم طناح ، وتركهم المدينة بما فيها من عدد وأسلحة وأقوات لقمة سائغة فى أفواه الفرنج . وقد عالجنا هذه المشكلة فى الفصل الثالث من الكتاب ، وأثبتنا أن فرار فخر الدين بالعسكر لم يكن خوفا من كثرة عدد الفرنج وعدتهم حسبما استنتج المؤرخون والكتاب المحدثون ، وإنما طمعا فى الملك والسلطة ، مستندين فى ذلك إلى ما ذكره المؤرخ الاسلامى للحملة ابن واصل[٢] .

النـــص

«قال (القاضى جمال الدين بن واصل قاضى حماة وأعمالها صاحب هذا التاريخ): ولما كانت ثانى ساعة من نهار يوم الخميس[٣] لتسع بقين من صفر من هذه السنة وهى سنة سبع وأربعين وستمائة ، وصلت مراكب الفرنج وفيها جموعهم العظيمة وقد انضمت إليهم إفرنج الساحل جميعها ، فأرسوا فى البحر بإزاء المسلمين . وفى

(١) كان ابن واصل عندما استولى الفرنج على دمياط موجودا بالقاهرة . وقد استنتجنا ذلك مما ذكره المؤرخ نفسه (مفرج الكروب ج ٢ لوحة ٣٥٦ ب) من أنه كان عند الأمير حسام الدين نائب السلطنة بالقاهرة عندما وردت إليه بطاقة باستيلاء العدو على دمياط .

(٢) أنظر ص ١٠١ — ١٠٦ من هذا الكتاب .

(٣) راجع ص ٨٩ وح ٢ من هذا الكتاب ، وراجع كذلك جدول تواريخ الحملة فى الملحق الرابع بآخر الكتاب .

هذا اليوم وهو يوم السبت [١] ، شرعوا فى النزول إلى البر الذى فيه المسلمون . وضربت خيمة الملك ريد افرنس [٢] وكانت حمراء ، وناوشهم بعض المسلمين بعض المناوشة ، فاستشهد فى ذلك اليوم الأمير نجم الدين بن شيخ الاسلام رحمه الله ، وقد قدمنا ذكره وأنه كان هو وأخوه شهاب الدين يؤنسان الملك الصالح وهو بالكرك بأمر الملك الناصر داود لهما بذلك وكان رجلا صالحا . واستشهد أيضا من أمراء مصر أمير يقال له الوزيرى . فلما أمسى المسلمون ، رحل بهم الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، وقطع بهم الجسر إلى الجانب الشرقى الذى فيه دمياط ، وخلا البر الغربى للفرنج. ولما عدا فخر الدين يوسف بن الشيخ [لوحة ٣٥٦ ا] والعسكر إلى البر الشرقى ، رحل بالعسكر طالبا أشموم طناح [٣] . وحصل عند العسكر طمع بسبب مرض السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فلم يكن لهم من يردهم ولا يردعم ، فرحل فخر الدين يوسف بن الشيخ إلى جهة أشموم طناح . وخلا البر الشرقى من عساكر المسلمين ، فخاف أهل دمياط على أنفسهم أن يستحصروا [٤] ، وكان فيها جماعة من الكنانية [٥] شجعان ، فألقى الله سبحانه وتعالى الرعب فى قلوبهم ، فخرجوا هم وأهل دمياط على وجوههم طول الليل ، ولم يبق بدمياط أحد ، بل تركوها صفرا من الرجال

---

(١) السبت ٢١ صفر ٦٤٧ هـ / ٥ يونيو ١٢٤٩ م .

(٢) يقصد لويس التاسع ملك فرنسا. أنظر ص ٧٧ ح ٢ من هذا الكتاب .

(٣) ذكرها ابن واصل أشمون طناح بنون فى آخرها ، وصحتها بالميم أشموم طناح أو أشموم الرمان حسبما ذكرها ابن مماتى (قوانين الدواوين ص ٨٩) ، وابن أيبك (كنز الدرر ج ٧ ورقة ٣٦٤) ، والنويرى (نهاية الأرب ج ٢٧ لوحة ٩٠) . وقد بين أبو الفداء فى جغرافيته لمصر أنه حقق أسمها فوجد أن صحته أشموم ، وأن العامة تطلق عليها أشمون أنظر Abulfeda, Descriptio Aegypti, 31; Reinaud, Géogr. d'Aboulféda, II, II, 162.

(٤) أى يحاصرهم الفرنج.

(٥) حول الكنانيه أنظر ص ٨٢ ح ٥ من هذا الكتاب .

والنساء والصبيان ومن فخر الدين والعساكر . فإن فخر الدين يوسف لو منع العسكر من الهرب وأقام لامتنعت دمياط . فإن دمياط فى الكرة الأولى لما نازلها الفرنج أيام الملك الكامل كانت أقل ذخائر وعدد ولم يقدر الفرنج عليها إلا بعد سنة . فلما نوزلت سنه خمسة عشر وستمائة وأخذت سنة ستة عشر وستمائة ، لم يتمكن العدو منها إلا بعد أن فنى أهلها بالوباء والجوع . والكنانية وأهل دمياط لو غلقوا أبوابها وتحصنوا بها بعد رجوع العسكر إلى أشموم طناح ، لما قدر الفرنج عليهم ، وكانت العساكر ردت إليهم ومنعت عنهم . والأقوات والآلات والعدد كانت عندهم فى غاية الكثرة ، فكانوا قدروا على حفظها سنتين أو أكثر من ذلك ؛ ولكن إذا أراد الله أمرا فلا مرد له . ولكن أهل دمياط كانوا معذورين لأنهم لما رأوا هرب العساكر وعلموا مرض السلطان ، خافوا أن يستمر عليهم الحصار مدة طويلة فيهلكوا جوعا كما هلك أهل دمياط فى المرة الأولى . قال : ولما أصبح الصباح يوم الأحد لسبع بقين من صفر [١] جاء الفرنج إلى دمياط فوجدوها صفرا من الناس وأبوابها مفتحة . فملكوها صفوا وعفوا ، واحتووا على ما كان فيها من العدد والأسلحة والذخائر والأقوات والمجانيق . وكانت هذه مصيبة عظيمة لم يجر مثلها . قال صاحب التاريخ : ووردت يوم الأحد إلى الأمير حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى وأنا [٢] عنده بطاقة بذلك ، فاشتد [لوحة ٣٥٦ ب] الجزع والخوف ووقع الناس بالديار المصرية بالكلية لا سيما والسلطان مريض وقد ضعفت قواه عن الحركة ، وليس قد بقى له قدرة على ضبط جنده وقد اشتد طمعهم فيه . ولما وصلت العساكر وأهل دمياط إلى السلطان ، حنق على الكنانيين حنقا شديدا ، وأمر بشنقهم فشنقوا جميعا . وتألم مما فعله فخر الدين والعسكر ، لكن الوقت كان لا يحتمل إلا الصبر والإغضاء عما فعلوه . [لوحة ٣٥٧ ا]

---

(١) الأحد ٢٢ صفر ٦٤٧ هـ / ٦ يونيو ١٢٤٩ م.

(٢) المقصود ابن واصل صاحب مفرج الكروب.

الملحق الثالث

خطاب الملك لويس التاسع إلى الشعب الفرنسى عن أسره وإطلاق سراحه .

Bongars, Gesta Dei per Francos, t. I, pp. 1196–1200.

هذا الخطاب كتبه باللاتينية [١] الملك لويس التاسع إلى الشعب الفرنسى بعد رحيله وقواته منهزمين من مصر إلى عكا ، واصفا المخاطر والمحن التى تعرضوا لها منذ امتلاكهم دمياط إلى حين مغادرتهم الأراضى المصرية ، ومحاولتهم بعد ذلك القيام بحملة جديدة تعوض ما خسروه فى مصر .

ويهمنا هذا الخطاب المسهب فى أن كاتبه هو باعث الحملة الصليبية وقائدها بما يجعل لروايته قيمة تاريخية كبيرة . ثم أنه يعطينا فكرة شاملة عن الحملة من وجهة النظر الغربية ، وبكلمة أدق ، من وجهة النظر المسيحية ؛ عدا مايحويه من معلومات هامة انفرد بها دون المصادر الأخرى . وقد حرصنا على أن تكون الترجمة العربية مطابقة للأصل اللاتينى قدر المستطاع مراعاة للأمانة العلمية . وفيما يلى الترجمة العربية للخطاب .

خطاب الملك لويس حول أسره واطلاق سراحه

« تحية وسلاما ، بنعمة الله وحمده ، من لويس ملك الفرنسيين ، إلى أفراد شعبه المخلصين ، من كبار رجال الدين والبارونات والفرسان وسكان المدن والقرى ، وإلى كافة سكان المملكة الذين سيصلهم هذا الخطاب .

بعد تسبيح الله والتمجيد باسمه ، كنا نود من كل جوارحنا متابعة الحملة الصليبية ، ورأينا أنه من الواجب إحاطتكم علما بما جد بعد الاستيلاء على دمياط ، التى فوض أمرها إلى المسيحيين مخلصنا يسوع المسيح برحمته ، وقد تم ذلك بأعجوبة . ولا شك أنه قد بلغكم رحيلنا عن هذه المدينة فى العشرين من نوفمبر الماضى ، وفقا للنصيحة التى أشار بها مجلسنا .

ولما تجمعت قواتنا البحرية والبرية اتخذنا طريقنا ضد القوات الإسلامية

---

(١) ترجم هذا الخطاب إلى الفرنسية الحديثة المؤرخ جوزيف ميشو فى مؤلفه عن تاريخ الحروب الصليبية . أنظر : Michaud, Hist. des Crois., IV, 619 - 631.

التي كانت معسكرة في بقعة يطلقون عليها باللغة العامية « المنصورة » . وفي أثناء مسيرنا ، قاسينا من هجمات الأعداء الذين تكبدوا باستمرار خسائر جسيمة . وفي أحد الأيام، قتلنا عددا كبيرا من قوات الجيش المصري التي دأبت على مهاجمة رجالنا. وقد بلغنا خلال الطريق خبر وفاة سلطان مصر بعد حياة تعسة، وكان قبل موته قد أرسل في استدعاء ابنه المقيم في البلاد الشرقية للحضور إلى مصر ، وطلب من كبار رجال الجيش حلف يمين الولاء لهذا الأمير ، كما عهد إلى أحد أمرائه المسمى « فخر الدين » بأتابكية العسكر . وعندما بلغنا مدينة المنصورة ثبت لنا صحة هذه الأخبار . وكان وصولنا يوم الثلاثاء السابق لعيد الميلاد[1] ، ولكننا لم نتمكن من الاقتراب من المسلمين وقتذاك لوجود مجرى ماء يفصل بين الجيشين، يعرف بنهر تنيس ،[2] وهو يخرج من الفرع الكبير لنهر النيل [3] عند هذه البقعة . وقد أقمنا معسكرنا بين هذين النهرين ، وشغلنا البقعة الكائنة بين النهر وهذه المجرى ، حيث قامت مناوشات بيننا وبين قوات المسلمين انتهت بأن وضع رجالنا فيهم سيوفهم وقتلوا الكثيرين منهم ، كما غرق عدد آخر . ولما كان من الصعب عبور نهر تنيس لعمق مياهه وارتفاع شواطئه ، فقد بدأنا في إقامة جسر لشق طريق للجيش المسيحي . وقد أمضينا بضعة أيام في تشييد هذا الجسر كابدنا فيها المشقات والأخطار ، عدا ما أنفقناه من مصاريف باهظة . وبذل المسلمون قصارى جهدهم لإحباط محاولتنا هذه ، فنصبوا آلاتهم في مواجهة معداتنا ، وحطموا الأبراج الخشبية التي أقمناها على الجسر برميها بالحجارة والنار الاغريقية. ولما كدنا أن نفقد الأمل في إقامة الجسر، دلنا إعرابي هارب من الجيش المصري

---

(١) الثلاثاء ٢١ ديسمبر ١٢٤٩ م / ١٤ رمضان ٦٤٧ هـ .

(٢) المقصود بحر أشموم .

(٣) يعني بذلك فرع دمياط .

على مخاضة يمكن بواسطتها العبور إلى الضفة الأخرى . وفى يوم الاثنين السابع من فبراير اجتمعنا بالبارونات وكبار رجال الجيش ، واتفقنا على أن نتوجه فى فجر اليوم التالى الموافق الثلاثاء الثامن من فبراير إلى تلك البقعة التى دلنا عليها الأعرابى لعبور النهر ، وأن نترك جانبا من الجيش لحراسة المعسكر . وفى اليوم التالى ـ وقد نظمنا قواتنا وأعددناها ـ توجهنا إلى المخاضة وعبرنا النهر إلى الضفة الأخرى بعد أن واجهتنا عدة أخطار ، لأن المخاضة كانت أكثر عمقا وأشد خطرا مما كنا نتوقع . وقد اضطرت جيادنا إلى الخوض سباحة ، ولم يكن من السهل الخروج من النهر لارتفاع الشاطىء وضحالة مياهه . ولما تم لنا ذلك ، بلغنا البقعة حيث كانت آلات المسلمين تواجه جسرنا . وشنت مقدمة جيشنا هجوما على العدو مكبدة إياه خسارة كبيرة فى الأرواح دون مراعاة للجنس أو السن . وكان من بين قتلى المسلمين قائد (١) وبعض الأمراء . إلا أن قواتنا تشتت شملها بعد ذلك ؛ إذ اخترق بعض جنودنا المعسكر الاسلامى وبلغوا مدينة المنصورة ، عاملين القتل فيمن التقوا بهم من الأعداء . وعندما لمس الأعداء تهور رجالنا استردوا شجاعتهم وهاجموهم ، ثم أحاطوا بهم من جميع الجهات مضيقين عليهم الخناق . وقامت مذبحة ذهب ضحيتها عدد كبير من باروناتنا وفرساننا من رجال الدين وغيرهم ، الذين أسفنا جد الأسف لفقدهم ، ولا زلنا نتألم لذلك . كما فقدنا أيضا شقيقنا الشجاع كونت ارتوا الجدير بأن تخلد ذكراه . وكلما تذكرنا هذه الخسارة يفعم قلبنا بالحزن ، ولو أنه يجب أن نفرح لأننا نعتقد أنه أصبح شهيدا ، وأن روحه قد انتقلت إلى باريها لتتمتع بما يتمتع به الأبرار والشهداء من المكافأة وحسن الجزاء . وفى هذا اليوم هاجمنا المسلمون من كل جانب ، ورشقونا

(١) لعله يقصد الأمير فخر الدين مقدم الجيش المصرى الذى استشهد فى هذه الوقعة .

بالسهام والنشاب . وقد تحملنا هجماتهم الشديدة حتى التاسعة مساء ، حين يئسنا من مساعدة رماة السهام التى كانت تنقصنا . وأخيرا ، بعد أن فقدنا عددا كبيرا من محاربينا وجيادنا بين جريح وقتيل ، حافظنا على مراكزنا بفضل الله وعونه. ولما التأم شملنا عسكرنا فى نفس هذا اليوم بالقرب من معسكر المسلمين حيث كانت توجد معداتهم الحربية . وقد بقينا مع عدد قليل من قواتنا ، وأقمنا جسرا من السفن ليتمكن الذين على الضفة الأخرى من العبور إلينا . وفى اليوم التالى عبر هذا الجسر كثير من رجالنا وعسكروا بجوارنا ، وتمكنا بذلك من تحطيم آلات المسلمين ، كما أخذ رجالنا يغدون ويجيئون بحرية واطمئنان من ضفة إلى أخرى عند عبورهم هذا الجسر . وفى يوم الجمعة التالى (١) احتشدت القوات المصرية للقضاء على قوات الجيش المسيحى ، وشنت هجوما على خطوطنا بجرأة بالغة وأعداد هائلة . وبلغ من شدة المعركة أننا لم نر مثيلا لها فى تلك الجهات. ولقد قاومنا الأعداء من جميع النواحى بفضل الله ، ورددناهم على أعقابهم حيث سقط عدد كبير منهم تحت ضرباتنا . وبعد بضعة أيام وصل المنصورة ابن السلطان الراحل قادما من المقاطعات الشرقية [٢] ، فاستقبله المصريون استقبال الزعيم وقد غمرهم السرور ، إذ ضاعف مقدمه من شجاعتهم وحماسهم . ومنذ ذلك الحين كانت جميع النتائج عكسية لرغباتنا ، ولعل هذه هى إرادة الله وقضائه . فمن وباء خطير تفشى بين قواتنا وقضى على جانب كبير من رجالنا وجيادنا ، حتى أنه لم يكن بوسع القلائل الباقين على قيد الحياة أن يبكوا رفاقهم أو يعنوا بمرضاهم ، وبذلك نقص الجيش المسيحى نقصا ملحوظا خلال فترة وجيزة من الزمن . ومن مجاعة بلغ من قسوتها أن هلك الكثير منهم جوعا ، لأن السفن القادمة من دمياط

(١) الجمعة ١١ فبراير ١٢٥٠ م / ٧ ذو القعدة ٦٤٧ هـ .

(٢) يقصد المعظم توران شاه بن الصالح نجم الدين الذى قدم من حصن كيفا .

لم تتمكن من مواصلة جلب الميرة والإمدادات إلى الجيش عند إبحارها فى النهر ، إذ قطعت عليها الطريق سفن الأعداء وأعمال العنف التى كانوا يقومون بهــا . واستولى المسلمون على عدد كبير من سفننا ،وعلى قافلتين كانتا تجلبان إلينا الأزواد؛ ثم أجهزوا على جانب من بحارة هـذه السفن . ولقـد عم الحزن رجال الجيش بسبب قلة الطعام للرجال والعلف للدواب ، حتى لقد اضطررنا بعد هذه الخسارة إلى ترك مراكزنا والعودة إلى دمياط ؛ فقد كانت تلك هى مشيئة الله ، لأن الإنسان منا مسير فى هذه الحياة لا مخير ، وأن المولى هو الذى يرشد خطانا وينظم أمورنا وفق إرادته . وفى أثناء طريقنا ، وبالتحديد فى الخامس من أبريل [1] حشد المسلمون جميع قواتهم ، وهاجموا الجيش المسيحى مرة ثانيـة ، فوقعنا فى قبضة الأعداء وفقا لمشيئة الله وتكفيرا عن خطايانا . وقد وقعنا فى الأسر نحن وشقيقينا كونت بواتييه وكونت انجو واولئك الذين عادوا معنا عن طريق البر ، بعد مذبحة رهيبة أريقت فيها كثير من دماء المسيحيين . [ص ١١٩٧] أما غالبية الذين تراجعوا عن طريق النهر فقد وقعوا ما بين قتيل وأسير ، واشتعلت النيران فى سفننا بمن كان فيها من المرضى . وبعد مضى بضعة أيام من وجودنا فى الأسر ، طلب منا السلطان عقد معاهدة ، متمسكا برد مدينة دمياط إليه فى الحال وما استولينا عليه منها ، وأن نعوضه عن كل الخسائر والمصاريف التى تكبدها منذ دخول المسيحيين دمياط إلى ذلك اليوم . وبعد فترة من المباحثات ، أبرمنا معاهدة الصلح لمدة عشر سنوات وفقا للشروط الآتية :

• أن يطلق السلطان سراحنا وجميع من وقع فى قبضة المسلمين منذ وصولنا إلى مصر ، وأن يمنحهم حرية الانتقال كيفما شاءوا ، وأن يخلى كذلك سبيل جميع المسيحيين الذين أسروا من البلاد الأخرى منذ المعاهدة التى عقدت بين السلطان

---

(١) الثلاثاء ٥ أبريل ١٢٥٠ م / محرم ٦٤٨ هـ .

الكامل - جد السلطان الحالى - وبين الامبراطور[١] ، وان يعمل المسيحيون على إقرار الطمأنينة والسلام فى جميع الأراضى التى يحتلونها فى مملكة بيت المقدس.

أما من ناحيتنا ، فيجب علينا إخلاء دمياط ، ودفع مبلغ ثمانمائة الف بيزنط فدية عن الأسرى وعوضا عن الخسائر والمصروفات التى أشرنا إليها آنفا، وقد دفعنا حتى الآن أربعمائة الف قطعة فقط؛ كما يجب أن نطلق سراح جميع الأسرى المسلمين الذين وقعوا فى قبضتنا منذ مجيئنا إلى مصر ، وسراح اولئك الذين أسرهم المسيحيون فى مملكة بيت المقدس منذ الهدنة التى عقدت بين الامبراطور والسلطان سالفى الذكر . وأن يقوم السلطان بالمحافظة على عتادنا ومهماتنا الموجودة بدمياط بعد رحيلنا عنها ، وأن تنقل تلك المهمات إلى البلاد المسيحية[٢] عندما تسنح الفرصة بذلك . وأن يمنح جميع المرضى المسيحيين ، وأولئك الذين سيبقون فى دمياط لبيع ممتلكاتهم ، أمانا مماثلا على أن يرحلوا إما عن طريق البر أو البحر متى شاءوا دون أن تقام فى وجههم عقبات أو عراقيل ، وأن يلتزم السلطان بتقديم صك الأمان لكل من يرغب فى العودة عن طريق البر إلى البلاد المسيحية » .

وقد أقسم الطرفان بالمحافظة على هذه المعاهدة التى تم إبرامها مع السلطان .

ولكن بينما كان السلطان عائدا بجيشه إلى دمياط لتنفيذ الشروط التى تم الاتفاق عليها ، هجم عليه بعض فرسان المسلمين واثخنوه جراحا عند مغادرته السماط ، وذلك وفقا لمشيئة الله الذى لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ، وكان ذلك نتيجة لتواطئهم مع غالبية العسكر . ورغم إصابته ، فقد غادر خيمته آملا النجاة بنفسه ، ولكنه اغتيل بضربة سيف على مرأى من غالبية الأمراء وجموع المسلمين الموجودة هناك . وبعد ذلك هجم عدد كبير من المسلمين وهم فى حدة ثورتهم على خيامنا ، شاهرين أسلحتهم كما لو

---

(١) يقصد المعاهدة السلمية التى عقدت بين الكامل محمد والامبراطور فريدريك الثانى .

(٢) يقصد المعاقل التى كانت لا تزال بأيدى الفرنج على الساحل الشامى .

كانوا يبغون قتلنا حسبما اعتقد الكثيرون منا . ولكن الرحمة الالهية أنزلت السكينة في قلوبهم فهدأت نفوسهم ، وطالبوا بتنفيذ شروط المعاهدة السابقة وبرد مدينة دمياط إليهم ؛ وكانت تصرفاتهم وأقوالهم مشفوعة بتهديد شـــديد . وأخيرا أكدنا تلك المعاهدة التي كنا قد عقدناها مع السلطان الراحل بقسم جديد أديناه أمام هؤلاء الأمراء ؛ وقد تم ذلك بمشيئة المولى ، إلهنا الرحيم ، مواسى الحزانى والمنكوبين ، والساهر على راحة خدامه . أما من جهتهم فقد أدوا يمينا مشابها وفقا لشريعتهم وقوانينهم بالمحافظة على نصوص المعاهدة . وتحـدد الوقت الذى يطلق فيه سراح الأسرى وترد لهم مدينة دمياط . وقد صادفتنا عقبات كثيرة في سبيل اتفاقنا مع السلطان من أجل رد هذه المدينة ، كذلك لم يكن اتفاقنا الجديد مع الأمراء سهلا أو بدون صعوبة . ولما لم يكن لدينا أى أمل في المحافظة على المدينة بعد ما أوضحه لنا القادمون من دمياط الذين كانوا يدركون حقيقة الحالة هناك ، وبعد ما أشار به علينا البارونات الفرنسيون وغـيرهم ، رأينا أنه من المستحسن — لصالح المسيحية — عقد معاهدة مقابل إطلاق سراحنا وباقى الأسرى ، عن الاحتفاظ بتلك المدينة بمن يوجد بهـا من المسـيحيين وأن نبقى نحن وباقى الأسرى معرضين أنفسنا لكافة أنواع المخاطر والأهوال . ولهـذا السبب استرد الأمراء مدينة دمياط في اليوم المحـدد ؛ وحينئـذ أطلق سراحنا وسراح شقيقينا وكونت بريتانى وأمير الأراضى الواطئة وكونت سـواسـون وكثير من بارونات وفرسان فرنسا وبيت المقدس وقبرص . وعنـدئذ أصبح يحدونا الأمل في إطلاق سراح باقى الأسرى ، [ص ١١٩٨] وفى أن المصريين سوف يحافظون على قسمهم بمراعاة شروط المعاهدة .

وبعد ذلك غادرنا مصر تاركين فيها بضعة أشخاص لاستلام باقى الأسرى الذين وقعوا في قبضة المسلمين ، وصيانة المهمات التي لم نتمكن من أخـذها معنا

لعدم وجود السفن الكافية لنقلها . وبوصولنا إلى هنا(١) ، أوفدنا مندوبين من قبلنا بالسفن اللازمة لنقل الأسرى المسيحيين، لأن هذه المسألة كانت شغلنا الشاغل؛ ولإحضار العتاد الذى تركناه بمصر كالآلات والأسلحة والخيام وبعض الجياد وأشياء أخرى كثيرة . لكن الأمراء استبقوا اولئك السفراء فى القاهرة مدة طويلة ، ولم يسلموهم فى نهاية الأمر سوى أربعمائة أسير من الأسرى البالغ عددهم اثنى عشر الف أسير . ولم يفرج عن البعض إلا بعد دفع مبلغ من المال، كما رفض الأمراء المصريون رد العدد والمهمات الأخرى . والأدهى من ذلك ، أنه بعد عقد المعاهدة والقسم عليها ، أخبرنا رسلنا وبعض الأسرى الذين نثق فيهم ممن عادوا من تلك البلاد ، أن المصريين كانوا يختارون الشبان من بين أسراهم ويشجعونهم على ترك العقيدة الكاثوليكية واعتناق الدين الاسلامى ، وقد قبل الكثيرون منهم ذلك . أما اولئك الذين ظلوا على عقيدتهم فقد قتلوا وأصبحوا فى مرتبة الشهداء . كذلك قتل المسلمون عددا كبيرا من المرضى المسيحيين فى دمياط . ومع محافظتنا على نصوص المعاهدة التى أبرمناها معهم ، واستعدادنا لمراعاة تنفيذها ، كنا ندرك جيدا أنهم سوف لا يطلقون سراح باقى الأسرى المسيحيين . وكانت تحدونا الرغبة للعودة إلى فرنسا بعد توقيع الهدنة وفكاكنا من الأسر ، لو ثوقنا من استتباب السلم فى البلاد التى يحتلها المسيحيون فيما وراء البحار حتى انتهاء مدة المعاهدة . ولذلك أعددنا العدة للرحيل . ولكن عندما اتضح لنا — مما سبق ذكره — أن الأمراء نقضوا الهدنة نقضا صريحا ، وأنهم — رغما عن قسمهم — سخروا بنا ، فقد اجتمعنا ببارونات فرنسا ورجال الدين وجماعات الفرسان الداوية والاسبتارية وجماعة الإخوان التيوتونية وبارونات مملكة بيت المقدس ، وتداولنا معهم فيما يجب اتخاذه .

---

(١) يقصد عكا ، لأنه حرر كتابه هذا من مدينة عكا حسبما ذكر فى نهايته .

وقد رأت الغالبية أنه إذا انسحبنا فى هذه الفترة تاركين تلك البلاد التى نحن على وشك فقدها ، فإنها سوف تقع فريسة سهلة فى أيدى المسلمين ، خصوصا فى هذه الحالة التى تعانيها من البؤس والانحلال ، كما أننا سنفقد الأمل فى تحرير الأسرى المسيحيين الذين ما زالوا فى قبضة العدو . ونأمل أن يكون فى بقائنا مصلحة لنا ، كالعمل على إطلاق حرية الأسرى ، والمحافظة على قلاع مملكة بيت المقدس ، وغير هذا وتلك من المزايا التى قد تعود على المسيحية بالفائدة ، خاصة بعد الخلاف الذى نشب بين سلطان حلب ومن بيدهم السلطة فى مصر . فبعد أن حشد ذلك السلطان جنوده ، استولى على دمشق وبعض القلاع الداخلة ضمن ممتلكات مصر . ويقال إنه يعتزم التوجه إلى الديار المصرية للانتقام من الأمراء عن مقتل السلطان ، [ص ١١٩٩] والاستيلاء عليها إن أمكنه ذلك . فوفقا لهذه الاعتبارات ، وما يعتمل فى نفوسنا من شفقة على ما تعانيه الأراضى المقدسة التى جئنا لنجدتها ، وما نشعر به من ألم حيال أسرانا ، ومع إقناع الكثيرين لنا بالبقاء فترة أخرى فى هذه البلاد ، آثرنا تأجيل سفرنا حتى لا نترك أسرانا معرضين لمثل هذه الأخطار الجسيمة . ولكننا قررنا إيفاد شقيقينا العزيزين كونت بواتييه وكونت انجو إلى فرنسا لمواساة والدتنا العزيزة وجميع أفراد المملكة .

وإنا لنهيب بكل مسيحى متحمس للحملة التى دعونا إليها ، وبكم أنتم خاصة ، أن تعملوا على استرداد الأراضى المقدسة التى يجب اعتبارها ملكا خاصا لكم(١) . لقد سبقناكم إلى خدمة الله ، فتعالوا واتحدوا معنا . ومع أنكم ستصلون متأخرين ، فان المولى سوف يجازيكم أحسن الجزاء ، مثلكم مثل الزراع الذين عملوا فى الكرمة فى نهاية اليوم وجازاهم رب الكرمة بمثل ما جازى به الذين عملوا

(١) تكشف هذه العبارة عن الأهداف الحقيقية لحملة لويس على مصر .

طوال النهار (١) . وسوف ينال من يحضر منكم أو يبعث بنجدات خلال فترة إقامتنا هنا رضاء الله ، فضلا عن الامتيازات الأخرى الممنوحة للصليبيين (٢) . فإلى كل من توحى إليه الإرادة الالهية بالحضور أو إمدادنا بنجدات، أن يعد عدته لشهر أبريل أو مايو القادمين . أما الذين سوف لا يتسنى لهم الاستعداد للسفر فى هذه الدفعة ، فعليهم أن يهيئوا أنفسهم لحين حلول عيد القديس يوحنا (٣) . فطبيعة الحملة تتطلب السرعة ، وإن كل تأخير سيترتب عليه عواقب وخيمة . فيارجال الدين ، ويا أيها المؤمنون ، قدموا لنا يد المساعدة ، وصلوا من أجلنا ، طالبين من المولى أن يبسط سلطاننا على كل هذه الأراضى، بدعائكم الذى سيكون خير عون لنا ، نحن الخطاة ، على بلوغ هدفنا .

حرر بعكا فى شهر أغسطس سنة ١٢٥٠ ميلادية. » [ص ١٢٠٠]

---

(١) أنظر الكتاب المقدس — العهد الجديد — انجيل متى: الاصحاح السـ...

(٢) فيما يتعلق بهذه الامتيازات راجع ص ٥٥ و ٦٢ من هذا الكتاب .

(٣) يتفق وقوع هذا العيد فى اليوم الخامس والعشرين من شهر يونيو من كل عام.

الملحق الرابع

جدول

تواريخ الحملة

هذا الملحق يعرض تواريخ الحملة مرتبة ترتيبا زمنيا منذ قيامها من فرنسا إلى حين مغادرة فلول قواتها الأراضى المصرية متجهة صوب عكا . وقد حرصنا على ذكر اليوم والتاريخ الهجرى وما يقابله بالميلادى ، أو العكس ، أمام كل مناسبة كما هو مبين بالجدول، معتمدين فى ذلك على كتابى فستنفلد ماهلر Wüstenfeld Mahler والكولونيل هيج Colonel Haig ، وكذلك التوفيقات الإلهامية لأحمد مختار . وقد ناقشنا التواريخ التى اختلفت الروايات من إسلامية ومسيحية حولها فى الحواشى التى تأتى بعد الجداول؛ أما تلك التى سبق مناقشتها فى صلب الكتاب فقد اكتفينا بإحالة القارىء إليها . وأخيرا فإن نظرة سريعة على هذا الجدول تعطى القارىء فكرة واضحة عن صليبية لويس التاسع الأولى وأهم أحداثها .

اليوم	التاريخ الهجرى	مايقابله بالميلادى	المناسبة
الثلاثاء	٤ جمادى الأولى ٦٤٦	٢٥ أغسطس ١٢٤٨	ابحار لويس التاسع والصليبيين من ميناء اجمورت بفرنسا إلى الشرق .
الخميس	٢٧ « « ٦٤٦	١٧ سبتمبر ١٢٤٨	وصول الفرنج إلى ميناء النمسون بقبرص .
الاثنين	٤ محرم ٦٤٧	١٩ ابريل ١٢٤٩	مغادرة الصالح أيوب دمشق إلى الديار المصرية عندما بلغته حركة الفرنج .
الأربعاء [1]	٢٧ محرم ٦٤٧ [2]	١٢ مايو ١٢٤٩	دخول حسام الدين القاهرة نائبا بها عن الصالح أيوب .

اليوم	التاريخ الهجرى	ما يقابله بالميلادى	المناسبة
الثلاثاء [٣]	٣ صفر ٦٤٧ [٤]	١٨ مايو ١٢٤٩	نزول الصالح أيوب بأشموم طناح ليكون قبالة الفرنج عند وصولهم إلى الشاطىء المصرى.
الجمعة	٦ صفر ٦٤٧	٢١ مايو ١٢٤٩	إستعداد الملك الفرنسى ورجاله للرحيل من قبرص إلى مصر.
السبت	٧ صفر ٦٤٧	٢٢ مايو ١٢٤٩ (٥)	إبحار الفرنج من ميناء النمسون بقبرص قاصدين مصر.
الخميس السبت	٢٧ جمادى الأولى ٦٤٦-٧ صفر ٦٤٧	١٧ سبتمبر ١٢٤٨ - ٢٢ مايو ١٢٤٩	فترة إقامة الجيش الصليبى بقبرص.
الجمعة (٦)	٢٠ صفر ٦٤٧ (٧)	٤ يونيو ١٢٤٩	وصول الأسطول الصليبى قبالة البر الغربى لدمياط.
السبت	٢١ صفر ٦٤٧ (٨)	٥ يونيو ١٢٤٩	- نزول الفرنج إلى البر الغربى لدمياط. - وقوع مناوشات طفيفة بين المصريين والفرنج فى هذا البر الغربى. - مغادرة فخر الدين والعسكر البر الغربى إلى البر الشرقى.
الأحد	٢٢ صفر ٦٤٧	٦ يونيو ١٢٤٩	- فرار الأهالى من دمياط. - استيلاء الفرنج على المدينة [٩]. - ورود بطاقة إلى حسام الدين نائب

اليوم	التاريخ الهجرى	ما يقابله بالميلادى	المناسبة
			السلطنة بالقاهرة بخبر استيلاء الفرنج على المدينة .
الثلاثاء	٢٤ صفر ٦٤٧	٨ يونيو ١٢٤٩	نزول الصالح أيوب والعساكر الاسلامية مدينة المنصورة .
الأربعاء	١٠ ربيع الأول ٦٤٧	٢٣ يونيو ١٢٤٩	دخول جمال الدين بن يغمور دمشق نائبا بها عن الصالح ايوب .
الخميس	١١ ربيع الأول ٦٤٧	٢٤ يونيو ١٢٤٩	ورود كتاب من مصر إلى بعض رفاق المؤرخ ابن أبى شامة بدمشق عن استيلاء الفرنج على دمياط [١٠] .
الجمعة	١٢ ربيع الأول ٦٤٧	٢٥ يونيو ١٢٤٩	خطاب بعث به أحد الصليبيين ، ويدعى جان دى بومون ، من دمياط إلى صديق له بفرنسا حول استيلاء الفرنج على المدينة .
الثلاثاء	٢٠ ربيع الأول ٦٤٧	١٣ يوليو ١٢٤٩	وصول ٤٦ من أسرى الفرنج إلى القاهرة .
الأحد [١١]	٥ ربيع الثانى ٦٤٧	١٨ يوليو ١٢٤٩	وصول ٢٩ من أسرى الفرنج إلى القاهرة .
الثلاثاء [١٢]	٧ ربيع الثانى ٦٤٧	٢٠ يوليو ١٢٤٩	وصول ٢٢ من أسرى الفرنج إلى القاهرة .
الأربعاء	١٥ » » »	٢٨ » »	وصول ٣٥ من أسرى الفرنج إلى القاهرة .
الخميس	١٦ » » »	٢٩ » »	وصول ٤٥ من أسرى الفرنج إلى القاهرة .

اليوم	التاريخ الهجرى	ما يقابله بالميلادى	المناسبة
الجمعة	٢٤ ربيع الثانى ٦٤٧	٦ أغسطس ١٢٤٩	ورود الخبر إلى مصر باستيلاء جند دمشق على صيدا من الفرنج .
الأحد	١٨ جمادى الأولى ٦٤٧	٢٩ » »	وصول ٥٠ من أسرى الفرنج إلى القاهرة .
الثلاثاء	١١ جمادى الثانى ٦٤٧	٢١ سبتمبر »	وصول بونيفاس رئيس أساقفة كانتربرى إلى انجلترا معلنا خبر امتلاك الفرنج دمياط .
الأربعاء	١٩ » » »	٢٩ » »	انتشار خبر استيلاء الفرنج على دمياط فى الغرب الأوروبى (عيد القديس ميشيل) .
الجمعة	١٣ رجب ٦٤٧	٢٢ أكتوبر »	وصول ٥٨ من أسرى الفرنج إلى القاهرة .
الأحد	١٥ » »	٢٤ » »	وصول الفونس كونت بواتييه على رأس نجدة إلى دمياط قادما من فرنسا .
السبت	١٢ شعبان ٦٤٧ [١٢]	٢٠ نوفمبر ١٢٤٩	زحف الفرنج من دمياط جنوبا صوب العاصمة .
الأحد - السبت	٢٢ صفر - ١٢ شعبان ٦٤٧	٦ يونيو - ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩	فترة إقامة الفرنج بدمياط منذ استيلائهم عليها إلى حين زحفهم جنوبا صوب العاصمة .
الاثنين [١١]	١٤ شعبان ٦٤٧	٢٢ نوفمبر ١٢٤٩	وفاة الملك الصالح ايوب بالمنصورة .
الخميس	١٧ » »	٢٥ » »	تحليف العسكر بالقاهرة عند الأمير حسام الدين للمعظم توران شاه .
الاثنين	٢١ » »	٢٩ » »	ورود الأمر إلى القاهرة من المعسكر بالمنصورة بدعاء الخطباء فى الجمعة التالية (٢٥ شعبان) للمعظم بعد الدعاء لأبيه ، وبنقش إسمه على سكة الدراهم والدنانير بعد إسم أبيه .

اليوم	التاريخ الهجرى	ما يقابله بالميلادى	المناسبة
الخميس	٢٤ شعبان ٦٤٧ [١٥]	٢ ديسمبر ١٢٤٩	وصول الفرنج فارسكور .
الجمعة	٢٥ شعبان ٦٤٧	٣ ديسمبر ١٢٤٩	ورود كتاب إلى القاهرة من المعسكر الاسلامى بالمنصورة حاثا الناس على الجهاد ضد الغزاة .
الأربعاء [١٦]	١ رمضان ٦٤٧ [١٧]	٨ ديسمبر ١٢٤٩	ـ معركة بين المصريين والفرنج فيما بين فارسكور وشارمساح. ـ نزول الفرنج على شارمساح .
الثلاثاء	٧ رمضان ٦٤٧	١٤ ديسمبر ١٢٤٩	وصول الفرنج البرمون .
السبت	١١ رمضان ٦٤٧ [١٨]	١٨ ديسمبر ١٢٤٩	ـ قيام توران شاه من كيفا قاصداً مصر .
الثلاثاء	١٤ رمضان ٦٤٧	٢١ ديسمبر ١٢٤٩	ـ وصول الفرنج شمالى بحر أشموم (١٩) . ـ الجيش المصرى يشن هجوما على الفرنج شمالى بحر أشموم .
الخميس	١٦ رمضان ٦٤٧	٢٣ ديسمبر ١٢٤٩	ذهاب ٦ من خيالة الفرنج إلى البر الذى فيه المسلمون ، وإخبارهم إياهم بضائقة الفرنج لنفاد مؤونتهم .
الجمعة	١٧ رمضان ٦٤٧	٢٤ ديسمبر ١٢٤٩	وصول المعظم عانة فى طريقه إلى مصر .

اليوم	التاريخ الهجرى	ما يقابله بالميلادى	المناسبة
السبت	١٨ رمضان ٦٤٧	٢٥ ديسمبر ١٢٤٩	هجوم آخر قام به المسلمون على الفرنج شمالى بحر أشموم .
الاثنين	٢٠ « ٦٤٧	٢٧ ديسمبر ١٢٤٩	مغادرة توران شاه عانة قاصدا دمشق.
الثلاثاء	٢٨ « ٦٤٧	٤ يناير ١٢٥٠	وصول توران شاه القصير.
الأربعاء	٢٩ « ٦٤٧	٥ يناير ١٢٥٠	- المصريون يأسرون أحد كبار الفرنج من أقارب الملك لويس، لعله شارل كونت انجو . - وصول توران شاه دمشق[٢٠].
الاثنين[٢١]	٤ شوال ٦٤٧	١٠ يناير ١٢٥٠	سقوط الطائر فى مصر بوصول المعظم دمشق .
الخميس[٢١]	٧ « ٦٤٧	١٣ يناير ١٢٥٠	استيلاء المسلمين على سفينة حربية للفرنج فيها ٢٠٠ رجل .
الخميس	١٤ « ٦٤٧	٢٠ يناير ١٢٥٠	نشوب معركة بين المسلمين والصليبيين شمالى بحر أشموم .
الجمعة	١٥ « ٦٤٧	٢١ يناير ١٢٥٠	وصول ٦٧ من أسرى الفرنج إلى القاهرة .
الخميس	٢١ « ٦٤٧[٢٢]	٢٧ يناير ١٢٥٠	معركة بين المسلمين والمسيحيين انتهت بانتصار المسلمين وحرقهم

اليوم	التاريخ الهجرى	مايقابله بالميلادى	المناسبة
			مزيمة (١٣) للعدو .
الثلاثاء	٢٦ شوال ٦٤٧ (٢٤)	١ فبراير ١٢٥٠	مغادرة توران شاه دمشق قاصدا مصر .
الاثنين	٣ ذو القعدة ٦٤٧	٧ فبراير ١٢٥٠	اجتماع عقده الملك الفرنسى وكبار رجال جيشه تقرر فيه عبور الفرنج بحر أشموم فى صبيحة اليوم التالى .
الثلاثاء	٤ ذو القعدة ٦٤٧ (٢٥)	٨ فبراير ١٢٥٠	- عبور الفرنج بحر أشموم (فجر الثلاثاء) . - موقعة المنصورة الأولى (من الصباح الباكر حتى المساء). - ورود بطاقة إلى القاهرة عن اشتداد القتال بين المسلمين والفرنج (مساء الثلاثاء) . - باب النصر بالقاهرة يظل مفتوحا طيلة ليل الثلاثاء لدخول المنهزمين فى الوقعة المذكورة .
الأربعاء	٥ ذو القعدة ٦٤٧	٩ فبراير ١٢٥٠	- ورود البشرى إلى القاهرة بالنصر على الفرنج فى وقعة الثلاثاء .

اليوم	التاريخ الهجرى	ما يقابله بالميلادى	المناسبة
			ـ تجدد القتال بين الفريقين جنوبى بحر أشموم .
الجمعة	٧ ذو القعدة ٦٤٧	١١ فبراير ١٢٥٠	موقعة الجمعة الشهيرة .
الأحد	١٦ ذو القعدة ٦٤٧	٢٠ فبراير ١٢٥٠	ـ وصول توران شاه الصالحية . ـ إعلان موت الصالح أيوب رسميا .(٢٦)
الأربعاء	٩ ذو القعدة ٦٤٧ (٢٧)	٢٣ فبراير ١٢٥٠	تولى توران شاه ملك مصر .
الجمعة	٢١ ذو القعدة ٦٤٧ (٢٨)	٢٥ فبراير ١٢٥٠	وصول توران شاه المنصورة .
الاثنين	١ ذو الحجة ٦٤٧	٧ مارس ١٢٥٠	نشوب معركة بحرية بين المسلمين والفرنج انتهت بانتصار الفرنج .
الثلاثاء	٢ ذو الحجة ٦٤٧	٨ مارس ١٢٥٠	إقرار توران شاه لحسام الدين فى نيابة السلطنة بالقاهرة .
الثلاثاء (٢٩)	٩ ذو الحجة ٦٤٧ (٣٠)	١٥ مارس ١٢٥٠	نشوب معركة بحرية أخرى بين المسلمين والفرنج انتصر فيها المسلمون .
الجمعة	٢٦ ذو الحجة ٦٤٧	١ أبريل ١٢٥٠	الفرنج يعدون العدة للتراجع العام من المنصورة إلى قاعدتهم بدمياط .
الثلاثاء	١ محرم ٦٤٨ (٣١)	٥ أبريل ١٢٥٠	تراجع الفرنج من المنصورة إلى دمياط .

اليوم	التاريخ الهجرى	ما يقابله بالميلادى	المناسبة
الأربعاء	٢ محرم ٦٤٨	٦ أبريل ١٢٥٠	ـ كارثة فارسكور (صباح الأربعاء). ـ أسر الملك الفرنسي لويس التاسع.
السبت	٥ محرم ٦٤٨	٩ أبريل ١٢٥٠	المعظم يعزل حسام الدين عن نيابة القاهرة ، ويحل محله الأمير جمال الدين أقوش النجمى .
الأربعاء	١٦ محرم ٦٤٨	٢٠ أبريل ١٢٥٠	وصول غفارة لويس التاسع إلى دمشق ، وهى التى أرسلها المعظم مع كتاب له إلى نائبه ابن يغموز يبشره فيه بالنصر على الفرنج .
الأحد	٢٠ محرم ٦٤٨	٢٤ أبريل ١٢٥٠	دخول عامة الناس بدمشق كنيسة مريم بقصد هدمها عندما ذاع خبر انتصار المصريين على الفرنج.
الخميس	٢٤ محرم ٦٤٨	٢٨ أبريل ١٢٥٠	وصول السفينة التى كانت تقل بعض أسرى الفرنج ومن بينهم جوانفيل إلى فارسكور .
الاثنين	٢٨ محرم ٦٤٨	٢ مايو ١٢٥٠	ـ توجه جمال الدين بن واصل من القاهرة إلى المعسكر بالمنصورة لمشاهدة استرداد المصريين لمدينة دمياط . ـ ثورة المماليك البحرية واغتيال المعظم توران شاه . (٣٢)

اليوم	التاريخ الهجرى	ما يقابله بالميلادى	المناسبة
الخميس	١ صفر ٦٤٨	٥ مايو ١٢٥٠	وصول نبأ مقتل المعظم إلى دمشق.
السبت (٣٣)	٣ صفر ٦٤٨	٧ مايو ١٢٥٠	- إسترداد المصريين مدينة دمياط. - إخلاء سبيل الملك الفرنسى وبعض كبار الأسرى من الفرنج.
الأحد (٣٢)	٤ صفر ٦٤٨	٨ مايو ١٢٥٠	إبحار لويس وفلول قواته من دمياط إلى عكا.
الجمعة (٣٣)	٩ صفر ٦٤٨	١٢ مايو ١٢٥٠	- وصول القوات المصرية المظفرة إلى القاهرة عائدة من دمياط. - وصول الجيش الصليبى منهزما إلى عكا.

حواشي الملحق الرابع

الخاص بجدول تواريخ الحملة

(١) ذكر ابن واصل (مفرج الكروب ج ٢ لوحة ٣٥٥ ب) أن ٢٧ محرم ٦٤٧ هـ يوافق يوم الثلاثاء ، ولكن لما كان أول المحرم من هذه السنة يوافق الجمعة حسبما يتضح من كتابي فستنفلد ماهلر والتوفيقات الإلهامية ، فيقع ٢٧ منه يوم الأربعاء لا الثلاثاء . وقد ذكر أبو شامة (تراجم رجال القرنين ص ١٨٣) وكذا العيني (عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٢٩٦) في مناسبة أخرى أنه في يوم الأثنين ٤ محرم ٦٤٧ هـ غادر الصالح أيوب دمشق قاصدا مصر ، وعلى هذا الأساس يقع ٢٧ محرم من هذه السنة يوم الأربعاء لا الثلاثاء ، مما يتفق وتقدير كل من فستنفلد والتوفيقات الإلهامية وبالتالي خطأ ابن واصل .

(٢) ذكر ابن واصل (مفرج الكروب ج ٢ لوحة ٣٥٥ ب) أن حسام الدين وصل القاهرة يوم ٢٧ محرم ٦٤٧ هـ ، بينما ذكر الذهبي (تاريخ الاسلام — مخطوط بدار الكتب برقم ١٤٥٢ تاريخ) في حوادث عام ٦٤٧ هـ تحت كلمة « أيوب » أن ذلك كان في ٣ محرم/١٨ ابريل . ونحن نميل الى ترجيح رواية ابن واصل لأنه عاصر أحداث هذه الفترة .

(٣) ذكر ابن واصل (مفرج الكروب ج ٢ لوحة ٣٥٥ ب) أن هذه المناسبة كانت يوم الاثنين ٣ صفر ٦٤٧ هـ ، ولما كان أول صفر يقع يوم الأحد حسب تقدير فستنفلد والتوفيقات الإلهامية ، فيكون ٣ منه موافقا يوم الثلاثاء لا الاثنين . ويؤيد هذا ما أجمعت عليه غالبية مراجع الحملة من أن وصول الفرنج قبالة دمياط كان يوم الجمعة ٢٠ صفر ، ونزولهم الى البر الغربي يوم السبت ٢١ منه ، واستيلاءهم على المدينة يوم الأحد ٢٢ صفر من هذه السنة . انظر ص ٨٩ حاشية ٢ وص ١٠٠ حاشية ١ وص ١٠٩ حاشية ٢ من هذا الكتاب .

(٤) أنظر ص ٨١ حاشية ٥ من هذا الكتاب .

(٥) أنظر ص ٨٧ حاشية ٢ من هذا الكتاب .

(٦) ذكر ابن واصل (مفرج الكروب ج ٢ لوحة ٣٥٦ ا) أن الفرنج وصلوا قبالة دمياط يوم الخميس ٢٠ صفر ، بينما أجمعت المراجع الأخرى ، من عربية وأوروبية ، أن ذلك كان يوم الجمعة ٢٠ منه . والرواية الثانية هي الصواب لأن مستهل صفر يوافق الأحد حسب تقدير فستنفلد ، فيقع ٢٠ منه يوم الجمعة وليس يوم الخميس . هذا وقد ذكر ابن واصل

نفسه (نفس المرجع والجزء لوحة ٣٥٦ ا — ب) أن نزول الفرنج إلى البر الغربي لدمياط كان يوم السبت ٢١ صفر ، واستيلاءهم على المدينة كان يوم الأحد ٢٢ منه ، مما يؤيد أن ٢٠ صفر يوافق يوم الجمعة لا الخميس .

(٧) أنظر ص ٨٩ حاشية ٢ من هذا الكتاب .

(٨) أنظر ص ١٠٠ حاشية ١ من هذا الكتاب .

(٩) أنظر ص ١٠٩ حاشية ٢ من هذا الكتاب .

(١٠) مما يؤسف له أن أبا شامة لم يورد نص هذا الكتاب ، واكتفى بذكر مضمونه . راجع تراجم رجال القرنين ص ١٨٣ .

(١١) ذكر ابن واصل (مفرج الكروب ج ٢ لوحة ٣٥٧ ا — ب) أن أسر اولئك الفرنج كان يومى السبت ٥ ربيع الثانى والاثنين ٧ ربيع الثانى ٦٤٧ هـ . ولما كان مستهل ربيع الثانى يوافق يوم الأربعاء حسب تقدير فستنفلد ، فيكون خامسه موافقا يوم الأحد وسابعه يوم الثلاثاء . ولما كان المؤرخ نفسه قد ذكر فى مؤلفه فى مناسبة أخرى تاريخا يوضح خطأه السابق ، وهو أنه فى يوم الأربعاء ١٥ ربيع الثانى ٦٤٧ هـ وصل القاهرة ٣٥ من أسرى الفرنج ، وفى يوم الجمعة ٢٤ منه ورد الخبر الى مصر باستيلاء عسكر دمشق على صيدا أنظر (ابن واصل ج ٢ لوحة ٣٥٧ ب) ، فإنه يتضح بذلك أن ٥ و٧ ربيع الثانى يوافقان يومى الأحد والثلاثاء وليس السبت والاثنين .

(١٢) أنظر الحاشية السابقة .

(١٣) راجع ص ١٣٢ حاشية ١ من هذا الكتاب .

(١٤) راجع ص ١٣٥ حاشية ١ من هذا الكتاب .

(١٥) راجع ص ١٤٤ ح ٤ من هذا الكتاب .

(١٦) ذكر ابن واصل (مفرج الكروب ج ٢ لوحة ٣٦٤ ب) أن هذه الوقعة كانت يوم الثلاثاء مستهل رمضان ٦٤٧ هـ ، ولكن حسب تقدير فستنفلد يقع أول رمضان يوم الأربعاء . ولعل هذا هو الصواب لأنه يتفق والتسلسل الزمنى لتواريخ الحملة ، وما ذكره ابن واصل نفسه (مفرج الكروب ج ٢ لوحة ٣٦٤ ا) وكذلك العينى (عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٦) والمقريزى (السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٤٦ و ٣٥١) فى مناسبة أخرى من أن قيام المعظم من حصن كيفا قاصدا مصر كان يوم السبت ١١ رمضان ٦٤٧ ، مما يتفق وتقدير فستنفلد والتوفيقات الإلهامية . وعلى هذا الأساس يكون أول رمضان موافقا

يوم الأربعاء لا الثلاثاء . — هذا ويلاحظ أن ابن واصل قد أخطأ فى تحديد الأيام الخاصه بالأحداث التى وقعت بقية شهر رمضان ، فذكر أن ٧ رمضان يقع يوم الأثنين و ١٦ منه يقع يوم الأربعاء و ١٧ يقع يوم الخميس و ٢٠ يوم الأحد و ٢٨ يوم الاثنين و ٢٩ يوم الثلاثاء . أنظر مفرج الكروب ج ٢ لوحة ٣٦٤ ب — ٣٦٥ ا .

(١٧) أنظر ص ١٤٧ ح ١ من هذا الكتاب .

(١٨) أنظر ص ١٨٨ ح ١ من هذا الكتاب .

(١٩) أنظر ص ١٤٨ ح ٢ من هذا الكتاب .

(٢٠) اختلفت الرواية الاسلامية حول تاريخ وصول المعظم دمشق . فذكر كل من أبى شامة (تراجم رجال القرنين ص ١٨٣) وابن واصل (مفرج الكروب ج ٢ لوحة ٣٦٥ ا) أن ذلك كان يوم ٢٩ رمضان ٦٤٧ هـ / ٥ يناير ١٢٥٠ م ، وفى ٢٠ رمضان ٦٤٧ / ٢٧ ديسمبر ١٢٤٩ نقلا عن العينى (عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٧) ، وفى ٢٨ رمضان / ٤ يناير حسبما ذكر المقريزى (الخطط ج ٢ ص ٢٣٦) ، وفى ٣٠ منه / ٦ يناير وفقا لرواية ابن الجوزى (مرآة الزمان ج ٨ لوحة ٥١٤) وكذلك أبى المحاسن (المنهل الصافى ج ١ ورقة ٣٤٣ ا) والنويرى (نهاية الأرب ج ٢٧ لوحة ٩٣) وابن الجزرى (ملخص تاريخ الاسلام ورقة ٧٩٨) والمقريزى (الخطط ج ١ ص ٢٢١) . وقد أخذنا بالرواية الأولى لأنها لمؤرخين عاصرا أحداث الحملة ، وكان أحدهما — نعنى أبا شامة — موجودا بدمشق فى ذاك الحين .

(٢١) ذكر ابن واصل أن ٤ شوال يقع يوم الأحد وسابعه يوم الأربعاء ، أنظر (مفرج الكروب ج ٢ لوحة ٣٦٥ ب) . ولكن لما كان أول شوال ٦٤٧ هـ يوافق الجمعة حسب تقدير فستنفلد ماهلر ، فيكون رابعه موافقا الاثنين وسابعه الخميس . يؤيد هذا ما ذكره ابن واصل نفسه (مفرج الكروب نفس الجزء واللوحة) من أنه فى يوم الخميس ١٤ شوال ٦٤٧ هـ نشبت معركة بين المصريين والفرنج ، وفى يوم الجمعة ١٥ منه وصل ٦٧ من أسرى الفرنج إلى القاهرة ، وفى يوم الخميس ٢١ منه نشبت معركة ثانية بين الطرفين انتصر فيها المسلمون .

(٢٢) قال ابن واصل إن هذه الوقعة كانت يوم الخميس ٢١ شوال ٦٤٧ هـ . أنظر (مفرج الكروب نفس الجزء واللوحة) ، بينما قال المقريزى (الخطط ج ١ ص ٢٢١) إنها حدثت يوم الخميس ٢٢ منه . ورواية ابن واصل هي الصواب لأن مستهل شوال يوافق يوم الجمعة

حسب تقدير فستنفلد والتوفيقات الإلهامية ، فيكون ٢١ منــه — وليس ٢٢ — هو الذى يوافق يوم الخميس .

(٢٣) المرمة جمعها مرمات وهى نوع من مراكب البحر العظيمة . وقد ذكرها ابن الأثير تحت حــوادث سنة ٦١٤ هـ فى صــدد الــكلام عن حمــلة جان دى برين على مصر فقــال : « . . . واتفق فى تلك الحال أنه وصل إليهم مركب كبير للفرنج من أعظم المراكب يسمى مرمة وحوله عدة حراقات تحميه ، والجميع مملوءة من الميرة والسلاح وما يحتاجون إليه » . أنظر تاريخ الـكامل (طبعة بولاق ١٢٩٠ هـ) ج ١٢ ص ١٣٦ .راجع أيضا ميخائيل عواد : المآصر فى بلاد الروم والاسلام ص ٤٠ حاشية ٣ .

(٢٤) اختلف كتاب المسلمين حــول تاريخ مغادرة توران شاه دمشق . فقــال النويرى (نهاية الأرب ج ٢٧ لوحة ٩٣) إنه غادرها فى ٢٥ شوال / ٣١ يناير ، وقال كل من أبى شامة (تراجم رجال القرنين ص ١٨٣) والمقريزى (الخطط ج ١ ص ٢٢١) إن ذلك كان فى ٢٦ شوال /١ فبراير ، وذكر العينى (عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٠٧) وكذلك المقريزى (السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٥٢) أنه كان فى ٢٧ شوال / ٢ فبراير . وقــد أخذنا برواية أبى شامة الذى كان مقيما بدمشق وقتذاك باعتبارها أقوى الروايات الثلاث وأرجحها .

(٢٥) راجع ص١٦٢ ح ٣ من هذا الـكتاب.

(٢٦) ذكر ابن واصل (مفرج الـكروب ج٢ لوحة ٣٦٧ أ) وكذلك المقريزى (السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٥٢ ، الخطط ج ١ ص ٢٢١) أن موت الصــالح أعلن فى ١٦ من ذى القعدة / ٢٠ فبراير ، بينما روى اللوانى (تحفة الأحباب قسم ١ لوحة ٧٩) أن ذلك كان فى ١٩ منه / ٢٣ فبراير . وقد أخذنا برواية ابن واصل المؤرخ المعاصر لأحداث هذه الفترة.

(٢٧) تضاربت الأقوال حول تاريخ تولى المعظم ملك مصر .فقد ذكر ابن دقماق (الجوهر الثمين ورقة ١٠٤) أنه تولى الملك فى ١٤ من ذى القعدة ٦٤٧هـ/ ١٨ فبراير ١٢٥٠ م. وذكر كل من القرمانى (اخبار الدول ورقة ٦٥ ب) ويوسف اللوانى (تحفة الأحباب قسم ١ لوحة ٧٩) أن ذلك كان فى ١٩ منه / ٢٣ فبراير ، وقال العصامى (سمط النجوم العوالى ورقة ٣٣٦) إنه كان فى أول المحــرم ٦٤٨ هـ / ٥ أبريل ١٢٥٠ م . وبمقــارنة هذه التواريخ يتضح أنه ليس من المعقول أن يتربع المعظم على عرش مصر فى ١٤ من ذى القعدة قبل وصوله الديار المصرية ، كما أننا نستبعد الرأى القائل بتوليه ملك مصر فى مستهل المحرم

أى بعد قرابة شهر ونصف من مقدمه إليها . وقد أخذنا بالرواية الثانية القائلة بتوليه الملك ز، ١٩ من ذى القعدة ، أى بعد ثلاثة أيام من وصوله الصالحية وإعلان موت الصالح أيوب .

(٢٨) تختلف الرواية الاسلامية حول تاريخ وصول المعظم المنصورة . فقد قال ابن أيبك (كنز الدرر جـ ٧ ورقة ٣٧٨) إنه وصلها فى ١٤ من ذى القعدة / ١٨ فبراير ، وذكر كل من النويرى (نهاية الأرب جـ٢٧ لوحة ٩٣) والاسحاقى (لطائف أخبار الأول ص١٢٥) أن ذلك كان فى ١٧ منه / ٢١ فبراير ، بينما ذكر أبو شامة (تراجم رجال القرنين ص ١٨٣) أنه كان فى ١٨ منه/ ٢٢ فبراير ، وفى خطط المقريزى (جـ١ ص ٢٢١) ١٩ منه / ٢٣ فبراير ، وفى مخطوط مرعى بن يوسف (نزهة الناظرين ورقة ٢٢٨) ٢٧ منه . ويذكر ابن واصل (مفرج الكروب جـ ٢ لوحة ٣٦٧ ب) أن تاريخ وصوله هو ٢١ من ذى القعدة / ٢٥ فبراير ، ويؤيده فى ذلك العينى (عقد الجمان جـ ١٨ قسم ٢ لوحة ٣١٨) والعمرى (مسالك الابصار جـ ٢٧ قسم ٣ لوحة ٢٧٠) وأبو الفداء (المختصر جـ٣ ص ١٨٩) وابن الوردى (تتمة المختصر جـ ٢ ص ١٨٢) والمقريزى (الخطط جـ ٢ ص٢٣٦). ونحن نرجح رواية ابن واصل ، خاصة وأنه حضر فى خدمة المعظم عند وصوله المنصورة حيث جرت بينهما مباحثات فى العلوم والآداب حسبما ذكر المؤلف فى كتابه ، مما يجعل تاريخه أقرب إلى التصديق من التواريخ الأخرى . أنظر مفرج الكروب جـ ٢ لوحة ٣٦٧ أ .

(٢٩) ذكر ابن واصل (مفرج الكروب جـ ٢ لوحة ٣٦٨ ب) أن هذه المعركة كانت يوم الاثنين ٩ ذو الحجه . والصواب أن التاسع من ذى الحجة يوافق يوم الثلاثاء لا الاثنين ، لأن مستهله يقع يوم الاثنين حسب تقدير فستنفلد ، خاصة وأن ابن واصل نفسه ذكر فى مناسبة أخرى (نفس المرجع والجزء واللوحة) أنه فى يوم الجمعة ٢٦ من ذى الحجة ٦٤٧هـ أعد الفرنج العدة للتراجع العام من المنصورة إلى دمياط ، الأمر الذى يوضح خطأه السابق .

(٣٠) ذكر ابن واصل (مفرج الكروب نفس الجزء واللوحة) أن هذه الوقعة كانت يوم ٩ من ذى الحجة ٦٤٧ هـ ، ويؤيده فى ذلك كل من المقريزى (الخطط جـ ١ ص ٢٢٢) والعينى (عقد الجمان جـ١٨ قسم٢ لوحة ٣٠٨) ؛ أما ابن أيبك (كنز الدرر جـ٧ ورقة ٣٧٩) فيقول إنها كانت يوم الاثنين ٢٢ من ذى الحجة ٦٤٧ هـ / ٢٨ مارس ١٢٥٠ م . ولعل الرواية الأولى هى الصواب ، إذ ليس من المعقول أن يشتبك الفرنج فى معركة مع المصريين فى وقت كان دبيب اليأس قد دب فى نفوسهم وكانوا يستعدون للانسحاب من المنصورة إلى مراكزهم فى دمياط .

(٣١) أنظر ص ١٩٩ ح ٣ من هذا الكتاب .

(٣٢) راجع ص ٢٢٦ ح ١ من هذا الكتاب .

(٣٣) ذكر ابن واصل (مفرج الكروب ج ٢ لوحة ٣٧٣ ب) أن هذه الحوادث وقعت في أيام الجمعة ٣ صفر والسبت رابعه والخميس تاسعه . ولما كان أول صفر يوافق يوم الخميس حسب تقدير فستنفلد والتوفيقات الإلهامية ،فيقع ثالثه يوم السبت ورابعه يوم الأحد وتاسعه يوم الجمعة. ومما يثبت خطأ ابن واصل وبالتالي صحة التقدير السابق ، ما ذكره جمال الدين نفسه (مفرج الكروب ج٢ لوحة ٣٧٢ أ) من أنه في يوم الاثنين ٢٨ محرم ٦٤٨هـ توجه هو من القاهرة إلى المنصورة لمشاهدة فتح دمياط ، وما قاله العمري في مناسبة أخرى (مسالك الابصار ج ٢٧ قسم ٣ لوحة ٢٧٣) من أن العساكر المصرية وصلت القاهرة قادمة من دمياط يوم الجمعة ٩ صفر وليس يوم الخميس ٩ منه .

الملحق الخامس

ثبت

بأسماء مشاهير المسلمين والصليبيين المشتركين فى الحملة ومن عاصرهم من المسلمين فى مصر ممن ورد ذكرهم فى مصادر الكتاب مرتبة ترتيبا أبجديا .

١ — أسماء المسلمين

الأسعد شرف الدين الفائزى (القاضى — من رجال المعظم توران شاه)

الأمجد حسن بن الناصر داود (الملك)

الأوحد بن الناصر داود (الملك)

بدر الدين يوسف بن الحسن السنجارى (قاضى مصر والوجه القبلى)

بهاء الدين بن الجميزى (الفقيه)

بهاء الدين زهير (القاضى — كاتب المملكة الصالحية)

تاج الدين المعروف بابن بنت الأعز (القاضى)

جمال الدين أقوش النجمى الصالحى (من أمراء الصالح أيوب)

جمال الدين بن واصل (قاضى حماه وأعمالها)

جمال الدين صبيح المعظمى (الطواشى — من رجال المعظم توران شاه)

جمال الدين محسن الصالحى (الطواشى — مقدم الحلقة والمماليك البحرية)

جمال الدين يحي بن مطروح (الشاعر والأمير الصاحب)

جوهر الخادم (من خدم المعظم توران شاه)

حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى (الأمير — نائب السلطنة بالديار المصرية)

الدمياطى (من مماليك الأمير فخر الدين)

الرشيد المعروف بأبى حليقة (من أطباء الصالح أيوب)

رشيد الدين (الطواشى — من خدم الصالح أيوب)

ركن الدين بيبرس البندقدارى الصالحى (من أمراء الصالح أيوب)

معين الدين هبة الله بن أبي الزهر بن حشيش (كاتب المعظم توران شاه بحصن كيفا)

المغيث بن العادل بن الكامل (الملك)

المغيث بن عبد العزيز (الملك ـ أخو الناصر داود)

موفق الدين أبو الفضل الحموى (من أطباء الصالح أيوب)

نجم الدين يوسف بن شيخ الاسلام (من الأمراء الصالحية)

٢ – أسماء الصليبيين [1]

Alexander Giffard (Alexandre Giffard)
Aubers de Narcy (Aubert de Narcy)
Auphons de Poitiers (Alfonse de Poitiers)
Baudoins d'Ibelin (Baudouin d'Ibelin)
Baudouins de Reims (Beaudoin de Reims)
Charles d'Angiers Charles d'Anjou)
Charles de Provynce (Charles de Provence)
Li cuens de Japhe (le comte de Jaffa)
Li cuens de Salebruche (le comte de Sarrebruck)
Li cuens d'Eu (le comte d'Eu)
Dreux de Soissons
Erars de Brienne (Érard de Brienne)
Erars de Severey (Érard de Siverey)
Erars de Walery (Érard de Valery)
Estiennes d'Otricourt (Étienne d'Otricourt)
Eudes de Chastel Raoul
Ferris de Loupey (Frédéric de Loupey)
Fourcaut dou Merle (Foucaud du Merle)
Gauchiers d'Autreche (Gautier d'Autrèche)
Gauchiers de Chasteillon (Gaucher de Châtillon)
Gauchiers ses niez (Gaucher son neveu)
Gautiers d'Anemoes (Gautier de Nemours)
Gautiers de la Horgne (Gautier de la Horgne)
Gautiers d'Escuiré (Gautier d'Écurey)
Geffroys de Beaulieu (Geoffroy de Beaulieu)
Geffroys de Mussanbourc (Geoffroi de Mussambourc)
Geffroys de Sargines (Geoffroy de Sargines)
Giles, li Granz Coumanderrez du Temple
Giles de Mailly

(١) حرصنا على ذكر الإسم بلغته الأصلية وما يقابله فى اللغات الاوروبية الحديثة بين قوسين.

Gobers d'Apremont (Gobert d'Apremont)
Guillaume Longue Espée (William Longuespee)
Guillaumes de Boon (Guill. de Boon)
Guillaumes de Dammartin (Guill. de Dammartin)
Guillaumes de Flandres (Guill. de Flandre)
Guillaumes de Sonnac (Guill. de Sonnac)
Guion Malvoisin (Gui Mauvoisin)
Guis de Forez (Gui de Forez)
Guis de Melun (Guy de Melun)
Guis d'Ibelin (Gui d'Ibelin)
Henris de Brancion (Henri de Brancion)
Henris de Coonne (Henri de Cône)
Henris de Ronnay (Henri de Ronnay)
Hues de Landricourt (Hugues de Landricourt)
Hues de Saint-Pol (Hugues de Saint-Paul)
Hugues de Bourgoingne (Hugues de Bourgogne)
Hugues d'Escoz (Hugues d'Ècot)
Hugues de Flandres (Hugh de Flandres)
Hugues li Bruns, cuens de la Marche (Hugues le Brun)
Huon de Trichastel (Hugues de Trichâtel)
Huon de Wauquelour (Hugues de Vaucouleurs)
Jaque de Castel (Jacques de Castel)
Jean, Prêtre de Joinville
Jehans de Biaumont (Jean de Beaumont)
Jehans de Gamaches (Jean de Gamaches)
Jehans de Herisi (Jean de Herisi)
Jehans de Joinville (Jean de Joinville)
Jehans de Monson (Jean de Monson)
Jehans de Saillenay (Jean de Saillenay)
Jehans de Soissons (Jean de Soissons)
Jehans de Valenciennes (Jean de Valenciennes)

Jehans de Voyssei (Jean de Voisey)
Jehans de Waleri (Jean de Valery)
Jehans d'Orliens (Jean d'Orléans)
Jehans Fouinons (Jean Fouinon)
Jehans Sarrasin (Jean Sarrasin)
Jocelins de Cornaut (Jocelin de Cornaut)
Jocerant de Brançon (Josserand de Brancion)
Jocerant de Nantum (Josserand de Nanton)
Johanne de Bretain (Jean de Bretagne)
Looys IX, le roiz de France (Louis IX, roi de France)
Mahis de Marley (Matthieu de Marles)
Marcel
Nicholes d'Acre (Nicole d'Acre)
Nicholes de Choysi (Nicolas de Choisi)
Odon de Châteauroux
Oliver of Termes
St. Paul of Soissons
Perron d'Avalon (Pierre d'Avallon)
Phelippes de Nemoes (Philippe de Nemours)
Phelippes de Courtenay (Philippe de Courtenày)
Phelippes de Monfort (Philippe de Montfort)
Phelippes de Nanteil (Philippe de Nanteuil)
Pierres de Bretaingne (Pierre de Bretagne)
Pierres de Noville (Pierre de Neuville)
Raoul, frere Preescheour
Raoul de Couci
Raoul de Wanou
Rauf de Coucy (Ralph de Coucy)
Rauf de Flaundres (Ralph de Flandre)
Rauf de Henefeld (Ralph de Henefeld)
Renaus de Menoncourt (Renaud de Menoncourt)

Renaut de Vichiers (Renaud de Vichiers)
Rethel de Soissons
Richard de Aschalons (Richard d'Ascalon)
Richard de Guise
Roberd de Ver (Robert de Ver)
Roberd de Widele (Robert de Widele)
Robers d'Artois (Robert d'Artois)
Rogierz de Rosoi
Villain de Versey
Walter de Joigny
Wymound de Scaloun (Wymound d'Ascolon)
Ymbers de Biaujeu (Imbert de Beaujeu)

المصادر والمراجع

١ ـــ المجموعات التى تتضمن المصادر الأصلية للحروب الصليبية .

٢ ـــ المخطوطات .

٣ ـــ المصادر الأصلية العربية .

٤ ـــ المصادر الأصلية الأوروبية .

٥ ـــ المراجع الثانوية العربية .

٦ ـــ المراجع الثانوية الأوروبية



مختصرات لبعض أسماء المجموعات والمجلات التاريخية التى كثرت الاشارة اليها فى حواشى الكتاب

Ar. Or. Lat. Les Archives de l'Orient Latin.

Bib. des Crois. Michaud, Bibliothèque des Croisades.

Ency. Brit. Encyclopaedia Britannica.

Ency. of Islam, « of Islam.

G. D. F. Bongars, Gesta Dei per Francos.

Mon. Cart. Y. Kamal, Monumenta Cartographica Africae et Aegypti.

R.H.C.-Doc. Arm. Recueil des Historiens des Croisades, Documents Armeniens.

R.H.C.-H. Occ. Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux.

R.H.C.-H. Or. Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux.

١ — المجموعات التى تتضمن المصادر الأصلية للحروب الصليبية

Bongars, J., Gesta Dei per Francos; sive orientalium expeditionum et regni Francorum hierosolimitani historia (ab a. 1095 ad 1420) a variis, sed illius aevi scriptoribus, litteris. 2 t. Hanover, 1612.

Michaud, J. Bibliothèque des Croisades. 4 vols. Paris, 1829 :
I, Chronique de France ;
II, Id. et chroniques d'Italie et d'Angleterre ;
III, Chroniques d'Allemagne, des pays du nord, Grecques, turques ;
IV, Chroniques arabes.

Les Archives de l'Orient Latin, publiées par la Société de l'Orient Latin. 2 vols. Paris, 1881 et 1884. (Textes, inventaires et études originales).

Recueil des Historiens des Croisades, publié par les soins de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, in 16 huge folio vols. Paris, 1841-1906 :

I, Historiens Occidentaux, 5 tomes (1844-1895) ;

II, Historiens Orientaux (Arabes), 5 tomes (1872-1906) ;

III, Historiens Grecs, 2 tomes (1875-1881) ;

IV, Documents Armeniens, 2 tomes (1869-1906) ;

V, Lois, 2 tomes (1841-1843).

٢ — المخطوطات (١)

ابن أبي السرور (ت ١٠٢٨ هـ/ ١٦١٩ م) محمد بن محمد بن أبي السرور زين الدين البكري :

« النزهة الزهية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية » - دار الكتب المصرية - رقم ٢٢٦٦ تاريخ.

ابن أيبك (ت ٧٢٢ هـ/١٣٣١ م) أبو بكر بن عبدالله:

١ - « درر التيجان وغرر تواريخ الأزمان » - دار الكتب المصرية - رقم ٤٤٠٩ تاريخ .

٢ - « كنز الدرر وجامع الغرر » - ٩ ج - دار الكتب المصرية - رقم ٤٦٤٣ تاريخ .

ابن بهادر (عاش فى القرن التاسع هـ / الخامس عشر م) محمد بن محمد بن بهادر :

« فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر » - دار الكتب المصرية - رقم ٤٩٧٧ تاريخ .

(١) راعينا فى حواشى الكتاب أن نشير — فيما يتعلق بالمراجع العربية — إلى المخطوط منها بـ (ورقة) ، والمصور منها بـ (لوحة) ، والمطبوع منها بـ (صفحة) .

ابن الجزرى « محمد » (ت ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م) شمس الدين أبو الخير :

« ملخص تاريخ الاسلام » ـ مكتبة بلدية الاسكندرية ـ رقم ٢٠٧٢ ـ د.

ابن الجوزى « سبط » (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٧ م) أبو المظفر شمس الدين يوسف ابن قزاوغلى :

« مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان » ـ جـ ٨ ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ٢١٨١ تاريخ . « طبع زنكوغراف »

ابن حبيب الحلبى (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) بدر الدين أبو محمد الحسن بن عمر :

« جهينة الأخبار فى أسماء الخلفاء وملوك الأمصار » ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ١٦١٠ تاريخ .

ابن دقماق (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٧ م) صارم الدين ابراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى :

١ ـ « نزهة الأنام فى تاريخ الاسلام » ـ الموجود منه قطعتان : إحداهما تبتدىء من ٦٢٨ هـ وتنتهى إلى ٦٥٩ هـ ، والثانية تبتدىء من ٧٧٨ هـ وتنتهى إلى ٨٠٤ هـ ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ١٧٤٠ تاريخ ، تصوير شمسى » .

٢ ـ « الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين » ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ١٥٢٢ تاريخ .

ابن رسول (ت ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦ م) عباس بن على بن داود بن يوسف بن عمر :

« نزهة العيون فى تاريخ طوائف القرون » ـ مجلدان ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ٤٩٦٤ تاريخ .

ابن منكلى (ت ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦ ـ ١٣٧٧ م) محمد بن منكلى :

« كتاب الأحكام المملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال فى البحر » ـ مكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ـ رقم ٢٩٨٨ « تصوير شمسى » .

ابن واصل (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م) جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم :

« مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » - ٢ ج - مكتبة جامعة الاسكندرية - رقم ٦٤ مخطوط . « تصوير شمسى » .

أبو حامد (ت ٨٨١ هـ / ١٤٧٦ م) محمد أبو حامد :

« دول الإسلام الشريفة البهية ، وذكر ما ظهر لى من حكم الله الخفية فى جلب طائفة الأتراك إلى الديار المصرية » - دار الكتب المصرية - رقم ١٠٣٣ تاريخ .

أبو الفداء (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١م) الملك المؤيد عماد الدين :

« التبر المسبوك فى تاريخ الملوك » - دار الكتب المصرية - رقم ٨٦م تاريخ .

أبو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى :

١ - « المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » - ٣ ج - دار الكتب المصرية - رقم ٢٣٥٥ تاريخ .

٢ - « مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة » - دار الكتب المصرية - رقم ١٣٥٦ تاريخ .

باخرمة (عاش فى القرن العاشر هـ / السادس عشر م) أبو محمد بن عبد الله بن أحمد بن على :

« قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر » - ٦ ج - دار الكتب المصرية - رقم ٤٤١٠ تاريخ .

البغدادى (ت ١١٠٢ هـ / ١٦٩٠ م) أحمد بن عبد الله :

« عيون أخبار الأعيان ممن مضى من سالف العصر والأزمان » - مجلدان - دار الكتب المصرية - رقم ٣٨١٠ تاريخ . « تصوير شمسى » .

بيبرس الدوادار (ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥م) الأمير ركن الدين بيبرس المنصورى:

« زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » ـ جـ ١٠ ـ مكتبة جامعة القاهرة ـ رقم ٢٤٠٢٨ تاريخ . « تصوير شمسى » .

الذهبى (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان قايماز شمس الدين .

« تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام » ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ١٤٥٢ تاريخ .

السخاوى (ت ٩٠٢ هـ/١٤٩٧ م) شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن :

« تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات وما يتبع ذلك » ـ مكتبة بلدية الاسكندرية ـ رقم ١٤٨٦ ب .

السلامى (تاريخ الوفاة غير معروف) شهاب الدين أحمد :

« مختصر التواريخ » ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ١٤٣٥ تاريخ .

الشطيبى (ت ٩٦٣ هـ / ١٥٥٥ — ١٥٥٦ م) أبو عبد الله محمد بن على بن محمد ابن حسن :

« الجمان فى مختصر أخبار الزمان » ـ مكتبة بلدية الاسكندرية ـ رقم ١٦٢٣ ب .

الصفدى (ت ٧٦٤ هـ/١٣٦٣ م) صلاح الدين أبو الصفا خليل :

« الوافى بالوفيات » ـ ٧ ج فى ١٧ مجلدا ـ دار الكتب المصرية ـ ١٢١٩ تاريخ « تصوير شمسى » .

العصامى (١١١١ هـ/١٦٩٩ م) عبد الملك بن حسين بن عبد الملك :

« سمط النجوم العوالى فى أنباء الأوائل والتوالى » ـ جـ ٢ ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ٥٣ م تاريخ .

على دده (ت ١١٠٧ هـ/ ١٥٩٨ م) على دده بن مصطفى بن علاء الدين :

«محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر» - دار الكتب المصرية - رقم ٤٣٣٦ تاريخ.

العمرى (ت ٧٤٨ هـ/١٣٤٨ م) ابن فضل الله:

«مسالك الابصار فى ممالك الأمصار» - جـ ٢٧ فى ٤ مجلدات - دار الكتب المصرية - رقم ٥٦٠ معارف عامة «تصوير شمسى».

العينى (ت ٨٥٥ هـ/١٤٥١ م) بدر الدين:

«عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان» - ٢٣ جـ فى ٦٩ مجلدا - دار الكتب المصرية - رقم ١٥٨٤ تاريخ «تصوير شمسى».

الفيومى (ت حوالى ٧٧٠ هـ/١٣٦٨ م) أحمد بن محمد بن على:

«نثر الجمان فى تاريخ الأعيان» - المجلد الثانى - دار الكتب المصرية - رقم ١٧٤٦ تاريخ.

القرمانى (ت ١٠١٩ هـ/١٦١١ م) أبو العباس أحمد جلبى بن يوسف بن أحمد:

«أخبار الدول وآثار الأول» - دار الكتب المصرية - رقم ١٩٢١ تاريخ.

الكتبى (ت ٧٦٤ هـ/١٣٦٣ م) محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن فخر الدين:

«عيون التواريخ» - ١٦ مجلدا، يهمنا منها مجلد مكتوب عليه أنه الجزء العشرون، ويبتدىء من ٦٤٥هـ وينتهى إلى ٦٧٠هـ - دار الكتب المصرية - رقم ١٤٩٧ تاريخ «تصوير شمسى».

محمد بن على القادرى الشافعى (عاش فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر هـ/القرنان الخامس والسادس عشر م):

«المواقف الشريفة فى تحقيق معنى الخليفة» مكتبة بلدية الاسكندرية - رقم ٣٨١٦ - ج.

مرعى المقدسى (ت ١٠٣٣ هـ/١٦٢٤ م) مرعى بن يوسف بن أبى بكر بن أحمد:

« نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين » ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ٢٢٦٩ تاريخ.

مؤلف مجهول :

« كتاب فى التـــاريخ لم يعن مؤلفه » غير أنه رواه عن أبى عبد الله بن بركات بن هلال النحوى ، عن القاضى أبى عبد الله محمد بن سلامه ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ٦٢١١ ح تاريخ .

مؤلف مجهول :

« كتاب فى التاريخ لم يعلم مؤلفه » ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ٤٠٣٠ تاريخ .

النويرى الكندى (ت ٧٣٢ هـ/١٣٣٢ م) شهاب الدين أحمد :

« نهاية الأرب فى فنون الأدب » ـ ٥٥ مجلدا ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ٥٤٩ معارف عامة « تصوير شمسى » .

يوسف الملوانى (عاش فى القرن الثانى عشر هـ/ الثامن عشر م) :

« تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب » ـ مجلدان ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ٥٦٢٣ تاريخ « تصوير شمسى » .

اليونينى (ت ٧٢٦ هـ/١٣٢٦ م) موسى بن محمد أحمد قطب الدين :

« ذيل مرآة الزمان فى تاريخ الأعيـــان » ـ ج ١٥ و ١٧ ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ١٥١٦ تاريخ .

٣ — المصادر الاصلية العربية[١]

ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ/١٢٨٢م) شمس الدين أبو العباس :

(١) المقصود بالمصادر الأصلية من عربية وأجنبية تلك التى عاصرت الحملة وفيما عدا ذلك فقد قمنا بإدراجه تحت عنوان المراجع الثانوية .

١ - « وفيات الأعيان وأنبـــاء أبناء الزمان » - ٢ ج - القاهرة (بولاق) ١٢٩٩ هـ .

٢- Ibn Khallikan's Biographical Dictionary, trans. by Bn Mac Guckin de Slane. 4 vols. Paris, 1842 - 1871.

ابن مطروح (ت ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م) جمال الدين يحيى :

« ديوان ابن مطروح » — الطبعة الأولى — قسطنطينية (مطبعة الجوائب) ١٢٩٨ هـ .

ابن واصل (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م) جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم :

« مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » — نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيــــال — ٣ ج (حتى سنة ٦١٥ هـ) — القاهرة ١٩٥٣ — ١٩٦٠ م .

أبو شامة (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن عثمان:

١ - « تراجم رجال القرنين السادس والسابع» نشره السيد عزت العطار- الطبعة الأولى - القاهرة ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧ م .

٢ - « الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية» جزءان فى مجلد- القـاهرة (مطبعة وادى النيل) ١٢٨٧ - ١٢٨٨ هـ .

٣ - منتخبات من « كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين »

Cf. R.H.C. — H. Or., t. V. Paris, 1906.

٤ - « ترجمة أبى شامة منقولة من ذيل كتاب الروضتين »

Cf. R.H.C. — H. Or., t. V. Paris, 1906.

أبو الفرج الملطى (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون المعروف بابن العبرى :

١ ـ « تاريخ مختصر الدول » ـ بيروت (المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين) ١٨٩٠ م.

٢ — Gregorio Abul-Pharojio, Historia Compendiosa Dynastiarum. Arabice edita, et Latine versa ab Eduard Pocockie. Oxoniae, 1663.

بهاء الدين زهير (ت ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) أبو الفضل بهاء الدين زهير:

« ديوان بهاء الدين زهير » ـ القاهرة (إدارة الطباعة المنيرية) ١٩٢٤ م.

٤ ـ المصادر الأصلية الأوروبية

Anonymous, Poème Anglo-Normand sur la Bataille de Mansourah. Texte original, accompagné d'une traduction en Français moderne par M. Francisque Michel, "Hist et chronique du très chrétien roi St. Louis," Paris, 1881. (pp. 327-358).

Anonymous, Gesta alia S. Ludovici noni, Francorum regis, Cf. Michaud, Crois., t. VI, Paris, 1822. (pp. 202-3).

Artois, Robert d', Lettre du comte d'Artois sur la prise de Damiette. Cf. Michaud, Crois., t. IV, Paris, 1822. (pp. 610-1).

Beaulieu, Geoffroi de, Vita et sancta conversatio piae memoriae Ludovici noni, regis Francorum. Cf. Michaud, Crois., t. VI, Paris, 1822. (pp. 208-11).

Beaumont, Jean de, Lettere à Geoffroi de la Chapelle sur la prise de Damiette. Cf. Ar. Or. Lat., t. I, Paris, 1881. (pp. 389-90).

Chartres, Guillaume de, De vita et actibus inclitae recordationis regis Francorum Ludovici noni, et de miraculis quae ad ejus sanctitatis declarationem contigerunt. Cf. Michaud, Crois, t. VI, Paris, 1822. (pp. 211-2).

Eracles, L'Estoire de Eracles Empereur et la Conqueste de la Terre d'Outremer. Cf. R.H.C. — H. Occ., t. II, 2e. partie, Paris, 1859. (pp. 1–481).

Innocent IV (pape), Epistolae super profectione Ludovici noni regis in subsidium Terrae Sanctae et super ejus captione per Sarracenis. Cf. Michaud, Crois., t. VI, Paris, 1822. (pp. 203–4).

Joinville,(١) Jean Sire de,

1 — Histoire de Saint Louis. Texte original du XIVe. Siècle, accompagné d'une tranduction en Français moderne par M. Natalis de Wailly. Paris,1874.

2 — Memoirs of Louis IX. King of France (commonly called Saint Louis), tr. by Colonel Johnes of Hafod. (Chronicles of the Crusades. Bohn's ed. pp. 340–556). London, 1848.

3 — Saint Louis, King of France, tr. by James Hutton. London, 1868.

Louis IX, King of France,

1 — S. Louis nolise seize navires génois pour sa première croisade. Cf. Ar. Or. Lat., t. II, Paris, 1884. (pp. 232—6).

2 — Ludovici regis de capitione et liberatione sua epistola. Cf. Bongars, G D. F., Hanover, 1611. (t. I, pp. (1196 — 1200).

(١) اعتمدت على ثلاث طبعات من كتاب جوانفيل : الأولى طبعة N. de Wailly وهى التى نقلت عنها نصوص جوانفيل نفسها ، أما الثانية والثالثة فقد استخدمت حواشيهما فقط نظراً لأهميتها التاريخية .

3 — Lettre de St. Louis sur sa captivité et sa délivrance. Cf. Michaud, Crois., t. IV, Paris, 1822. (pp. 619 – 631).

Melun, Guy de, Lettre à B. de Carn.; sur la prise de Damiette. Cf. Michaud, Crois., t IV, Paris, 1822. (pp. 611 - 9).

Nangis, Guillaume de, Gesta Sancti Ludovici noni, Francorum regis. Cf. Michaud, Crois., t. VI, Paris, 1822. (pp. 198—202).

Paris, Matthew,

1 — Matt. Paris English History from the year 1235 to 1273, trans. from the Latin by J.A. Giles. 2 vols. London, 1852 - 3.

2 — Historia major juxta exemplar Londinense 1571 verbatim recusa. A brief survey of the work by Michaud, Crois., t. VI, Paris, 1822. (pp. 533 — 50).

Rothelin,

1 — Continuation de Guillaume de Tyr dite du manuscrit de Rothelin (1229—1261). Cf. R.H.C.-H. Occ., t. II, Paris, 1859. (pp. 489—639).

2 — Manuscrit de Rothelin. A brief survey by Michaud, Bid. des Crois., Paris, 1829. (T. I. pp. 383—8).

Saint-Pathus, Guill. de,

1 — Les miracles de Saint Louis, ed. par Percival B. Fay. Paris, 1931.

2 — Vie de Saint Louis. Cf. Michaud, Crois., t. VI, Paris, 1822. (pp. 212—3).

Sarrasin, Jean Pierre, Lettre à Nicolas Arrode, prévôt des Marchants de Paris en 1289 et 1291 sur la première croisade de Saint Louis. Cf. M.F. Michel, Hist. et

chronique du très chrétien roi St. Louis. Paris, 1881. (pp. 253—313).

٥ — المراجع الثانوية العربية والمعربة

ابن الأثير الجزرى (ت ٦٣٠ ﻫ / ١٢٢٤ م) أبو الحسن على بن أبى الكرم الملقب عز الدين :

١ - « الكامل فى التاريخ » - ١٢ ج فى ٦ مجلدات - القاهرة (بولاق) ١٢٩٠ ﻫ .

٢ - منتخبات من كتاب « الكامل فى التاريخ » منشور فى :

Cf. R.H.C.-H. Or., t. I, Paris, 1872 & t. II, 1e. partie, Paris, 1887.

٣ - « تاريخ الدولة الأتابكية ملوك الموصل » منشور فى :

Cf. R.H.C.-H. Or., t.II, 2e. partie, Paris, 1876. (pp. 5–375).

ابن الحسين (عاش فى القرن الرابع ﻫ / العاشر م) اسحق بن الحسين :

« آكام المرجان فى ذكر المدائن المشهورة بكل مكان » منشور فى :

Cf. Y. Kamal, Mon. Cart., t. III, fasc. II, 1932. (pp. 623–4).

ابن حوقل (عاش فى القرن الرابع ﻫ / العاشر م) أبو القاسم محمد بن حوقل :

« المسالك والممالك والمفاوز والمهالك » منشور فى :

Cf. Kamal, Mon. Cart., t. III, fasc. II, 1932. (pp. 647–54).

ابن خلدون (ت ٨٠٨ ﻫ / ١٤٠٦ م) عبد الرحمن محمد :

« العبر وديوان المبتدأ والخبر » - ٧ ج - القاهرة (بولاق) ١٢٨٤ ﻫ .

ابن دقماق (ت ٨٠٩ ﻫ / ١٤٠٦ م) صارم الدين ابراهيم بن محمد بن أيدمر :

« الانتصار لواسطة عقد الأمصار » - ج ٤ و ٥ فى مجلد واحد - القاهرة (بولاق) ١٣٠٩ - ١٣١٠ ﻫ .

ابن زولاق (٣٨٧ ﻫ / ٩٩٨ م) أبو محمد الحسن بن ابراهيم بن زولاق :

« فضائل مصر وأخبارها وخواصها » منشور فى :

Cf. Kamal, Mon. Cart., t. III, fasc. II, 1932. (p. 685).

ابن الساعى البغدادى (ت ٦٧٤ هـ/ ١٢٧٥ م) تاج الدين على بن انجب :

« مختصر أخبار الخلفاء » ويعرف بتاريخ ابن الساعى — الطبعة الأولى — القاهرة (بولاق) ١٣٠٩ هـ.

ابن الشحنة (ت ٨٩٠ هـ/ ١٤٨٥ م) أبو الفضل محمد :

« الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب » — بيروت (مطبعة الآباء اليسوعيين) ١٩٠٩ م.

ابن شداد (ت ٦٣٢ هـ/ ١٢٣٨ م) أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم :

« سيرة صلاح الدين الأيوبى ، المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » — مصر (مطبعة الآداب والمؤيد) ١٣١٧ هـ.

ابن الطقطقى (ت بعد ٧٠١ هـ/ ١٣٠١ م) فخر الدين محمد بن على بن طباطبا :

« الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية » — القاهرة (مطبعة الموسوعات) ١٣١٧ هـ.

ابن العديم (ت ٦٦٠ هـ/ ١٢٦٢ م) كمال الدين أبو القاسم عمر بن احمد بن هبة الله :

« منتخبات من تاريخ حلب » منشور فى :

Cf. R.H.C.-H. Or., t. III, Paris, 1884. (pp. 571-690).

ابن العماد (ت ١٠٨٩ هـ/ ١٦٧٩ م) ابو الفلاح عبد الحى بن على بن محمد :

« شذرات الذهب فى أخبار من ذهب » — ٨ ج — القاهرة ١٣٥٠ — ١٣٥١ هـ.

ابن القلانسى (ت ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م) أبو يعلى حمزة بن أسد بن على بن محمد :

« ذيل تاريخ دمشق » - بيروت (مطبعة الآباء اليسوعيين) ١٩٠٨ م .

ابن كثير القرشى (ت ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٣ م) عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر :

« البداية والنهاية فى التاريخ » - ١٤ ج - مصر (مطبعة السعادة) ١٣٥١-١٣٥٨ هـ .

ابن مماتى (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) أبو المكارم أسعد بن الخطير :

« كتاب قوانين الدواوين » جمعـــه ونشره وعلق عليه الدكتور عزيز سوريال عطيه - القاهرة ١٩٤٣ م .

ابن منظور (ت ٧١١ هـ / ١٣١١ م) جمال الدين أبو الفضل محمد :

« لسان العرب » ٢٠ ج فى ١٠ مجلدات - الطبعة الأولى - القاهرة (بولاق) ١٢٩٩ - ١٣٠٨ هـ .

ابن الوردى (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م) أبو حفص زين الدين عمر :

« تتمة المختصر فى أخبـــار البشر » ٢ ج - القاهرة (المطبعة الوهبية) ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م .

أبو الفداء (ت ٧٢٢ هـ / ١٢٣١ م) عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن على :

١ - « المختصر فى أخبار البشر » ويعرف بتاريخ أبى الفداء - ٤ ج - استانة (دار الطباعة الشاهانية) ١٢٨٦ هـ .

٢ - « منتخبـات من المختصر فى أخبـــار البشر »

Cf. R.H.C.- H. Or., t. I, Paris, 1872.

٣ — Géographie d'Abulféda, traduite de l'Arabe en Français et accompagnée de notes et d'éclaircissements. 2 tomes en 3 vols. Paris, 1848–1883.

٤ — Abulfeda, Descriptio Aegypti, Arabice et Latine; edidit, Ioannes David Michaelis. Goettingae, 1776.

أبو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى :

« النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » - ١٢ جـ - القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٣٤٨ - ١٣٦١ هـ / ١٩٢٩ - ١٩٥٦ م .

أبو اليمن العليمى (ت ٩٢٧ هـ / ١٥٢١ م) أبو اليمن عبد الرحمن بن محمد بن مجير الدين :

« الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » - ٢ جـ - القاهرة (المطبعة الوهبية) ١٢٨٣ هـ.

الإدريسى (ت ٥٦٠ هـ / ١١٦٦ م) أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس :

١ - « صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » مأخوذة من نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق - نشر هذا القسم وقدم له وترجمه إلى الفرنسية دوزى ودى غويه . ليدن (مطبعة بريل) ١٨٨٦ م .

٢ - « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » .

Cf. Y. Kamal, Mon. Cart. t. III, fasc. IV, 1934. (pp. 827-45).

الأربلى[1] (تاريخ الوفاة غير معروف) عبد الرحمن سنبط قنيتو الأربلى :

« خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك » - بيروت (مطبعة مار جرجس) ١٨٨٥ .

الإسحاقى (عاش فى القرن الحادى عشر هـ / السابع عشر م) محمد بن عبد المعطى بن ابى الفتح بن احمد :

---

(١) لم نعثر على ترجمة هذا المؤلف ، ويرجح أنه جمع تاريخه من أخبار الخلفاء لابن الساعى المتوفى سنة ٦٧٤ هـ. أنظر سركيس : معجم المطبوعات جـ ٦ ص ١٠٥٥ .

« لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول» ويعرف بتاريخ الإسحاقى - القاهرة (المطبعة الميمنية) ١٣١٠ هـ .

الاصطخرى (عاش فى القرن الرابع هـ/ القرن العاشر م) أبو اسحق ابراهيم ابن محمد:

« مسالك الممالك » Cf. Y. Kamal, Mon. Cartographica, t. III, fasc. II, 1932. (pp. 584–6).

البستانى (ت١٨٨٧ م) بطرس بن بولس بن عبد الله بن كرم:

« محيط المحيط » - ٢ ج - بيروت ١٨٧٠م/١٢٨٦ هـ .

جمال الدين الشيال (الدكتور) :

« مجمل تاريخ دمياط سياسيا واقتصاديا » - الاسكندرية (مطبعة مدرسة دون بوسكو) ١٩٤٩ م .

جوانفيل (جان دى)

القديس لويس : حياته وحملاته على مصر والشام - ترجمة وتعليق الدكتور حسن حبشى - القاهرة (دار المعارف بمصر) ١٩٦٨ .

جوزيف نسيم يوسف (الدكتور) :

١ - لويس التاسع فى الشرق الأوسط « قضية فلسطين فى عصر الحروب الصليبية » القاهرة (مؤسسة المطبوعات الحديثة) ١٩٥٩ .

٢ - العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى - ط . ثانية - الاسكندرية (دار المعارف بمصر) ١٩٦٧ .

٣ - الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبى - الاسكندرية (دار المعارف بمصر) ١٩٦٧ .

حاجى خليفة (ت ١٠٦٧ هـ/١٦٥٦ م) مصطفى بن عبد الله كاتب جلبى:

« كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون » - ٢ ج - اسطنبول (مطبعة المعارف) ١٩٤١-١٩٤٣م/١٣٦٠-١٣٦٢ هـ.

حسن حبشى (الدكتور) :

« الشرق العربى بين شقى الرحى » - حملة القديس لويس على مصر والشام - القاهرة (مطبعة الاعتماد) ١٩٤٩ م.

الدياربكرى (ت ٩٩٠ هـ/١٥٨٢ م) حسين بن محمد بن الحسن:

« الخميس فى أحوال أنفس نفيس » - ٢ ج - القاهرة (المطبعة العثمانية) ١٣٠٢ هـ.

الذهبى (ت ٧٤٨ هـ/١٣٤٨ م) أبو عبد الله محمد بن احمد بن عثمان قايماز شمس الدين :

« دول الاسلام » - ٢ ج - الهند (مطبعة دائرة المعارف النظامية الكائنة بمدينة حيدر آباد الدكن) ١٣٣٧ هـ.

السبكى (ت ٧٧١ هـ/١٣٧٠ م) تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب بن أبى الحسن:

« طبقات الشافعية الكبرى » - ٦ ج - القاهرة (الحسينية) ١٣٢٤ هـ.

السويدى (ت ١٢٤٦ هـ/١٨٣٠ م) أبو النور محمد أمين البغدادى :

« سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب » - بغداد (دار الطباعة) ١٢٨٠ هـ.

السيوطى (ت ٩١١ هـ/١٥٠٥ م) أبو الفضل عبد الرحمن بن الكمال أبى بكر جلال الدين السيوطى :

١ - « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » - ٢ ج - القاهرة ١٣٢٧ هـ.

٢ - « تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين » - القاهرة (المطبعة اليمنية)

١٣٠٥ هـ .

٣ ـ « كتاب بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة » ـ القاهرة (مطبعة السعادة) ١٣٢٦ هـ .

٤ ـ « لب اللباب فى تحرير الأنساب » ـ قام على نشره وعلق عليه بطرس يوحنا فييت Petrus Johannes Veth ـ ليدن (مطبعة بريل) ١٨٥١ م .

الشرقاوى (ت ١٢٢٧هـ/١٨١٢ م) عبد الله بن حجازى بن ابراهيم :

« تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين » ـ طبع بهامش لطائف أخبار الأول للإسحاقى ـ مصر (الميمنية) ١٣١٠ هـ .

الصفدى (ت ٧٦٤ هـ/١٣٦٣ م) صلاح الدين أبو الصفا خليل بن عز الدين ايبك ابن عبد الله :

« نكت الهميان فى نكت العميان » ـ مصر (المطبعة الجمالية) ١٣٢٩هـ/ ١٩١١ م .

عبد الفتاح عبادة (ت ١٩٢٨ م) :

« سفن الاسطول الاسلامى وأنواعها ومعداتها فى الاسلام » ـ القاهرة (مطبعة الهلال بالفجالة) ١٩١٣ م .

على ابراهيم حسن (الدكتور) :

« مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى » ـ القاهرة (مطبعة الاعتماد) ١٩٤٧ م.

على مبارك (ت ١٣١١ هـ/١٨٩٣م) على مبارك بن سليمان بن ابراهيم الرومى:

« الخطط التوفيقية الجديدة » وتعرف بخطط على مبارك ـ ٢٠ ج فى ٤ مجلدات ـ القاهرة (بولاق) ١٣٠٤ - ١٣٠٦ هـ .

عماد الدين الأصبهانى (ت ٥٩٧ هـ/١٢٠١ م) أبو عبد الله محمد بن صفى الدين:
« الفتح القسى فى الفتح القدسى » ـ القاهرة (مطبعة الموسوعات) ١٣٢١ هـ.
عمر طوسون :
« كتاب مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن » ـ الاسكندرية (مطبعة صلاح الدين الكبرى) ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م.
العمرى (ت ٧٤٨ هـ/١٣٤٨ م) ابن فضل الله :
« رسالة تشتمل على كلام إجمالى فى أمر مشاهير ممالك الفرنج عباد الصليب فى البر دون البحر » ومعها ترجمة باللغة الايطالية لميخائيل امارى . روما ١٨٨٣ م.
العينى (ت ٨٥٥ هـ/١٤٥١ م) بدر الدين أبو محمد محمود بن احمد:
« منتخبـــات من عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » أنظر :
R.H.C.-H. Or., t. II, 1e. partie, Paris, 1887.
القزوينى (ت ٦٨٢ هـ/١٢٨٣ م) جمال الدين أبو يحيى الأنصارى:
« آثار البلاد وأخبار العباد » ـ نسخة لها مقدمة باللغة الألمانية للاستاذ فستنفلد غوتا ـ جوتنجن ١٨٤٨ م.
القلقشندى (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) احمد بن على بن احمد عبد الله :
« صبح الأعشى فى صناعة الانشا » ـ ١٤ جـ القاهرة ١٩١٣ - ١٩٢٠ م/ ١٣٣١ - ١٣٣٨ هـ.
الكتبى (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) محمد بن شاكر أحمد بن عبد الرحمن :
« فوات الوفيات » ـ ٢ جـ ـ القاهرة (بولاق) ١٢٩٩ هـ.
كولتون (ج. ج.): عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ـ ترجمة وتعليق الدكتور جوزيف نسيم يوسف ـ ط . ثانية ـ الاسكندرية (دار المعارف بمصر) ١٩٦٧ .

لويس شيخو اليسوعى (الأب) :
«نبذة فى ترجمة وتآليف العلامة غريغوريوس أبى الفرج بن أهرون الطبيب الملطى المعروف بابن العبرى» - بيروت (مطبعة الآباء اليسوعيين) ١٨٩٨م.
محمد رفعت :
«التيارات السياسية فى حوض البحر الأبيض المتوسط» - القاهرة (لجنة البيان العربى) ١٩٤٩ م .
محمد رمزى :
«استدراك على كتاب المسيو أميلينو الخاص بجغرافية مصر فى عهد القبط» - القاهرة ١٩٣٥ م .
محمد عبد الله عنان :
«الملكة شجرة الدر» - الكاتب المصرى - أعداد ٧ إلى ٩ ، ابريل - يونيه ١٩٤٦ م .
محمد مختار :
«كتاب التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية» - القاهرة (بولاق) ١٣١١ هـ .
المقريزى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) تقى الدين أبو العباس أحمد بن على :
١ - «المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار» - ٢ ج - القاهرة (بولاق) ١٢٧٠ هـ .
٢ - «السلوك لمعرفة دول الملوك» الجزءان الأول والثانى إلى سنة ٧٤١هـ - نشره وعلق عليه الدكتور محمد مصطفى زيادة - القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٩٣٤ - ١٩٤٢ م .
٣ - «البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب» - مصر (مطبعة

المعارف) ١٢٣٤ هـ / ١٩١٦ م .

٤ ـ « النقود القديمة والاسلامية » أو « نبذه العقود فى أمور النقود » ـ طبعت ضمن مجموعة « ثلاثة رسائل » ـ قسطنطينية (مطبعة الجوائب) ١٢٩٨ هـ .

٥ ـ « القول الإبريزى للعلامة المقريزى » ـ جمعه مينا اسكندر ، ودون فيه ما يختص بالأمة القبطية مما كتبه عنها تقى الدين المقريزى فى خططه ـ القاهرة (مطبعة التوفيق بالفجالة) ١٨٩٨ م.

٦ — Blochet, E. (tr.), Hist. d'Égypte de Makrizi, trad. de l'arabe et accom agnée de notes historiques et géogra hiques. Paris, 1908.

٧ — Quatrèmere, M. (tr.), Histoire des Sultans Mamlouks de l'Égypte, écrite en Arabe par Taki-Eddin-Ahmad-Makrizi. 2 vols. Paris, 1845.

مكسيموس مونروند :

« تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق المدعوة حرب الصليب » ـ نقله من الفرنسية إلى العربية مكسيموس مظلوم ـ ٢ جـ فى مجلد واحد ـ أورشليم ١٨٦٥ م .

المهلبى (عاش فى القرن الرابع هـ / القرن العاشر م) أبو الحسن المهلبى :

« كتاب المسالك والممالك » ويعرف بالكتاب العزيزى . أنظر :

Y. Kamal, Mon. Cart., t. III, fasc. II, 1932. (pp. 683–4).

ميخائيل عواد:

« المآصر فى بلاد الروم والاسلام » ـ بغداد (مطبعة المعارف) ١٩٤٨م.

اليافعى اليمنى (ت ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ - ١٣٦٧ م) أبو محمد عبد الله بن أسعد بن على:

« مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان » ـ ٤ جـ ـ الهند (مطبعة دائرة المعارف النظامية) ١٣٣٧ هـ .

ياقوت الرومى الحموى (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الملقب شهاب الدين :

« معجم البلدان » ـ ١٠ جـ ـ القاهرة (مطبعة السعادة) ١٣٢٣-١٣٢٥ هـ .

يعقوب نخله روفيله :

« تاريخ الأمة القبطية » ـ القاهرة (مطبعة التوفيق) ١٣١٧ هـ / ١٨٩٩ م .

اليعقوبى (ت ٢٨٤ هـ/٨٩٧ م) أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح :

« كتاب البلدان » أنظر :

Y. Kamal, Mon. Cart., t. III, fasc. I, 1930. (pp. 540–2).

يوسف أشباخ :

« تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين » ـ ترجمه ووضع حواشيه الاستاذ محمد عبد الله عنان ـ ٢ جـ ـ القاهرة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٣٥٩ - ١٣٦٠ هـ / ١٩٤٠ - ١٩٤١ م .

يوسف اليان سركيس :

« معجم المطبوعات العربية والمعربة » ـ ١١ جـ ـ القاهرة (مطبعة سركيس) ١٣٤٦ - ١٣٤٩ هـ .

٦ – المراجع الثانوية الأوروبية

Albert d'Aix, Alberti Aquensis historia Ihierosolymitana. Cf. R. H. C.-H. Occ., t. IV, Paris, 1879. (pp. 265-713).

Andrees, Handatlas. Bielefeld und Leipzig, 1937.

Anville, Mons. d', A complete body of ancient geography. London, 1812.

Archer, T.A. & Kingsford, C.L., The Crusades : The Story of the Latin Kingdom of Jerusalem. 5th impression. London, 1919.

Atiya, A. S.,

1— The Crusade of Nicopolis. London, 1934.

2— The Crusade in the Later Middle Ages. London, 1938.

Balzani, U., Early Chroniclers of Europe. Italy. London, 1838.

Baynes, Norman H., The Byzantine Empire. London, 1939. (The Home University Library).

Bell, M. I.M., A Short History of the Papacy. London, 1921.

Bertrand, L. & Petrie, C., The History of Spain, tr. Warre B. Wells. London, 1934.

Biographie Universelle, ancienne et moderne. 52 vols. Paris, 1811-28.

Bordeaux, H., Un précurseur. Vie, mort et survie de Saint Louis, Roi de France. Paris, 1949.

Bray, The Good St. Louis and His Times. London, 1870.

Bréhier, L., L'Église et l'Orient au Moyen Age. Les Croisades. 6me. éd. Paris, 1928.

Brockelmann, C., Geschichte der Arabischen Litteratur. 5 vols. Leiden, 1937-1948.

Butcher, E. L., The Story of the Church of Egypt. 2 vols. London, 1897.

Cahen, C., Un traité d'armurerie composé pour Saladin, Extr. du Bulletin d'Études Orientales, t. XII, 1947-1948.

Calmette, J., Le Monde Féodal. Paris, 1937.

Calthrop, M.M.C., The Crusades. London (N.D.).

Campbell, G.A., The Crusades. London, 1935.

Casanova, P., Les Derniers Fâtimides. Cf. Mémoires de la Mission Archéologique Français du Caire, t. VI, 3e fasc. Paris, 1893. (pp. 415 445).

Chalandon, F., Histoire de la Première Croisade jusqu'à l'election de Gedefroi de Bouillon. Paris, 1925.

Combe, Et., Sauvaget, J. & Wiet, G. (pub.), Répertoire Chronologique d'Épigraphie Arabe. 14 vols. Le Caire, 1931-43.

Commena, Anna, The Alexiad of the Princess Anna Comnena, being the history of the reign of her father, Alexius I., Emperor of the Romans, 1081—1118 A. D. tr. by Elizabeth A. S. Dawes. London, 1928.

Conder, C.R.,

1— The Latin Kingdom of Jerusalem, 1099 to 1291 A.D. London, 1897.

2— The City of Jerusalem. London, 1909.

Coulton, G.G., The Inquisition London, 1929.

Daru, P., Histoire de la république de Venice. T I. Bruxelles, 1840.

Davis, E.J, The invasion of Egypt in A. D 1249 (A.H. 647) by Louis IX of France (St. Louis), and a history of the contemporary sultans of Egypt. London, 1897.

Davis, H. H. C.,

1— England under the Normans and Angevins, 1066-1272. 9th. ed. London, 1928.

2— Medieval Europe. London, 1941. (The Home University Library).

Delaville Le Roulx, J., Les Hospitaliers en Terre Sainte et a Chypre (1100-1310). Paris, 1904.

Dozy, Supplément aux Dictionnaires Arabes. 2 vols. Leiden, 1881.

Droysens, G., Allgemeiner historischen handatlas. Bielefeld und Leipzig, 1886.

Dubeux, M. & Valmont, M.V., Tartarie, Béloutchistan, Boutan et Népal. Paris, 1848.

Dussaud, R., Topographie historique de la Syrie Antique et Médiévale. Paris, 1927.

Edwards, O. M., Wales. London, 1901. (The Story of the Nations).

Encyclopaedia (The) Britannica. 13th. ed. 32 vols. London, 1926.

Encylopaedia (The) of Islam. 4 vols. Leyden, 1913-1934.

Funck-Brentano, F., Les Croisades. Paris, Flammarion, 1934.

Gesta Crucigerorum Rhenanorum, "Les exploits de Croisés Rhénans", écrits entre 1217 et 1219. Cf. Y. Kamal, Mon. Cart., t. III, fasc. IV. (p. 938).

Gibbon, E., The Crusades. London, 1870.

Grégoire le Prêtre, Chronique. Cf. R.H.C.-Doc. Arm., t. I. Paris, 1869. (pp. 151-201).

Grousset, R.,

1— Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem. 3 vols. Paris, 1934-1936.

2— L'Épopée des Croisades. Paris, 1947.

Guillaume de Tyr,

1— Willermi Tyrensis Archiepiscopi, Historia rerum in partibus transmarinis gestarum. Cf. R.H.C.—H. Occ., t. I, Paris. 1844. (pp. 1—1134).

2— Historia rerum. Cf. Y. Kamal, Mon. Cart., t. III, fasc. IV. (pp. 897—900).

Guizot, M., Saint Louis and Calvin. London, 1869. (Great Christians of France).

Haig, LT.—Colonel Sir Wolseley, Comparative Tables of Muhammadan and Christian Dates. London. 1932.

Hardwick, C., A History of the Christian Church, Middle Age. 2nd. ed. London, 1861.

Hassall, A., France, mediaeval and modern. Oxford, 1918.

Hastings, J. (ed.), Encyclopaedia of Religion and Ethics. 12 vols. & Index vol. Edinburgh, 1925—1940.

Hénaut, P. de, Manuel d'histoire de l'Égypte de Menés à Abbas II Hilmi, 2e. éd. Alexandria, 1911.

Heyd, W., Histoire du commerce du Levant au moyen-âge. Ed. Française refondue et considérablement augmentée par l'auteur. 2 vols. Leipzig, 1885.

Huart, C., Histoire des Arabes. 2 tomes. Paris, 1912—1913.

Iorga, N., Brève Histoire des Croisades et de leurs fondations en Terre Sainte. Paris, 1924.

Jacques de Vitry, Siège de Damiette 1218 de J. C — Lettres au Pape Honorius III, 1216 à 1227. Cf. Y. Kamal, Mon. Cart., t. III, fasc. IV. (pp. 936, 944).

Jullien, P., Note sur l'emplacement de l'ancienne Damiette. Le Caire, 1887. (Bulletin de l'Institut Égyptien. 2me. Série. No. 7. Année 1886. pp. 72-7).

King, E.J., The Knights Hospitallers in the Holy Land. London, 1931.

Kitchin, G.W., A History of France. Vol. I (B.C. 58-A.D. 1453). 4th. ed. revised. Oxford, 1899.

Knox, W. F., The Court of a Saint. London, 1909.

Lacroix, P.,

1— Vie militaire et religieuse au moyen age et a l'époque de la Renaissance. 2me éd. Paris, 1873.

2— La Chevalerie et les Croisades. Féodalité-Blason-Ordres Militaires. Paris, 1887.

Lamartine, de, Voyage en Orient. 2 vols. Paris, 1875.

Lamb, H., The Crusades: The Flame of Islam. London, 1931.

Lane-Poole, St.,

1— A History of Egypt in the Middle Ages. 5th. ed. London, 1936.

2— The Story of Cairo. London, 1924.

3— The Mohammadan Dynasties, chronological and genealogical tables with historical instructions. Paris, 1925.

4— Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem. London, 1898. (Heroes of the Nations).

Lavisse, E., Histoire de France depuis les origines jusqu'à la revolution. 9 vols.- Tome III, II, par Ch.-V. Langlois. Paris, 1911.

Lavisse, E. & Rambaud, A., Histoire générale du IVe siécle a nos jours. 2 vols.-vol. II : L'Europe féodale. Les Croisades 1095-1270. Paris, 1893.

Le Bas, M. Ph., Annales historiques de France. Tome I, Paris, 1840.

Lewis, C.T., A History of Germany from the Earliest times. New York, 1880.

Ludlow, J. M., The Age of the Crusades. Edinburgh, 1897. (Eras of the Christian Church).

Mahler, E., Wüstenfeld-Mahler'sche Vergleichungs-Tabellen der mohammedanischen und christlichen Zeitrechnung. Leipzig, 1926.

Maillet, de, Description de l'Égypte. 2 tomes en 1 vol. Le Haye, 1740.

Maimbourg, P., Histoire universelle des Croisades d'après les principaux historiens. Paris, 1868.

Marcel, M. J., Égypte depuis la conquête des arabes jusqu'à la domination Française. Paris, 1877.

Maspero, J. & Wiet, G., Matériaux pour servir à la Géographie de l'Égypte. 2 fascules (Mémoires publiés par les Membres de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire. T. XXXVI, Le Caire, 1914-1919).

Masson, G., Mediaeval France, from the reign of Hugues Capet to the beginning of the sixteenth century. London, 1888.

Mathews, S., Select mediaeval documents and other material illustrating the history of Church and Empire. 2nd ed. New York, 1900.

Matthieu d'Édesse, Extraits de la Chronique de Matt. d'Édesse. Cf. R.H.C.-Doc. Arm., t. I. Paris, 1869. (pp. 1-150).

Maycock, A.L., The Papacy. London, 1928. (Benn's Sixpenny Library).

Mckilliam, A.E., A chronicle of the popes from St. Peter to Pius X. London, 1912.

Michel le Syrien, Extrait de la chronique de Michel le Syrien. Cf.

R.H.C.-Doc. Arm., t. I. Paris, 1869. (pp. 311-407).

Michelet, M., The History of France, tr. by Walter K. Kelly. 2 vols. London, 1844-1846.

Miller, W., Mediaeval Rome from Hildebrand to Clement VIII (1073-1600). London, 1901. (The Story of the Nations).

Moeller, W., History of the Christian Church in the Middle Ages, trans. from the German by Andrew Rutherfurd. London, 1910.

Mohammed Ramzi, Rectifications à l'ouvrage d'É. Amélineau "Géographie de l'Égypte à l'époque Copte". Le Caire, 1935. (Extrait des Mémoire de l'Institut Francais. T. LXVIII, Mélanges Maspero, Vol. III.).

Molinier, A., Les sources de l'histoire de France depuis les origines jusqu'en 1815 - Vol. III : Les Capétiens, 1180 - 1328. Paris, 1903.

Oman, C., A History of the Art of War in the Middle Ages. 2 vols. 2nd. ed. revised and enlarged. London, 1924.

Omar Tousson, Mémoire sur l'histoire du Nil. 3 tomes. Le Caire, 1925.

O'Neill, E., England in the Middle Ages. London, (N.D.)

Osborn, E., The Middle Ages. London, (N.D.) (Hodder and Stoughton's People's Library).

Paetow, L.J., A Guide to the Study of Medieval History. London, 1931.

Paris, G., Mediaeval French Literature, trans. from the French by Hannah Lynch. London, 1903.

Perry, F., Saint Louis (Louis IX of France) the Most Christian King. New York, London, 1901.

Petit-Dutaillis, Ch., La Monarchie Féodale en France et en Angleterre (Xe-XIIIe siècle). Paris, 1933.

Pirenne, J., Les Grands Courants de l'Histoire Universelle. Tome II, : de l'expansion Musulmane aux traités de Westphalie. (3me ed.) Neuchatel, 1947.

Pococke, R., Voyage en Orient, dans l'Égypte, l'Arabie, la Palestine, la Syrie, la Grèce, la Thrace, etc., trad. de l'anglais sur la 2e. ed. par un Société de gens de lettres. 7 vols. Paris, 1772-1773.

Previté-Orton, C. W., A History of Europe from 1198 to 1378. London, 1937. (Methuen's History of Medieval and Modern Europe).

Previté-Orton, C. W. & Brooke, Z.N. (eds.), The Cambridge Medieval History, planned by J. B. Bury. Volume of Maps. Cambridge, 1936.

Reinaud, M., Extraits des historiens arabes relatifs aus guerres des croisades (pp. 448-476). Paris, 1829.

Mouhamed Réshad, Note sur la prison de Louis IX à Mansourah. Traduit et présenté à l'Institut Égyptien par Yacoub Artin Pacha. Le Caire, 1887. (Bulletin de l'Institut Égyptien. 2me. Série - No. 7. Année 1886 (pp. 78-89).

Riant, P., Inventaire critique des lettres historiques des Croisades. Cf. Ar. Or. Lat., t. I., pp. 1-224. Paris, 1881.

Robert le Moin, Roberti Monachi historia Iherosolimitana. Cf. R.H.C.- H. Occ., t. III, pp. 716 – 859. Paris, 1866.

Röhricht, R., Geschichte des Königreichs Jerusalem (1100—1291). Innsbruck, 1898.

Runciman, S., Byzantine Civilisation. London, 1936.

Saint - Martin, M. V. de, Atlas dressé pour l'histoire de la

géographie et des découvertes géographiques depuis les temps les plus reculés jusqu'a nos jours. Paris, 1874.

Savary, M., Letters on Egypt, trans. into English from the French of M. Savary. 2 vols. 2nd. ed. London, 1787.

Schefer, C., Études sur la Devise Des Chemins De Babiloine, Mémoire envoyé en Europe vers 1289–1290 par les Hospitaliers. Cf. Ar. Or. Lat., t. II. pp. 89–101. Paris, 1884.

Schlumberger, G., Campagnes du Roi Amaury Ier. de Jérusalem en Égypte, au XIIe. siécle. Paris, 1906.

Sedillot, L.A., Histoire générale des Arabes, 2e. éd. T. I. Paris, 1877.

Shaw, T., Travels or observations, relating to several parts of Barbary and the Levant, 3rd. ed. vol. II., Edinburgh, 1808.

Stevenson, W.B., The Crusaders in the East. Cambridge, 1907.

Stubbs, W.,

1— Germany in the Early Middle Ages, 476 –1250, ed. by Arthur Hassall. London, 1908.

2— Germany in the Later Middle Ages, 1200—1500, ed. by Arthur Hassall. London, 1908.

Sykes, N., The History of England. London (N.D.) (The Modern Pictorial Library).

Tenison, E.M., Chivalry and the Wounded. The Hospitallers of St. John of Jérusalem (1014—1914). London, 1914.

Tilley, A., Medieval France. Cambridge, 1922.

Tout, T.F.,

1— The History of England from the Accession of Henry III. to the Death of Edward III (1216 — 1377). London, 1905 (The Political History of England in

12 vols. vol. III).

2— The Empire and the Papacy, European history, 918 – 1273. London, 1909.

Turberville, A.S., Mediaeval Heresy and the Inquisition. London, 1920.

Vartan le Grand, Extrait de l'histoire universelle de Vartan le Grand. Cf. R.H.C.—Doc. Arm., t.I, pp. 431—443. Paris, 1869.

Vaujany, H. de, Histoire de l'Égypte depuis les temps les plus reculés jusqu'a nos jours. Le Caire, 1881.

Walsh, La Vicomte, Saint Louis et son siècle, nouvelle éd. Tours, 1876.

Watson, C.M., The Story of Jérusalem, illustrated by Geneviève Watson. London, 1929 (Mediaeval Towns).

Wiegler, P., The Infidel Emperor and His Struggles against the Pope. A Chronicle of the 13th. century by P. Wiegler, trans. by Brian W. Downs. London, 1930.

Wiet, G.,

1— T. IV de l'histoire de la Nation Égyptienne : l'Égypte Arabe de la conquête Arabe a la conquête Ottoman. Paris, 1937.

2— Précis de l'histoire de l'Égypte, T.II (pp. 169—285). Le Caire, 1932.

Williams, H. S. (ed.), The Historians' History of the World. 25 vols. London, 1908.

Woodhouse, F. C., The Military Religious Orders of the Middle Ages : The Hospitallers, The Templars, The Teutonic Knights, and others. London, 1879. (The Home Library).

Youssouf Kamal, Monumenta Cartographica Africae et Aegypti. T. III-Epoque Arabe. 5 fascicules (1930—5).

Zambaur, E. de, Manuel de généalogie et de chronologie pour l'histoire de l'Islam. 2 vols. Hanover, 1927.



فهرس عام

(ت)

(ز)

(س)

محتويات الكتاب